الحيّ الإنجليزي

رواية

حماد عليوة

الكتاب : الحيّ الإنجليزي

المؤلف : حماد عليوة

النوع : رواية

الطبعة : الأولى / القاهرة ٢٠١٨

عدد الصفحات : ٤٦٠ صفحة

المقاس : ١٤ × ٢٠

تدمك : رواية

تصميم الغلاف والإخراج الداخلى : مؤسسة صرح

فكر يصنع حضارة | صرح للنشر والتوزيع

المدير العام : عبود مصطفى عبود

البريد الإلكترونى : aboudmoustafa22 @gmail.com

تليفون : ٠٠٢٠١٠٢٧٨٧٩٣٥٢ - ٠١١٥ ٩٦٩ ٢٧٤٧ - ٠١١٢٣٢٤٠٦٥٠

رقم الإيداع : ٢١٢٧١ / ٢٠١٧

الترقيم الدولي : ٦ - ٠٣٧ - ٧٢٤ - ٩٧٧ - ٩٧٨

ديـــــوي : ٨١٣

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية او بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشـــر

إهداء

إلي صديقي الكاتب والناشر الأستاذ عبود مصطفى عبود الذي تحمس لي منذ البداية.

شكر وتقدير لبعض أبطال الرواية الذين سمحوا لي أن أكتب عنهم .

القارئ العزيز:

الأن الحي الإنجليزي بين يدك، أتمنى أن تستمتع بها.

الجزء الأول

كان شهر نوفمبر من عام ١٩٨٠ يُنذر بقدوم شتاء قارس؛ حيث تلبدت السماء بالغيوم، وتوارت الشمس خلفها تُرسل خيوطًا دافئةً عبر الأشجار، وهبط الليل ثقيلاً؛ فغسل الحي بالظلام المخيف الذي يتخلله فقط صوت الضفادع، وحفيف الأشجار العالية. كانت الفيلات الضخمة تكاد تكون خاوية، والشوارع خالية تمامًا من المارة والسيارات. وفي وسط كل هذا الهدوء المطبق على الحي، قد تلاحظ الفيلا الوحيدة المضاءة حديقتها؛ حيث يبدو من خلال سور الحديقة الخوص أُناس يرقصون على معزوفة من العصر الفيكتوري **Victorian Era** ، كانت المعزوفة هادئة جدًّا، ومنعشة جدًّا.. وثمَّة أُناس آخرون يتحركون داخلها في ملابس سواريه، يتقارعون الكؤوس، ويتبادلون الأحاديث في جو مشحون بالسعادة؛ فقد لبى الجميع دعوة مدام «سِريا» لحضور افتتاح «رابطة المغتربين الأجانب»، وقال البعض في سعادة: «أصبح لدينا نادٍ مُسلٍّ».

مدام «سِريا هوارد مورس» امرأة تقول عن نفسها: «أنا عشت مرتين؛ مرة حتى عام ١٩٥٨ منذ مولدي، ومرة منذ عام ١٩٨٠ حتى عام ١٩٩١». تقول دائمًا: «يسألوني عن سر سعادتي عندما حضرت إلى القاهر ة في المرة الثانية، ولكن عجزت عن أقول لهم إنني كنت في تعداد الموتى وبُعثت للحياة من جديد!

كانت أمي تغني وترقص في شوارع الحي الإنجليزي، وكانت تحب الأوبرا، وأيضًا والدي عالم الآثار؛ تلك ثلاثة أشياء مهمة في حياة أمي. عندما وُلدت قالت لي إنني لم أكف عن البكاء. فقلت لها: لماذا.. هل كنت أتألم؟ نظرت لي نظرة طويلة وقالت: لا،لم تكوني تتألمين.

والحقيقـة أننـي أعجـز كأي إنسـان عـن تذكُّـر حالتـي في تلـك السـاعة، ولكـن قلـت لهـا: لم أشـعر بـأي شيء.. وأعتقـد عنـد المـوت لـن أشـعر بشيء أيضًـا. هـزت رأسـها وقالـت لي: روحـي عالقـة في هـذا المـكان. وكانت أمي لا تتوقـف عـن العـزف عـلى البيانـو.. إنهـا رائعـة. وبعـد أن رحلنـا، مـات أبي.. وهـو بـين يـدي نظـر لي وقـال: حتـى الآن لم أكتشـف سر التحنيـط. ثم راح في نـومٍ عميـق، لم يتـألم ولم يـصرخ، فقـط جحظـت عينـاه. ولمـا جلسـت أمـي تعـزفُ مقطوعـة ضـوء القمـر لـ»فـان بيتهوفـن»، توقـف العـزف فجـأة؛ فأدركـت أنهـا ماتـت أيضًـا.. لـذا أنـا سـعيدة بالعـودة إلى الحيـاة».

جـاءت مـدام «سِريـا» في المـرة الثانيـة بصحبـة زوجهـا خبـير النفـط السـيد «تـوم نيكسـون» مبعـوث شركـة «ستيمشـب كومبـاني» لشركـة الحفر المصريـة عـام ١٩٨٠، لم تصـدق حـين أنبأهـا «تـوم» بالخـبر؛ يقـول عنهـا: «قفـزت في الهـواء وكأنهـا طفلة تمـارس لعبة كـرة السـلة، وعانقتنـي بحرارة، وأزعـم أنهـا لم تعانقنـي بهـذه الحـرارة في ليلـة الزفـاف» ويضحـك: «هـي حدثتنـي كثـيرًا عـن الحـي الإنجليـزي حيـث طفولتهـا وشـبابها، ولكـن لم أكـن أعلـم أنهـا كانـت معـي جسـدًا فقـط، أمـا روحهـا فكانـت عالقـة هنـا بـين شـوارع وأشـجار هـذا الحـي الرائـع». ويسـتأنف «تـوم» لأصدقائـه: «عندمـا وصلنـا المطـار بكـت واسـتقرت في عينيهـا نظـرة غريبـة؛ أعتقـد نظـرة طفلـة تشـاهد عرائس البـاربي لأول مـرة، تفقـدت وجـوه المصريـين في سـعادة، كادت أن تعانقهـم، ولمـا وصلنـا الفنـدق ألقـت الحقائـب وقالت لي: مـع السـلامة، سـأذهب حيـث مسـقط رأسي. واندفعـت بسرعـة.. ولما وصلـت للفيـلا قابلـت مسـتر زاهـر، الـذي قـال لي فيـما بعـد: كنتُ جالسًـا أسـتمتع بمشـاهدة مبـاراة، ثـم سـمعت مـن خلفـي صـوت نحيـب؛ فالتفـتُّ فوجدتهـا تجلـس خلفـي وهـي تبكـي. لا تتصـور مـدى الخـوف الـذي شـعرت بـه؛ قفـزت بسرعـة وهرعـت إلى الطابـق الثـاني، وبعـد ذلك

عرفت كل شيء.. دفعتني، وفيما هي تتفقد البيت صرخت وسقطت على الأرض.. لو كنت أعلم بقدومها لكنت نظفته، لكنها سقطت عليَّ من السماء. ولكن لم أشعر بالراحة إلا عندما وصلت وطلبت مني أن تقطن بيتها القديم. تركت لها البيت دون أن أتحدث في شيء، وكأنني أتخلص من حمل ثقيل ظل جاثمًا على صدري منذ سنوات».

***

يمتاز الحي الإنجليزي بالفيلات الصغيرة التي شُيدت على النمط الإنجليزي؛ لذا لم تُشيد في الحي قصور أو سرايات، فالأوربيون لا يقطنون قصورًا ولا سرايات. وتعتبر فيلا مسيو «ليون سوارس» من أوائل الفيلات التي شُيدت في الحي، فقد استقطب لها مهندسًا إيطاليًّا، شيَّد الفيلا على النمط الكلاسيكي الروماني، فكانت مختلفة؛ لذا أنارت الحي كله، حيث بدت وسط غابات الكافور كشمس مضيئة ليل نهار، وقطنها مسيو «سوارس» حتى عام ١٩٣٠، وكان يحب أن يجلس يوم السبت تحديدًا في حديقتها الواسعة، في ظل شجرة كافور عملاقة يفكر في أعماله، على الرغم من أنه كان لا ينام فيها كثيرًا. وظلت الفيلا مغلقة لعدة أعوام، إلى أن استأجرها عالم الآثار الأمريكي «هوارد مورس» حتى عام ١٩٥٨، وكانت لا تزال تحفة. ولكن الآن بدت الفيلا في هيكلها الضخم أشبه بمعبد مهجور؛ حيث تأثرت بالعوامل المناخية في ظل غياب تام للصيانة والترميم، فتحول البناء الهرمي المكوَّن من الخشب لثقوب واسعة، وانهار جزء كبير منه، وأصبح هذا الجزء جاذبًا وبقوة للطيور المهاجرة، وخاصةً البوم، وأصبحت الحديقة مرتعًا للحيوانات الضالة بعد أن نَمَتْ فيها الأعشاب الشيطانية. ولما تفقدتها مدام «سِريا» زكمت أنفها رائحة غريبة تنبعث من الأثاث؛ رائحة شيء تعفن منذ أمد، حيث

شكَّلت الأتربة طبقة جامدة فوق الأثاث، عند إزالتها قطعًا ستؤثر على اللون.. بهو الفيلا الفسيح تكدس بالأثاث القديم المذهَّب القذر، ناهيك عن السلم الحلزوني المتصل بالطابق الثاني، كان فيما مضى قطعة أثرية من الرخام الطبيعي الفخم، الآن تجلط من القذارة؛ يبدو كسلم المؤسسات الحكومية.. علاوة على أن الحشرات الطائرة لا تتوقف عن عزف سيمفونية مزعجة في سماء البهو، بعد أن تجذبها بقايا الطعام الملقى فوق الترابيزة الكبيرة وعلى الأرض، فضلاً عن بقايا ثمار الفاكهة التي تعفنت، أو التي قُضِم منها قضمة واحدة وتُركت بقيتها وليمة للحشرات الزاحفة والطائرة، ناهيك عن أعقاب السجائر الملقاة على الأرض وفوق قطع الأثاث.. هذه هي الحالة التي كانت عليها الفيلا.. وقالت للأستاذ زاهر: «لماذا لم تستقطب أحدًا لينظفها؟» قال لها: «تريحني قذارتها!».

ولم تضيع المدام وقتًا؛ اتصلت بالسفارة الأمريكية، وطلبت منهم إرسال شركة «**seaven**» المختصة بالخدمات؛ حيث تقوم بصيانة المنازل وفرش الأثاث للجالية الأمريكية؛ سواء العاملون أو الدبلوماسيون. وجاءت السيارات الجيمس النقل الضخمة، وفوقها العمال المصريون بـ«الأفرول» الأزرق المعروف.. بدأت الشركة ومهندسوها الأمريكيون يتولون ترميم وتنظيف الفيلا، استغرق العمل قرابة الشهر، عادت بعدها تحفة مسيو «ليون سوارس» تضيء الحي كما كانت.. وجاء زوجها سعيدًا بسعادتها، وظلت تحكي له ذكرياتها في الفيلا، وفي كل مرة كانت تبكي. وتفقدت القبو؛ حيث كان مِلكًا لأبحاث والدها، وظلت لشهر تشعر بأن والديها يعيشان معها.

***

وعلى مدار عدة أيام ظلت المدام تتفقد الحي في اهتمام، استرجعت ذكرياتها، لم تجد ممن تعرفهم سوى السيد «كارل هوفمان»، قال لها: «كل شيء تغير.. لا تسترجعي الذكريات.. من المحزن أن تسترجعي الذكريات» فسألته: «ماذا حدث؟» فأجابها: «أبدًا، جاء قوم وشيدوا على ضفاف النيل قطعًا عالية من الخرسان.. هل تتصورين؟ يومًا ما كنا نقف على ضفاف النيل فنشاهد الأهرام بوضوح، وتترامى خلفنا الأراضي الزراعية إلى ما لا نهاية، أما الآن...».

وقررت المدام بعد ذلك إنشاء رابطة للمغتربين الأوروبيين تجمع من خلالها التبرعات لدعم الفقراء، وأيضًا تكون ناديًا يقدم كل وسائل الترفيه والتسلية للأوروبيين، وقررت إنشاء الرابطة بمشاركة صديقها العزيز الصحفي الأمريكي «آرون رود»؛ حيث كان شريكًا بالمشورة والدعم الصحفي، سألته قبل البدء في إنشاء الرابطة: «أليست هناك قوانين؟» قال لها بثقة تسعدها جدًّا: «ليست هناك أي قوانين تجرِّم العمل الإنساني».

وطبعت المدام إعلانًا كبيرًا وضعته داخل المدرسة الأمريكية وأمامها، وأيضًا في الشوارع وعلى أبواب الفيلات، تعلن عن افتتاح الرابطة أو النادي بعد ثلاثين يومًا، ولم تكتفِ المدام بهذا الإعلان البسيط، بل استخدمت بعد ذلك أسلوب التشويق في الدعاية عن الرابطة؛ فطبعت إعلانات تشرح فيها ما ستوفره الرابطة من وسائل ترفيهية، فضلاً عن قيمة العضوية.. شعار الرابطة: ستستمتع وأنت تسهر في الرابطة، وأيضًا وأنت تساعد إنسانًا. مقر الرابطة: ٩ شارع ١٣. الرابطة تضم بارًا رئيسيًّا في الصالة الداخلية، وبار شرفة يطل على الحديقة، ومكتبة صغيرة، وصالة بلياردو، وتلفزيونًا في الحديقة، ومطبخًا كبيرًا يقدم أشهى المأكولات؛ لحم الخنزير المقدد، ولحم

الاستيك المشوي ومعه صلصة مميزة، وبرجر بقري بخلطة مدام «فاليري»، وهوت دوج.. فضلاً عن أفخر المشروبات الكحولية، والمشروبات الساخنة.. وأيضًا وجبات الإفطار؛ الكرواسون المحشي بالشيكولاتة، والقهوة الممزوجة باللبن الطبيعي.. وأيضًا الرابطة توفر الجرائد الصباحية المحلية والعالمية كل صباح لمن يريد أن يتصفحها مع فنجان القهوة.. من يريد الاستفسار عن شيء، يحضر لمقابلة السيد «فيليب أنطوان».

الاشتراك السنوي: مئة دولارًا.

الاشتراك ستة أشهر: ستون دولارًا.

الاشتراك ثلاثة أشهر: أربعون دولارًا.

***

وكان الأجانب يحيون في هذا الوقت بالتحديد حياة مملة؛ يجلسون في عطلة نهاية الأسبوع في ملاعب «فيكتوريا» يركضون أو يلعبون البيسبول.. لا سهرات، ولا حفلات.. الحفلات التي كانت تقام في منازلهم كانت محكومة بقوانين المنازل؛ لذا لم يستمتعوا قط، البعض منهم كان يذهب لبارات الفنادق، والآخر كان يعاقب نفسه في العطلة بالنوم مبكرًا، الشيء الوحيد الذي اتفقوا عليه هو ممارسة رياضة الجري؛ لذا كل صباح تمتلئ الشوارع بهم وبكلابهم وهم يمارسون هذه الرياضة. أما في احتفالات الكريسماس فيتحول الحي لشجرة مضيئة، تُزين أبواب الفيلات الصغيرة بأطواق الورد، وتمتلئ الشوارع بأشجار الكريسماس المغطاة بالأضواء والزينة، ويعلقون أكاليل ورقية ومصابيح ملونة، ويتبادلون الزيارات المبهجة، ويرتدي بعض الرجال ملابس «بابا نويل» ويستقرون على النواصي الكبيرة

وأمام المحال، ويوزعون الهدايا على الأطفال؛ لذا يغرق الحي خلال هذه الاحتفالات في البهجة والسعادة.

وكانوا يطلقون على حي المعادي «الحي الإنجليزي»؛ نظرًا لتأسيسه على يد الإنجليز، بيد أن الأوروبيين اليهود الملمين بتاريخ الحي كانوا ينزعجون من ذلك، وبينهم وبين أنفسهم كانوا يطلقون عليه «الحي اليهودي»؛ نظرًا لشراء عائلة «موصيري» و«سوارس» أراضي في الحي قبل التأسيس، فضلاً عن تأسيسهم لشركة «أراضي الدلتا» بمشاركة بعض الإنجليز. وكان المقيمون في الحي من السفراء الأوروبيين وموظفي البترول والنوادي والمدارس، وكانوا تقريبًا أسرة واحدة يعرفون بعضهم بعضًا. لقد اختلفت الشريحة تمامًا، تتذكر مدام «سِريا» أن أغلب الذين قطنوا الحي الإنجليزي كانوا من الأساتذة المؤهلين للعمل بالجامعة في مراحلها الأولى كأعضاء هيئة تدريس بأقسامها المختلفة، وكانوا من الإنجليز، فضلاً عن كبار العسكريين في الجيش الإنجليزي، والتجار اليهود؛ أمثال «سوارس» و«موصيري»، غير البعثات الاستكشافية.

وتوافد المدعوون في هذه الليلة الخاصة والمهمة جدًّا.. الملابس كانت غاية في الأناقة؛ البدل ذات الشرائط الستان اللامعة، والفساتين السينييه المحكومة.. كانت السيارات الفارهة تستقر أمام الفيلا، فينزل منها المدعوون في كامل أُبهتهم وسعادتهم، يستقبلهم «خرستوف» الخادم الإفريقي بابتسامة وضيئة، ثم يحييهم بانحناءة من رأسه ويرشدهم إلى الحديقة. كانت معزوفة العصر الفيكتوري تصدح في سماء الحديقة بإيقاعها الساحر، وقد استحوذت على مشاعر الزوار الذين شعروا بالبهجة والسعادة، وظهرت مدام «سِريا» بقامتها النحيفة في الفستان السواريه الأسود اللامع فبدت كعرائس الباربي،

وجهها الطويل المنحوت بعضلات بارزة كان لامعًا من أثر المساحيق، علاوة على شعرها الذهبي المجعد بدا كضلفتين تحجبان أُذنيها إلى عنقها الطويل.. وامتدت السهرة حتى بزوغ الفجر، ودوَّن مستر «وينسون» - أحد المؤسسين - عن هذه الليلة في يومياته:

الجميع قرر مساعدة المدام، بيد أن القليل منهم انزعج، وهؤلاء كانوا عنصريين.. ولكن لا شك أن الليلة كانت بداية قوية لرابطة المغتربين الأجانب في القاهرة.. كانت من أروع الليالي.

وينسون

١٩٨٠

***

كلمة «رابطة» تعني جماعة من الناس يجمعهم شيء يشتركون فيه، والمعنى يدل على أن هؤلاء الجماعة تحالفوا للحصول على شيء لن يحصلوا عليه إلا إذا كوَّنوا رابطة.. وعادةً الجاليات التي تنتمي إلى الدول الفقيرة والضعيفة، فضلاً عن المهاجرين، هي التي تسعى لأن تكوِّن رابطة لها مقر ولها رئيس وأعضاء، وغالبًا ما يكون أعضاؤها ورئيسها ليسوا مواطنين عاديين اكتسبوا هذه المكانة من مساعداتهم التي يقدمونها لمواطنيهم، ولكن هؤلاء يتم ترشيحهم من قِبل السفارة ليقوموا بمهامها (في حدود)؛ فمهمة الأعضاء الرئيسية هي تقديم التقارير والمراقبة، وأيضًا وهذا هو الأهم، إبعاد المواطنين عن السفارة بأي طريقة، وهكذا يقتصر دور الرابطة على خدمة الجالية من مساعدات في شتى المجالات (قدر المستطاع طبعًا).. مثلاً الحصول على وظيفة، الإيواء المؤقت لحين الترحيل، الضغط على الكفيل بالحديث الناعم لرفع يده شيئًا، جمع التبرعات لسد غرامة

ما، مخاطبة السفارة في خطاب ناعم للتدخل للإفراج عن مواطن قابع في أحد السجون، مع العلم أنه لا توجد رابطة استطاعت أن تتدخل للإفراج عن مواطن تم اعتقاله بطريقة عشوائية، فأغلب الأعضاء لهم مصالح كبيرة؛ لذلك يتجنبون الخوض في هذه المسائل، يتظاهرون بالتضامن ولكنهم يتقاعسون عن أي دور حقيقي.. هذا هو مفهوم الرابطة. لكن الجاليات التي تنتمي إلى دول كبيرة غنية وقوية، لا تسعى لأن تكوِّن رابطة، ربما يحل بدلاً من الرابطة نادٍ يجتمعون فيه لمتابعة المباريات والاستمتاع بتناول المثلجات. أما رابطة المغتربين الأوربيين في القاهرة فكان لها دور آخر؛ وهو دعم الفقراء، وعلاج المرضى، والتوعية من خلال دورات تثقيفية، فضلاً عن دعم الجمعيات الأهلية والخيرية، ودور الأيتام. ونشط دور الرابطة في الأحياء الشعبية بقوة، فضلاً عن الريف؛ فكان لها دور كبير في إنشاء «مكتبات المستقبل» التي تقدم خدمة مجانية من القراءة والرحلات، فضلاً عن استقطاب مدرسين أكفاء لإعطاء الدروس وتعليم الحقائق. وبالطبع انزعج البعض من هذا الدور؛ لذا تم مهاجمة الرابطة في الصحف، وتم وصفها بأنها تعمل لخلق أجيال من المعاقين ذهنيًّا، وتمت مهاجمة المكتبات من خلال البلطجية، وترويج شائعات كاذبة عن التحرش بالأطفال، أو إعطائهم أطعمة فاسدة.. ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل، وكان الأهالي يدفعون بأبنائهم إلى تلك المكتبات في سعادة وحماس، ولكن ظل الهجوم شرسًا ومتتاليًا على هذه المكتبات، فبدأ دور البلطجية في الظهور؛ فيذهب أحد البلطجية ويقتحم المكتبة، ولم تتوقف الغارات على ذلك فقط؛ فبدأ الاعتداء الجسدي، لكن مركز «التنوير» الذي يقوده الدكتور «إبراهيم مسعود» كان لديه احتياطي رائع من المؤهلين؛ لذلك لم تُغلق المكتبات يومًا واحدًا.

ولم تكتفِ الرابطة بدور المكتبات فقط، بل انطلقت المدام بنفسها ومعها قافلة من المعلمين والمهتمين وكثَّفت من تواجدها في حي البساتين؛ حيث سكان المقابر، وبدأت في إطعامهم أولاً، ثم تجهيز مكان كبير للقاء السيدات والأطفال.. واتسعت شهرة المدام في الحي، وكان النساء والأطفال ينتظرونها يومي الجمعة والسبت.. يبدأ اللقاء في الثامنة صباحًا؛ حيث تأتي النساء والأطفال في سعادة، يتناولون وجبة الإفطار، ثم ينصتون للمدام وأعضاء الرابطة، وكانت المدام تعلمهن كيفية تربية الأبناء والاهتمام بالمنزل. وتعلمن حِرفًا يدوية من الزخرفة على الفخار، وصناعة الزعافات والمقشات من الخوص. واعتاد الرجال أن يألفوا غياب زوجاتهم عند مدام «سِريا» مطمئنين لذلك، وكانوا يقولون: «لها الفضل في تربية أبنائنا، وتعليم نسائنا». وسعدت المدام بهذا الانتصار، فقد حذرها الأستاذ زاهر من الاقتراب من هؤلاء الفقراء؛ قال لها ذات مساء وكان يسهر في الرابطة ليلة كل خميس: «الثمن سيكون غاليًا» فقالت له: «لا أفهمك» فقال لها: «هؤلاء همج.. أنا أعرفهم.. لن يتعلموا، ولن يفهموا.. تراهنين على قضية خاسرة». وقال لها الدكتور «إبراهيم مسعود»: «زاهر شخص خطير، لا تهتمي بسماعه».

***

كان «آرون رود» صحفيًّا أمريكيًّا كبيرًا، يعمل لـ«الواشنطن بوست»؛ يكتب المقالات ويرسلها للصحيفة، يتقن اللغة العربية، والفرنسية، والألمانية، فضلاً عن لغته الإنجليزية، فكان يتحدث الإنجليزية بلكنة صحيحة وليست أمريكية؛ ولعل السر في هذا أنه قضى عشرة أعوام في مقاطعة «فارنهام»، يقول إنه كان يدرس التاريخ هناك، وهناك أقاويل تفيد بأنه كان متزوجًا من إنجليزية كانت تقيم في المدينة، وانتحرت

لأسباب غامضة، ولا تستطيع أن تستخلص منه جوابًا شافيًا عند سؤاله؛ فلديه قدرة كبيرة على اللعب بالكلمات، يستطيع أن يُدخلك في عشرات المواضيع في دقيقة واحدة، إلا إذا كانت لديه الرغبة، وهذا نادرٌ، أو عندما تطيح الخمرة برأسه تجده يقول: «قالت لي: آرون، وماذا بعد؟ ثم انتحرت». بالإضافة لحفظه ما لا يقل عن مئة نكتة؛ ما بين إباحية وسياسية، ليس الحفظ فقط، بل يقول النكتة بالإيقاع المناسب لها، فلو كانت سياسية يحرص أن يُدخل فيها عنصرًا أجنبيًّا ليبدو محايدًا، ويحرص أن يضحك قبل أن يختمها ليتفاعل معه من حوله، وينتظر التعليق، وينصت باهتمام بالغ لكل كلمة تقال.. أما إذا كانت النكتة إباحية فإنه يضبط الإيقاع بدقة؛ تحمر شفتاه الدقيقتان باللعاب، وتتسع عيناه بلمعة، فضلاً عن صلعته الفسيحة، ولا ينسى أن يُعقب على النكتة – التي بطلتها بالطبع امرأة – بقوله: «أفخاذ المرأة مهلبية يا باشا».. هكذا فطن «آرون رود» لميول المصريين للمرأة السمينة، خاصةً طبقة العمال الذين كانوا يتعاملون معه؛ البوابين، وعمال النظافة والحدائق والأمن الخاص، حتى جنود الداخلية الفقراء؛ فمثل هذا التعليق كان يُثيرهم، ويضج الجميع من حوله بالضحك، وينعتونه قائلين: «يا ابن الصايعة». فضلاً عن اندهاشهم من أي شيء يقدمه مهما كان تافهًا؛ لا أعتقد أن أحدًا من العاملين في سوق المعادي القديمة أو المتاجر الغذائية، أو سائقي التاكسي، علاوة على رجال الأمن وحارسي العمارات، وأيضًا عمال النظافة، لا يعرف «آرون رود»؛ هذا الأمريكي المرح.. وعندما يسألونه من باب المجاملة: «نكتة جديدة دي يا مستر آرون.. سمعتها فين؟» ينفجر بلكنة مصرية قائلاً: «عند أمك يا باشا».. ويتقبلون منه هذه الدعابة بطبيعة أنه أسلوب متبادل بينه وبينهم. وكان يقول لهم: «أنتم المصريين لا

تعرفـون سـوى كلمـة واحـدة «**money**».. والواقـع أنهـا هـي الحقيقـة.. النسـاء لا يخضعـن إلا للــ«**money**»، السياسـة لا تخضع إلا للــ«**money**»، كل شيء يخضـع أمـام الــ«**money**».. أنـا لا أقولهـا بالعربيـة، هـل تعلمـون لمـاذا؟ لأنهـا هـي الكلمـة الوحيـدة التـي تعرفونهـا بالإنجليزيـة، أنتـم تعرفـون الحقيقـة، وأنـا أعرفهـا مثلكـم».. وعنـد ذكـر النقـود، يصمـت قليـلاً ويقـول بنـبرة جادة: قلـت لزوجتـي «كيرا»: عندمـا أمـوت ضعينـي في صنـدوق، واسـتأجري رجلـين قويـين، واذهبـي بي إلى الصحـراء، وكلفـي الرجلـين بحفـر قـبر عميـق، ثـم ضعـوني بداخلـه، وارحلـوا فـورًا.. لا أريد صـلاة، ولا بـكاء.. لا أريـد مزيـدًا مـن النفـاق؛ كفـاني كل هـذا النفـاق.

استغربت وصيتـي وقالـت لي: لمـاذا؟ قلـت لهـا: لا أريـد أن يتبـول أحـد فـوق قـبري!

«آرون»، ماذا تقول؟

قلت: الحقيقة.. إن هذا جزاء من يعمل في السياسة.

وماتت قبلي؛ انتحرت.. قالت لي: «آرون، وماذا بعد؟» ثم انتحرت.

تلمـع عينـا «آرون رود» عندمـا يقـص هـذه القصـة عـلى أصدقائـه؛ سـواء المصريـون الفقـراء أو الأمريكيـون، ويتأثـر جـدًّا مـن ذكرهـا؛ إنـه يعـاني المـرارة، ويخفـي ذلـك بضحكتـه وحديثـه الدائـم عـن المـوت.. هكـذا يتحـدث «آرون رود» بفلسـفة يعتقدهـا البعـض نكاتًـا أو دعابـة. ودائـمًا يستقر في قهـوة «كليوباتـرا» في سـوق المعـادي القديمـة، رواد القهوة يعرفونـه جيـدًا، بملابسـه المتواضعـة، وتدخينه سـجائر «كليوباتـرا» المحلية، وأثنـاء عودتـه لا ينسـى أن يقصـد مسـتودع بـيرة «سـتيلا» الحكومـي أسـفل الكوبـري الواقـع أمـام «بنزايـون»، يبتـاع زجاجتـين ويتجرعهـما، وأثنـاء سـيره يتلقـى تعليقـات سـاخرة مـن أصدقائـه المصريـين، ويـرد بتصرفـات

لاذعة تثير شهيتهم للضحك؛ مثلاً يُشير إلى قضيبه، أو مؤخرته، أو يستلقي في نصف الشارع ويضع ساقًا فوق الأخرى، ولأنه كان يبدو مخمورًا وهو يقدم هذه العروض، كان البعض يساعده على أن يقضي وقتًا ممتعًا.. قميصه يبدو مجعدًا؛ فدائمًا يدس نصفه في البنطلون والنصف الآخر يتطاير من فوق كرشه الكبير بفعل الهواء، فتبدو سرته الكبيرة بتجويفها المقزز. عندما يخرج من الحي الإنجليزي يستقل التاكسي، أما بداخل الحي فيفضل أن يمشي على قدميه، يتبادل الأحاديث مع المارة، ويقف يستمع لهم بعناية، وقت الجد يكون جادًّا، ينصت باهتمام، حتى ملامحه تتقلص من فرط الإنصات والتأثر، وتجده يقدم مساعدته بحماس.. ووقت الضحك لن تجد أحدًا أكثر منه خفةً ومرحًا، فور مشاهدته يصنعون حوله حلقة صغيرة، يمتلئ رأسه بعشرات القصص التي قصها عليه العاملون في الحي.. دُعي أكثر من مرة لحضور عُرس، وكان على علم بالتقاليد؛ يقوم و«ينقِّط» العريس أو العروس ببذخ، ويعود ليجلس، وتأتيه زجاجة البيرة المثلجة، وقبل أن تنتهي تكون الثانية والثالثة جاهزة، ويتأمل الجمع من حوله بعينيه الضيقتين النصف مقفولتين من أثر الكحول، ويقول بلسان متراخٍ: «جئت من صحراء أريزونا إلى صحراء القاهرة.. أصحابي المصريون ينعتوني بالمجنون الكبير.. هل أنا مجنون حقًّا؟!».

أضف إلى ذلك ذهابه لـ«السيدة زينب» و«الحسين»، وجلوسه على المقاهي الشعبية. وكانت تلك الفترة مشحونة؛ إذ كانت تحمل آثار الحرب، وعلاقة أمريكا بالحرب ووقوفها بجانب إسرائيل؛ ولذلك عندما كان يسأله أحد عن جنسيته كان يقول له: «أنا من لبنان»، ويشكي لهم مرارة الحرب الأهلية في لبنان؛ فكانوا يفيضون له بما في أنفسهم من تضامن ومشاعر حقيقية.. ولم يدَّعِ أنه لبناني من باب المكر

والتسلط، ولكن ليأمن غضب البعض منهم، كان يغضب عندما يقال عليه إنه رجل سكِّير. وأيضًا عندما يسألونه عن سياسة أمريكا، كان يغضب بشدة وتجده قد انتفض واحتقن وجهه، ويصرخ: «أصعب شيء على المرء أن يُسأل سؤالاً بديهيًّا ويعجز عن الرد».. هكذا كان «آرون رود» يسجل يومياته بتلك الواقعية. كان يشعر بالقرف من قراءة المانشيتات العريضة للصحف القومية، وكان يشعر بالغثيان عندما يقرأ صحف المعارضة؛ فكان يصف المعارضين بالأغبياء، ويسخر من غبائهم في سخرية شديدة: «لمن يكتبون؟ إن الغالبية لا تقرأ.. إما أنهم أغبياء، أو عملاء للنظام». فضلاً عن أنه كان يشعر من قراءة هذه الأخبار بتأخر زمني لأكثر من عشر سنوات على الأقل، وكان يقول: «الأخبار تصل إلى القاهرة على ظهر جمل.. الصحافة المصرية شيء مقزز.. حتى صفحة الوفيات مقززة». انغمز «آرون رود» في حياة المصريين بعمق، تأثر بأشياء كثيرة، وأحزنته أشياء أكثر، وبعد فترة ليست بالقصيرة انتهى من دراسة التاريخ المصري، وكان قد عكف على قراءة التاريخ الحديث منذ عهد «محمد علي» وظل يقارن بين الأجيال، والحقيقة لم يجد أي فرق كبير؛ لم تتغير طبيعة المصريين، ربما ازدادت سوءًا، فاستفزته عبارة ظل المصريون يرددونها في كل عهد: «أنا لحم كتافي من خيرك يا سيدي» ولما قام بتحليلها، وجد أنها ناتجة عن ثقافة خطيرة ومريبة؛ لن يتدنى الإنسان لهذه الدرجة إلا إذا نسفت مفهومه عن الإنسانية، وأشعرته بأنه حمار يعمل ليأكل، ليست له أي حقوق، وإنما واجبٌ عليه أن يظل قابعًا عند قدم سيده.. هذه ثقافة تجرعتها الأجيال فأصبحت واقعًا مخيفًا.

***

كيف تم تجهيز الرابطة؟

اختارت المدام في البداية أربعة أصدقاء يؤسسون معها الرابطة، وهم بترتيب السن:

«كارل هوفمان»

لا أحد يعرف على وجه الدقة متى جاء السيد «كارل هوفمان « إلى القاهرة؛ يقال إنه جاء في بداية العشرينيات مع نزوح اليهود الأشكيناز الروس والبولنديين إلى القاهرة والإسكندرية، بعد أن فقد عائلته في المذابح التي اجتاحت يهود أوروبا، ثم عمل مع أحد أقطاب اليهود في وسط البلد، وهي عائلة «عدس» المشهورة، حتى قرر أن يقطن الحي الهادئ بعيدًا عن الناس، وأن يمارس هوايته المفضلة «التصوير الفوتوغرافي»، فافتتح استوديو في ميدان السوارس.

السيد «كارل هوفمان» بولندي من أم ألمانية يهودية، ورغم أن والده كان مسيحيًّا كاثوليكيًّا مخلصًا، فإنه اعتنق اليهودية حسب إرادة أمه التي كانت متعصبة ليهوديتها بدرجة كبيرة. والسيد «كارل هوفمان» من أقدم الأجانب في الحي، هو رجل طيب يعشق وجوه المصريين على حد تعبيره؛ ولذلك ظل يعمل مصورًا بنفسه حتى سن متأخرة، وبعد أن تقدمت به السن، ظل يتردد على المعبد، عاش حياته كلها في خوف.. عند اندلاع الحرب العالمية الثانية قرر أن ينضم للجيش، فقالت له زوجته «ريفال»: «لن أسمح لك.. كارل، أنا حامل.. لا أريد أن يقتلك هتلر كما قتل أبي وأخي.. كارل، لنرحل». وذات مساء عاد إليها وقال لها: «نحن مراقبون» جلست أمامه وقد شحب وجهها وقالت له: «كيف؟» قال لها: «كنت أكتب على حائط الذكريات عند قمة الجبل: أنا يهودي، وأكره هتلر، ويومًا ما سأحرق جثته.. واليوم وجدتها

مطموسة، وقد كُتب مكانها: وأنا سأقتلك وعائلتك أيها الخنزير».

اندفعت تضربه في صدره وقد تحفزت للنضال، وصرخت في عنف: «نحن مستهدفون.. الحي كله مستهدف من الألمان.. سنموت.. أنت مختل.. كارل، لنرحل».

قال لها: «لا، لن أقضي حياتي كلها هاربًا».

تقلصت عضلات وجهها وصرخت: «أنا حامل.. هل تفهم؟».

ورحلت دون علمه؛ ذات مساء عاد إلى البيت فلم يجدها، ووجد ورقة ما زال يحتفظ بها كتبت فيها: «ذهبت مع صديقتي شوشانة إلى جنوب إفريقيا.. كارل، يجب أن تلحق بي». وعاش حزينًا متألمًا، قرر أن يبقى ويقاتل في الحي، وجاء له خطاب من «شوشانة» تقول فيه: «أنجبت ريفال ذكرًا، وأطلقت عليه ياسو.. ورحلت إلى البرازيل».. ويقول السيد «كارل»:

«انتهت الحرب، وانتهى هتلر.. مات الملايين في سبيل الحياة.. مات الملايين إثر جنون رجل مختل.. كيف استطاع أن يقتل كل هؤلاء الناس؟! ولكن يبدو أننا سنظل هكذا منبوذين.. بعد الثورة وذهاب الملك ونشوب حروب بين مصر وإسرائيل، شعرت بأن ثمة أشياء تغيرت، لم يعد أحد يهتم بي، ولم يعد أحد يأتي لألتقط له صورة.. رغم أنني بولندي، لكنهم لم يروا فيَّ غير أنني يهودي. أعود لتلك الأيام فأشعر بالمرارة، كنت أجلس في متجري ولا أحد يأتي ليسلم عليَّ، وحدث مرة أنهم هاجموا متجري بالمولوتوف فاحترقت الواجهة بالكامل؛ مما جعلني أغلق المتجر، وعملت مصورًا متجولاً، وبفضل صداقاتي بدأتُ أعمل لدى العائلات الكبيرة، ولكن لم يستمر هذا الرزق المؤقت.. جاءني رجل في بدلة عسكرية وأمرني أن أتجسس على

بعض العائلات، وأنقل له ما يدور في أروقتها، وقلت له بحذر: أنا مصور يا سيدي. قال لي: أنت تخدم هذه الأرض التي تعيش عليها. بيد أن حالتي كانت قد تحسنت شيئًا فشيئًا؛ فعزفت عن تلك الدعوات».

ومرت الأعوام.. وبعد مرور ثلاثين عامًا يقول: «انقطعت أخبارها تمامًا؛ لعلها نسيتني، لعل ابني أصبح شابًّا كبيرًا وأصبحت له زوجة وأبناء، لا بد أنه يكرهني، ربما قصَّت عليه أشياء عني، أو ربما قالت له: والدك مات؛ قتله هتلر لكي يحميني ويحميك». وتروق لـ«هوفمان» هذه القصة، مدَّعيًا أن زوجته كانت تريد أن يأتي ابنها ويثأر لها ولوالدها.. بالطبع ذكت فيه هذه الروح الانتقامية.

وعند مطلع السبعينيات عمل معه شاب يدعى «كيان داود» من أب فلسطيني وأم مصرية، كان غامضًا، وله نظرة لا تريح، قال له ذات يوم: «تعلم يا سيدي لو أن القاهرة والنيل مع اليهود، لكانوا جعلوهما أعظم شيئين في العالم» ثم سكت وابتسم في غموض، ورحل.

***

«ريتشارد وينسون»

هو الرجل الثاني، وهو أمريكي دائم المرح، بشرته سوداء، وجهه بشوش، دائمًا مبتسم، جسده ضخم يزن مئتين وخمسين كيلو جرامًا، لكن يساعده على تحمُّل هذا الوزن طوله وعظامه القوية، لا يترك الكتاب من يده أبدًا، كان يقرأ حتى أثناء السير، كان يعمل مُدرسًا في المدرسة الأمريكية، ورغم ابتسامته المريحة لمن يشاهدها فإن قلبه مليء بالأحزان.. يحب الأطفال، لكنه عجز عن الإنجاب.. ويقول: «إنني مريض بداء السمنة» ويتذكر عندما سمع طبيبه يشرح حالته قائلاً: «أعتقد أن هذه الحالات المزمنة التي تبدأ بشكل مبكر في حياة الشخص

لا تضعه أمام استعمال طويل الأمد للأدوية فقط، بل تكون عاملاً في قِصَر عمره». وأخيرًا استسلم السيد «وينسون» لقدره؛ يعيش بمفرده في شقة متواضعة في عمارة قديمة في ميدان فيكتوريا، الشقة لا تخلو من أبناء البواب الصغار الذين يستمتعون بمشاهدة الأفلام الكارتون التي يحرص على جلبها لهم من متجر شرائط الفيديو، فضلاً عن إطعامهم البيتزا واللعب معهم، كان رجلاً طيبًا، حرص على تعليمهم هم وأبناء البسطاء من العاملين في العمارة والعمارات المجاورة، يقول: «جميع الأطفال متساوون في الذكاء؛ ليس هناك طفل غبي وطفل ذكي، ولكن هناك بيئة تبني وبيئة تهدم، تعليم جيد وتعليم سيئ.. هذه هي الحقيقة». يمشي في شوارع الحي بقامته الضخمة فيتلقى التحية بحرارة من الجميع، ينام فيشعر بالسعادة، ويقول لنفسه: «مؤكد عندما أموت سيأتي من يبكي عليَّ».

***

«فيليب أنطوان»

وهذا الرجل من أصول لبنانية، كان يعمل في قسم الترجمة في الجامعة الأمريكية، دائمًا أنيق، أصلع الرأس، ونحيف الجسد، يتحدث اللغة العربية بطلاقة، تشعر في وجوده بشيء من الاضطراب؛ يبدو دائمًا قلقًا، يحمر وجهه بسرعة، ويدعك عويناته بمنديل على الدوام، غير أنفه الطويل الذي يحمر بسرعة؛ فيبدو منفعلاً. تعرَّف على مدام «سِريا» في إحدى الحفلات في الجامعة الأمريكية، أعجبت بآرائه، واكتشفت أنه إنسان؛ لذلك نشأت بينهما صداقة حميمة، وعندما أخبرته بإنشاء الرابطة قال لها: «الآن أستطيع أن أقول إن الإنسان الحر هو من يفكر في مصير الآخرين، ويسعدني أن أكون شريكًا لامرأة حرة

مثلـك» وطلبـت منـه أن يهتـم بالبرنامـج التعليمـي والتثقيفـي للأطفـال، فعكـف عـلى تبسـيط وترجمـة روايـة «مزرعـة الحيـوان» لـ«جـورج أورويل» وقـال لهـا: «هـذه القصـة يجـب أن نحقن بهـا الأطفـال، وأنـا كفيل بـأن أقوم بتبسـيطها، غـير أنني سـمعت أنهـم في لنـدن حوَّلـوا القصـة لفيلـم كرتـوني رائـع.. سـنحاول إحضـار الشريـط ليشـاهدوه». وكانـت المـدام تسـمع ذلـك فتشـعر بالسـعادة والرضـا، وقالـت لـه: «مسـتر فيليـب، أنـت رائع».

وكان «فيليـب أنطـوان» يقطـن في الحـي، في عمارة بمحاذاة سـور المدرسـة الأمريكيـة، هـو عـادةً لا يتحـدث كثـيرًا، زوجتـه لبنانيـة أيضًـا، يشـعر أن أصولـه العربيـة تحتـم عليـه النضـال نحـو مجتمـع عـربي واعٍ؛ لذلـك كان أكثرهـم حماسًـا، أو كان يماثـل مـدام «سِريـا» في حماسـها الشـديد.

***

مدام «فاليري»

وهـي طاهيـة، كانـت في طريقهـا لفتـح مشروعهـا الكبـير «برجـر فالـيري»، إلا أن «سِريـا» قالـت لهـا: «سـتتكبدين نفقـات كثـيرة نظـير الإيجـار والعـمال.. مـا رأيـك لـو افتتحـتِ مشروعـك هنـا في الرابطـة؟» ورحبـت مـدام «فالـيري» في سـعادة. وهـي طاهيـة مـن العيـار الثقيـل، قصـيرة وسـمينة، تقـول عـن نفسـها: «أنـا امـرأة محظوظـة.. افتتحـت مشروعـي المـادي والإنسـاني.. أسـاعد، وأكسـب».

غـير أن المـرأة جـاءت معهـا سـيدة مـن جنـوب إفريقيـا تُدعـى «ديوانا»، وهـذه السـيدة هـي مـن تحملـت بنـاء مطبـخ ضخـم يخـدم عـشرات الـرواد كل ليلة.

***

أما عن دور السيد «آرون رود» فكان كبيرا.

تحدث في عدة مقالات عن دور الرابطة؛ فجلب لها مساعدات من الخارج، فضلاً عن استقطاب أحد أصدقائه المهندسين لبناء «بار الشرفة».

«وهو المهندس محمد عبد العال»

حضر «محمد عبد العال» لمقابلة المدام، وكان شابًّا وسيمًا إلا أنه قصير جدًّا، وقال لها بطريقة «آرون رود»: «لا تحملي همًّا.. المسألة غاية في البساطة».

وضحكت المدام، وحدثته عن ماضيها في الحي كعادتها مع كل المصريين، وكان يعلق بكلمات قليلة ويُبدي اندهاشًا مزيفًا، وبالغ في اندهاشه بعد ذلك؛ لأن هذا كان يسعدها، وأخذ جولة في الفيلا وتحدث عن جمال البناء، وقالت له: «بناها مهندس إيطالي كبير» وعلق: «نعم، المهندسون الإيطاليون فنانون، وأنا لست أقل منهم.. ستندهشين يا مدام» وضحكت، وأعجبت بحماسه جدًّا. وشرع في بناء بار الشرفة، وهو ليس بارًا فقط، ولكن ساحة مربعة أشبه بصالة بها تلفزيون معلق في السقف، وترابيزات، يجلس بداخلها الرواد في فصل الشتاء. وحضر جميع الأعضاء ليباشروا عملية البناء، واهتمت مدام «فاليري» جدًّا بإعادة بناء المطبخ بحيث يكون ضخمًا يستوعب جميع الأدوات، واهتم السيد «وينسون» بالإشراف على «بار الشرفة»، والسيد «فيليب أنطوان» بالصالة الرئيسية. كانت المدام في تلك الأيام سعيدة جدًّا، تستيقظ باكرًا وتعكف على صناعة الإفطار اللذيذ، وكانت تعاونها «ديوانا» التي تحضر باكرًا من منزلها حيث شارع ١٠ القديم، وعند حضور المهندس والعمال يجلسون جميعًا

على مائدة كبيرة في الحديقة ويتناولون الإفطار، ثم يعقبون باحتساء الشاي، ثم يشرعون بحماس ونشاط في استئناف العمل. وكانت المدام تعمل بيدها؛ تقوم بطلاء الجدران، أو عجن المونة، وكان العمال يحبونها جدًّا، ويستغربون هذه الأفعال على الخواجات، وكانوا يحكون عنها تفاصيل مذهلة.

وتبين بعد ذلك البناء الهرمي الذي تناسق مع طراز الفيلا؛ نافذتان تطلان على الحديقة من الواجهة.. وتولت شركة «seaven» فرش المبنى بالكامل، كل عضو من الأعضاء المؤسسين قام بفرش الركن الذي أشرف عليه؛ فمدام «فاليري» جاءت بأدوات ومعدات المطبخ من الخارج: البوتاجاز الجيمس الضخم، والثلاجة نفس الماركة، وثلاجات اللحوم «الفريزر»، فضلاً عن ثلاجات العرض، والرفايع من الأواني البورسلين والفخار، والملاعق، وأطقم الكاسات الفاخرة، والفناجين.. وأضافت أيضًا حوضًا كبيرًا مخصوصًا لغسل الخضار بكميات كبيرة. أما السيد «وينسون» فجعل من بار الشرفة شيئًا أشبه بمطعم صغير يقدم المأكولات السريعة على إحدى الطرقات، حتى زواره كانوا يشبهونه؛ وجوههم ليست مألوفه كأنهم لا يسهرون فيه كل ليلة، حتى العمال يتحركون ويمارسون الخدمة بطريقة آلية سريعة. أما البار الرئيسي فقد تولى «فيليب أنطوان» فرشه بالأثاث الكلاسيكي الرائع؛ حيث الكنب المبطن بالجلد الفاخر، والمقاعد الهزازة، والمناضد الطويلة المصنوعة من خشب الأرو، فضلاً عن المدفأة الضخمة التي أُنشئت مع إنشاء الفيلا، لكنه أحاطها بمسحة أرستقراطية رائعة. وتولت المدام فرش المكتبة وصالة البلياردو على أعلى مستوى؛ ثلاث ترابيزات، وبار خاص بالرواد، ثم زيَّنت حوائط صالة البلياردو بلوحات تعكس مناظر طبيعية، ثم وضعت صورة كبيرة تجمعها

بالأعضاء عند المدفأة وخلف البار الرئيسي. لكن قد تلاحظ صورة أبيض وأسود لفتاة صغيرة تقف في صحراء شاسعة تحمل بين يديها كلبًا صغيرًا؛ تبدو الفتاة في الصورة سعيدة عاقدة حاجبيها، وعيناها الزرقاوان مكسورتان من أشعة الشمس، تضع هذه الصورة فوق رف من أرفف المكتبة الضخمة.. وعندما يسألها أحد عن هذه الطفلة التي في الصورة كانت تقول: «هذه صورتي.. التقطتها لي أمي هنا عندما كانت الصحراء تحتل ثلثي الحي، كنا نخرج في نزهة ونأخذ معنا الخيام والطعام والشراب، ونظل نلعب بالدراجات ونطارد بها الثعالب حتى الغروب.. ويومًا ما التقطت لي هذه الصورة، وكانت أمي تضحك لأن الذباب كان مستقرًّا فوق رأسي، لكنه لم يظهر» هكذا تقص قصة الصورة في سعادة بالغة، وكان يتابع كل هذا السيد «كارل هوفمان» وهو جالس في معطفه المبطن بجلد ماعز متكئًا على عكازه ذي المقبض الفضي.

أما زوجها السيد «توم نيكسون» فلم ينزعج كثيرًا، قرر أن يتابع ذلك في صمت، فهو يقضي نصف الشهر في الموقع، والآخر في مقر الشركة في الحي؛ لذا قرر أن يتركها تعيش من جديد.

***

جميع الخضراوات والفاكهة والخبز تم إحضارهم من شركة «سيكم» حيث الخضار والفاكهة الطبيعية، وجلست مدام «فاليري» تتحدث عن استيراد الخمور، فقالت لها المدام:

– عندي من سيورد الخمور بأسعار مناسبة.

– من؟ هكذا سألتها.

– عزيز موسى.

وفي اليوم التالي حضر عزيز موسى لمقابلة المدام..

تفقَّد الحديقة وبار الشرفة، فزكمت أنفه رائحة تسعده؛ يقول إن للأجانب رائحة تُطمئن. وكان عزيز يحب أن يتعامل مع الأجانب، فهم لهم فضل عليه؛ تربى على أيديهم، وتذوق الخمور وعرف أنواعها مبكرًا، حتى التركيبات كان يتقنها وكأنه يعد دواء حساسًا.. تعلم منهم الكثير؛ لذا يحترمهم، ويذعن لهم، ولا يستطيع أن يغش الجاهل فيهم ويؤذيه.. هكذا يرد الجميل.

جلس فوق مقعد كبير في الصالة الداخلية في بدلة جينز كاملة، وجهه مكتنز بالشحوم، يضع فوق عينيه نظارة شمسية كبيرة، ظل بها حتى وهو جالس في بهو الفيلا، كان أشبه بفاترينة مصوغات ذهبية؛ حيث لم تخلُ رقبته ويداه من الذهب.. ولم تمر لحظات حتى ظهرت المدام في بلوفر فستقي واسع أكمامه طويلة، وبنطلون جينز ضيق أظهر نحافة ساقيها، ولفت شعرها في منديل مشجر.. صافحته بحرارة، ثم جلست في مواجهته وقالت:

- سُمعتك تبدو جيدة.. عند الأجانب فقط يا مستر عزيز.
- وهذا ما يهمني يا مدام.. يهمني أن أحافظ على زبائني المحترمين.
- والمصريون ليسوا محترمين؟

نظر لها بعينين حمراوين بعد أن خلع نظارته الكبيرة، وقال متحفزًا للحديث:

- أنا أستورد بضاعتي من الخارج يا مدام، أبيع الفاخر والرديء.. والمصريون يُقبلون على الرديء في كل شيء، وأنا أكره الإنسان العاجز عن تذوق الأشياء.

- ولكنك تساهم في قتلهم، أو قضاء حياتهم فاقدي البصر.
- هـذا لا يهمني في شيء؛ ينتحـرون.. يحيـون.. المهـم أن بضاعتـي لا يُصيبهـا الكسـاد.
- لا تبيـع لهـم الخمـور الرديئـة.. أليسـوا أهلـك؟ هكـذا احتجـت بدبلوماسـية.
- أنا أهلي لن يقبلوا أن يتجرعوا السموم.
- أنت شيطان.
- أنا تاجر.

وضحـك ضحكـة غريبـة، كأنـه أراد أن يوحـي لهـا بأنـه يمـزح معهـا.. لكنهـا قاطعتـه وقالـت:

- أكره مبدأك هذا، ولكني مضطرة للتعامل معك.
- أنـا لسـتُ رجـلاً أنانيًّـا.. أوفـر لهـؤلاء الخمـور بأسـعار مناسـبة.. طبيعـي أنهـا تكـون رديئـة، لكنهـا ليسـت قاتلـة.. أقـصى إصابـة ممكـن أن تحـدث هـي فقـدان البـصر.

زفرت بتنهيدة عميقة، وقالت في غيظ:

- حسـنًا، غـدًا تـأتي هنـا في الواحـدة ظهـرًا ومعـك قائمـة بـكل بضاعتـك.
- أنا في خدمتك.

يقبـع «عزيـز موسـى» في متجـره العتيـق في شـارع ٩ ليبيـع الخمـور، يعاونـه في ذلـك نجلـه «مايـكل». هـو عـلى معرفـة كبـيرة بالأجانـب المقيمـين في الحـي، ويعمـل عـلى توريـد الخمـور لهـم، أغلـب سـكان الحـي القدامـى يعرفونـه منـذ أن كان يبـذل مجهـودًا كبـيرًا في تلبيـة طلبـات زبائنـه؛

حيث كان يعمل في مستودع «ستيلا» التابع لمصنع الأهرام للمشروبات الكحولية، وازداد خبرة، وسرعان ما نافس المتجر الحكومي وافتتح فرعه القديم في شارع ٩، وشيئًا فشيئًا بدأت بعض المتاجر تزاحمه في تجارته؛ تستورد الخمور الفاخرة وتبيعها للأجانب سرًّا، واستورد بعد ذلك الخمور وبدأ يوزعها على رواده، ويعتق القليل منها في مخزنه، وباع عزيز موسى بعد ذلك بيرة «ستيلا» الشهيرة والشعبية بجوار «براندي جودة عالية»؛ الزجاجة الأكثر شعبية المصنوعة في المصانع المصرية.. ولكن في بداية التسعينيات حدث له كساد، فاضطر أن يبيع الخمور الرديئة لطلبة المدارس والشباب وعمال المتاجر المجاورة، واشتهر بـ»البراندي» المغشوش؛ الزجاجة الرديئة الملصق عليها ورقة رديئة مكتوب عليها باللغة العربية «براندي جودة عالية». أشهر ضحاياه البواب «عبد التواب الأسيوطي» الذي كان يذهب له قاطعًا مسافة كبيرة من أقصى السرايات، ليملأ سيالة جلبابه بتلك الزجاجات الصغيرة، ويظل طوال الطريق يتجرع البراندي ويلقي بالفارغ في الشارع، وأصيب أخيرًا بفقدان البصر. والحقيقة أن عزيز موسى حالته المادية تعثرت بعض الشيء بعد أن استقر بالقرب من متجره رجال الشرطة؛ حيث يختبئون وعندما يلمحون شابًّا ابتاع زجاجة براندي يذهبون له ويقبضون عليه، وسرعان ما يبتزونه، ويضطر الشاب أن يتنازل عن الزجاجة، رغم أن القانون يعفيه من أي مسئولية طالما الزجاجة مقفولة، لكنه يزعن لرغبتهم ويتركها لهم ويفر هاربًا، ويأخذون الزجاجة ويذهبون بها لعزيز قائلين: «خذها وهات النصف» ويقبل عزيز على مضض أن يدفع لهم نصف القيمة ويأخذ الزجاجة.. قد يرى شخص ما أن هذا يعود عليه بالمكسب، لكن الحقيقة أن هذه الوقائع عادت بالخسارة عليه؛ إذ امتنع الشباب

أن يبتاعـوا مـن متجـره شـيئًا خوفًـا مـن الشرطـة المختبئـة عـلى بُعـد أمتـار مـن متجـره. نشـطت تجارتـه في بدايـة الثمانينيـات، بالتحديـد حـين تعـاون مـع المـدام؛ حيـث بـدأت مهـام «سـيمون» الفتـى الإفريقـي الـذي يعمـل عنـده، فـكل صبـاح يمـلأ الصنـدوق المحمـل عـلى إطاريـن بصناديـق البـيرة والخمـور، ويدفعـه أمامـه حتـى يصـل بـه إلى «الرابطـة».

***

عمـل في المطبـخ عـدد كبـير مـن الأفارقـة الرجـال، بخـلاف رجـل مـصري واحـد عمـل مصادفـةً في هـذا المطبـخ، وهـو «موريـس إبراهيـم» الـذي كان يقـوم بتوريـد الخنازيـر للرابطـة، بخـلاف ذبحهـا وسـلخها، وأيضًـا طهيهـا. كان قصـير القامـة وسـمينًا، لـه بـشرة بيضـاء يشـوبها احمـرار خفيـف، مـع ملاحظـة بعـض البقـع الخمريـة وكأن وجهـه ملطـخ بالوحـل، لـه عينـان خـضراوان، يتحـدث الإنجليزيـة بطلاقـة. كان يعمـل لـدى الأجانـب القاطنـين في منطقـة السرايـات في وظيفـة «العنايـة بالحيوانـات»، كان مشـهورًا وسـط الأجانـب بهـذه الوظيفـة المهمـة جـدًّا، حتـى إنـه حصـل عـلى شـهادة خـبرة موثقـة مـن جمعيـة الرفـق بالحيـوان جـاء بهـا: «يجيـد العنايـة بالـكلاب والقطـط؛ مـن حيـث تقليـم الأظافـر، وقـص الشـعر، ونظافـة الأذن، وإعطـاء الحقـن والأدويـة» بالإضافـة لخانـة في الشـهادة تُفيـد بأنـه تـدرب عـلى يـد الدكتـور «روبـرت تيرنـر»؛ الطبيـب البيطـري الأسـترالي الـذي كان يقيـم في شـارع ٨٣ وعمـل عـلى إنقـاذ الحيوانـات الضالـة.. وبمجـرد النظـر في الشـهادة وقـراءة اسـم الدكتـور «روبـرت تيرنـر»، عـلى الفـور يفـوز بالوظيفـة ويتقـاضى أجـرًا كبـيرًا. وللأمانـة فـإن «موريـس» كان أمينًـا عـلى الـكلاب، يعمـل عـلى خدمتهـم بعنايـة، وكانـت الـكلاب عندمـا تشـاهده تسـعد بلقائـه. وذات مـرة قالـت لـه سـيدة إنجليزيـة:

- موريس، هل تستطيع أن تبتاع لي خنزيرًا صغيرًا؟

ظل لثوانٍ يفكر، ثم قال لها وهو يتلاعب بيديه البيضاوين السمينتين المزينتين بأنسيالات ذهبية:

- أستطيع.

- متى؟

- في أي وقت.

وفي اليوم التالي جاء لها بخنزير معلوف على المزبلة.. سعدت به جدًّا، وكان يظن أنها ستذبحه بمعرفتها، لكنها طلبت منه بعد ذلك أن يذبحه.. تقاضى عنه عشرين دولارًا نظير الشراء، غير خمسة دولارات نظير الذبح.. أخذ الخمسة والعشرين دولارًا، وسعد جدًّا بهذه الصفقة الرابحة؛ حيث إن الخنزير لم يكلفه شيئًا على الإطلاق. وذهب لها في اليوم التالي وقال لها: «أستطيع جلب المزيد من الخنازير». ولم تمر هذه القصة عليه مرور الكرام؛ فقد فطن لعدم وجود متاجر في الحي تبيع لحم الخنزير، حيث يُباع في الفنادق والمتاجر الكبيرة والقليلة جدًّا في وسط البلد، وخطط جيدًا ألا يترك هذه الفرصة تضيع من يده.. قدم خدماته للمدام، وبرع في تقطيع وتنظيف الخنزير؛ بحيث يكون جاهزًا للطهي. يبدو «موريس» للبعض شخصًا غريب الأطوار، انطوائيًّا، قذرًا، والحقيقة أنه لا يتعامل سوى مع الأجانب، لا يحب التعامل مع المصريين؛ دائمًا يحتقرهم، يشعر بالراحة في العمل مع الأجانب. استضافته إحدى الأمريكيات ثلاثة أشهر في أمريكا، عاد بعد هذه الزيارة منبهرًا، يتحدث الإنجليزية أغلب الوقت لتقوية اللغة، واستخدمها أيضًا في سب المصريين مستغلاًّ جهلهم. ستجده في كامل أناقته عندما يخرج لتمشية كلب؛ يدس يديه في القفاز الأبيض، ويرتدي

الملابس النظيفة المكوية بعناية.. علاوة على الرائحة التي تفوح منه؛ فهي تأتي له من الخارج، وكذا أغلب ملابسه.. يمشي بجوار الكلب بفخر، ويمسك في يده كرباجًا سودانيًّا طريًّا ينقعه في الزيت كل أسبوع ليزداد قوة ومتانة، يستخدم الكرباج في ضرب الكلاب الضالة حين تهاجمه. والحقيقة أن «موريس» شخص غير مرغوب فيه؛ سواء من حارسي العقارات، أو رجال الأمن الخاص، أو الخادمات المصريات، علاوة على عمال الحدائق.. فهم يكرهونه، مثلما هو يكرههم. لكن لا يستطيع أحد أن يُغضبه بطريقة مباشرة؛ فقط يُلقون بالكلمات في الهواء حين يمر من أمامهم، وعلى الفور يدرك أنه المقصود بهذه العبارات. وكانت العبارات تحمل إهانة بالغة؛ إذ قال له شخص ما قبل ذلك حين مر أمامه: «ها هو خادم الكلاب ومربي الخنازير».

ومثل هذه العبارات لا تؤثر فيه تأثيرًا بالغًا؛ وجهه يحتقن لبعض الوقت، ويتمنى لو يدخل ضدهم في معركة ليضربهم جميعًا، ولكنه كان يستريح لفكرة أنهم ما زالوا قابعين أسفل العمارات لا يفعلون شيئًا، بينما هو قد تزوج وألحق أبناءه بالمدارس الخاصة، واشترى شقة ١٥٠ مترًا في «كوتسيكا»، وله رصيد في البنك، وأخيرًا ابتاع سيارة فيات ١٢٨ حمراء بحالة جيدة يستقلها في أوقات فراغه بميدان دجلة أحيانًا، يتناول وجبة الغداء بداخلها حينما تأتي له إحدى الخادمات الأسياويات بالغداء، تمتلئ الشنطة الخلفية بالأدوية والإكسسوارات الخاصة بالكلاب لبيعها، ويعلق أمامه الشهادة الموثقة من جمعية الرفق بالحيوان؛ ينظر لها في تأمل ثم يقول: «هذه الشهادة أثمن من شهادة الجامعات» ويستأنف في نفسه مستمتعًا وقد استرخى فوق المقعد ينظر لمن حوله بازدراء: «آه يا أولاد العاهرات.. غطرستكم وتكبركم ستمردغ أنوفكم في التراب.. تُعلمون أبناءكم في الجامعات،

وتتظاهـرون بالعلـم.. العلـم الآن ليـس لـه قيمـة في بلادكـم.. اتفوخـص عليكـم وعـلى أفكاركـم الباليـة». ويؤمـن «موريـس» إيمانًـا شـديدًا بـأن هـؤلاء يحقـدون عليـه؛ فلـو واحـد منهـم يملـك نصـف مهارتـه في خدمـة الحيوانـات لـكان زاحمـه عليهـا بـكل قـوة، لكنهـم فشـلة لا يملكـون سـوى التهكـم عـلى الإنسـان الناجـح، وكانـت تسـعده جـدًّا الحكمـة التـي تقـول: «الشـجرة المثمـرة دائـمًا تُقـذف بالحجـارة».

بـدأ «موريـس» يـورد الخنازيـر للرابطـة في نهايـة الثمانينيـات، بعـد أن رحـل «أووسـمان مانييـه» وكان إفريقيًّـا جـاء بمعرفـة مـدام «ديوانـا»، كان يقـوم بطهـي الخنازيـر بأكثـر مـن طريقـة، فضـلاً عـن خبرتـه الواسـعة بلحـوم الخنازيـر؛ كان يـأتي بهـا مـن مزرعـة كبـيرة يـشرف عليهـا أجانـب تقـوم بتوريـد لحـم الخنازيـر للمطاعـم السـياحية والفنـادق، ولمـا رحـل قامـت مـدام «فالـيري» بترشـيح «موريـس»، وقامـت بإفشـاء أهـم الخلطـات السريـة لصنـع ألـذ لحـم خنزيـر. وتعلـم «موريـس» بسرعـة، وأتقـن بحرفيـة كبـيرة كل شيء، ولمـا قدمتـه أثبـت قدرتـه البارعـة عـلى أن يجعـل الـرواد ينسـون نهائيًّـا «أووسـمان»، واتفقـت «سِريـا» معـه عـلى توريـد الخنازيـر، وقالـت لـه مـدام «فالـيري» وهـي تقـوم بتوصيتـه: «أنـت سـتعمل في مـكان بمثابـة الأمـم المتحـدة.. هـل تفهـم؟ مهارتـك وذكاؤك همـا جنديـاك فقـط». وبـدأ في ذبـح وتقطيـع وتنظيـف الخنازيـر في مـكان خصصـه في منطقـة الزرائـب، ثـم يـأتي مـن البـاب الخلفـي ومعـه الصناديـق الشـفافة الممتلئـة بلحـم الخنازيـر الجاهـز للطهـي، يقابلـه العـمال أو بعضهـم بتهكـم، وكان يراهـم وكأنهـم أصنـام؛ إن «موريـس» لديـه قـدرة عجيبـة عـلى تجنـب الأشـخاص وكأنهـم ليسـوا موجوديـن.. يعكـف عـلى عملـه بمهـارة وعنايـة فائقتـين، يتحـرك في المطبـخ صامتًـا عينـاه في يـده، حتـى إذا اصطـدم بـه أحـد العاملـين متعمـدًا لا ينظـر لـه، يسـتأنف

عمله؛ إنه لا يريد أن تسمع عنه المدام أي كلام؛ سواء كلام طيب، أو غير ذلك.. قالت له ذات مرة: «العمل يكون في صمت؛ هل تفهم؟ من مصلحتك ألا أشعر بوجودك». والحقيقة أن المدام كانت لا ترتاح له، وكان يشعر بذلك، ولا ينسى أنه هو المصري الوحيد بين هؤلاء الأفارقة، ولكن بينه وبين نفسه يلعنهم ويكرههم، ولما ضاق بواحد منهم كان يناديه بالخنزير، بل بصق عليه ذات مرة، استأنف يومه وكأن شيئًا لم يكن، بينما هو يتشوق للانتقام منه، إنه تحملهم أكثر من اللازم، وقال في نفسه: «آه يا أولاد القرود.. والرب لأنتقم منكم جميعًا». وذهب للزرائب، وقد احتشد بخطة دقيقة، إنه يعرف هذه العصابة جيدًا، إنهم حزمة واحدة، ويعلم بقوتهم، ملقبون بـ«جماعة الرابطة»، هناك من يستأجرهم للقيام بأفعال عدوانية وخوض معارك ضارية؛ فكيف يتصدى لهم ولكراهيتهم؟ حاول أن يصدِّر لهم مسيحيته بأن علق صليبًا كبيرًا على صدره ليكسب تعاطفهم وقربهم، لكنهم تهكموا عليه، لدرجة أن أحدهم نزع الصليب من صدره؛ فجرحت السلسلة رقبته، ثم قال له: «هذا ليس مكانه» واقترب من وجهه وقال: «ألم أقل لك إنك مثل الخنازير لا تفهم» ثم قذف الصليب في سلة القمامة. كظم غيظه، وقرر أن ينتقم؛ إن لم ينتقم لنفسه فلينتقم لدينه. وجلس إلى أصدقائه في الزرائب، وقص عليهم كل شيء، بل بكى لدرجة جعلتهم ينتفضون ويصيحون بعبارات ثأرية: «الانتقام ممن أهان الصليب». واستطاع بقدرة كبيرة أن يبرز الجانب الديني في الصراع بينه وبين الأفارقة، إنهم لن يهتموا كثيرًا لو كان الصراع بينه وبينهم صراع موظفين؛ لذلك ظل يذكر الصليب وهو ملقى في سلة القمامة بعد أن نزعه منه القرد، ويقول: «لم أستطع حمله من سلة القمامة؛ تصدوا لي.. وفي النهاية استطعت أخذه وتنظيفه». إن «موريس»

على استعداد أن يجعلك تبكي من أجله؛ حيث لديه قدرة عجيبة على أن يجعلك تتعاطف معه، يستدعي حركات جسده السمين، فيرفع كتفيه المكتنزتين ليلتحما بشحمتي أذنيه، ويحني ظهره، ويستدعي نظرة منكسرة، علاوة على أنه يجاهد من أجل أن يظل طوال الوقت يسعل؛ لتأخذ عنه انطباعًا بأنه مريض، ويُخرج من معطفه علبة السجائر المحلية الرديئة المجعدة، ويستخرج منها السجائر بطريقة تثير الشفقة (هو يشتري هذا النوع الرديء من أجل هذه المهام فقط، أما هو شخصيًّا فيدخن السجائر الأجنبية)، ويعطيهم السجائر، وتكاد تلاحظ رعشة يده.. تعاطفوا معه، وقرروا الانتقام له وللصليب. وكعادة كل صباح، تنطلق العربات الكارو المختصة برفع القمامة عند بزوغ الفجر. وتحدد الموعد، قال «موريس» واصفًا الخطة بدقة: «عند بزوغ الفجر يبدءون في الرحيل، سيكون عددهم من خمسة إلى ستة، بينهم شخص أو اثنان محترمان، ولكن لا بأس من أن ينالوا قسطًا من الضرب. عند ناصية شارع ١٣ ستجدونهم واقفين ينتظرون تاكسي ليقلهم إلى منزلهم.. ستجدون أغلبهم مخمورين يصيحون بعبارات بذيئة، لكنهم مجردون من أي أسلحة. الشوارع في تلك اللحظة تكون أكثر هدوءًا وظلمة.. انتقموا منهم.. لن يشعر بكم أحد».

سمعوه بدقة، واتفقوا على أن ينتقموا بشدة.. صاح أحدهم: «كيف يهين هؤلاء الأفارقة الزنوج واحدًا منا؟! سنقتلهم».

ولم يكن «موريس» في حاجة لأكثر من أن ينالوا علقة تكسر عيونهم.

وانطلقت خمس عربات كارو.. كان الجو شديد البرودة، والشوارع مبتلة بالماء، عنوان ليلة ممطرة؛ ليلة عاصفة، اهتزت لها الأشجار العتيقة، واقتُلعت من أثرها أشجار الجازورين العجوزة.. الشوارع

هادئة كالعادة، وصوت العربات له رنين مألوف لدى السكان، ولكن السرعة فائقة، وفي كل صندوق عربة شخصان أو ثلاثة مدججون بالأسلحة البيضاء والشوم.. وانحدرت العربات ناحية الثكنات، وانطلقت إلى شارع ١٣ لا تلوي على شيء.. ووجدوهم يقفون منكمشين في ملابس شتوية يعانون البرد القارس، وفي لحظة واحدة وقفت العربات أمامهم تسبقها رائحة القمامة المعتقة، قفزوا من الصناديق وحاصروهم.. كانت أجسادهم نحيفة، عظامهم بارزة بقوة، رغم برودة الجو فإنهم كانوا يكشفون عن صدورهم وأذرعتهم.. ارتعد الأفارقة، وأبرزوا نقودهم تلقائيًّا، وخلعوا سلاسلهم الذهبية ووضعوها فوق الأرض، وجثوا على ركبهم، مستسلمين خاضعين، لم تصدر منهم أي مقاومة.. وفي أقل من لحظة أخذوا النقود والسلاسل، ومزقوا الباسبورات، وصاح أحدهم: «يا أبناء القرود، كيف تجرءون على إهانة الصليب؟ سوف نقتلكم جميعًا» وصرخ الأفارقة مستغيثين، ووضعوا رؤوسهم في الأرض؛ فانهالوا عليهم بالشوم بقسوة، وبلا أي رحمة.. وتألموا، وبدءوا يركضون في الشوارع الجانبية هربًا منهم.. كانوا يصرخون ويقتحمون مداخل العمارات لينجوا منهم.. كانت ليلة قاسية شهدت صراخًا وضجيجًا واسعًا.. وفي لمح البصر انطلقت العربات كلٌّ منها في طريق.

***

أما مدام «ديوانا» فهي المرأة الثانية في المطبخ بعد مدام «فاليري»، وهي أيضًا من جلبت العمال الأفارقة للعمل في الرابطة، خبرتها الواسعة سهَّلت كل شيء، كانت تحنو على الجميع بمن فيهم «موريس»، معروفة جدًّا في الكنيسة، والكل يحترمها ويقدرها.

وتبقى «ديوانا» السيدة التي حملت على عاتقها بناء مطبخ ضخم يستطيع خدمة عشرات الرواد في ليلة واحدة. تستطيع أن تضبط ساعتك عليها عندما تقف عند محطة الثكنات في السابعة صباحًا، ستجدها قادمة بخطوات بطيئة توحي بتقدم سنها. هي تقطن في شارع ١٠ القديم؛ ولذلك تستقل المترو محطة واحدة، من محطة المعادي إلى ثكنات المعادي، ستجدها تجر وراءها ترولي محملاً بحقيبتها وبعض الأشياء الخاصة، تشق طريقها من ناحية شارع الثكنات، ويبدأ الأجانب في مصافحتها والحديث معها، تمتلك وجهًا يحوي بين قسماته تاريخًا ممتلئًا بالمشاحنات والعقابات، تشعر في نبرة صوتها بالحكمة؛ هي بالفعل سيدة حكيمة في قراراتها، وفي تصرفها مع العمال.. ترتدي البنطلونات الفضفاضة والسترات الواسعة، وتضع على رأسها طرحة، تلاحظ أن هناك عرجة في ساقها اليمنى، ولتلك واقعة.. عندما تجلس معها وتتحدث، ستشعر بالراحة؛ تنظر لك بعينيها الطيبتين، وتشعر في ملمس يدها بحنان عجيب، تقول لك بابتسامة كبيرة كاشفة عن أسنان هالكة صدئة إثر التدخين بشراهة، فضلاً عن تناول القهوة والشاي:

- أنا ديوانا، من جنوب إفريقيا، أستطيع خدمتك.. هل ترغب في شيء يا سيدي؟

ثم يحتقن وجهها وتقول: «هذه العبارة أقولها منذ ستين عامًا؛ منذ أن عملت بادئ الأمر عند أسرة إنجليزية في جوهانسبرج، كان هذا أول عهدي بالعمل، كان عمري لم يتجاوز الخامسة عشرة، كانت الأسرة مؤلفة من زوج وزوجة وثلاثة أطفال لم يحسنا تربيتهم، كانوا ينادوني بالفتاة السوداء، وكانوا يفعلون بي أشياء مقززة، وكانت أمهم تتابع ذلك وتضحك، لم تجد أي غضاضة في أقوالهم وأفعالهم، رغم أنها كانت تعمل في حقوق الإنسان وتدافع عن حقوق الأفارقة!

واكتشفت فيما بعد سرًّا خطيرًا لم نكن نعلمه نحن الأفارقة» ثم تهمس بصوتٍ منخفض يملؤه السخرية: «نحن لسنا بشرًا.. هذه الحقيقة عرفتها مؤخرًا» ثم تستأنف: «تركتهم وعدت إلى أهلي، وقالت لي أمي وقتها: ديوانا، لا يجب أن تسمعي كل شيء، وأن تشعري بكل شيء. وقالت لي جملة ما زالت محفورة في عقلي: نحن فقراء، وبلادنا فقيرة يا ابنتي. ثم ذهبتُ للعمل عند أسرة أخرى، كانت سيدة زوجها يعمل بعيدًا ولها ابنه واحدة، الحقيقة شعرت بالراحة مع تلك الأسرة؛ لا لأنهم ليسوا عنصريين، ولكن لأن المرأة كانت مشغولة في عملها، والابنة كانت انطوائية، وكانت لي صديقة من بلدتي كنا نجلس وقت فراغنا نتحدث عن متاعبنا وحياتنا، وكنت أقوم بعملي على أكمل وجه، كنت أشعر أنني في قارب يشق طريقًا واحدًا لا يمكن أن يسلك غيره، وهذا الشعور كان يتأكد لي يومًا بعد يوم.. واستسلمت للعمل عند هؤلاء العنصريين، وارتضيت أن أعيش حياة تقليدية عاشتها وتعيشها آلاف البنات مثلي.. وتزوجت، وبعد عشرة أعوام مات زوجي عندما سقط من الطابق الخامس وهو يقوم بتركيب نافذة، ترك لي ثلاثة أطفال، قمت بتربيتهم وتعليمهم حتى صاروا كبارًا» وسرعان ما تُخرج لك حافظتها القديمة المصنوعة من الجلد الطبيعي، وتفردها لتتحول لفاترينة صور، فتُطلعك على الصور وهي ترشدك إلى أسمائهم وصفاتهم في سعادة مؤقتة إن جاز التعبير، ليعود وجهها محتقنًا، وتستأنف:

«لقد عملت عند عشرات الأسر» وتضحك في سخرية وتقول: «قمة المرارة التي كنت أشعر بها وأتجرعها كل يوم هي أن يتاجر شخص بك، ويتظاهر بالدفاع عنك؛ لأن لونك أسود، فأنت لا تستطيع الدفاع عن نفسك.. لأنهم يؤمنون بذلك، لن يسمعوك،

ولـن يفهمـوك؛ فأنـت شـخص شـاذ بينهـم.. إنهـا تجـارة يـا سـادة. ويـوم أن جـاء لي شـخص دائـمًا كان يتظاهـر بالتواضـع وتقديـر السـود وربـت فـوق مؤخـرتي، أدركـت حينـذاك مـاذا يريـد.. أبعـدت يـده وقلـت: هذا لا يجـوز، مـن فضلـك توقـف. قـال لي: أنـتِ لطيفـة وجميلـة جـدًّا. وأبـرز مـن جيبـه دولارًا وطبقـه بعنايـة، ثـم قـال لي: تعـالي. قلـت لـه: مـن فضلـك. اسـتغرب وقـال لي: أنـا أريـدك. فقلـت لـه بعصبيـة كلفتنـي وظيفتـي: مـن فضلـك. ولمـا دفعتـه بيـدي اسـتغرب ذلـك، وقـال لي بغطرسـة: أنـتِ مجنونـة، وسـوف أعاقبـك. وقـد كان.

وعندمـا أُصبـت في قدمـي، وكنـت حينهـا أعمـل في مزرعـة رجـل إنجليـزي مغـرور، كان يزعـم أنـه طبيـب، ولا أعـرف هـل كان طبيبًـا فعـلاً أم كان يدَّعـي ذلـك، كان يجمـع أطفـال البلـدة ويحقننـا بأمصـال، كان يقـول إننـا مـرضى، وإنـه يعالجنـا، وكنـا نستسـلم لـه لأنـه فقـط إنجليـزي أحمـر.. هاجمنـي ثـور وكـسر قدمـي، تقاعـدت عـن العمـل وقتًـا طويـلاً. وعندمـا اسـتأنف أبنائـي حياتهـم بـدوني، جئـت إلى القاهـرة في منتصـف السـبعينيات مـع أسرة إنجليزيـة تعمـل في الآثـار، ومنـذ هـذا الوقـت وأنـا أتنقـل بـين الأسر هنـا في الحـي الإنجليـزي، هـذا الحـي أعرفـه كـما أعـرف بلـدتي «كايلتشـا» في جنـوب إفريقيـا، عندمـا كانـت ترحـل أسرة أسـتقر عنـد أخـرى، كان يحـدث هـذا تلقائيًّـا.. فأنـا معروفـة في الكنيسـة، وكان أغلـب السـكان الأجانـب يعرفـوني، تحدثـت اللغـة العربيـة بطلاقـة، لشـدة مـا كان يـروق لي الجلـوس مـع العـمال والخادمـات المصريـات.. هـم أيضًـا فقـراء مثـلي ويبحثـون عـن الـرزق، بلادهـم فقـيرة، أو مسروقـة.. إن الفقـراء تجمعهـم دائـمًا لغـة واحـدة، وشـعور واحـد، ودائـمًا مـا يجـدون الراحـة والـدفء فيـما بينهـم. بيـد أننـي أتيـح لي العمـل عنـد بعـض الأسر المصريـة، ولكـن شـيئًا مـا كان يحـول بينـي وبـين العمـل عندهـم.. لا

أعرف ماذا بالتحديد.. ربما كان السبب هو عدم تقديرهم للخادمة ماديًّا. وحظيت بالعمل عامًا بعد عام، لم أتعطل يومًا.. أُرسل ثلث راتبي لابنتي المطلقة التي تعول ثلاثة أبناء، وأكتفي بالباقي. لا أعرف مدينة أخرى في مصر سوى هذا الحي.. خمسة عشر عامًا وأنا أعيش فيه دون أن أتركه.. أحفظ شوارعه الهادئة عن ظهر قلب.. أحفظ أشجاره وفيلاته.. تريحني رائحته الياسمينية.. تدغدغ مشاعري رؤيتي للأطفال أبناء العاملين الفقراء وهم يتسلقون أشجار الفاكهة كل صباح باكر، فيذكروني بنفسي وأصدقائي.. حتى استقررت هنا في الرابطة.. إنها قصة رائعة؛ أليس كذلك؟!» هكذا تقول وهي تبتسم.

تدخل من الباب الخلفي في السابعة والنصف، يكون العمال المختصون بالنظافة قد جاءوا واستلموا الخضار من شركة «سيكم»، وطبعًا عمال الشركة كانوا يسعدون جدًّا لعدم وجود «ديوانا»؛ لأنها كانت ترهقهم في عملية التسليم، إذ لا بد أن يكون الخضار طازجًا ونظيفًا، لكن بعض الشباب الأفارقة كانوا يستلمون بسرعة، اختصارًا للوقت، فضلاً عن قرفهم وكرههم للأجانب «لماذا يأكلون كل شيء طازجًا ونظيفًا؟ لماذا كل هذه الدقة؟ إنهم يحرصون على أنفسهم.. مزيد من الحرص.. مزيد من القرف والغطرسة» هكذا كانوا يحدثون أنفسهم، وعندما تأتي «ديوانا» يقولون لها: «الخضار طازج ورائع.. تعالي وانظري» وينتظرون بقلوب خائفة حتى تتفحص الخضار بطريقة عشوائية، ثم تأمر بغسله في الحوض الكبير، وبعد ذلك تصنع لنفسها فنجان قهوة، وتجلس ترشف منه باستمتاع وهي تدخن. ويتوالى بعد ذلك دخول العمال، ويسلمون عليها بكلمة «ماما»؛ لا شك أنهم يحبونها جدًّا، ويحرصون على راحتها، ويئتمنونها على أسرارهم. واكتسب «موريس إبراهيم» ثقتها، وكان يحتمي بها من

«جماعـة الرابطـة».. عنـد فراغـه يهـرع ليصنـع لهـا فنجـان قهـوة، ويعـزم عليهـا بسـيجارة مسـتوردة، تهـز رأسـها وهـي تتناولهـا وتقـول: «أنـت لسـت سـهلاً يـا موريـس.. مـاذا تريـد؟». عـلاوة عـلى أنـه يدعوهـا ليأخـذ رأيهـا في خلطـة معينـة، بيـد أنـه بينـه وبـين نفسـه يكـون قـد قـرر هـذه الخلطـة، لكنـه دائـمًا يُصـدِّر لهـا هـذا الشـعور بالأهميـة. وعـلى الرغـم مـن أنهـا سـيدة طيبـة جـدًّا، فإنهـا عندمـا تغضـب لا تسـتطيع إيقافهـا؛ تندفـع بقـوة هائلـة، وترطـن بأكثـر مـن لغـة، وتقـدم عرضًـا كبـيرًا مـن الحـركات الجسـدية والإشـارات المقـززة.. نعـم هكـذا تبـدو «ديوانـا» في هـذه الصـورة عندمـا تغضـب. وحـدث أنهـا غضبـت عـلى «جماعـة الرابطـة» بعـد أن ذهبـت لهـا مـدام «فالـيري» وقالـت لهـا بطريقـة وديـة: «إنهـم يفعلـون أشـياء عدوانيـة» وصاحـت مـدام «ديوانـا»: «هنـا في الرابطـة؟» فقالـت لهـا: «لا، إنهـم يفعلـون ذلـك في الخـارج، ويتحرشـون بالبنـات الصغـيرات.. تحدثـي معهـم؛ إنهـم يخافونـكِ ويحترمونـكِ جـدًّا».

***

سـتنفذ إلى أنفـك رائحـة الشـواء، وإذا اقتربـت شـيئًا سـتزكم أنفـك رائحـة الكحـول.. في محيـط الرابطـة انتـشرت تلـك الروائـح. وبالقـرب مـن الرابطـة ناحيـة ميـدان دجلـة تقـع فيـلا مسـتقلة ضخمـة لهـا حديقـة شاسـعة، يرتادهـا بعـض الأجانـب بخـلاف شـخصيات سياسـية معروفـة، تعـرف مـدام «سِريـا» صاحـب تلـك الفيـلا جيـدًا، قبـل أن يتعاونـا مـع بعضهـما البعـض، وكثـيرًا مـا مارسـا رياضـة المـشي كل صبـاح، خاصـةً عندمـا يكـون معـه كلبـه الضخـم ذو الشـعر الكثيـف المرفـه فصيلـة «لابـرادور»، فالكلـب يقابلهـا بـود لا يقـل عـن ود صاحبـه؛ حيـث يقفـز حولهـا ويلعـق حذاءهـا في سـعادة.. تحدثـا أثنـاء المـشي كل صبـاح في أمـورٍ كثـيرة، والرجـل هـو الدكتـور «إبراهيـم مسـعود» مديـر مركـز

التنوير للدراسات الإنمائية، الذي يقع في المقطم، وكان المركز يدافع عن حقوق الأقليات، والديمقراطية بشكل عام، ودفع السيد إبراهيم ثمنًا غاليًا حيال دفاعه عن الحقوق؛ اعتُقل مرة، ونُفي مرة في عهد الرئيس جمال عبد الناصر، وشاع عنه مؤخرًا أنه جاسوس، حتى التصقت التهمة به. وللعجب أن السلطات لم تحاكمه بتهمة الجاسوسية التي ألصقتها به، وإنما وجهت له تهمة تلقي الأموال من الخارج دون تصريح، وصاح السيد إبراهيم في وجه المسئولين: «البلد نفسها عايشة على الدعم الخارجي من منتصف الخمسينيات». وحُكم على الدكتور بالسجن لعدة سنوات بتهمة الإساءة لمصر وتلقي أموال من الخارج.. وردد البعض أنه ليس فقط جاسوسًا وإنما ملحد؛ يتردد على نوادي الأجانب، ويعاقر الخمر، ويضاجع النساء. أما دفاعه الدائم عن المسيحيين، فهذا واقع تحت تأثير زوجته الأمريكية المتعصبة لمسيحيتها والكارهة لمصر والمصريين. وللأمانة كل هذه الضغوط وصلت للرجل، وشعر لمرات بالخوف؛ لذلك كان لا يتحدث إلا بحرص، خاصةً في الندوات واللقاءات الشعبية في الريف، لدرجة أنه قال مرة: «شغلتي أني أراقب الناس» ويبدو أنه شاهد شيئًا على وجوه الجالسين، فسرعان ما تدارك الجملة قائلاً وعلى وجهه ابتسامة خفيفة: «وده يعود لأني عالم اجتماع.. ها ها ها». لكن من يعرف السيد إبراهيم سيجده شخصًا جديرًا بالاحترام. إلا أن حياة الرجل ومظهره لم يروقا للكثيرين من العامة؛ فمثلاً اصطحابه لكلبه الكبير، علاقته بالأجانب وموظفي السفارة الأمريكية، علاوة على طريقة ارتدائه للملابس؛ فدائمًا يحذو حذو الأجانب.. البساطة في الملابس التي كانت تعكس عند البعض شيئًا شاذًّا، الشورت والتيشرتات الفضفاضة ذات الألوان الزاهية، والأحذية الرياضية.. حتى إذا ارتدى

بدلة يكون لون القميص زاهيًا، والكرافتة كاروهات.. وهكذا تبدو ملابسه غير متناسقة بالمرة، ولا تتناسب أيضًا مع سنه المتقدمة، فضلاً عن القبعة الكاوبوي الأمريكاني، وتدخينه للغليون، وطريقة حديثة التي تمتاز بنبرة هادئة.. ملامح وجهه تأخذ شكلاً فلسفيًّا، فكأنه فليسوف؛ الشعر الهائش الأبيض، ملامح وجهه المكتنز بالشحوم، شاربه الكث الأشعث الملتصق بلحية بيضاء صغيرة أسفل فمه.. كل ذلك صبغه بالشكل الأوروبي؛ فأنكره العامة من الناس، شعروا أن ثمة فوارق بينهم وبينه.

وكان ملقبًا عند رجال النظام بـ»الرجل الديمقراطي»؛ وهذا ليس إيمانًا منهم بالديمقراطية، ولكن رجال أمن الدولة كانوا يقولون عنه مثلاً: «شوف يا سيدي، إبراهيم مسعود بتاع الديمقراطية ده آخرته إيه؟».

والسيد إبراهيم مسعود هو أيضًا أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الأمريكية، ومنذ أن كان قائدًا للطلاب في جامعة القاهرة وهو مناصر للديمقراطية. عندما تذهب لفيلته القابعة وسط أشجار الكافور العملاقة، والملاصقة لمدرسة الليسية الفرنسية، ستجد إنسانًا بسيطًا على الإطلاق، فلا يغرك مستواه الاجتماعي وسيارته المرسيدس الفخمة، مع الملاحظة بأن السيارة جمرك، وزوجته الأمريكية.. فهو رجل ينتقي كلماته، ويستطيع تقييم الشخص الذي يحادثه، ستجد في بيته كل التيارات السياسية من اليمين إلى اليسار، وستستمع لنقاش عميق حول سياسة الدولة، وما يجب أن يحدث لهذه السياسة لتكون في مصاف الدول المتقدمة، وكان يقول لهم بصوته الواهن:

- الديمقراطيه هي اللي هتأسس دوله قوية.. كفاية كلمة الراجل الواحد.. وصوت الراجل الواحد.. البلد لازم تاخد فرصتها.

يشعر إبرهيم مسعود بأنه لو تحققت الديمقراطية في مصر، سيكون لها مكانة كبيرة. ولما كان يدخل في مناقشة مع أحد أقطاب الإخوان المسلمين، كان يقول له:

- أنتم تكفرون بالديمقراطية وتصورونها للناس على أنها حكم الشيطان.. بدون الديمقراطية لن تصلوا لحكم مصر.

وذات يوم عاد إلى البيت سعيدًا جدًّا، كان وجهه يشع بابتسامة وضيئة؛ فلقد بعث له رئيس الجمهورية سكرتيره الخاص يقول له:

- إنت وجعت دماغ الرئيس بالديمقراطية بتاعتك يا دكتور مسعود.. والرئيس بيقولك اكتب تصورك عن الديمقراطية في مصر عشان يطَّلع عليه.

واستغرق في الكتابة بحماس شديد، فلقد أخذ البحث منه أسبوعًا كاملاً؛ حيث تفرغ له نهائيًّا، حتى إنه امتنع عن الذهاب لمركزه، وكانت زوجته تحثه على الراحة، لكنه كان يجد الراحة في إعداد وتبسيط مفهوم الديمقراطية.. أبرز فوائدها بعبقرية، واستطاع أن يحد من تأثيرها على الرئيس نفسه؛ قال بينه وبين نفسه: «تأتي الإصلاحات قليلاً.. قليلاً.. قليلاً.. حتى يكتمل الإصلاح» فهو يعلم أن الرئيس لن يقرأ إلا سطورًا من بحثه، هذا إذا قرأ؛ ولذلك وضع احتمالية أن يلقي نظرة على البحث من باب الفضول، فلخص عشرات الصفحات في عدد قليل.. إن رزمة ورق كبيرة من الممكن أن تزعج الرئيس، وتجعله يقذف بها في وجه من أمامه، أما عشر ورقات أو أكثر قليلاً فلن تجعله يتوتر، ربما تمنحه العناية الإلهية فرصة أن يقرأ ولو عدة ورقات. في النهاية أنجز البحث، وذهب للسكرتير، وقدمه له وقال: «أنا تحت أمر سيادة الرئيس في أي استفسار» ولكن شيئًا

فشيئًا بدأ يشعر بنوع من الاضطراب؛ ظل منتظرًا شهرًا بعد شهر وعامًا بعد عام.. ولم يتحقق شيء.

تعاون مع المدام، وساعدها في توظيف الأموال في الرابطة

أما في صباح هذا اليوم فقد اتصل بها ودعاها للحديث في أمرٍ مهم؛ وذهبت له حيث فيلته، استقبلها وزوجته مدام «كيت» بحرارة، وجلسوا في الصالة، وجاءت مدام «كيت» بالقهوة.. أشعل غليونه ونفث الدخان بتوتر، ثم اعتدل في جلسته حيث فرد قدميه أمامه (فالدكتور مسعود يعاني التهاب المفاصل)، وقال:

- إنهم يراقبونكِ.

- من؟

- الحكومة.. علمت بنشاطك.. أنتِ أحدثتِ ضجة كبيرة وشعبية عظيمة في طُرة البلد والبساتين.. وهذا أزعجهم.

(بالطبع أسعدها هذا المردود، وكأنها شهادة نجاح من جهة موثوق بها.. فهي تعلم قوة مركز «التنوير»؛ فالمركز لديه فريق كبير قادر على المراقبة وكتابة التقارير).

- ماذا أفعل؟ هكذا قالت في براءة.

- لا تذهبي كثيرًا، أو لا تجتمعي بالسيدات كثيرًا.. لا تتحدثي؛ إنهم يكرهون من يتحدث.. قدِّمي المساعدات فقط.. ولا تنتظري كثيرًا.

- معقول هذا؟

- أفضل بكثير من أشياء يستطيعون فعلها بسهولة.. أشياء قذرة.

شعرت بالخوف للحظات، لكنها احتجت:

- لا يستطيعون فعل شيء معي.. أنا أمريكية.
- إنهم لـن يخاطبـوكِ خطابًـا رسـميًّا، ولـن يقدمـوا شـكوى للسـفارة.. لـن تشـاهدي أحـدًا منهـم.
- ماذا سيفعلون إذن.. أريد أن أفهم؟
- لا أعرف بالتحديد.. ولكن لا آمن مكرهم.

وظـل السـيد إبراهيـم للحظـات صامتًـا، وقـام نحـو التليفـون، ثـم عـاد وجلـس وظـل شـاردًا يعبـث في لحيتـه الشـعثاء، فنظـرت لـه «سِريـا» وقالـت:

- ماذا حدث مستر إبراهيم؟
- لا أعـرف بالتحديـد، لكنـي لسـت مطمئنًـا، مُنعـت مقالتـي في الصباح، واتصلـت بالمركـز ولا أحـد يرد.

فقالت له زوجته وهي تربت على ظهره:

- لا تدع الأفكار السيئة تتمكن منك.
- سـأذهب إلى المركـز.. لا بـد أن أذهـب.. أكيـد حـدث شيء.. المديـرة هنـاك والموظفـون.
- إبراهيـم، انتظـر نصـف سـاعة وتحـدث مـرة أخـرى. هكـذا قالـت زوجتـه في عصبيـة.

وفجـأة سـمعوا طرقًـا شـديدًا عـلى البـاب الخارجـي؛ طرقًـا أفزعهـم، كأن أحـدًا أمسـك بهـراوة وأخـذ يطـرق بهـا البـاب.. وهرعـت زوجتـه ووجههـا محتقـن وفتحـت البـاب؛ حيـث لم يكـن أحـد مـن الشـغالين متواجـدًا.. واندفـع للداخـل أكثـر مـن عشريـن رجـلاً في ملابـس مدنيـة، مدججـين بالسـلاح.. وفـور رؤيتهـم صرخـت «سِريـا»:

- عصابة.

وفزع الدكتور إبراهيم على الرغم من شعوره بمجيئهم، وتقدم نحوهم وواجه رجلاً ضخمًا في بدلة رمادية وتحجب عينيه نظارة شمس كبيرة، وكان يعرفه، لكنه تعمد أن يتجاهله وتساءل في عصبية:

- من أنتم؟
- «حسام خليل» رئيس نيابة أمن الدولة، اتفضل معنا يا دكتور. وفي لمح البصر، كأنهم مقيمون في البيت يعرفون كل ركن فيه، اندفعوا نحو المكتب، وغرف النوم، حتى المطبخ، وأخذوا كل الأوراق، وصادروا معظم ما وجدوه، وقادوه بالقوة تحت تهديد السلاح.. وفي الخارج، كان هناك طابور من السيارات الجيب، فضلاً عن سيارة الأمن المركزي، والجنود المدججين بالبنادق، وانطلقوا به إلى «مركز التنوير».. وهناك طوَّق الجنود المركز، فضلاً عن اقتحامه من الداخل، وقيدوا كل الموظفين، حتى المديرة اللبنانية كانت مكبلة معصوبة العينين، وظلت تصرخ: «مجرمون».

وانفعل الدكتور واحتج، وقال في عصبية:

- فكوا وثاقهم، وإلا فلن أُبدي أي تعاون. واستجابوا له، وظل الدكتور إبراهيم يهدئ العاملين.. وتم القبض عليه ومعه أكثر من عشرين باحثًا، واقتادوهم إلى جهاز أمن الدولة، وخضع الدكتور لتحقيقٍ متواصل.

***

ها هي جالسة بمفردها في البلكونة العريضة التي تطل على الحديقة الخلفية، سمعت من خلفها «ديوانا» تقول لها بصوت منخفض:

- لم يعد أحد في الحديقة يا سيدتي.. «خرستوف» أغلق الباب الرئيسي.

هزت رأسها في بطء، فتساءلت «ديوانا»:

- هل أُحضر لكِ شيئًا؟

- لا، اذهبي أنتِ واستريحي.

ذهبت «ديوانا» وقامت هي نحو دولابٍ صغير، وبلمسة رقيقة التقطت منه أسطوانة «قوة القدر» لـ«**Giuseppe Verdi**» ثم ألقمتها الغرامافون العتيق الذي تحتفظ به منذ وفاة والدها، وسرعان ما صدحت المعزوفة بهذا الإيقاع الصارخ، فجلست على المقعد ورفعت ساقيها فوق سور البلكونة وغاصت بجسدها كله في بطن المقعد الكبير الهزاز، وأغمضت عينيها في استسلام تام، وظل اللحن في إيقاعه الصارخ الكلاسيكي يصدح في أركان الغرفة، وهي غارقة في التأمل. حدثها «آرون رود» في التليفون، وكان صوته حزينًا: «نعم اعتقلوه يا سِريا، والسفارة ستتحرك». كان الجو ربيعيًّا، النسمات تداعب أوراق الشجر برقة، والهدوء يسود المحيط. وتأملت بفضول فيلا «شيكلي» وكانت أشبه بمعبد فرعوني مهجور؛ حديقتها شاسعة، نوافذها كبيرة ومثلثة، والشرفات كبيرة، تشبعت بالأتربة وتكاثفت عليها الأشجار العملاقة، فغطتها بأفرعها حتى امتدت داخل النوافذ والشرفات، وهمست في نفسها: «أفتقدك كثيرًا يا سيلفانا.. ما أخباركِ الآن؟».

***

«أنا سِريا هوارد مورس»

أبي هو عالم الآثار الناجح «هوارد مورس»، وأمي هي المرأة الرقيقة عازفة البيانو. عندما تركنا الصحراء وحضرنا إلى هنا، سعدت

جـدًّا بالإقامـة في هـذا البيـت الكبـير، وسـعدت أكثـر بصداقـة جـارتي «سـيلفانا» التـي كانـت تقطـن هـذه الفيـلا الضخمـة مـع أسرتهـا، فهـي مـن عائلـة يهوديـة (وكان اليهـود يشـكلون نسـبة كبـيرة مـن قاطنـي الحـي الإنجليـزي). دخلتهـا أول مـرة وهـذا منـذ أكثـر مـن ثلاثـين عامًـا، لمـا تعمقـت علاقتـي بـ«سـيلفانا»، بدأنـا في اللعـب معًـا بالدراجـات، كانـت الشـوارع واسـعة تظللهـا الأشـجار الضخمـة فتبـدو كمظـلات عملاقـة، خاصـةً أشـجار الجميـز العتيقـة التـي اصطفَّـت فـوق الطـوار، وكانـت لا تسـير فيهـا سـوى عربـات الحنطـور. كانـت لـ«سـيلفانا» أم كريهـة دائمـة الصيـاح، وكان والدهـا أنيقًـا جـدًّا، وكنـت بينـي وبـين نفسـي أكـره أمهـا جـدًّا؛ لأنهـا كانـت تتـصرف بعنصريـة مـع الخـدم، وكانـت تشـكل حاجـزًا كبـيرًا بينـي وبـين «سـيلفانا»، كنـت لا أشـعر بالراحـة في وجودهـا؛ فهـي لا تتوقـف عـن مراقبتـي عندمـا أجلـس لأسـتمتع بعـزف «سـيلفانا» عـلى البيانـو؛ فهـي تلميـذة أمـي، كانـت رقيقـة جـدًّا أشـبه بفراشـة، شـتان بينهـا وبـين أمهـا ذات الابتسـامة الغامضـة، كانـت شـديدة الثـراء، وكان أبي موظفًـا بسـيطًا «عـالم آثـار»، يعكـف طـوال الوقـت عـلى أبحاثـه، ثـم يقـوم بنشرهـا. علمـت فيـما بعـد أنهـا وجهـت اللـوم لمسيو «هـراري» لأنـه جـاء بنـا إلى هـذه الفيـلا، وقـال لهـا مسـيو «هـراري»: «هـذا ليـس ذنبـي؛ مسـيو سـوارس يقـدِّر العلـماء الذيـن يبحثـون عـن تاريـخ أجـداده». وشـعرت أمـي بهـذه الشِّـحنة العدائيـة التـي امتـلأت بهـا نفسي تجـاه هـذه المـرأة، فحدثتهـا عنهـا بتهكـم، رغـم أننـي كنـت طفلـة، لكـن الأطفـال يشـعرون بمـن يكرههـم وبمـن يحبهـم، الأطفـال يسـتطيعون أن يقيِّمـوا الأشـخاص بفطـرة خلقهـا الله فيهـم، وأزعـم أننـي كانـت لـديَّ مَلَكـة مـن هـذا النـوع.. وكانـت أمـي عندمـا تسـمعني أتهكـم عليهـا وأسـخر منهـا، تؤنبنـي وتضربنـي وتقـول لي: «أنـتِ لسـتِ مهذبـة، ثرثـارة.. لا تتحدثـي

في هـذه المسـائل» أعتقـد أن ذلـك كان في عـام ١٩٣٩ . كانـت «سـيلفانا» تماثلنـي في كل شيء، لكنهـا كانـت مصريـة صميمـة.. عيناهـا سـوداوان، ولهـا أنـف مرفـوع، وكانـت تتحـدث بعينيهـا.. كـم كانـت رائعـة.

كنت أقيـم مـع والـديَّ في منطقـة صحراويـة، بالقرب مـن هنـا، كان أبي ضمـن بعثـة الآثـار الأمريكيـة، وكانـت هنـاك اسـتراحة كبـيرة؛ بنـاء مطلي باللـون الأصفـر، عـلى البـاب الخارجـي لافتـة خشـبية صغـيرة مكتـوب عليهـا: «مقـر بعثة الآثـار الأمريكيـة» كان ذلـك في عـام ١٩٣٨ ، كان عمري سـتة أعـوام تقريبًـا، وكانت أمي تشـكو كل يـوم من مهاجمـة الثعالـب لبيتنا، واسـتقرارهم أسـفل النوافـذ وضباحهـم المستمر؛ مما جعـل أبي يخـرج كل ليلـة حامـلاً بندقيتـه ويطلـق رصاصـة في الهـواء ليهربـوا بعـد ذلـك، لكـن المسـألة تكـررت عـلى مـدار العـام، وفي يـوم اسـتيقظت أمـي ووجـدت ثعلبًـا مقتـولاً أمـام الاسـتراحة؛ فقالـت لأبي بحـدة: «كيـف قتلتـه؟».

قـال أبي إنـه لم يقتلـه، ولكـن ليلـة أمـس سـمع وهـو في القبـو عـدة طلقـات ناريـة، ولمـا سـأل «خليـل» وكان فلاحًـا يقـوم عـلى حراسـة الاسـتراحة، لكنـه يخلـد إلى النـوم مبكـرًا ليسـتيقظ مبكـرًا، فضـلاً عـن أنـه عجـوز؛ حيـث تراكـم الشـمع في أذنيـه مما جعلـه لا يسـمع أحـدًا.. قـال لوالـدي: «ربـما شـخص مـا كان يطاردهـم». فقالـت والـدتي في إصرار: «لا بـد مـن تـرك الاسـتراحة».. عـلاوة عـلى أن بعـض أعضـاء البعثـة انتقلـوا للسـكن بالقـرب مـن النيـل. وقـال والـدي لأمـي ذات يـوم إنـه تقـدم بطلـب للبعثـة بـأن يسـكن في فيـلا مسـتقلة، وبالفعـل جـاء لنـا ذات صباح صيفـي رجـل في عربـة يجرهـا حصـان، كان يرتـدي ملابـس شـتوية رغـم حـرارة الجـو، وكان عجـوزًا، قـال لأبي: أنـا «أرنسـت هـراري» المحامـي.. جئـت لأسـلمك بيتًـا.

سعدت أمي جدًّا بهذا الخبر، وكان والدي سعيدًا جدًّا. ولما انتقلنا إلى هذه الفيلا لم يتغير شيء؛ كانت المنطقة صحراوية أيضًا، لا يوجد سوى هذه الفيلا الخلفية؛ فيلا «شيكلي»، وفيلا في بداية الطريق الخارجي أظنها فيلا الوزير «أحمد باشا عبد الوهاب» وزير المالية، وعدة بيوت صغيرة متفرقة على مسافاتٍ بعيدة، لكن وجدنا الراحة هنا؛ كانت الطرق مقسمة جيدًا، حتى زراعة الأشجار كانت وفق خطة مسبقة، كانت أشجار الكافور كثيرة وفي كل مكان، وأيضًا أحواض ثمار الكروم في كل مكان، وكنا نتسلق الأشجار فنرى الأرض بعيدة جدًّا، كانت الأشجار عملاقة، أو كانت الأشياء تبدو كذلك لأننا كنا صغارًا، كانت البيوت بدون أسوار، لكنها مُؤَمَّنة جدًّا. علمت أن هنا كانت أول محطة «طاقة شمسية»، وسعدت جدًّا بأن المخترع كان أمريكيًّا يُدعى «فرانك شومان»، توجد لديَّ صورة له، وأيضًا حصلت على صور أخرى التُقطت لموقع المحطة. قال لأبي السير «تشارلز وينتون» موظف شركة الدلتا لتقسيم الأراضي، وكان يقيم في فيلا صغيرة، ويقول أبي إن هذا الرجل ضمن قليلين ممن شاهدوا السيد «فرانك شومان»:

جاءني ذات صباح في بداية عهد الشركة؛ حيث ما زالت أراضٍ كثيرة تحت التخطيط الهندسي.. نعم كان الحي قد قطنه الوجهاء ورجال المال اليهود، فضلاً عن القادة الإنجليز وبعض الباشاوات المقربين من السلطان حسين كامل، لكن التمدد العمراني ظل محدودًا في بقعة صغيرة، وذات يوم جاءت الفرصة الرائعة للترويج للحي، كنا في حاجة ماسة لأي مشروعٍ كبير يجذب السكان، أسرفنا في طبع الإعلانات، وفي الدعاية، ولكن ظل الحي مظلمًا، الجميع يرغب في أن يقطن بالقرب من المدينة، إلى أن ظهر «فرانك شومان».. ذات صباح

دخل عليَّ في مكتبي بمقر الشركة في وسط القاهرة، رجل قصير يرتدي قبعة عالية، ووجهه مدور، ويضع عوينات مدورة ذات إطار رقيق على عينيه الضيقتين، وقال لي:

- أنا فرانك شومان، جئت لأنفذ مشروعي هنا.. لقد وافقت الحكومة على تنفيذ المشروع. وشرع في تقديم أوراق كثيرة بسطها أمامي.. كان واثقًا وسعيدًا.

- أي مشروع؟

- بناء محطة طاقة شمسية.

كان لدينا علم بالمشروع، وأيضًا كانت لدينا معلومات عن هذا المهندس الأمريكي.. ومنحته الشركة قطعة أرض، وتم بناء محطته بالقرب من النيل. بالطبع ظلت الصحف تتناقل أخبار المحطة الغامضة، مع الإشارة لموقعها، وكانت تُلتقط لها عشرات الصور، وهذا ما أفاد الشركة كثيرًا، كان الموقع ممتازًا. شيد بجوار مشروعه بيتًا ريفيًّا صغيرًا له ولبعض المهندسين الذين يعملون معه. كان هذا المهندس غريب الأطوار، تشعر بأنه يرى أشياء لا يراها الآخرون، تحدثه فيجيب بكلماتٍ مُقتضبة، لا يبتسم، تبدو عيناه وكأنهما كرتان أرضيتان لا تكفان عن الدوران، عاقدٌ جبهته العريضة على الدوام.. وكان أنيقًا؛ يرتدي القبعة على بدلة كاملة، وينتعل حذاءً ذا رقبة عالية ليقيه من الأتربة.

وبدأ الرجل العمل؛ حيث جلب عمالاً كثيرين، رأيت ذلك بنفسي، وبدأ يشيد محطة كبيرة تعمل بالطاقة الشمسية، وقال لي:

- تستطيع محطتي أن تضخ حوالي ٢٠٠٠ لتر مياه في الدقيقة من النيل لري حقول القطن.

كان هـذا جنونيًّـا.. لكـن الرجـل ظـل يعمـل ليـل نهـار، وكنـا نشـاهد المحطـة والعـمال يعملـون عـلى تشـييدها (كان أشـبه بنـوح حـين عكـف عـلى صناعـة سـفينته.. كان البعـض كافـرًا باختراعـه).. وبعـد ذلـك، بعـد أن بـدأت تظهـر ملامـح المشروع، بـدأ السـكان يتوافـدون عنـد الغـروب ليشـاهدوا المحـرك العمـلاق.. وكان يعمـل معـه فريـق كبـير مؤمـن باختراعـه. وكنـت أذهـب لـه في المسـاء، فأجـده في مكتبـه بالقـرب مـن المدفـأة منكبًّـا عـلى رسـوم هندسـية، كان لا يشـعر بوجـودي، تظـل تصـك أذني صـوت الضفـادع، ومـن وقـتٍ لآخـر أراقـب النامـوس المتدفـق نحـو وحـول المصبـاح، لا أعـرف لمـاذا كنـت أتحمـل كل هـذا الملـل، بينـما هنـاك في بعـض المنـازل تنتظـرني الحفـلات والسـهرات الرائعـة.. أسـتطيع أن أذهـب للأوبـرا وأحـضر حفـلاً رائعًـا، أسـتطيع أن أتنـاول العشـاء في المدينـة وأهـرب مـن أصـوات الضفـادع التـي تلـف الحـي بأكملـه.. ولكـن كان يسـاورني شـعور بأنـه سـيتحدث، وسـيصنع شـيئًا تاريخيًّـا؛ فقـررت أن أكـون شـاهدًا عـلى هـذا المـشروع وهـو في المهـد، أردت أن أسـجل كل شيء. وعندمـا تحدثـت، ظـل صامتًـا موجهًـا عينيـه الضيقتـين صـوب الرسـم، غارقًـا في تركيـز عميـق، وفجـأة زفـر بتنهيـدة عميقـة تنـم عـن ارتيـاح، فقـال في نـبرة يغلفهـا الحـماس، دون أن ينظـر لي أيضًـا:

- سـينتج المحـرك طاقة بقـوة ٥٥ حصانًا، وتضخ حـوالي ٢٠٠٠ لتر مياه في الدقيقـة الواحـدة؛ وبذلـك ستتسـع البقعـة الزراعيـة بفضـل مشروعي.

- شيء عظيـم. هكـذا كنـت أعقـب رغم جهـلي وشـكوكي في المشروع.. إلا أنـه ذات يـوم أعلـن أن المحطـة مسـتعدة للعمـل، كان يومًا مشـحونًا بالمواقـف، اسـتيقظ الحـي كلـه واجتمعـوا عنـد المحطـة، وتـم دعـوة الوجهـاء والأعيـان، وكان عـلى رأسـهم اللـورد «كتشـنر» ليشـاهدوا عمـل المحطـة، كان شـيئًا رائعًـا، تـم تصويـر العمـل، وذهـب السـيد

«شومان» يسوِّقه في بلدان أخرى.. تضاعفت الأراضي الزراعية بفضل المحطة، وأيضًا تضاعف محصول القطن. لكن بعد الحرب العالمية الأولى لم يعد لها وجود، وعند اكتشاف النفط، تجاهل الناس محطة الطاقة الشمسية، ولم يعد السيد «شومان» للعمل مرة أخرى، لكنه قال: «إنني على يقين واحد؛ وهو أن البشرية لا بد أن تتحول لاستخدام الطاقة الشمسية.. أو ترتد إلى البربرية».

أتذكر جيدًا ذلك الإحساس الدافئ الممتع المشبع بالراحة النفسية، حين أختبئ في أحضان أمي عندما كانت تهطل الأمطار، فينقطع تيار الكهرباء، ويتعطل التليفون، ويسود الحي هدوء مخيف. في ذات مرة هطل المطر أسبوعًا كاملاً، كانت هناك فترات يتخللها الرذاذ، ثم يعود بغزارة.. رأيت مدام «نينات» سعيدة جدًّا، وقالت لأمي: «لم يحدث أن هطل المطر هكذا منذ عشرين عامًا». ارتوت أحواض الكروم، وكان اليهود سعداء بذلك، كانت الأشجار تبدو مبتهجة منتعشة، تلمع أوراقها الخضراء، وتبعث رائحة طيبة.. ثمة أشياء أتذكرها طوال الوقت، ورائحة تزكم أنفي لا أعرف كيف أصفها؛ هي شيء مثل عزف أمي على البيانو، أو حضنها في الليالي الطويلة.. كلما سمعت عزفها وأنا في الشارع اطمأننت لسير الحياة. وكانت الشوارع في الغالب منها ليست مسفلتة؛ فكانت تتكون بِرَك صغيرة، نظل طوال النهار عندما تهدأ الأمطار نصنع مراكب ورقية ونلقيها فيها. ولما توقفت الأمطار وجاء عمال الكهرباء وأعادوا التيار، شعرت بأنني حزينة؛ ثمة أشياء سأفتقدها مؤكدًا، وعاد التليفون يدق، وعادت الإضاءة تملأ البيت.. سعدت أمي بالطبع، وشعرت أنا بالحزن.

كان الحي رائعًا، وكنا نشعر بالسلام في جوه النقي. كنت أذهب للكنيسة؛ حيث كانت بناء صغيرًا من الخشب تحده الحدائق الشاسعة،

وكانت صديقتي «سيلفانا شيكلي» تذهب للمعبد مع أمها في السيارة الكاديلاك السوداء.. كان المعبد أول بناء لدور العبادة شُيد في الحي، لكن كانت أمي تقول لي إن الكنيسة شُيدت عام ١٩٣١ قبل المعبد بثلاثة أعوام؛ ولذلك كنا نطلق على الشارع الذي تتواجد فيه الكنيسة «شارع الكنيسة».. كنا نتجاهل أي اسم آخر، رغم أنه كانت هناك لافتة مكتوب عليها «شارع الأميرة فوزية»، مثلنا مثل جميع الأطفال عندما يُعلِّمون شارعًا أو أي مكان بعلامة؛ ربما يكون بناء، أو شجرة. وضعوا حجر الأساس للمعبد اليهودي في عام ١٩٢٩، واكتمل البناء في عام ١٩٣٤، فقد أشرفت على بنائه شركة أراضي الدلتا المصرية، وسُمي باسم «مائير أنائيم» نسبة إلى مسئول الشركة اليهودي صاحب فكرة إنشائه، كان يقيم في فيلا ملاصقة للمعبد، وكان رجلاً ثريًّا جدًّا تحت أقدامه يقبع الإنجليز، كان البعض منا يطلق على هذا الحي «حي اليهود».. كنت أشهد صلواتهم في المعبد القريب من بيتنا، وكان زعماؤهم يحضرون في سياراتٍ فارهة، وكان بينهم موظفون أمثال المشرفين على الأحواض التي كانت تزرعها مدام «نينات»، وكانت مهمتهم هي الإشراف على الفلاحين المصريين، وكان اثنان أو ثلاثة يقطنون منزلاً أو اثنين مع عائلاتهم في سوق الحي القديمة.. أتذكر «رضوان» الفتى النوبي الذي كان يأتي مع جده؛ حيث كان جده يعمل في بيت كبير، وناداني رضوان ذات مرة، وقال لي بطريقة ظريفة: «هل تحبين أن تغتنمي قرشًا؟» فسألته: «كيف ذلك؟» فقال: «تعالي معي» واشترط أن أستقل دراجتي؛ حيث إن المكان بعيد. وجئت بالدراجة وجلس خلفي، وألح على أن يستقلها قائلاً: «أنتِ ترهقيني.. أنا لا أستطيع أن أرشدك وأنا جالس خلفك.. هيا لنستبدل المقاعد» وقاد هو الدراجة بسرعة فائقة، كنت جالسة خلفه خائفة، كان سعيدًا

جـدًّا، وجهـه الأسـود اللامـع ازداد بريقًـا سـاحرًا، وعينـاه كانتـا تلمعـان مـن السـعادة. وعبرنـا خـط السـكة الحديـد ودخلنـا السـوق، وذهـب نحـو بيـت كبـير وطـرق البـاب، ثـم صـاح: «أنـا رضـوان.. أسـتطيع أن أقـدم خدمـاتي» ثـم دخـل البيـت، وعـاد بعـد بضـع دقائـق سـعيدًا وبحوزتـه ثلاثـة قـروش، قـال لي: «سـكان هـذا البيـت لا يعملـون يـوم السـبت، وأنـا آتي لهـم لكـي أسـاعدهم». واعتدنـا فعـل ذلـك عـلى مـدار شـهور، نذهـب كل يـوم سـبت ونعـرض خدماتنـا.. كان هـذا ممتعًـا؛ مـرة نـضيء غرفـة بضغطـة واحـدة فـوق ذر ثمنهـا قـرش، أو نذهـب ونبتـاع شـيئًا.. كنـا نفعـل أشـياء نراهـا غريبـة ومضحكـة، وانضـم إلينـا بعـض الصبيـة بدافـع اللعـب، وليـس المسـاعدة.. وكنـا ننتظـر يـوم السـبت لنضحـك مـن تلـك الأفعـال، ولكـن عندمـا علمـت أمـي غضبـت بشـدة وقالـت لي: «أنـتِ فتـاة غبيـة.. هـذه طقـوس هـؤلاء اليهـود.. لهـم طقـوس كـما لنـا طقـوس.. إذا أردتِ أن تقدمـي خدماتـك، فهـذا شيء حسـن.. أمـا إذا كان الداعـي هـو التهكـم والسـخرية، فـلا تفعـلي ذلـك أبـدًا». وقـررت أنـا وأصدقائـي ألا نفعـل ذلـك، رغـم إغـراء رضـوان لنـا.

كنـا ننتظـر أنـا وأصدقائـي عـلى ناصيـة شـارع الكنيسـة لنشـاهد أي سـيارة تـأتي لنركـض وراءهـا، فتتخللنـا أوراق الشـجر المتناثـرة في الهـواء.. هـذه الفقـرة التـي كانـت تتكـرر في الأسـبوع مـرة أو مرتـين كانـت تسـعدنا جـدًّا، ثـم نذهـب لنشـاهد القطـار، كانـت رؤيتـه تُثـير دهشـتنا، وكان يُمتعنـا وأيضًـا يُخيفنـا.. وعنـد المزلقـان كان يوجـد بنـاء صغـير مـن طابقـين شُـيد مـن الخشـب، كان عـلى شـكل هرمـي يسـتخدمه موظـف في مراقبـة المزلقـان، وكنـا نشـاهد الجنـود الإنجليـز ينتظـرون القطـار بزيهـم الكاكـي وقبعاتهـم النحاسـية، وأيضًـا كنـا نشـاهد الخـدم والعـمال وهـم يسـتقلون القطـار ويلوحـون لنـا مـن نوافـذه، عـلاوة عـلى الشرطـي الأنيـق الـذي

كان يقـف في صلابـة مراقبًـا الطريـق، وكان عندمـا يرانـا ينهرنـا ويأمرنـا بالانـصراف واللعـب بعيـدًا عـن المزلقـان، وكنـا نبتعـد عنـه لدرجـة أننـا كنـا نختبـئ وراء الأشـجار حتـى يمـر.. لا نشـعر بالوقـت إلا عنـد غـروب الشـمس عندمـا يـأتي رجـل الإضـاءة؛ وهـو رجـل كان يتمـم عـلى إضـاءة الشـوارع، فنهـرع إلى منازلنـا، فتسـتقبلني أمـي بالتأنيـب، وتصحبنـي إلى الحـمام، وتقـوم بتنظيفـي وهـي توبخنـي عـلى اتسـاخ يـدي وملابـسي، وتقـول لي: «كل يـوم تتخلفـين عـن موعـد الغـداء فأتناولـه وحـدي.. والـدك في القبـو، ومـع أعضـاء البعثـة باسـتمرار.. وأنـتِ فتـاة متهـورة» ثـم تضـع يدهـا عـلى فمهـا وتقـول: «أنـا أخـاف عليـكِ». وبـدأ الحـي يرتـاده أصحـاب المـال، بعـد أن عمـل المحامـي النشـيط «أرنسـت هـراري» عـلى الإعـلان عـن مزايـا الحـي.. مـا زلـت أحتفظ بنسـخة مـن الإعـلان، لدرجة أننـي حفظـت الصيغـة؛ يقـول الإعـلان: «اسـكنوا المعـادي.. ضاحيـة الحدائـق.. تتوافـر فيهـا وسـائل الرفاهيـة؛ الهـدوء الشـامل، ميـاه الـشرب، والإضـاءة مـن ماكينـات خاصـة.. شـتاء مثـالي.. وصيـف مثـالي.. أراضٍ للبيـع بالتقسـيط.. تقسـيمات جديـدة تقدمهـا لكـم شركـة الدلتـا المصريـة لتقسـيم الأراضي.. تسـهيلات في الدفـع.. للاسـتعلام: أرنسـت هـراري المحامـي، تليفـون: ٥٣٣٣٢٧».. أتذكـر كل هـذه الأشـياء؛ لأنهـا ببسـاطة مرحلـة مهمـة في حيـاتي حيـث الطفولـة والشـباب. هـذا هـو موطنـي، فرحـت فيـه وحزنـت فيـه، انطلقـت في رحـلات سـعادة مـع أصدقائـي لا توصـف، وارتعـدت كثـيرًا عنـد الحـرب العالميـة الثانيـة، أتذكـر ذلـك جيـدًا؛ كنـا نجلـس كثـيرًا في القبـو، كان اليهـود يموتـون مـن الفـزع، وكانـت وجوههـم منحوتـة بالخـوف، يصلُّـون كثـيرًا، وكانـوا يأتـون لأمـي ويجلسـون معهـا ويتحدثـون في أشـياء كنـت لا أعرفهـا جيـدًا؛ «الحـرب»، وكنـت أتسـاءل: «لمـاذا الحـرب؟!» فكانـت تـأتي مـدام «نينـات» وكانـت

قريبة من أمي، وكذلك مدام «شيكلي»، على أن الأخيرة كانت لا تحب مدام «نينات»، وأيضًا أمي؛ هكذا كنت أشعر من نظرتها المسمومة لهما، وكانت تقول لأمي دائمًا: «هل سينتصر تشرشل؟». وكانت أمي حزينة جدًّا، وذات ليلة طويلة مخيفة ملأت الحي شائعة تُفيد بأن الألمان انتصروا، حينها كنت نائمة فوق الكنبة وأضع رأسي على ساق أمي؛ حيث كانوا يجلسون حول المدفأة في الداخل وغلبني النعاس وهم يتهامسون.. وفجأة وصل الخبر؛ فصرخت مدام «شيكلي» صرخة أيقظتني فَزِعة، وهرعت للخارج ووقفت في صدر الحديقة، وجاءت أمي وجذبتني في عنف وهي تتمتم بكلمات توحي بعصبيتها، وفي الداخل كانت مدام «شيكلي» تبكي وحولها السيدات يهدئن من روعها، وتناولت جرعة ماء، وقالت وهي ترتجف: «المعسكرات الإنجليزية حولنا كثيرة، ولا بد أنهم سيأتون إلى هنا.. لا بد أن نتصرف» وصاحت مدام «نينات» بعصبية: «ماذا نفعل؟» فقالت أمي: «نظل في القبو، وننتظر أي أخبار، ولا نتحرك إلا إذا استوثقنا من الأمر؛ ربما تكون شائعة» وهدأت مدام «شيكلي» بعد سماعها كلمة شائعة، فأكدت على كلام أمي: «نعم، ربما تكون شائعة.. الله يباركنا ولن يتخلى عنا». فاشتد الخوف مرة أخرى بعد سماعهن طلقات بعيدة استمرت فترة وجيزة قبل أن يطبق السكون مرة أخرى، وقالت أمي تطمئنهن: لقد اعتذر راديو برلين عن الغارات التي ضربت الأحياء خطأ، كانت لحظات صعبة، شاهدت الجنود يمرون أمام البيت ويصيحون: «سننتصر ونسحق روميل». ومكثنا في البيت أيامًا طويلة، وقالت أمي موجهة حديثها لمدام «شيكلي»: «المعركة ليست هنا.. في العلمين.. الحي مؤمَّن جيدًا.. كبار القادة الإنجليز واليهود هنا». كنت أذهب لأصدقائي خلسة، نجلس مختبئين ونتحدث عن الحرب

في سذاجة طفولية.. كم كنت متهورة، كانت تأخذني قدماي ناحية «طرة»، وكانت معسكرًا للإنجليز ومخزنًا للذخيرة، ما زالت ترن في أذني صيحة الجندي الإنجليزي وهو يأمرني بالمغادرة: «ابتعدي عن هنا» كنت أشعر بشيئين متناقضين؛ الخوف، والسعادة.. الخوف من صوته وبندقيته التي يصوبها في وجه أي شخص، والسعادة من تلك المغامرة. فور سماع صوته أختبئ منه، وأظل أراقبه وهو يبحث عني، وكانت معرفتي بالمكان تسهل لي الفرار، كثيرًا ما أرهقت أمي وهي تبحث عني. وقال لي رضوان هامسًا: «هل تتذكرين اليهود الذين كنا نذهب لهم؟» فأجبته: «نعم». «هاجروا» هكذا قال في ضيق؛ لأنه سيفتقد القروش التي كان يغتنمها بسهولة دون أي مشقة. وذهبت لأمي وشعرت بالراحة من وجود مدام «شيكلي» وأُخريات، فقلت لهن: «صديقي رضوان يقول إن اليهود الذين كان يخدمهم هاجروا» وقلبت شفتي، أعلم أنني كنت فتاة سيئة، كنت أحب أن أشاهدها مذعورة.. وشيئًا فشيئًا تعودت هذه الأخبار والأجواء. وكانت تأتي لأمي نساء ألمانيات؛ حيث كانت بعثة الآثار تشمل علماء كثيرين، وكانت النساء صديقات أمي، وكانت تحدث معارك عنيفة بينهن وبين مدام «شيكلي» ومدام «نينات»؛ كان القبو ساحة لمعارك ضارية، كنت أشاهدها وأستمتع، وقالت مدام «شيكلي» لأمي: «هؤلاء دمويات، من فضلك لا تخبريهن بأي شيء؛ من الممكن أن يتسببن في هلاكنا» وكانت أمي تخفي خجلها، وتقول بنبرة حزينة: «هؤلاء صديقاتي» وكانت المدام تصيح: «لا، إنهن صديقات المجرم هتلر». وهدأت هذه العواصف التي توالت على الحي الهادئ في ليلة لن ينساها الجميع؛ حيث جاء النبأ بانتصار جنود التحالف، كانت ليلة رائعة احتفل الجنود في المعسكرات من حولنا بالنصر، وأقامت مدام «شيكلي» حفلاً

كبيرًا في النادي، وكذا في الفيلا المجاورة، وكان الجنود والمواطنون الإنجليز واليهود يركضون في الشوارع من فرط السعادة، ويصيحون: «انتصرنا».. كان الحي بأكمله سعيدًا بالنصر، ولأول مرة منذ أشهر أتحرر وأركض في العراء بحرية. أتذكر الرحلة الوحيدة التي خضتها خارج الحي مع والدي في بداية الإقامة في فيلا «سوارس»، حين ذهبنا لكتابة العقد في شركة أراضي الدلتا، كانت شركة أراضي الدلتا إحدى شركات سكك حديد الدلتا، تأسست بلندن في ٢٠ إبريل عام ١٩٠٤، ومركزها الرئيسي كان في لندن، ومقر أعمالها كان في وسط القاهرة. ذهبت مع والدي حين دعانا السيد «هراري» لتحرير العقد بعد أن عاينا الفيلا.. استقللنا سيارة البعثة الجيمس الكبيرة، وكان يقودها والدي، وقال لي: «سِريا، ستشاهدين مدينة جميلة» وانطلق بالسيارة سالكًا طريقًا تحده الأراضي الزراعية، كان شيئًا أشبه بالحلم؛ وجه الأراضي مغطى باللون الأبيض، فقال لي والدي وهو يتأمل ذلك في سعادة: «إنه موسم حصاد القطن، إنه موسم الملايين، هؤلاء اليهود يملكون كل شيء» هكذا قال، وكان سعيدًا، وكان النيل على يسارنا بمياهه الزرقاء الشفافة، تهب من ناحيته النسمات المشبعة بالرائحة الرطبة المنعشة. وظلت السيارة تجري وسط الأراضي حتى بدت لنا المدينة.. أبنية ضخمة، عمارات شاهقة، ومتاجر عملاقة، وأُناس كثيرون يتجولون هنا وهناك في ملابس أنيقة، سيدات جميلات، ورجال إنجليز ومصريون، الشوارع لامعة كمرآة، واجهات المحال تتزين بالمنتجات الفاخرة؛ الملابس والأثاث، ومتاجر الخمور والمجوهرات، والمطاعم الفخمة، والفنادق الضخمة الرائعة.. وقفنا عند عمارة ضخمة ونزلنا، وكان الذهول يسيطر عليَّ وأنا أكتشف السحر والحياة بالقرب مني.. والآن أستطيع أن أحلل نظرات أبي لي وهو يضحك. واجهتنا في مدخل

العمارة الضخم لافتة مكتوب عليها: «شركة سكك حديد الدلتا»، وصعدنا الطابق الأول، كانت شقة كبيرة، لها سقف عالٍ، وبها غرف كثيرة، موظفون أجانب ومصريون يملأون الردهات، ووقف والدي في وجه الساعي وكان رجلاً يبدو من ملامحه ولكنته أنه مصري، قال له أبي: «أريد السيد هراري»، فأرشدنا إلى مكتبه. ولم يكن السيد «أرنست هراري» يحرر عقود الإيجار، إلا أنه كان يقوم بإدارة أملاك رجل الأعمال «ليون سوارس»، وكان من مؤسسي شركة «أراضي الدلتا»، على أن هذا الأخير كان له الفضل في إنشاء أول وسيلة نقل «عربات تجرها البغال» غمر بها القاهرة، وعمل عدد قليل من تلك العربات في خدمة أهالي الحي. كان مكتبه عتيقًا، وكان الرجل بطيء الحركة؛ ربما كان يعاني مرضًا ما.. لكن كل الأشياء من حوله كانت مرتبة، كان يحتفظ بحُجج قديمة لعدة منازل قديمة تم تشييدها في بداية القرن لبعض الأسر من عائلتَي «موصيري» و«سوارس».. رفع عينيه العميقتين من فوق العقد وقال لأبي:

- الحي هادئ؛ أليس كذلك؟

- نعم.. وجميل. هكذا قال والدي.

- حافظوا عليه. واستأنف في نبرة لها إيقاع بطيء: هل ترغبون في تربية أي حيوان؟

استغرب والدي سؤاله، ونظر لي وقال له:

- لماذا يا مسيو «هراري»؟

اعتدل في جلسته وأخذ نفسًا عميقًا كأنه يستعد لإلقاء محاضرة بدت ثقيلة على نفسه من كثرة تكرارها:

- للإقامة في هذا الحي شروط يجب تنفيذها، وإلا يتم فسخ العقد فورًا.
- وما هي هذه الشروط؟

انكب على عقد أمامه، وأخذ يبحث في قائمة الشروط.. ثم قال:

- كما هو منصوص في البند السادس من العقد: ممنوع منعًا باتًّا إقامة أو بناء محل للدواجن أو الخيول أو الحمير أو أي حيوانات أليفة أخرى، حتى ولو كانت لمنفعة المشتري أو المستأجر شخصيًّا.. وبوجهٍ عام يسري هذا المنع على جميع الحيوانات والطيور الأليفة التي قد تُقلق راحة أهل الحي.

ثانيًا: لا يجوز قطعًا إلقاء القمامة أو مخلفات الحديقة أو أي فضلات في الشوارع، بل يجب وضعها في إناء من حديد غير قابل للصدأ له غطاء محكم ويسهل نقله، ويوضع في الحديقة.

واحمر وجهي من وقع الصدمة عليَّ؛ إذ كنت أحتفظ طوال الوقت بكلب صغير، ومن حسن الحظ أنني لم أجلبه معي في هذه الرحلة.. ولما شعر والدي بصدمتي قال له:

- مسيو «هراري»، نحن لدينا كلب صغير.. لكنه ليس مزعجًا أبدًا.. أتعهد بذلك.

صمت قليلاً، ثم قال:

- إذا وصلتني أي شكوى، سيتم فسخ العقد فورًا.

وعدنا إلى الحي.. وفي الحي كل شيء أخضر، كانت الأشجار على ضفاف النيل ضخمة وثقيلة؛ لذا خُيل لي ضفاف النيل منحنيًا، وكانت أشجار النخيل العالية صامدة كعادتها أمام الرياح العاتية..

تتمايل في راحة، وتتعانق عراجينها وكأنهم أُناس يقبِّلون بعضهم بعضًا من الشرفات.. وما أروع حقول القطن المبتهجة تداعبها النسمات الرطبة الآتية من الشمال. ونظر أبي للنيل وقال: «قد حان موسم الفيضان.. سيغرق الصعيد، وسيتشرد الناس» وأعلم أن والدي كان يهمه في ذلك بعد الناس، الآثار التي ستغرق مثل كل عام. ولكن يظل شعوري عند دخول الحي متجددًا؛ شعور من عاد من الحرب للحياة، أو من عاد بعد سنوات التيه لوالديه؛ شعور مليء بالدفء.. أشجار الكافور ضخمة وقوية، تنعشني رؤيتها والقرب منها، قد تجاوزت المئة عام وما زالت صامدة، جذورها الضاربة في أعماق الأرض تقول إن للأرض تاريخًا، وإن للحياة أصلاً، تُربتها المشبعة بالندى تغريني للركض فوقها حافية.. كل شيء هنا فيه حياة.

كنت أشعر دائمًا أن هذا الحي هو أول وآخر حي سأعيش فيه. أتذكر الفيلات التي شُيدت بالطين اللبن، مع الأسقف الخشبية، كانت رائعة، النوافذ الخشبية المثلثة، ما زالت تزكم أنفي رائحة الطين.. قُسِّم الحي إلى أحواض كبيرة مساحة كل حوض عدة أفدنة، كان يتم زراعة كل حوض بعناية بالفاكهة، على أن أغلب الأحواض تمت زراعتها بثمار الكروم، ولهذه الثمار دلالة عند اليهود (عندما يزدهر الكروم لسنواتٍ طويلة، فهذا يعد دليلاً على بركة الله.. كما كان الامتناع عن غرس الكروم دليلاً على أن إقامة اليهود في ذلك المكان لن تكون طويلة.. وفي العهد القديم تُشبه الزوجة الناجحة بالكرمة المثمرة) هذا ما كانت تقوله مدام «نينات»، كانت هذه المرأة بالتحديد تختلف عن مدام «شيكلي» جارتنا.. كانت مدام «شيكلي» تهتم بزراعة القطن، ومدام «نينات» تهتم بزراعة الكروم.. واحدة مادية، والأخرى متدينة.. مدام «شيكلي» تهتم بالسهرات والحفلات

التي تقام في النادي، علاوة على حضور الحفلات الغنائية، كانت نموذجًا للأرستقراطية. أما مدام «نينات» فكانت فلاحة إن جاز هذا التعبير، لدرجة أنني يومًا ما وجدتها تركب حمارًا واضعة على رأسها قبعة كبيرة لتقيها من حرارة الشمس، كانت تتفقد الأحواض باهتمام.. وكانت أمي تقول لي: «مدام نينات متدينة جدًّا».

وانتهت مدام «شيكلي» وأيضًا مدام «نينات»؛ قامت الثورة على الملك، وذهبت السيدتان، وقالت مدام «نينات»: «سأعود». وقالت مدام «شيكلي»: «سنرحل إلى باريس»، ومن هناك بعثت لي «سيلفانا» برقية تقول فيها: «في باريس كل إنسان حر». وسمعت خطبة الرئيس لأول مرة من خلال الراديو، لم أكن أعرف اللغة العربية بقدر يجعلني أفهمه، لكن تكفي نبرة صوته الملتهبة لأن أفهمه. وقامت حرب العدوان الثلاثي، وخرجت من الحي الإنجليزي، وذهبت حيث المجتمعات الكبيرة؛ أكلت الطعمية، ولأول مرة في حياتي أشعر بالحموضة. وجف الحي مثلما تجف المياه من قناة؛ جف من اليهود الأثرياء، وأيضًا من الأوروبيين، بقي أُناس قليلون من اليهود، ومن الأوروبيين خاصةً من الألمان، بالطبع افتقدت الكثيرين.. وشعرت أن القطار توقف، ثمة رحلة أخرى سأبدؤها، حتمًا سأحزم حقائبي قريبًا. وجاء والدي وقال: «سنعود إلى تكساس» وشعرت برغبة في البكاء، وانطلقت بدراجتي أطوف الحي. وكنت قد تجاوزت العشرين عامًا.

***

توتر الجو في الرابطة بعد اعتقال السيد «إبراهيم مسعود»، وشعرت «سِريا» بأن ثمة أُناسًا غرباء يأتون كل يوم إلى الرابطة في محاولة للتجسس على الأعضاء، فضلاً عن تزاحم الرابطة برواد

جـدد؛ حيـث كان الأجانـب القادمـون للعمـل في القاهـرة ينضمـون إليهـا تلقائيًّـا؛ لذلـك اجتمعـت بالأعضـاء وقـرروا أن يكـون دخـول الرابطـة بجـواز السـفر الأجنبـي فقـط. في العـاشرة صباحًـا تكـون الرابطـة خاليـة تمامًـا إلا مـن عـمال المطبـخ والبـار؛ حيـث يقومـون بأعـمال النظافـة واسـتلام الخضـار، فضـلاً عـن اسـتلام الخمـور مـن «سـيمون» الـذي يجلـس معهـم قليـلاً للحديـث، وعندمـا تظهـر المـدام ينـصرف بسرعـة.. وكانـت المـدام تدخـل المطبـخ السـاعة الثانيـة، وتصفـق بيدهـا صائحـة: «ميعـاد الراحـة.. الغـداء.. توقفـوا.. توقفـوا فـورًا». ثـم تعـود بعـد سـاعة ونصـف إلى المطبـخ، وتلقـي نظـرة عـلى سـير العمـل، ثـم تعطـي تعليماتهـا للعـمال والطهـاة، وتسـأل عـن «موريـس» كعـادة يوميـة، وسرعـان مـا يرتفـع صـوت قائـلاً: «لم يحـضر حتـى الآن يـا سـيدتي»؛ إنهـم يريـدون لـه الـشر، ويريـدون أن يتخلصـوا منـه بـأي طريقـة. وتتدخـل «ديوانـا» وتقـول: «اسـتأذن منـي سـاعة.. موريـس منضبـط». أمـا «جماعـة الرابطـة»، فبـدءوا يتحفظـون عـلى أفعـال «ديوانـا» منـذ أن نهرتهـم لأفعالهـم الشريـرة خـارج الرابطـة، وضربهـا لأحدهـم عـلى وجهـه، فضـلاً عـن علاقتهـا بـ»موريـس».. بـدءوا لا يلقـون عليهـا تحية الصبـاح، ولا يتحدثـون معها إلا بطريقـة رسـمية. وهـذه الجماعـة لا يردعهـا إلا رجـل أوروبي قـوي.. إنهـم أقويـاء ومتماسـكون، وللأمانـة شـعرت «ديوانـا» للحظـة بالخـوف منهـم.

في هـذه السـاعة مـن كل يـوم سـبت، يحـضر الأعضـاء حيـث الاجتـماع الأسـبوعي، يأتـون تباعًـا عنـد العـاشرة، يلقـون تحيـة الصبـاح عـلى العـمال، ويسـتأنفون سـيرهم عـبر ردهـة طويلـة مسـطحة بطبقـة خرسـانية تُفـضي في النهايـة للغـرف الخلفيـة الخاصـة بالـزوار والخـدم، فيدخلـون لصالـة الاجتـماع مـن البـاب الخلفـي؛ حيـث فصلتهـا المـدام نهائيًّـا عـن الفيـلا. جلـس الأعضـاء جميعًـا عـلى الترابيـزة الكبـيرة الممتـدة بمقاعـد عاليـة،

بعد أن تبادلوا السلام والهمهمة الجانبية، واتبعهم «خرستوف» بعد أن جلسوا، ووضع أمام كل واحد منهم فنجان القهوة؛ هكذا يفعل كل اجتماع تلقائيًّا.. وافتتحت المدام الجلسة قائلة في حماس:

- ما أخبار مستر إبراهيم؟ وواصلت: مهزلة، ولا بد لها من نهاية.. تابعتُ كل شيء بنفسي.. حتى إنني ظننتهم عصابة جاءت لتسرق البيت.

- السفير ذهب وجلس معه، وأنا شاهدته.. لكن يؤسفني أن أقول إنه مريض. هكذا قال «آرون رود» في يأس.

واحتج «وينسون» قائلا:

- لقاءات.. حديث.. كل هذا تضييع للوقت.. الرابطة ليست مرهونة بمستر إبراهيم.

وقالت «سِريا»:

- الرجل لديه خبرة واسعة، ونحن في حاجة لمشورته، والقبض عليه رسالة لنا.

فقال «فيليب أنطوان» وهو منزعج:

- نعم رسالة لنا.. أنا قلق.. إنهم همج.. والبسطاء - وما أكثرهم - لا يصدقون إلا قرارات الحكومة.

فقال «وينسون» بثقة:

- السفارة لن تتركه.. والسيد إبراهيم قريبًا سيكون بيننا.. اللعب الآن على المكشوف.

- نحن لسنا في حرب. هكذا صاح «فيليب أنطوان» في سذاجة.

فضحك «آرون» وقال:

- نعـم أوافقـك يـا «فيليـب» لـو كانـت المؤسسـات مسـتقلة وحـرة، ولكـن أنـت تواجـه عائـلات شرسـة تصـارع مـن أجـل البقـاء، وليسـت مؤسسـات حـرة ومسـتقلة ملتزمـة بالقوانـين.

وصاحت مدام «فاليري»:

- جهلة ومتخلفون.

فقالت «سِريا» وقد نفثت دخانًا كثيفًا بعصبية:

- ماذا نفعل الآن؟

فقال «آرون رود»:

- نهتـم بشـئون الرابطـة.. أعتقـد أننـا في حاجـة لأعضـاء جـدد.. لا ننشـغل بقضيـة السـيد إبراهيـم.. أنـا سـأتكفل بهـذه القضيـة، والرجـل لـن يمكـث في السـجن طويـلاً.

فقالت «سِريا»:

- والرابطة.. هل..؟

- لـن يجـرؤ أحـد عـلى الاقـتراب منهـا. هكـذا قـال «آرون رود» في نرفزة.

- نعـم لـن يجـرؤ أحـد. هكـذا أكـد «جـان مورينـو» العضـو الفرنـسي الجديـد.

فقالت مدام «فاليري»:

- ما اقتراحك يا سيد «وينسون»؟

قال في عصبية تناسب هذا الموقف:

- نحن في مرحلة تتطلب أعضاء آخرين.

وافقته مدام «فاليري» قائلة:

- نعم.. الرابطة تضم أكثر من مئتي مشترك.. الأعضاء سيأتون بالانتخاب.
- تقدمي بفتح باب الترشح للعضوية، على ألا يتجاوز عدد الأعضاء الجدد أربعة من جنسيات مختلفة. هكذا قال «آرون رود».

وتم انتخاب أربعة أعضاء؛ العضو الأول دانماركي يُدعى «لارس هيو»، وكان من الرواد المهمين المتحمسين للمساعدة. وعضوان أمريكيان؛ امرأة تُدعى «كيت كرو»، ورجل يُدعى «ستيف بوب». وعضو ألماني كبير السن يُدعى «توماس مارين».

***

وبالرغم من الضغوط التي تعرضت لها المدام، فإن وجود «آرون رود» كان يطمئنها. ولذلك كان يتعامل معها رجال النظام بحرص؛ فكان النظام لا يتحمل ضغوط الجمعيات الحقوقية، التي بدورها تستطيع أن تضغط على الحكومة الأمريكية في تقليص الدعم المقدم؛ ولذلك النظام كان لا يستطيع التعرض لـ«سِريا» مباشرة، لكن يستطيع أن يقترب من أي مصري يعمل معها، علاوة على قدرته على خلق مناخ حولها يجعل الناس ينبذونها، فكان النظام يتعامل مع «سِريا» أو «الرابطة» باستهانة؛ فهو يرى أن القضاء على «سِريا» ومجهوداتها شيء سهل، فبدأ يلاعبها على طريقة القط الذي يتلاعب بفأر منهك، فيظل يخنقه تارة، ويدعه يركض تارة أخرى، لكن في النهاية يدرك أنه يستطيع القضاء على الفأر بضربة واحدة، لكن يمنعه أن يرى الفأر هكذا؛ ربما يومًا ما يستعمله لإخافة فأرٍ آخر.

وتولى هذه المهمة أحد ضباط أمن الدولة، وذهب وعقد لقاء مع أحد الشيوخ، وكان الشيخ يُدعى «حسان النخيلي»، استمع للضابط

في اهتمام، وفي خطبة الجمعة أشاع عنها أنها تفعل كل ذلك من أجل المرحلة الثانية، وهي دخول الأطفال في المسيحية. وكانت الخطبة قوية تأثر بها الرجال، وقدَّم الشيخ «النخيلي» حججًا وبراهين وهمية، لكن اقتنع بها البسطاء، وصاح أحدهم في ثورة: «والله لأدفنها هنا في المقابر». وتعمد في صلاة الجمعة أن يتلو في الركعة الأولى قول الله: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير» أعاد الآية ثلاث مرات بنحنحة وتأثر. ولما تفاعل المصلون وصاحوا، شعر أنه نجح. وكان الشيخ «حسان النخيلي» يعمل في شركة «المقاولون المصريون»، وسافر الخليج مع الشركة وكان عمره لم يتجاوز الخامسة والعشرين عامًا، عاد في منتصف الثمانينيات شيخًا. وكان جسده ضخمًا، وله لحية كثيفة يحرص على صبغها بالحنة، يرتدي الزي الخليجي، ويحرص أن يتحدث بلهجة خليجية أيضًا. وكان والده «جيديو النخيلي» ممن جاءوا منذ مئة عام مع البدو من سيناء، واستقر في أرض عبد الرحيم علوان، وعمل في بساتينها، وتتمتع عائلة النخيلي بصيت واسع في البساتين. وبعد أن أدى المهمة على أكمل وجه، انتظر حضور المدام في اليوم التالي ليرى النتيجة.

وفي اليوم التالي الساعة الثانية عشرة ظهرًا، ظهرت قادمة بسيارتها الجيب محملة ببضائع كثيرة، ظلت السيارة تتأرجح فوق الطريق الأشبه بجبل مصغر، كانت تنفث من سيجارتها، وفوق عينيها نظارتها الطبية. وصنع لها الأهالي كمائن بدأت من عند أرض المصانع، وشملت الطرق المؤدية إلى أرض عبد الرحيم علوان، وهي بقعة كبيرة يقطنها عمال المصانع، فضلاً عن التصاقها بالقبور.. وفجأة وقفت بالسيارة أمام أحد البيوت، وصاحت تنادي قاطنيه..

ولم يكن بيتًا بمعنى الكلمة، وإنما عشة جدرانها من بقايا الطوب، وسقفها من عرجون النخل، واستمد متانته مما أُلقي فوقه من طفش الخشب والبلاستك، ولكن لم يستجب لها أحد.. وشعرت بحركة غريبة، ألقت السيجارة، وصاحت تنادي مرة أخرى، ولكن غشي المكان صمت مريب.. ليس من عادة الأهالي أن يتركوها هكذا؛ إنهم يستقبلونها من عند أرض المصانع، فضلاً عن الأطفال الذين يزفونها مرحبين مهللين.. وفجأة ظهر الأطفال، ليسوا مهللين ولا مرحبين، وإنما ليقذفوها بالحجارة بقسوة. ارتعدت وقفزت بحركة سريعة داخل السيارة، ولما أغلقت النافذة حطموها تمامًا، فاختبأت في الدواسة. وجاءت بعض النسوة يحاولن جذبها من الداخل بعد أن أغلقت الأبواب عليها، وقفز عدة أطفال بداخل السيارة وأشبعوها ضربًا. وسرعان ما تعاطفت معها بعض النسوة، فأخرجن الأطفال.. وتدخل الرجال كاشفين عن سواعدهم، أعينهم تفيض بالقهر، وقال أحدهم بلكنة لم تفهمها: «لولا أنكِ امرأة لقتلتك هنا». وشرعت المدام في البكاء، وأخذوا بضاعتها ونقودها، وحذروها من المجيء مرة أخرى، ونعتوها باليهودية الجاسوسة. وعندما أدارت الموتور، شعر بعض الرجال بالرغبة في الانتقام بعد أن استفزهم صمتها وتحدثها بالإنجليزية وصياحها؛ فحاولوا قلب السيارة بها، فظلت تصرخ وتضرب بيدها فوق عجلة القيادة، بل وضعت يدها فوق الكلاكس، وظل البوق يصدح بقوة محدثًا ضجيجًا عاليًا. لم ينقذها سوى أفراد الشرطة الذين كانوا مختبئين.. ولم ينقذوها إلا بعدما لاقت درسًا قاسيًا. ولما تدخلت الشرطة، أدركت ماذا حدث.. فهي لا تستطيع أن تنسى ابتسامة الضابط.

***

صاح «آرون رود» منفعلاً:

– همجيون متخلفون. وضرب الترابيزة بقوة بقبضة يده، وعاد يصرخ مرة أخرى:

– هذا الشرطي يجب أن نقاضيه.

وقال «توماس مارين» وهو أكبر الأعضاء سنًّا:

– ماذا ستفعل بالضبط؟ تكتب عنه مقالاً مثلاً وتقول ضابط هاجم امرأة أمريكية تقدم الدعم للفقراء.. وهل لديك دليل على ذلك؟

احتقن وجه «آرون» وصاح في عنف:

– سأكتب وأكتب وأكتب.. مهما تكن النتيجة.. الأدلة أستطيع توفيرها بسهولة.

– تضييع وقت.. وصراع نحن في غنى عنه. هكذا قال «توماس مارين» في هدوء.

وقال «فيليب» بصوت منخفض:

– ماذا تقصد بالضبط؟

– إنهم يملكون سلاحًا أقوى بكثير من الكتابة؛ الأميون الفقراء.. إنهم يدافعون عن أهم سلاح في ترسانتهم.

كانت مدام «سِريا» تضع يدها على جبهتها، وأنفها محمر، وعيناها تشعان بلمعة حزينة، وقالت وهي تنفث دخانًا كثيفًا:

– لن أستطيع أنا أو غيري الذهاب إلى هناك مرة أخرى.

– حقًّا.. لن يستطيع أن يذهب أحد منا. هكذا قال «فيليب أنطوان» في توتر.

وقالت مدام «فاليري» في غيظ:

- حمقى.. يتلاعبون بفقر هؤلاء لمصالحهم.

وقال «آرون رود» بعد أن هدأت ثورته:

- نضع كل مجهودنا وتركيزنا في المكتبات.

وشعر الأعضاء بالقلق؛ إنهم مستهدفون، كان من الممكن أن تُقتل المدام. وانطوى «فيليب أنطوان» عدة أيام، كان مختبئًا في منزله لا يرد على الهاتف، ولا يذهب إلى مقر عمله، ظل يراقب الأوضاع من بعيد، وجاء خبر حزين للأعضاء؛ فقد مات «كارل هوفمان».

***

انقسمت الرابطة لأكثر من فريق.. هناك فريق كان يأتي ليستمتع بوقته دون الاهتمام بأهداف الرابطة، بل أحيانًا تكون أهداف الرابطة مادة للسخرية والتهكم، وهؤلاء من متعقبي الشهوات. وفريق كان يأتي ليستمتع بوقته، علاوة على دفع التبرعات دون أن يسأل عن شيء، كأنه يريح رأسه من مشكلات الفقر والمرض؛ إنه جاء ليستمتع، ليس لديه متسع لسماع هذه المشكلات. وفريق ثالث كان يأتي ويجلس في الصالة الداخلية في ضيافة «رون» عامل البار الرئيسي، وهذا الفريق هو الذي كان مهتمًّا بمعرفة التطورات، بل وصل الأمر بعدد منهم إلى أن يساهم بمبالغ طائلة، وأن يراسل جمعيات حقوقية في الغرب لتقوم بالمساعدة.

في الصالة الداخلية كانت تدور المحادثات المهمة، يخدمهم «رون» الإفريقي العجوز، لا يخرج للحديقة، يجلس خلف البار الرئيسي، يستمتع بسماع الأناشيد الإنسانية، وفي ساعة الراحة يخلفه «خرستوف» فقط، ويعود بعد أن يكون تناول وجبته الخفيفة وتجرع كوز البيرة المثلج. أحيانًا كثيرة يتدخل في المناقشات، ويبدي حماسه لأي فكرة

طالما تصب في مصلحة الإنسان. كان رواد البار الرئيسي لا يتغيرون إلا بتدخل القدر؛ الموت، أو العودة لأرض الوطن. وسرعان ما يحل بدلاً من الراحل شخص آخر، كأنهم يتبادلون المقاعد. كان «رون» رجلاً طيبًا بمعنى الكلمة، هو يختلف عن «خرستوف» في كل شيء، له بشرة سمراء لكنها ليست داكنة، ربما بفضل شعره المجعد الذي ضرب في معظمه الشيب، قسمات وجهه توحي برجل عنيف لكنه عكس ذلك تمامًا، قبضة يده قوية وغليظة لا تتناسب مع نحافة جسده.. يقول: «أنا من غانا، ساحل الذهب.. إنها بلاد بائسة، كانت مستعمرة إنجليزية، وجاء الاستقلال.. ولكن هؤلاء الإنجليز ليسوا أغبياء؛ قبل أن يمنحوك الاستقلال لا بد أن يأتوا لك باحتلال آخر.. احتلال من نفس اللون واللغة والعرق.. هل تفهمون يا أصدقائي؟ إنهم يبرمون الاتفاقيات مع بعضهم البعض».

جاء «رون» في منتصف السبعينيات مع أسرة إنجليزية، واستقر في الحي، قالوا له بعد أن قرروا العودة لبلادهم: «رون، هل تأتي معنا؟» فقال لهم: «لا». ويقول «رون»: «بالطبع استغربوا ذلك؛ فأنا أتخلى عن الجنة.. ولكن بيني وبين نفسي حسبتها جيدًا.. ناهزت الخمسين عامًا، ماذا يتبقى لأتسول في أوربا؛ أليس كذلك؟ قبلها كنت أعمل ساقيًا في حانة صغيرة روادها من الإنجليز، قالوا لي: أنت رائع. وأن يقول لك ذلك رجل إنجليزي، فهذه شهادة كبيرة من الممكن أن تصنع منك وزيرًا في بلادنا، يا الله.. رجل إنجليزي يصفني بأنني رائع، نحن أصحاب البشرة السوداء نثق بهم جدًّا، ونعتبر حديثهم آيات مُنزلة، استطاعوا ببراعة أن يجعلونا نفقد الثقة بأنفسنا.. وها أنا أقوم على خدمتهم هنا.. وللأمانة هؤلاء مخلصون لمفهوم الإنسانية؛ إنهم يجاهدون ليتعلم الناس الحقيقة..

أشعر بالمتعة وأنا بينهم.. أشعر أنني أشارك في عملٍ نبيل».

تجلس مدام «سِريا» أغلب الوقت في البار الرئيسي حيث المناقشات مع الرواد، وتقدم لهم كشفًا بالمصروفات، وتخرج لتباشر حركة الحديقة.. انضباطها وحرصها على هدوء الحديقة كان يثير غضب البعض، ولكن مهما يكن مركز الغاضب فلا يستطيع أن يخالف تعليماتها، كالأطفال الذين يلعبون ويضجون في غياب أمهم، لكن إذا ما حضرت، على الفور يتوقفون.. هذا ما كان يحدث في الحديقة عند مشاهدتها. غير أن البعض أخذ يضحك ويتهكم على «العلقة» التي أخذتها في البساتين، وكانت هذه القصة تريح ضمير البعض الذي عارض الفكرة من البداية قائلاً: «هؤلاء همجيون، لا يختلفون عن الحيوانات».

وقد خصصت مدام «سِريا» الجراج لتخزين الأثاث والأشياء المتبرع بها لحين صيانتها وتنظيفها. ولم ينسَ رواد الرابطة حين أهانت مستر «ريجن» بطريقة دبلوماسية، وكان موظفًا في إدارة المدرسة الأمريكية، وكان مستر «ريجن» بخيلاً، أو لا يستطيع الإنفاق مثلما ينفق موظفو النفط الكبار؛ لذلك ظل لشهور طويلة يأتي ويتجرع كوز بيرة مع عشاء خفيف، ولما وجد كل من يعرفهم تبرعوا للرابطة، جمع ملابس قديمة وأحذية رياضية تالفة، وعبأها في كيس قمامة وحمله فوق ظهره، وذهب إلى الرابطة، وأبلغ «خرستوف» أن ينبئ المدام بحضوره حيث كان ينتظرها في الصالة الرئيسية، وكان هناك عدد لا بأس به من الرواد الكبار، ولما جاءت المدام قال لها في سعادة:

– أريد التبرع بهذه الأشياء؛ إنها ملابسي وأحذيتي.

نظرت له المدام بقرف، وقالت له في حدة بعد أن ألقت نظرة عليها:

– هذا ليس مكانها يا مستر «ريجن».. نشكرك.. ولكن لا بد أن

تفهـم أن رعايـة الرابطـة ليسـت قـاصرة عـلى المصريـين فقـط، أنـت موظـف بسـيط، والرابطـة تقـدم المسـاعدات للجميـع.

وواجـه مسـتر «ريجـن» سـخرية حـادة مـن الـرواد؛ إذ قالـوا إنـه لا يريـد أن يدفـع قيمـة حمـل القمامـة، وقـرر أن يلقيهـا بنفسـه هنـا في الرابطـة.

والحقيقـة أن مسـتر «ريجـن» أراد تقديـم مسـاعدة حقيقيـة، إنـه موظـف تعيـس في إدارة المدرسـة، راتبـه بالـكاد يغطـي نفقاتـه الخاصـة؛ طعامـه، وطعـام كلبـه «بيلـلي».. وقـال في نفسـه: «المـدام أهانتنـي جـدًّا» وظـل متغيبًـا عـن الرابطـة شـهرين متتاليـين.

***

جـاء السـيد «إبراهيـم مسـعود» الاجتـماع، وكان يتكـئ عـلى عـكاز. قامـوا مـن مقاعدهـم واسـتقبلوه بحـرارة، وربـت «آرون رود» عـلى كتفـه بـود، وعانقتـه المـدام بحـرارة وقالـت لـه: «لا بـأس عليـك يـا مسـتر إبراهيـم». فقـال لهـا: «أنـا مريـض» وتنهـد مـن الأعـماق: «ليـس هنـاك شيء أبشـع مـن السـجن».

وشـعر الأعضـاء بالعجـز عـن مواسـاته؛ إذ كان الرجـل تعيسًـا، ويبـدو عليـه المـرض، فقـد كثـيرًا مـن لحمـه، وبـدا ضامـرًا في البدلـة التـي كانـت تناسـب جسـده الممتلـئ، كانـت يـده ترتعـش، وكان وجهـه شـاحبًا تعيسًـا.

- ماذا فعلوا معك بالضبط؟ هكذا قالت «سِريا» في ترقب.

التفـت لهـا بحركـة بطيئة مـن رأسـه، وقال لهـا ومـا زال جسـده يرتعش:

- مـصر تسـتورد مـن الخـارج وخاصـةً البلـدان المتقدمـة أفظـع برامـج التعذيـب، مـصر تشـتري هـذه البرامـج بملايـين لتعـذب بهـا الحالمـين بالديمقراطيـة.

وكان «آرون رود» يتابع حديثه باهتمام قليل؛ اهتمام يوحي بسماعه هذا الحديث مرات متتالية، بينما باقي الأعضاء كانوا ينصتون له في اهتمامٍ بالغ.

- ثلاث تهم تم توجيهها لي.. تلقي أموال من الخارج دون إذن، وقلت لهم البلاد تعيش على المعونات الخارجية منذ منتصف الخمسينيات. وثانيًا، التحايل على هذه الجهات. وثالثًا، وهذا هو الأهم والسبب الحقيقي لدخولي السجن، حديثي عن تزوير الانتخابات، هذا في المقام الأول، ثم نشر أكاذيب مضللة، والحديث عن اضطهاد الأقباط، والإساءة لسمعة مصر؛ كما لو أن مصر امرأة أنشر فضائحها.
- عذبوك جسديًّا؟
- نعم. وزم شفتيه الزابلتين وقال:
- كانوا يكبلونني في كرسي، ويضعون بالقرب من رأسي حنفية تتساقط منها قطرات المياه فوق مركز المخ؛ ما سبب لي بعد ذلك انهيارًا في الجهاز العصبي.

فقالت المدام وهي تحاول ألا تبكي:

- وماذا ستفعل يا مستر إبراهيم؟
- سأعمل، ولكن بجهد يناسب صحتي.
- عظيم. هكذا قال «آرون رود».

فقالت المدام وهي تبسط يدها فوق الترابيزة:

- هناك دراسة انتهينا منها في غيابك، ونريد أن نطلعك عليها.
- تفضلي. هكذا قال بصوته الواهن.

- سنركز على المكتبات فقط، ولكن ليس بالطريقة العشوائية التي كانت تدار بها، ولكن باختيار الأطفال بعد خوض اختبارات كثيفة، ثم نتولى عملية الفرز، ونقوم بتأهيلهم بقوة.. هؤلاء هم من سيتولون عملية الإصلاح.

- عظيم يا «سِريا». هكذا قال في إيقاعٍ بطيء.

فقال السيد «وينسون» مضيفًا:

- فكرة رائعة. ثم استأنف كأنه يثير حماس الأعضاء: «أن تقومَ ببناء أطفال أقوياء، أسهل من ترميم رجال محطمين»

ابتسمت المدام في سعادة، وقالت وهي تنظر للسيد إبراهيم مسعود:

- هل لديك ملاحظات؟

- الفكرة عظيمة، ولكن المسألة ليست بهذه البساطة.. سنخوض معارك طاحنة لاستخلاص هؤلاء الأطفال.

***

تولى باحثون من الشباب المدربين في مركز التنوير المهمة، وسجلوا الملاحظات بدقة، وعجزوا في مراحل، ونجحوا في أخرى، وفي كل مرة كانوا يكتبون فيها تقريرًا يختمونه بكلمة «سننجح». وكان الدكتور قد تفرغ لعقد الندوات في مصر وخارجها. ولما تدفقت الأموال أكثر، وجَّهت المدام جزءًا منها لدعم الجمعيات الخيرية، وشعرت للحظات باليأس، وكان «آرون رود» يقول لها: «الحصاد ليس الآن.. أعوام طويلة لكي تحصدي ثمارك.. المهم ألا تيأسي أبدًا».

مراقبة الرواد والجلوس في البار الرئيسي ومتابعة المطبخ.. مهام كبيرة مرهقة، ولكن لم ترغب المدام يومًا ما أن تباشرها بنفسها، كانت

تضع الملاحظات.. ولكن المكوث والمراقبة جعلاها تشعر بشيء من العزلة، شعرت أنها مسجونة في الرابطة، استطاعوا أن يفرضوا عليها الإقامة الجبرية بطريقة غير مباشرة؛ فلا رحلات إلى البساتين، ولا إسطبل عنتر، ولا طُرة.. شعرت بشيء من الاضطراب، وانتابتها موجات من الانفعالات، فكانت تتوتر لأقل الأسباب. وتحدث معها «آرون رود» قائلاً:

– تستطيعين فعل أشياء أخرى.

وصاحت لأول مرة في وجهه:

– أنا مسجونة يا «آرون».. هل تفهم؟ رحلة واحدة من الممكن أن تتسبب في قتلي. وسرعان ما قالت:»آرون»، أنا آسفة.. ولكن أنت تعلم الحقيقة.

ابتسم «آرون « وقال لها:

– أنتِ عظيمة.

وضعت يدها فوق رأسها وقالت بصبر نافد:

– «آرون»، يبدو أن «رون» أعطاك جرعة مركبة جعلتك سعيدًا.. أما أنا فلستُ سعيدة أبدًا.. دعني الآن.

ظل على ابتسامته، ثم أشعل غليونه وقال لها:

– لديكِ ضيفتان تريدان مقابلة المدام.. هل المدام لديها متسع من الوقت؟

– من؟

– لحظة وآتي بهما.. من فضلك انتظري في صالة الاجتماع.

ودخـل ومعـه سـيدتان، اندفعـت واحـدة منهـا واحتضنتهـا بشـغفٍ وقبَّلتهـا كثـيرًا وصاحـت:

- أفتقدك كثيرًا يا مدام.. هل أنتِ بخير؟

وكانـت المـدام في ذهـول.. أمـا المـرأة الأخـرى فعانقتهـا بحـرارة، وقالـت:

- كلنا نفتقدك.. لماذا تخليتِ عنا؟

زكمـت أنفهـا رائحـة البسـاتين والحـوش الكبـير؛ رائحـة كانـت تذكِّرها بالريـف، رائحـة تحمـل شـيئين متناقضـين؛ القـذارة، والنظافـة.. وأجهشـت بالبـكاء، وجلسـت ووضعـت يدهـا عـلى وجههـا وقالت:

- أنت تقتلني يا «آرون».

وظـل «آرون رود» عـلى ابتسـامته، وأشـار لهـما أن تجلسـا. وقالـت واحـدة منهـا وكانـت تُدعـى حنـان:

- ليس لنا يد فيما حدث.

- نعـم.. نعـم. هكـذا قالـت المـدام وهـي تمسـح أنفهـا الـذي احمـر مـن البـكاء. واسـتأنفت بصـوت واهـن:

- كيف حال الأطفال والنساء.. أنا أفتقدهم؟

- لسـنا بخـير يـا مـدام.. افتقدنـا أشـياء كثـيرة.. كنـا نتعلـم كيـف نعيـش ونعلِّـم الأولاد الحقائـق، فضـلاً عـن الدعـم المـالي.. الفقـر ينهـش في أجسـادنا، ولا نسـتطيع أن نعلِّـم الأولاد الحقائـق.. قليلـون مـن يحتكـرون الحقائـق في بلادنـا، ويخبئونهـا عنـا.. نفتقـد رعايتـك ودعمـك.

وصاحت المرأة الأخرى:

- منهم لله اللي كانوا السبب.

امتـدت الجلسـة لأكثـر مـن سـاعة ونصـف، تحدثـوا في كل شيء، ورحلـت بعـد ذلـك المرأتـان، وقـد اتفقتـا عـلى المجـيء مـرة أخـرى في عطلـة نهايـة الأسـبوع.. وسـعدت المـدام جـدًّا بتلـك الزيـارة، واقتربـت مـن «آرون» وقالـت لـه:

- أنت رائع يا «آرون».

فقال لها ضاحكًا:

- أكيد.

وخرجا للصالة الرئيسية؛ حيث عقدا جلسة مع بعض الرواد.

***

عـاش الحـي ليـالي مـن التوتـر والقلـق إثـر اغتصـاب فتـاة، ولم يـترك أحـد مـن قاطنـي الحـي مـن الأجانـب فتاتـه أو زوجتـه وحدهـا أبـدًا؛ إذ كان يصحبهـا في أي خروجـة، حتـى وإن كانـت لجلـب الطعـام، وكان يعـد نفسـه لذلـك جيـدًا؛ يأخـذ معـه سـلاحًا.. سـواء مـن الأسـلحة البيضـاء، أو هـراوة، أو مسـدس صـوت.. وامتنـع الكثـير مـن السـهر في النـادي. ولما اجتمـع الأعضـاء، تحدثـوا عـن هـذه الحادثـة البشـعة.. قالـت المـدام بنرفزة:

- حيوانات.

وقال «آرون»:

- كانـت لديهـم جاهزيـة.. التحقيقـات التـي وصلـت تقـول إنهـم ظلـوا يجوبـون الحـي بالسـيارة حتـى حصلـوا عـلى هـذه الفتـاة.

- نعم، كانت لديهم خطة. هكذا قال «فيليب» في انزعاج.

وصاحت «فاليري»:

- متوحشون.. مجردون من أي إنسانية.. مسكينة.. ولكن كانت قوية؛ قاومت. هكذا قالت في نرفزة مقرونة بحماس امرأة سعيدة بقوة امرأة مثلها.

- رغم أن خطتهم كانت في منتهى الذكاء، فإنها كانت أقوى. أنبأهما شخص بأن والده يعمل شرطيًّا سريًّا في القسم، وأمرهما بالذهاب معه، وتغلبوا على صديقها بالضرب. وفي الصحراء القريبة من هنا، في عمارة تحت الإنشاء قاموا بالاعتداء عليها.

فقالت «كيت كرو»:

- الحي هادئ، ونحن لسنا مُؤمَّنين.. من الممكن كان يحدث هذا لأي امرأة.. ربما أنا. هكذا قالت وقد شحب وجهها.. وكانت مدام «كرو» ملقبة عند الرواد بالمرأة التي تشبه الدجاجة.

وظل الأجانب لفترة طويلة يتابعون الأحداث بشغفٍ، ويحطاطون من كل شيء. وعانت الرابطة لبعض الوقت، رغم أن مأمور القسم أنبأ السيد «آرون» قائلاً: «الحي مُؤمَّن تمامًا يا سيدي.. هذه واقعة فردية.. أنتم في أمانٍ».

***

بعد تلك الحادثة شعرت المدام بعزلة أكثر، واشتد عليها الحزن حين أنبأتها حنان بأن زيارتها للبساتين من الممكن أن تودي بحياتها. وكررت حنان زيارتها، وفي كل مرة كانت تجلب معها سيدة أو اثنتين يأخذن بعض المعونات، ويمكثن عندها ليتعلمن شيئًا.. وللأمانة كانت السيدات يجئن ليتعلمن. وقامت «فاليري» بتلقينهن كيفية التدبير، وتربية الأولاد، وإدارة المنزل، فضلاً عن تعليمهن حقوقهن.. وانزعجت «فاليري» من

تفريطهن في حقوقهن؛ فقالت لهن: «يجب أن تطلبن حقوقكن».

وكادت رأس المدام أن تفرقع؛ إذ واصلت التفكير والتركيز في كل الأشياء من حولها، وفي النهاية شعرت بأن ثمة أشياء غابت عنها وسط هذا الضجيج.. وانفرجت أساريرها، واتصلت بالسيدين «فيليب أنطوان» و»وينسون»، وقالت لهما إنها ترغب في رؤيتهما. وجاءا في اليوم التالي في الساعة الخامسة، واجتمعت بهما في الصالة الداخلية. ولما جلسا وكانا متشوقين لسماعها، قالت لهما:

– لديَّ مشروع رائع.

– ما هو المشروع يا «سِريا»؟ هكذا قال «فيليب» في تطلع.

بينما كان «وينسون» جالسًا مطرقًا باهتمام كعادته، ولم يبدأ بأي كلمة، فقالت وهي تفرك كفيها ببعضهما في شيء من التوتر:

– أريد أن أختبر شعبيتي، وشعبية الرابطة، ونشاط رجال البوليس وترويجهم الكاذب والمضل عن سمعة الرابطة.

– وكيف سيحدث هذا؟ هكذا قال «فيليب أنطوان».

فقالت وهي تترقبهما بعينيها الخضراوين اللامعتين:

– إقامة مائدة رمضانية لإطعام الفقراء، وتوزيع المعونة الغذائية.

ساد الصمت لحظات، واعتدل «وينسون» في جلسته، بينما قفز «فيليب أنطوان» واقفًا وقد امتقع وجهه، وأخرج منديله يجفف وجهه ويمسح عويناته في توتر، ثم صاح بتهور:

– أنتِ فقدتِ صوابك يا «سِريا».

قطبت؛ فتجمع الغضب بين حاجبيها، وصاحت في عنف:

– لا تتسرع في قرارك يا «فيليب».

واحتد الحوار بينهما، ثم تدخل «وينسون» مهدئًا، وعاد «فيليب» ليجلس بوجه محتقن وأخذ يتنفس بصعوبة، حتى إنه صاح ينادي «خرستوف» الذي كان على مقربة منهم ليطلب منه جرعة ماء.

أوقدت المدام سيجارة وراحت تسحب أنفاسها في توتر، ثم قالت:

– أحب أن أسمع تعليقك بهدوء. هكذا أرادت أن تمتص غضبه، تعلم أنه محق، أي رجل لديه عقل سيفعل ما فعله، ولكن شعرت بأنها ستنتصر، فحاولت أن تخوض معه معركة كلامية، ولكن السيد «فيليب» صاح:

– أي هدوء تنتظرينه.. هذه كارثة.

فقالت في برود مصطنع:

– لماذا؟

استغرب ردة فعلها، ونظر لـ«وينسون» يحثه على الحديث، فقال «وينسون» بنبرة هادئة:

– هذه مغامرة يا «سِريا».. ومغامرة من الممكن أن تطيح بالرابطة كلها.. الرابطة عبارة عن نادٍ أجنبي يجتمع فيه الأجانب الغربيون.. يتناولون الطعام، ويحتسون الكحول.. والحي كله يعلم ذلك. وبالطبع الرابطة ستنفق على المائدة.. من الممكن أنا «وينسون» أقوم بفعل ذلك تحت بيتي.. سينظرون لي نظرة طيبة.. أعلم أن المصريين طيبون، وسيقال عني إنه رجل أوروبي يحب أن يساعد الفقراء.. وحدث أن فعل ذلك السيد «لارس هيو»، وما زال يفعل أسفل بيته، والناس ينعتونه بـ«الرجل الطيب».. ما فائدة الاجتماعات الأسبوعية التي نتدارس فيها طبيعة المصريين والطبيعة التي نحيا فيها؟ أما النادي فهذا مستحيل، أنتِ تُعجلين بغلق الرابطة..

أظن أنها فكرة خاطئة. وهز رأسه الكبير في توتر واستأنف:

- عليكِ أن تدرسي الفكرة جيدًا. واختتم: أنتِ أعلم بالمصريين أكثر. هكذا ألقى الكرة في ملعبها.

فقالت بحدة نابعة عن تسرع وتوتر:

- أنا المسئولة.

فقال «فيليب» بنفس النبرة:

- لا، أنتِ مغرورة.. والرابطة لها أعضاء.. ولها ميزانية.. والتزامات تنتظرها بعض الجمعيات كل شهر.. أنتِ لا تنفقين على كل هذه الجهات من نقودك الخاصة.. لكنني أحذرك بأنكِ ستكونين المسؤولة عما سيحدث.

فقال «وينسون»:

- نعرض الأمر على الأعضاء ونأخذ التصويت؛ ليتحمل كل فرد قراره..

وبينما كانت تتم دعوة الأعضاء لأخذ الأصوات، كانت «سِريا» قد استغلت المساحة الكبيرة للجراج، وقامت بطلائه وإضاءته ثم فرشه بالأثاث الجيد.. مائدة طويلة يتعدى طولها السبعة أمتار، تحدها من كل جانب المقاعد، وقد فُرشت الأرض بالسجاد، علاوة على الإيحاء الذي تعمدت أن تبثه في المائدة من خلال الآيات القرآنية التي زينت بها الجدران، والتلفزيون الصغير الذي وضعته بالقرب من السقف، لتبدأ في تشغيله قبل الإفطار بساعة ليبث الأدعية وأذان المغرب. وأعلنت أن هذه ستكون مائدة رمضانية لإطعام الفقراء وتقديم الوجبات لهم، وتولى «خرستوف» الدعاية للمائدة. وسعدت

مدام «ديوانا» بها جدًّا، وكذلك «رون». وطاف «خرستوف» الحي يعلن عن المائدة.. طرق أبواب البوابين، وتحدث إلى رجال الأمن الخاص، ورجال الشرطة البسطاء الذين يتمركزون في الشوارع، فضلاً عن عمال المنازل والحدائق.. والجميع شكر «خرستوف» في سعادة. وكانت المدام قد أعدت ميزانية كبيرة من نقودها الخاصة.. وجلست معها «ديوانا» و«رون» و«خرستوف»، وظلوا يدرسون بعناية أصناف الطعام والشراب التي ستُقدَّم، وكيفية توزيع الوجبات على المارة، واستعانت بخبرة «ديوانا» التي كانت على دراية واسعة بالمطبخ المصري، فعكفت على صنع ألذ الأطعمة بالنكهة المصرية، وأعدت مشروبات رمضانية لذيذة، وجلبت لها طهاة ليساعدوها.

وفي الاجتماع اعترض السيد إبراهيم بشدة، وأعلن رفضه للفكرة نهائيًّا، وقام منزعجًا وكان وجهه محتقنًا وقال:

- الإسلاميون لو علموا بهذه المائدة سيحطمونها ويقتلونك، ولن يرحمك أحد منهم.. أنا أعرفهم جيدًا.. تراجعي عن الفكرة، ليست جيدة.. خاصةً ونحن نتقدم.. لا داعي.

وصعدت أصوات تؤيد السيد إبراهيم في حماس، بينهم صوت «فيليب أنطوان».

توترت المدام وقالت:

- أنا أعرف طبيعة المصريين.. لا يهمهم سوى الخبز حتى لو كان معجونًا بالسم.. التراث يقول ذلك، حتى إن المصريين يقولون: «اللي يأكل خبز الخواجة يحارب بسيفه»؛ أليس كذلك؟

وأومأ السيد إبراهيم برأسه في انزعاج، ثم أضاف في ملل:

- لست مسئولاً.. ولكن أحب أن أسجل اعتراضي «غير موافق».

وانفعـل «وينسـون» بشـدة؛ حيـث لأول مـرة يتخـلى عـن الكتـاب ويلقـي بـه عـلى الترابيـزة صائحًـا: «لسـت موافقًـا».

وتبعه «فيليب أنطوان»: «لست موافقًا».

واحتـد الحـوار بينهـم بقـوة، وفي النهايـة أخـذوا الأصـوات.. أربعـة أصـوات وافقـت عـلى المائـدة، وثلاثـة رفضوهـا؛ وهـم: «وينسـون»، و»إبراهيـم مسـعود»، و»فيليـب أنطـوان».. بينـما كبـير الأعضـاء السـيد «تومـاس ماريـن» وافـق بشـدة وتحمـس لهـا.

ولمـا بـدأ الشـهر الكريـم، ازدحمـت الرابطـة بالفقـراء، لدرجـة أن رجـال الأمـن المتمركزيـن في الشـوارع وحـارسي العقـارات والخادمـات وعابـري السـبيل.. كانـوا يتضاربـون بالأكتـاف.. كان الطعـام شـهيًّا جـدًّا، عـلاوة عـلى المشروبـات الرمضانيـة المثلجـة، كانـت في منتهـى الروعـة.. وكانـت مـدام «سِريـا» تخـدِّم بنفسـها عـلى الصائمـين. ويقـول السـيد «وينسـون» في كلمـة كتبهـا عـلى لوحـة كانـوا يدونـون فيهـا الملاحظـات المهمـة:

«كنـت أراقبهـا دون أن أختلـط معهـم في شيء، والحقيقة أن مـدام «سِريا» عـادت صغـيرة.. طفلـة.. منـذ عـشرة أعـوام لم أشـاهدها في هـذه الحالـة.. شـمرت أكـمام قميصهـا، وراحـت تجـوب بسـعادة حـول المائـدة وهـي تضـع الأطبـاق والأكـواب.. كان وجههـا سـعيدًا بشوشًـا، بغـض النظـر عـن تلطخهـا بالطعـام، إلا أنهـا كانـت تبـدو في كامـل نشـاطها وحيويتهـا وجاذبيتهـا، كانـت عـلى ثقـة كبـيرة بـأن النـاس سـتتقبل منهـا أي شيء.. إنهـا تعـرف كل شيء.. أمـا أنـا فكنـت خائفًـا جـدًّا.. كنـت أتوقـع أنهـم سـيهجمون عـلى الرابطـة ويحرقونهـا ويقتلوننـا».

ووصــل بانجــذاب الفقــراء للمائــدة أن قــررت أن تــوزع الوجبــات «بالاســم»، وتــولى هــذه المهمــة «خرســتوف» الــذي شــاع اســمه في الحــي كلــه، واشــتهر بقــوة في محيــط الرابطــة؛ يكفــي أن يمــر بدراجتــه في أحــد الشــوارع، ليلتفــوا حولــه ويذكِّرونــه بأنفســهم صائحــين: «لا تؤخرنــا اليــوم يــا خرســتوف»، أو «مــاذا تطهــون اليــوم مــن طعــام؟» وكان يشــعر بالســعادة في كل مــرة.

شــعرت «سِريــا» بــأن لهــا قيمــة، واكتســبت ثقــة كبــيرة بنفســها. وفي الاجتــماع الأســبوعي الــذي حــضر فيــه الســيد «إبراهيــم» والســيدان «فيليــب» و«وينســون» وتوافــق مــع نهايــة الشــهر، قالــت لهــم:

- لم تقع الكارثة يا سادتي.

***

لاح القمــر في ســماء مظلمــة تمــوج بســحب رماديــة، وكانــت النجــوم مطموســة لا أثــر لهــا.. وكانــت كعادتهــا بعــد أن يذهــب آخــر زائــر، وتســمع صريــرًا عاليًــا إثــر غلــق البــاب الخشــبي، تجلــس في البلكونــة الخلفيــة تتنــاول قهوتهــا بمفردهــا، وتنظــر إلى الســماء في تأمــل، وكان الــرواد قــد لاحظــوا أن المــدام ليســت عــلى مــا يــرام.. وشــعرت بيــد تضغــط عــلى كتفهــا في لمســة حنونــة، وكان مســتر «تــوم»، فقــال بصوتــه الجهــوري:

- تستطيعين البقاء حتى نهاية العام.

ولمــا اســتمر جمودهــا وصمتهــا، عــلى الفــور تركهــا، وذهــب إلى مكتبــه.. أثــار صوتــه فيهــا حالــة مــن الشــجن؛ فتقلصــت عضــلات وجههــا.. إنــه يذكِّرهــا.. بــل ويــصر عــلى ذلــك.. «آه يــا تــوم، كــم أنــت جبــار.. حياتــك العمليــة أنســتك واجبــك الإنســاني.. كنــت رائعًــا.. والآن كل همــك أن

تحصل على بئر نفط.. تعود سعيدًا، وتدعو أصدقاءك النفطيين، وتحتفلون حتى الصباح.. إنها الأموال والقوة.. إنها المستقبل».

وسيطر عليها الغضب.. انفعلت على «خرستوف» لأسباب لا قيمة لها، وكذا عمال المطبخ، حتى «رون» لم يسلم منها.. ترن في أذنها عبارته: «أنا رجل في الخامسة والستين من العمر، وفي حاجة لمعاونتك».

وفي يوم استيقظت باكرًا كعادتها، وتملكتها رغبة في ممارسة رياضة الجري التي انقطعت عنها منذ أن دبت الحياة في الرابطة، فلم تستطع أن تقتطع ما تيسر من الوقت لممارسة الرياضة.. ولكن في هذا الصباح شعرت بهذه الرغبة الملحة، وظلت تمارس رياضة الجري لأكثر من ساعة ونصف.. لفت الحي كله، لم تترك شارعًا.. وكلما شعرت بالتعب، تجلس على الرصيف تلتقط أنفاسها.. بدا وجهها الأحمر منحوتًا شفافًا، ينسال العرق من عليه بغزارة. ولما عادت وجدت «توم» جالسًا في مكتبه منهمكًا في العمل، وصعدت غرفتها وجلست في البلكونة دون أن تستبدل ملابسها. وكان العمال يستعدون لبداية يوم جديد من العمل الشاق؛ حيث انتشروا ينظفون، ويعدون الطعام، ويستقبلون من الباب الخلفي عربات الخضار والخمور.. كانت الحركة كالعادة يدب فيها النشاط. ظلت محتفظة بسرها لوقتٍ امتد لشهر، خلاله كانت تفكر بعيدًا عن أي ضغوط، ولكن استسلمت أخيرًا لإلحاح الأعضاء الذين شغلهم ما طرأ عليها من انطواء وشرود ملحوظين. وفي الاجتماع الأسبوعي حضر الأعضاء جميعًا وكان بينهم الأستاذ زاهر، وبعد أن أخذ كلٌّ مجلسه، قالت المدام بنبرة لا تخلو من التهدج:

- سأرحل مع زوجي. واستأنفت لتخفي ارتباكها: إلى جنوب السودان.

لاحت في وجوه الأعضاء بوادر الصدمة، وظلوا واجمين يتبادلون النظرات.. فقال «آرون رود» بقوة:

- متى سترحلين؟

- نهاية العام. هكذا قالت وهي تتحاشى النظر في عينيه، كأنها تعترف بخطأ جسيم أمام أبيها.

- يعني بعد ثلاثة أشهر. هكذا كان يتحدث «آرون» بثبات، متعمدًا في ذلك تحطيم الشخص مهما كان، وبقاء المؤسسة بمبدأ «كلنا زائلون».. بيد أنه كان يعاني من النبأ الذي جاء كطعنة غادرة.. إنها لم تحدثه في شيء.. إنه سألها كثيرًا، ولكن هكذا تبدو دائمًا تحتفظ بالأنباء الحزينة لنفسها.

- نعم.

- حسنًا.. نستطيع في هذه الأشهر انتخاب شخص جديد بإدارة الرابطة. استطاع «آرون» أن ينقل للأعضاء بطريقة غير مباشرة أن الرابطة مؤسسة قائمة مهما تغير الأعضاء ورحل المؤسسون.. فتحدثوا بقوة عكست عند المدام الطمأنينة، وسرعان ما قالت في صعوبة وهي تقاوم رغبة في البكاء:

- أرشح السيد «وينسون» ليخلفني.

- وأنا أرشح «لارس هيو». هكذا قال «آرون» بتحدٍّ بدا في نظرته.

وقالت مدام «فاليري»:

- وأنا أرشح السيد «توماس مارين».

ثم قال «فيليب أنطوان» بنبرة مؤثرة:

- سنعلن عن الترشح، ومن يرغب يتقدم.. المهم، ماذا ستفعلين هناك في جنوب السودان؟

- لا شيء.. إلا مراعاة زوجي.

- لا تخلو جنوب السودان من المرض والفقر والجوع. هكذا قال «فيليب».

فقال أحد الأصوات:

- ماذا تقصد؟

- لنتوسع.

فأجمع الأعضاء على أنها فكرة سليمة، وقرروا دراستها.. بينما ظلت المدام لثوانٍ صامتة، تسترجع ذكرياتها، وشعرت بأن الطعنة نفذت.. هكذا ترحل، وبسرعة.. فقالت بصوت مُتهدِّج: «أنا لا أعرف شيئًا عن جنوب السودان»، كأنها طفلة تستعطف أمها للبقاء في مكانٍ ما.. ولكن في النهاية سافرت المدام، وقضت عامًا هناك وقد أسست الرابطة، ولكن سرعان ما أسندت مهامها لرجل إنجليزي يملك مزرعة كبيرة للأبقار.. وكتبت لـ«آرون رود» خطابًا طويلاً قالت فيه:

لا أستطيع أن أحدثك في التليفون، أعتقد أنني سأشعر بالعجز عن الحديث؛ ولذلك قررت أن أكتب لك.. عدت إلى تكساس يا «آرون»، وعادت ابنتي من جنوب إفريقيا مع زوجها حيث كانا يعملان هناك كما تعلم.

«آرون»، لم أستطع التأقلم هناك؛ فالحياة هناك غريبة.. أُناس يعيشون في استسلامٍ تام. وقد انبهرت بكثرة النوادي الأجنبية، ورغم ذلك فالفقر شائع بين الناس، والمرض، والقتل.. إنهم يعيشون في بيئه

بدائيـة، مستسـلمون لـكل أنـواع السـلخ. في إحـدى الحفـلات رأيـت فتـاة تحمـل الجنسـية الأمريكيـة، كانـت ترقـص مـع الشـباب في سـعادة بالغـة، وكانـت تحمـل في يدهـا كوز بـيرة.. ولمـا جلسـت بجـواري تلتقط أنفاسـها، قلـت لهـا: «أنـتِ سـعيدة؟» نظـرت لي في حـيرة وصاحـت: «بالطبـع» قلـت لهـا: «لمـاذا؟» وأعلـم أن هـذا فضـول ليـس مـن سـمتي، ولكـن شيء اكتسـبته مـن معـاشرة المصريـين. قالـت: «أحتفـل مـع هـؤلاء كل يـوم، إنهـم موافقـون عـلى..» ثـم اقتربـت مـن أذني وهمسـت: «إنهـم موافقـون عـلى الانفصـال.. بعـد عـدة أعـوام سـتكون هنـا دولـة جديـدة». وعلمـت فيـما بعـد أنهـا تحمـل الجنسـيتين الإسرائيليـة والأمريكيـة. «آرون»، أتذكر ما قلتـه لي ذات مسـاء صيفـي مـن ثلاثـة عـشر عامًـا: «مـن يعمـل في السياسـة لا بـد أن يتجـرع السـم بـدلاً مـن الكحـول».. كل محـاولاتي كانـت فاشـلة، هنـاك البيئـة لا تصلـح إلا لـشيء واحـد؛ وهـو اللهـو. إنشـاء الرابطـة كان بمثابـة إضافـة حانـة جديـدة، القـوة الدوليـة تعمـل هنـاك لـشيء خبيـث طالمـا استشـعرته في محادثاتهـم، تجـار الأسـلحة يدعمـون الجماعـات بقـوة، لا تبـدو المدينـة مهيـأة للإعـمار، كأنهـم يؤخـرون هـذا؛ لأن هنـاك أشـياء سـتحدث.. ربـما الحـرب، إنهـا الحـرب يـا «آرون». النـاس يحيـون في خيـام، جـزء منهـم يخدمنـا، والآخـر يتسـول بـين الفقـر والمـرض والقتـل.. الإيـدز منتـشر، والأطبـاء يحذروننـا كل يـوم، دائـمًا مـا كانـت تمـر علينـا دوريـات تحقننـا بأمصـال.. قلـت لـ«تـوم» ذات ليلـة: «سـأرحل إلى..» وقبـل أن أسـتأنف حديثـي، صـاح بعنـف: «القاهـرة» قلـت لـه: «لا، تكسـاس.. أنـا أشـعر بالتعـب» هـز رأسـه فيـما يشـبه الرضـا، وقـال لي: «اذهبـي،»آرون» أنبـأ أصدقائـي بتحيـاتي».. سـأتحدث في التليفـون عـمًّا قريـب، طمئنـي عـلى الرابطـة والمصريـين.

«سريا هوارد مورس»

ومضى عام، وجاءت برقية تقول: «ماتت المدام إثر سرطانٍ حاد في الدم». وجاء الأجانب ليتحدثوا عنها، لدرجة أن النادي لم يتسع لهذا العدد، فجاءوا على مدار أيام ليتذكروها.

تناول كوز البيرة من فوق المنضدة الرخامية العريضة التي تتوسط المطبخ، وزفر بتنهيدة طويلة، وقال له «رون» وهو يذهب:

- تصبح على خير يا صديقي.. لم يعد أحد في النادي.

أفرغ جرعة في جوفه، وقال في تلذذ: «سِريا».. قال الاسم مجردًا من أي ألقاب، طالما ردده بينه وبين نفسه بهذه الطريقة، طالما وضعه في جُملٍ تحمل الحب والكره، وظل يردده بينه وبين نفسه، لم يصدق «خرستوف» أنها ماتت، عند سماعه النبأ صرخ وقال: «مستحيل».. التف حوله عمال المطبخ، وحاولوا تهدئته، لكنه ظل يصرخ كطفل صغير تركته أمه، حتى محاولة «ديوانا» فشلت، «ديوانا» التي بينها وبين نفسها أجهشت بالبكاء، ولكن استطاعت بحكمة أن تتحمل وتصبر وتستمر. أما «موريس إبراهيم» فشعر بنوعٍ من السعادة، حتى وهي بعيدة كان يضعها نصب عينيه، كان يكرهها لشدة ما كانت تفرض عليه القوانين الصارمة، ولما جاءه الخبر قال في نفسه: «انتهت إلى الأبد.. فلتصحبها اللعنة».

وجلس «خرستوف» يتجرع أكواز البيرة ويتذكرها، وتذكر عندما جاء من جنوب السودان، قطع المسافة الشاقة في يومين، ولما وصل القاهرة، قصد الحي الإنجليزي، لم تكن معه حقيبة، ولا أي شيء، جلس أسفل كوبري النهضة يتسول، كانت قامته المقوسة ونحافته تجذبان أصحاب القلوب الرقيقة، لكنه لم يستمر طويلاً متسولاً،

توظف في مكتب «تاكسي الحي» في وظيفة ماسح سيارات الأجرة، كان شتاء العام قارسًا، وأثناء مسحه لسيارة ارتطمت إصبعه الكبيرة في الرف البارز الصدئ، فنتج عن ذلك إزالة الظفر وتدفقت الدماء بغزارة، وسرعان ما أحضر ملحًا وكبس به الظفر، واستأنف مسح السيارة، ومِن حوله السائقون ينعتونه بالحلوف.. كيف يستمر على ذلك؟! وكان «خرستوف» يعاني ألمًا شديدًا، ولكن هل يذهب للطبيب ويعالج إصبعه ويفقد فرصة رائعة لجعل الناس يعطفون عليه؟ ولكن نعتوه بالحلوف، إنه لا يتألم أمامهم، لا يبدي أي اهتمام بهذا الجرح، وخاب ظنه. ولما كانت الأموال شحيحة، قبع في كنيسة «القديس يوحنا المعمدان» لحين إيجاد فرصة عمل، وصرفت له الكنيسة مبلغًا من المال لحين الحصول على وظيفة. وجاءت «سِريا» وأخذته، وكانت بداية جديدة لحياته، المدام الرائعة الجميلة المتواضعة عطفت عليه، واحترمت آدميته؛ لذلك برع في تنظيف الفيلا الضخمة وأيضًا الحديقة، رغم أن هذا كلفه جهدًا شاقًّا، ولكن أراد أن ترضى المدام عنه، وحدث، ولما عرضت عليه أن تأتي بخادمٍ آخر اعترض بشدة.

وبكى.. «خرستوف»وتساءل في نفسه: «كيف تتركني؟» كأنها ستبتاع شيئًا وتعود، على الرغم من أنها ذاهبة إلى جنوب السودان؛ بلده الذي هرب منه، لكن معها كان من الممكن أن يذهب إلى الجحيم.. أحبها، أحبها جدًّا، معها كان يشعر بالمتعة، عندما كان يأتي زوجها ويشاهدها معه، كان يشعر بالغيرة، ولما كان يسمعها تصرخ في لذة أثناء الجماع، كان يركل أي شيء أمامه، وعندما يسافر «توم» يتنفس في إيقاعٍ هادئ ومنضبط.. يتأملها كما لو أنها ابنته، تزكم أنفه رائحتها النظيفة، تغمره السعادة حين تناقشه، أو عندما تختلف معه على شيء فتدفعه في صدره وتبعد عنه، وتظل لأيامٍ لا تطلب منه

شيئًا، تصنع الطعام أو الشاي لنفسها. عندما أنشأت الرابطة وكان هو آخر من يعلم شعر بالحزن من شيئين؛ أولهما أنها لم تهتم به، وثانيًا أن الفيلا لم تعد مسرحًا لهما فقط، بل أصبحت ناديًا، وشاركها فيه العشرات من الرواد والخدم.

وعاش أيامًا تعيسًا، وفي نهاية عام ١٩٩١ جاء «فيليب أنطوان» الرابطة وصافح العاملين، وسافر، هكذا وكأن الطائرة تنتظره في الخارج، بالطبع الأعضاء كانوا يعلمون برحيله. ولما أوشك العام على الانقضاء، رحل «وينسون» وكان الوحيد بين الأعضاء القريب منه. وعاش «خرستوف» حزينًا منكسرًا.. يعمل في صمت، ولا يعلق على شيء؛ فقد حماسه لكل شيء.

***

تولى السيد «لارس هيو» إدارة الرابطة بالانتخاب، وظل السيدان «إبراهيم مسعود» و»زاهر عبد المجيد» هما المصريين الوحيدين في الرابطة. إبراهيم مسعود أُسندت له مهام كثيرة، وظل يعمل بقوة من خلال مركز التنوير الذي يديره. والسيد زاهر هو مالك الفيلا، ظل عضوًا ضعيفًا، يأخذ الإيجار، ويجلس وسط الأجانب كل ليلة يتحدث عن نفسه أكثر مما يتحدث عن المصريين، وظل وجوده لا معنى له، وجاهد ليقدم أي اقتراح، ولكن سرعان ما كان الأعضاء يُعرضون عن اقتراحاته التي تتسم بالعنصرية، نشبت بينه وبين «موريس ابراهيم» خلافات كثيرة، تدخل في إدارة المطبخ، فتصدت له مدام «فاليري» وقال له «موريس» ذات مرة: «اخرج من هنا» فما كان من زاهر إلا أن تقدم نحوه بقفزة سريعة، ثم صفعه على وجهه وبصق عليه، وقال له بعنف: «اخرج برة».

وتدخلت مدام «فاليري» والسيد «ستيف بوب» وأقنعاه بأن «موريس» يدافع عن عمله، وأنه لا يقصد إهانته، ولكن ظلت المدام والسيد «ستيف» متحفظين على الصفعة وقالا له:

– مستر زاهر، مهما يكن الأمر لا يحق لك أن تصفعه على وجهه.. يجب أن تعتذر له فورًا.

انفعل زاهر وتركهما وقال بصوت سمعه الأعضاء: «من هذا الخنزير لأعتذر له؟ أنا زاهر نعمان» وشعر بنزعة عدوانية تجاه كل من حوله؛ نزعة جعلته يثأر من الجميع وينبئهم بمكانته، إنها فرصة ليتحدث عن نفسه، فاستأنف بالإنجليزية: «نحن من كنا نملك البلاد.. نحن من زرعنا، وصنعنا، ونهضنا.. أنا.. أنا.. أنا.. جدي عبد المجيد باشا من أهم الوزراء في تاريخ البلاد.. يُفعل بي هذا؟! أنا من النبلاء، أنا أستطيع أن أدير عشرات النوادي، أستطيع فعل كل شيء.. والآن تدعواني لأعتذر لهذا الخنزير.. إنها القيامة».

وفي النهاية تدخل «جان مورينو»، وصرف «موريس»، وقدم اعتذاره لزاهر، وقال له:

– هو لا يعرف كل هذا.

ودخل «موريس» المطبخ وخدوده ترتجف من النرفزة، وأخذ يزمجر، وينفخ، ثم جلس بجانب «ديوانا» وقال لها:

– عنصري كلب ابن كلب.

– اهدأ يا «موريس». هكذا قالت «ديوانا» وهي تنفث دخان السيجارة.

- الكلب يقول عليَّ خنزيرًا وحيوانًا.. ضربني بالقلم.. آه.. أنا والدي لم يفعلها.

- معلهش.

- آه.. فينك يا مدام.. رغم أنها كانت كريهة، لكنها حقانية.. الشاذ «جان مورينو» صحيح فرنسي عنصري، أنا لا أرتاح له أبدًا.. وقال له وظنني لم أسمعه: «ده جزار خنازير لا يفهم».. آه.. الشاذ كمان يتحدث.. أنا أموت ومحدش يهينني.

حدجته «ديوانا «بنظرة طويلة، وقالت بنبرة يفهمها:

- ماذا ستفعل؟

- آه.. لا شيء.. أنا أتحدث لأستريح فقط. وقام يستأنف عمله.

***

من هو «زاهر كمال عبد المجيد نعمان»؟

هو حفيد «عبد المجيد باشا نعمان» الذي تولى وزارة المعارف والحقانية دفعة واحدة في حكومة أحمد باشا زيور، ووالده «كمال عبد المجيد» الذي نال البكوية لجهوده في تنمية زراعة القطن، ووالدته هي الخادمة الإنجليزية «روز روجر» تزوجها والده أثناء البعثة هناك، وعندما جاء بها لم يعترض الباشا، ولا والدته «تحفة هانم» على الزواج، بل استقبلوها بدبلوماسية مفرطة، كأنها أميرة من العائلة الملكية الإنجليزية، ومن أجلها اشترى كمال فيلا «سوارس» من شركة أراضي الدلتا، وكانت تحت وصاية الحكومة المصرية في عام ١٩٥٨.. كان «كمال بك» فلاحًا ماكرًا، استطاع أن يقرأ المشهد السياسي بعد الانقلاب على الملك، على الفور أيَّد حركة الضباط، وتنازل عن

أطيانـه، واندمـج وعائلتـه في العمـل مـع الضبـاط، وكان قـد ناهـز السـتين عامًـا، يحـرص أن يتحـدث معهـم باللكنـة الفلاحـي؛ ليوحـي لهـم بأنـه فـلاح مثلهـم، وليـس نرجسـيًّا مثـل الملـك، وأذعـن لهـم بصـورة كبـيرة أَمَّنتـه مـن أشـياء كثـيرة، وأبقـت عـلى مئـة فـدان مـن أصـل ثلاثـة آلاف حـول سراي ملـوي، وعـلى فيـلا الحـي الإنجليـزي.. ومـات كـمال بعـد أن ناهـز اثنـين وثمانـين عامًـا، وكانـت صحتـه جيـدة؛ مـات حزنًـا عـلى مـوت «روز»، كان ذلـك في عـام ١٩٧٠. وتشـعبت الأسرة في العمـل مـع الضباط، وشـغل البعـض منهـا مناصـب كبـيرة ومهمـة، حتـى إن كثـيرًا منهـم انضـم للاتحـاد الاشـتراكي. وكان زاهـر قـد حصـل عـلى بكالوريـوس الزراعـة، وعمـل في أرضـه، واهتـم بإنتـاج أجـود المحاصيـل، لكـن بعـد قيـام الثـورة أُلقـي بـه في الزبالـة، وقـال لـه والـده: «تلـك قـوة قـادرة عـلى سـحق أي عائلـة؛ إنهـا قـوة تملـك كل شيء.. ليسـت كقـوة الملـك، ولا الأحـزاب؛ لكنهـا قـوة أخـرى عتادهـا الفقـراء ولاد الكلـب.. حـذارِ يـا زاهـر أن تعـارض هـؤلاء الفلاحـين؛ هـذا زمنهـم». وتـزوج كثـيرًا مـن أجنبيـات ومصريـات، وكانـت آخـر زوجـة مـن عائلتـه تُدعـى «كاملـة مرتـضى»، تزوجهـا وقـد تجـاوز الخامسـة والخمسـين عامًـا، واسـتمر الـزواج ثلاثـة أعـوام فقـط مـن عـام ١٩٧٦ حتـى عـام ١٩٧٩ وفي هـذه الفـترة شـغل وظيفـة وحيـدة، لكنـه في النهايـة أذعـن لرغبـة مـدام «كلـير» صديقتـه الوحيـدة، التـي ألحـت عليـه أن يفتـح مكتبـة أمـام البوابـة الرئيسـية للمدرسـة الأمريكيـة، والحقيقـة أن مـدام «كلـير» أنعشـت حياتـه، وذكَّرتـه بالمـاضي، كانـت جميلـة، وكانـت بجمالهـا الرائـع تُشـعره بثقـة كبـيرة، حتـى إنـه قـرف مـن زوجتـه «كاملـة مرتـضى» وتركهـا في الفيـلا، ومكـث في شـقة شـارع ١٥ ليتفـرغ لصداقـة «كلـير»، كان ذلـك في عـام ١٩٧٦.

ولكن كيف تعرَّف على مدام «كلير»؟

في ذات صباح عندما كان يمارس رياضة المشي التي تنعش مزاجه وتجعله قادرًا على مواصلة الحياة، سمع امرأة تصرخ وتستغيث؛ فاندفع حيث مصدر الصوت، وكانت المرأة ما زالت تصرخ بثلاث لغات؛ الإنجليزية، والعربية، والفرنسية: **«Help me»** **«Aidez moi»**.. ساعدوني؛ حيث هاجم أبناءها الخمسة (وهم كلاب «الجريفون» الصغيرة، والمدام تطلق عليهم أبناءها) كلب بلدي وحشي ظل يطاردهم في حديقة ميدان السوارس، ولكن للأمانة فإن الكلاب الخمسة تكاتفوا؛ فاثنان شغلاه من الأمام، وثلاثة هاجموه من الخلف، وفي اللحظة الفاصلة تدخل زاهر وركل الكلب بقسوة وأنقذ الموقف، ومن وقتها أصبحت صديقته الحميمة.. إنه أنقذ أبناءها.. وبعد أن أنقذهم لم يتركها هكذا تبكي، قال لها: «سنذهب بهم إلى الطبيب». وذهبا لعيادة طب بيطري في شارع «١٠٥»، وتم الكشف على الأبناء بعناية، وتم تطعيمهم ضد أي عدوى. كل صباح يتقابلان، ويتمشيان معًا.. وعزمته على العشاء، وكانت تقطن فيلا رائعة في عقارٍ قديم بالقرب من ميدان سوارس. وتعرَّف على مسيو «لوي»؛ موظف في السفارة الفرنسية، قصير وله كرش كبير، تبدو عليه البلادة؛ بلادة الموظفين.. كان واقفًا مستندًا بذراعه على حافة المقعد مشعلاً سيجارته متظاهرًا بالاهتمام، وكانت المدام طوال الجلسة تثني على زاهر، وكان مسيو «لوي» فيما يبدو مغتاظًا.. كانت تقول: «لوي، أنت لم ترَ كيف دافع مسيو زاهر عن الأبناء» ثم تحدجه بنظرة ذات معنى.

وفطن زاهر لمدلول ذلك، وقال في نفسه: «المرأة كائن عجيب.. تستطيع أن تصل إلى قلبها من خلال الأشياء التافهة التي تحبها؛ فإذا

كانت تحب الكلاب أو القطط أو الحمير، فلا بد أن تتظاهر بحبك لهم لتكسب قلبها.. أما «لوي» هذا فيبدو غبيًّا».

وسعد جدًّا بصداقة المدام الجميلة الرقيقة، وكانت تعزمه على العشاء في غياب زوجها، ومارس معها الجنس متغلبًا على نزعته الدينية التي تجرعها من جده الباشا أثناء إقامته في ملوي، وقال لها: «أنا لا أستطيع الاستمرار» فقالت له: «أنا أحبك».. ولما يئست منه قالت له: «لتكن صداقة بريئة إن كان هذا التعبير يريحك». وظلا صديقين، يجلس معها فتعزف له مقطوعات «كلود ديبوسي». كان بيتها جميلاً مثلها، ثمة رائحة يفتقدها بعيدًا عنها، صوت كلابها الصغيرة، صوتها الرقيق، نظرتها.. كل ذلك كان يشغله بها، وتحولت الصداقة لشيء أشبه بالاندماج الروحي، فحدثته: «لا بد أن تتوظف» وقال لها: «أكره الوظائف» فاقترحت عليه أن يستقبل الحي وما طرأ عليه من توسع بمكتبة كبيرة، مقرها يكون أمام المدرسة الأمريكية.. تقبَّل اقتراحها بالحماس، وظلت تدرس معه الأمر جيدًا، وكان الافتتاح في مارس من عام ١٩٧٧، وبفضل صداقته بها وأقاربه الإنجليز استطاع أن يستورد الكتب الإنجليزية والفرنسية في كافة المجالات.. كان موقع المكتبة رائعًا؛ حيث يقع أمام البوابة الرئيسية للمدرسة الأمريكية، فتوافد عليه الطلبة والمعلمون.. وكانت في عمارة قديمة، تحتل طابقين؛ طابقًا خصصه لعرض الكتب، فضلاً عن مكتبه الذي كان يجلس فيه باستمرار، والطابق السفلي خصصه كمخزن، بالإضافة لتخصيص غرفتين فرشهما بالأثاث الجيد لإقامة المغتربين فيهما؛ حيث كان يعمل معه شابان من بلدته «ملوي»، علاوة على خادمين من النوبة كانا أبناء رجل عمل في خدمتهم في سراي ملوي؛ أحدهما يدعى «رُمان» والآخر «بشير»، وعمل في المتجر عدد لا بأس به من العاملين أكثرهم

من النوبة، لكن الشابين اللذين جاءا من بلدته استطاعا أن يفرضا سطوتهما على الجميع، متشفعين بقربهما منه؛ لذلك كانا يعتقدان أنهما أحق الناس بحماية أمواله من اللصوص، والحرص على مصالحه؛ فتفرغا فقط لنقل أي محادثة تدور بين العاملين، فكان أحدهم ويُدعى «عامر» شديد المكر، حتى ذات مرة ذهب له قائلاً في لؤم: «لقد أنجبتُ ولدًا وأطلقت عليه اسم «زاهر».. وعلى الرغم من ذلك، كان زاهر يشعر بالسعادة، إن نزعته الأرستقراطية تجعله يفرح جدًّا بوصلات النفاق، فلا أحد ينافقه إلا ويمنحه علاوة كبيرة، تقترب من ربع راتبه، وأحيانًا النصف، يضعها في مظروف من الورق الفاخر، ويكتب على المظروف من الخارج اسم الشخص مقرونًا بكلمة «الأستاذ»، هذه الطريقة في معاملته مع الخدم والموظفين تجعله يشعر بمكانة كبيرة جدًّا؛ فإذا كان هذا أو ذاك «أستاذًا» فماذا يكون هو؟ وأيضًا بها نوع من السخرية، فمثلاً يقابل الخدم أو الموظفين، أو حتى عمال النظافة في الشارع ويلقاهم بهذه العبارات، فليس عامل النظافة «باشا» وإلا ما كان عمل في هذه الوظيفة، ويتلقاها هؤلاء في سعادة بالغة تعكس ظنًّا حسنًا في تواضع الرجل، ولكن ثمة شعور بالنقص يعالجه بالسخرية من المجتمع المحيط به. أما عامر فإنه أبلى بلاءً حسنًا في نفاقه، فذات مرة ذهب الأستاذ زاهر إلى إنجلترا ليتسوق الكتب، وقام عامر بالاتصال به بعد محاولات يائسة حيث كان يقيم في فندق في قلب العاصمة، ولما نجحت إحدى محاولاته قال له: «أنا عامر يا سعادة البك.. بطمئن عليك.. هل أنت بخير؟ لقد قرأت في الصحف أن الطقس في لندن تحت الصفر.. أتوسل إليك أن تثقل من ثيابك».. مثل هذه المناورات النفاقية تسعده جدًّا، ويعلم

عامر أنه بهذه المناورة حجز مكانة كبيرة عند البك.. وفطن عامر لشخصية زاهر، فبدأ يكشف من نفاقه.

وكان الأستاذ زاهر مؤمن جدًّا بأن الفقراء جميعهم منافقون ولصوص وكذابون، باستثناء النوبيين؛ لأنهم يعرفون حدود خدمتهم، حتى لو تلقوا تعليمًا جيدًا فإنهم أيضًا سيظلون هكذا، وذات مرة سألته «كلير»: «لماذا توظف أصحاب البشرة السوداء؟» فقال لها بالفرنسية: «هؤلاء من سلالة تخدمنا من أيام جدي الكبير النعمان». اختص «رُمان» بالعمل في البيت وأحيانًا في المكتبة، كان لا يصدق أحدًا ولا يأتمن أحدًا على سر سوى «رُمان»، وكان «رُمان» يعلم بخبرة ربما توارثها عبر أجيالٍ عملت مع هذه الطبقة «من أين تؤكل الكتف» في كلمتين لا ثالث لهما هما: «حاضر..ونعم» لا شيء ثالثًا، ربما لم يسمع غيرهما طوال فترة خدمة «رُمان» له. والحقيقة أن زاهر شديد التواضع حيال الأعمال الإنسانية، وهذا ما ورثه عن جده «عبد المجيد باشا»؛ فذات مرة دخل عامر مكتبه فوجده ينهر «رُمان» على إهماله في صحته، وسرعان ما قال له: «اذهب إلى هذا الطبيب، وأنا سأحدثه في التليفون»، علاوة على أنه شاهده وهو يأمره بفتح فمه لإعطائه الدواء بيده.. وللأمانه فإن «رُمان» نال رضاه لحفاظه على المسافة الشاسعة التي تفصل بينهما؛ بين الخادم والسيد.. مهما بلغ زاهر من حديثه معه حتى في الأمور الشخصية، فلا ينبغي له أن ينسى نفسه؛ تلك فوارق لا ينبغي أن تزول أبدًا.. إن زاهر لا يقبل أن يُملي عليه أحد أمرًا، أو أن يسمع من أي أحد أي اقتراح أو مشورة، فهو يرى نفسه قادرًا على قيادة الجميع إلى الطريق الصحيح؛ لذلك لم يستقر في الوظيفة الوحيدة التي شغلها عامًا واحدًا، حيث عمل في قسم الترجمة في رئاسة الجمهورية، بعدها نشب خلاف بينه

وبين رئيس الديوان، جعله يقدم استقالته فورًا.. ولما سأله عامر بطريقة خبيثة: «سعادة البك، لماذا تركت العمل في الرئاسة؟» نظر له زاهر نظرة طويلة ولم يجبه، حتى إن عامر اعتقد أنه لم يسمعه، فعاد يسأله مرة واثنتين وثلاثة، ولما زفر زاهر بتنهيدة وحشية، فطن عامر لغضبه، فاعتذر تلقائيًّا، وتوارى عنه أيامًا لينسى هذه الواقعة.. هل ظن هذا الحقير أنه صديقه ليتحدث معه في أمرٍ شخصي مثل هذا؟ كيف يجرؤ على ذلك؟ أما «رُمان» فلا يمكن أن يحدثه في ذلك أبدًا. لا يتوقف زاهر عن استعراض وجاهته وثقافته، هو يتحدث فقط وعليك أن تسمعه، وليس فقط تسمعه، بل تصغي بكل جوارحك له.. حدث مرة عندما كان يتحدث للعمال فلاحظ عاملاً يبدو عليه عدم الاكتراث، فتقدم نحوه ولكمه في صدره، وقام برفده. أما عندما يكون غاضبًا من شيء، فلا يحسن لك أن تتحدث معه. وعندما مرضت زوجته «كاملة مرتضى» قبل أن يطلقها، تحدث إليه عامل في التليفون ليطمئن عليه وقال له: «ربنا يطمنك يا سعادة الباشا.. صحيح العيال عاملين إيه دلوقتي؟» هو يقصد زوجته، و«العيال» هنا «كناية» يقصدها أهل الريف في وصف الزوجة، وشعر زاهر بالغيظ وكاد أن يطرده، لكن الذي شفع للعامل هو جهله بكيفية الحديث مع هؤلاء الناس. يستريح جدًّا لتلك العقلية، تذكره بأهل «ملوي» الذين كانوا يقفزون من فوق حميرهم عند مشاهدة جده أو والده؛ احترامًا وإجلالاً، تلك النوعية يحرص وبشدة أن تعمل عنده (لذلك كان منزعجًا جدًّا من «موريس إبراهيم» لأنه قاومه). أما إذا أردت أن تقترب منه، فعليك أن تعمل عدة وظائف في آنٍ واحد.. أن تكون جاسوسًا على زملائك، وهنا يجب التوضيح.. ليس جاسوسًا بالمعنى الإيجابي للكلمة؛ يعني مثلاً إذا شاهدت زميلاً قام بالسرقة فينبغي

لك أن تحدثه في ذلك.. ولكن زاهر لا يريد جاسوسًا من هذا النوع الإيجابي، وإنما يريد جاسوسًا يتلصص على زملائه، وينقل له أدق أسرارهم الشخصية، حتى له جملة يعرفها كل من عمل عنده وهي: «إذا شخص تف، ضع التفة في ظرف وأرسلها لي».. وأن تقوم بخدمته هو شخصيًّا بجوار خدمتك في المكتبة، وألا تسأل أبدًا، وأن تتحمل غضبه؛ فإذا صفعك على خدك الأيمن تدير له خدك الأيسر.. علاوة على أنك لا بد أن تضحك على نكاته السخيفة واستعراضه لخفة الظل، ولا بد أن تبدو أمامه مذهولاً بعقليته الجبارة، وفي ذلك مجهود عظيم.. وأن تكون تحت طوعه ليل نهار، لا تحدثه في مواعيد العمل، لا بد أن تشعره أنك تحت أمره في الأربع والعشرين ساعة، ولا تحاول أن تناقشه؛ لأن مناقشتك له تعني أن هناك أخطاء وقع فيها، ولا تحاول أن تبدو أمامه مثقفًا، واستخدم في حديثك معه عبارات تدل على أنك جاهل.. بهذه الطريقة ستضمن ألا يغضب عليك أبدًا، وسيمنحك نقودًا كثيرة لأنك تعرف حجمك تمامًا.

وفي نوفمبر من عام ١٩٧٩ أغلق المكتبة، بعد أن تكاثرت الديون، وتنازل لأقاربه عن بضعة أفدنة، وسدد تلك الديون.

***

والأستاذ زاهر لم يأخذ من أمه إلا عينيه الخضراوين فقط، وكان طويلاً، وله صدر عريض، ورأس كبير، وشعر ظل حتى بلوغه السبعين عامًا أسود، يتخلله الشعر الأبيض على استحياء. وعلى الرغم من أنه قد طرق باب فيلته سماسرة كثيرون جاءوا بهدف التوسط بينه وبين قنصليات وسفراء كانوا يرغبون في أخذ الفيلا، فإنه رفض بشدة، لكنه استسلم لرغبة مدام «سِريا هوارد مورس»

بسرعة، كأنها أمانة كان يحتفظ بها لسنوات وعادت لصاحبها.

ومنذ أن ترك الفيلا لمدام «سِريا» في عام ١٩٨٠ وهو ينتظر كل أول شهر «خرستوف» الذي يأتيه بالإيجار.. يرحب به جدًّا، ويصنع له كوب الشاي بنفسه، ويجلسان يتحدثان مع بعضهما، هو بالطبع يستدرج «خرستوف» بطريقته؛ ليعلم منه كل شيء حدث ويحدث في الرابطة. وفي كل مرة يزداد اندهاشه بإيمان هذه المرأة المجنونة التي تنفق على الفقراء بسخاء. وكان «خرستوف» يفرط في وصفها؛ فكان يصفها بالملاك، وكان يتغنى بإنسانيتها؛ الأمر الذي جعل زاهر يقرر أن يسهر كل ليلة خميس عندها ليراقب الأوضاع عن قرب، على أن «خرستوف» كان يذهب له كل صباح يوم جمعة لينظف له الشقة، ثم يذهب له في مكتبه ويقول:

- أي خدمة يا مستر زاهر؟

وهنا يفتح زاهر الدرج ويلتقط منه عدة ورقات نقدية يضعها في ظرف، ثم يمد يده قائلاً:

- تفضل يا «خرستوف»، شكرًا جزيلاً.. أبلغ سلامي للمدام. يتقبلها «خرستوف» بسعادة واحترام شديدين، ثم ينحني بتحية، ويتقهقر حتى يبلغ باب مكتبه ويغلقه خلفه في حرص.

وعاش فترة الثمانينيات في فراغ قاس، اكتفى فقط بحضور الحفلات والسهرات في الحي، وكانت الدعوات تأتيه إما من أُسر صديقة، أو من الأجانب الذين يعرفونه، فضلاً عن حضوره حفلات كثيرة في «رابطة المغتربين»، وكان يجلس بينهم سعيدًا، ومرات حضر حفلات في السفارة الإسرائيلية بمناسبة اتفاقية السلام، وكانوا يعرفونه جيدًا؛ ليس لأنه كان موظفًا في الرئاسة، ولكن لكونه من أقطاب الحي، وكان السفير

يرسل له برقية ومعها زجاجة سكوتش ويسكي فاخرة في صندوق ملفوف بعناية، كان يأخذها ويعطيها لمدام «سِريا»، لكنه حتمًا فقد أصدقاءه المقربين، آخرهم «أحمد لطيف» الذي هاجر بعد الحرب إلى فرنسا، ويتذكر عندما كان يقول له: «اعترف يا أحمد.. أنت اشتراكي متعفن.. هل كنت تقبل أن تزوج ابنتك لابن الخولي كما زعم هؤلاء؟» فكان يرد عليه ووجهه أحمر من فرط الضحك: «أنا لستُ غبيًّا.. فليس معنى أنني أتحدث عن حقوق الفقراء أن أناسبهم» وكان زاهر يستريح جدًّا لهذه الإجابة، ويزيده أحمد لطيف من الشعر بيتًا فيقول له: «حتى هؤلاء الضباط الذين قاموا بالانقلاب على الملك ونادوا بالمساواة لا يمكن أن يقبل أحد منهم أن يزوج ابنته لابن الخولي.. إن ابن الخولي له دور ثانوي في لعبة السياسة؛ لا يمكن التخلي عنه أبدًا، ولا يمكن أن يصبح يومًا ما بطلاً». وكان أحمد لطيف ابن «عبد اللطيف باشا»، وكان ينتقد الملكية في شراسة؛ فيقول دائمًا عنها: «إنها كانت لعنة من السماء، مات الكثيرون ولم تتنفس البلاد» ويقول لزاهر: «عندك مثلاً فؤاد باشا جرجس، أثناء وباء السل تبرع لبناء مصحة كبيرة لأبناء الإسكندرية، ودفع ٢٥ ألف جنيه أخذتها منه الدولة وأودعتها خزانتها ولم تبنِ المصحة، ومات الكثيرون جراء هذا الوباء العظيم.. وعندما جاءت الأميرة إليزابيث لتجمع تبرعات لبناء مستشفى العالمين لعلاج الجنود الإنجليز، هرع الباشاوات للتبرع بآلاف الجنيهات، وأولهم كان والدي عبد اللطيف باشا.. ها ها ها».

والآن وبعد رحيل «سِريا» يجلس في الرابطة يتحدث مع الأجانب عن ماضيه، فضلاً عن حضور مدام «كلير» بكلابها الخمسة، أو يذهب لتناول الطعام في لاكازيتا.. أما في صباح هذا اليوم فقد جاءت له المدام كعادة كل صباح ليتناولا الإفطار في الرابطة، إلا أن «موريس

إبراهيم» على غير عادته دخل الحديقة، وهذا ممنوع لعمال المطبخ، فشاهد مدام «كلير» فذهب يصافحها بحرارة؛ حيث كان يقوم برعاية أبنائها، فقال لها زاهر: «اقطعي علاقتك بهذا الحرامي القذر» فقالت له مندهشة: «لماذا؟!» وشعر بالغيظ أكثر لاستفسارها، فقال مدفوعًا بكراهية عمياء: «أنا أقول إنه لص.. هل تفهمين؟».

واغتاظت وقالت له: «زاهر، أرجوك.. موريس موظف محترم».

وشعر بالغيظ فقال لها: «خلاص.. خلاص.. أنا أردت فقط أن أقول الحقيقة».

***

الجزء الثاني

أثنـاء إقامتـه في القاهـرة، عندمـا كان ملتحقًـا بكليـة الآداب قسـم اللغـة العربيـة جامعـة القاهـرة، تعلـم الكثـير.. اسـتطاع في عـام واحـد أن يكـون شـخصًا آخـر.. تعـرَّض للنصـب، وللتهميـش، وللسـخرية.. شـعر بالمـرارة.. كائـن ضئيـل جـدًّا.. العـمارات الشـاهقة المرصعـة واجهاتهـا باللافتـات المضيئـة، والحـي المزخـرف بـكل أشـكال البهجـة والسـعادة، محـال الكاسـيت تصدح منهـا الأغـاني ليل نهار، مطاعـم الفطائـر الأمريكية الكثـيرة والكبـيرة، المقاهـي الفخمـة التـي تقـدم الشيشـة بنكهـة التفـاح، الممـرات الضيقـة التـي يكمـن فيهـا السر.. وقـال في نفسـه: «هـا هـو الغزو يأتيكـم يـا أهـل مـصر». أمـا النسـاء العاهـرات بنهودهـن ومؤخراتهـن فيقفـن عـلى الطـوار، وبخـبرة يعرفـن كل مـن هـو جـاد.. يعرفـن متعقبـي المؤخـرات.. ملعونـات ولكنهـن جميـلات؛ الأمـر الـذي جعلـه يتحـرر شـيئًا فشـيئًا قائـلاً: «لـكل شيء ثمـن.. وهـا أنـا دفعـت لكـم لكـي أتعلم». وذهـب حيـث شـارع عـماد الديـن، وأقـام في فنـدق «كايـرو خـان» ليلـة ومسـح الشـارع ، وسرعـان مـا اكتشـف أنـه جـاء متأخـرًا بنصـف قـرن على الأقـل.. أيـن الكباريهـات؟ الراقصـات؟ البـارات الراقيـة؟ وقـال: «مـاذا تظنـون أنفسـكم؟ لقـد أخـذت الليسـانس وأصبحـت واحـدًا منكـم».

وذهـب إلى إمبابـة؛ مغامـرة في بيـت قـوادة، كـم تثـيره هـذه المغامـرات.. وينـثر فلسـفته عـلى الجميـع فيقـول: «المتعـة أن تصـل للمتعـة مقطـوع الأنفـاس، وأنـا أريـد خـوض المعـارك بصـدر مفتـوح.. المـوت سـيأتي لا محالـة؛ أمـوت وأنـا أحـاول أفضـل بكثـير مـن المـوت فـوق أفخـاذ امـرأة سـهلة.. الانتحـار يـا سـادة هـو أن تقبـل بحيـاة تقليديـة.. الموت..المـوت.. في سـبيل المتعـة».

وطـارده البلطجيـة، وأخـذ يركـض منهـم بسرعـة كبـيرة، بعـد أن صرخـت الفتـاة وقالـت: «حيـوان!».

ويجلس في مطاعم الفطائر التي يحبها ويقول: «آه.. كم أهوى الفتاة التي تؤمن بأنوثتها.. حتى أُفقدها أنوثتها».

يشعر «نوَّاف الرشيدي» بلذة وهو يضاجع المرأة؛ لذة تكمن في صراخها.. تستفزه المرأة التي تئن في استمتاع.. لا بد أن تهرب من وطأة جسده القوي، وتركض منه.. لا بد أن تصده بيد ضعيفة.. تتوسل إليه.. يتقوس جسدها، وتتقلص عضلات وجهها، وتصرخ تناجي أمها. ويتذكر وهو جالس جلسته المعتادة التي يحرص عليها في مطاعم الفطائر، فتاة شاهدها في أحد المقاهي وكانت بصحبة صديقه.. نظر لها نظرة طويلة، ثم ذهب. وفي اليوم التالي التقى صديقه، الذي قال له: «تقول عنك شيطان»؛ فضحك «نوَّاف» وقال: «صحيح.. وهي أيضًا شيطانة». واندهش صديقه وقال له: «ماذا تقول؟!» فأجابه بثقة: «الشياطين يعرفون بعضهم البعض.. وعاجلاً ستضاجعها.. بالمناسبة هي نظيفة جدًّا».

ويضحك «نوَّاف» وهو جالس؛ فلقد جاءه صديقه بعدها بثلاثة أيام وقال له: «نعم كانت نظيفة!».

(هو «نوَّاف الرشيدي» من الخليج)

نشأ في بيت «الرشيدي» تاجر البلح؛ حيث كان يملك آلاف الأشجار.. أنجبه «الرشيدي» بعد أن تجاوز الخمسين عامًا، وتفرغ لتربيته تربية خاصة بعد أن لاحظ عليه نعومة ونضارة ليست على أحد من أبنائه الكُثر. وبعد أن تجاوز «نوَّاف» العشرة أعوام، بدأت تظهر معالم جديدة عليه استفزت «الرشيدي» جدًّا؛ حيث بدا ناعمًا رقيقًا في حديثه.. فضلاً عن نطقه لكلمة «آه»؛ يقولها بطريقة أنثوية.. مما أثار غضب الوالد جدًّا. فلطمه بقوة؛ فسقط «نوَّاف» مغشيًّا

عليـه. وعـاش «الرشـيدي» في مـرارة حـين زاره أحـد الشـيوخ الكبـار وجلـس معـه يتحدثـان في تجارتهـما. ولمـا دخـل عليهـما «نـوَّاف» تقـدم في بـراءة طفـل ليصافـح الشـيخ، فجذبـه الشـيخ بنعومـة وأبقـاه بـين فخذيـه، وربـت عـلى مؤخرتـه.. فقـام الرشـيدي ونزعـه بقـوة مـن يـده، وطـرد الرجـل بعـد أن أسـقطه عـلى الأرض، ويعلـم الرشـيدي أنـه بهـذا الفعـل خلـق لـه عـدوًّا كبـيرًا لـه نفـوذ في القبائـل المجـاورة، لكنـه لم يتحمـل أن يـرى ابنـه في هـذا الوضـع.

وعـاش «نـوَّاف» في مـرارة تحـت سـطوة الأب القـوي، الـذي طلَّـق أمـه ظنًّـا منـه أنهـا السـبب في رقتـه المبالغـة.

وقـرر أن يعلمـه أصـول الديـن؛ فاسـتقطب لـه دعـاة مصريـين مـن بعثة الأزهـر، ودعـاة أيضًـا مـن قريتـه. وشـعر «نـوَّاف» بأنـه محاصر، وضـاق صـدره؛ فقـرر أن يتمـرد عـلى ذلـك.. فبـدأ يراقـب نسـاء العائلـة، لكنهـن في غطائهـن الكامـل لم يُبديـن أي إثـارة. واسـتحوذت عليـه رغبـة في فعـل أي شيء شـاذ.. إنـه يريـد أن يحتـج عـلى معاملـة والـده، يريـد أن يـصرخ في وجـه العـالم؛ ليـس ذنبـه أنـه وسـيم ورقيـق. ومـارس العـادة السريـة بعد أن تدفقـت نـار المراهقـة في عروقـه، فتهتكـت طبقـة الجلـد، وشـعر بـألم فظيـع. وذهـب إلى داعيـة كبـير في أحـد مسـاجد قريتهـم، وقـص عليـه مـا حـدث لقضيبـه؛ فأزعجـه بخطبـة طويلة عـن الشـيطان. وصرخ «نـوَّاف» في وجهه: «ابـن كلـب، أعلـم ذلـك.. ولكن مـاذا أفعـل أنـا؟». وأعطـاه دهانًـا طبيعيًّا، وتـم الشـفاء في أسـبوع. بعدهـا بـدأ يـمارس العـادة بهـذا الدهـان اللذيـذ.

وقـرر والـده أن يزوجـه؛ فسـعد بذلـك جـدًا، الآن سيكتشـف عالمًـا طالمـا شـاهده كجـدار أسـود، وفي ليلـة الدخلـة شرعـت الفتـاة في تنفيـذ تعليـمات أُمليـت عليهـا؛ فقالـت لـه: «هيـا لتصـلي بي». قطـب حاجبيـه،

وسيطرت عليه رغبة قوية في لطمها؛ إنه لا يريد أن يملي عليه أحد أي تعليمات مرة أخرى، وصرخ فيها بعنف: «اذهبي وبدلي ملابسك». وجلس يتأملها وهي قادمة نحوه تحت ضوء المصباح.. بدا جسدها من وراء قميص النوم عالمًا كبيرًا يحوي ملايين الأسرار. قفزت بسرعة فوق السرير واندست أسفل الغطاء؛ فقفز بجوارها.. وعن قرب اكتشف أن النساء عالم خطير؛ كيف كان والده يقسو عليه ويصفه بالإناث..كيف؟ خلقهن الله من طينة أخرى، يختلفن عن خلقنا تمامًا.. جلدهن شفاف رقيق، وعظامهن طرية، لحمهن يخلو من العضلات؛ عالم طري. وجردها من ملابسها، وبصبر ذئب ظل يكتشف أسرارها. وكلما تنطق اسمه تحت وطأة راحتيه القويتين، يقول لها: «هذه أملاكي!». اعتصر ثديها فصرخت، ولطمها على مؤخرتها مرة ومرة أخرى.. ثم بدأ يكتشف عالمًا كبيرًا؛ عالمًا منفصلاً أشبه بالكرة الأرضية، وقال لها: «نامي». وطرحها على بطنها، ثم أولجه فيها بقوة؛ فصرخت تستغيث.. فضلاً عن محاولات بائسة للهروب منه. قيدها من يدها، واستمر يضاجعها بقسوة وهي تصرخ.. قضى وطره عدة مرات في عملية واحدة؛ حيث أتاها من «دبرها».. شعرت بتهتك الأربطة وبألم شديد؛ فعادت تصرخ وانتفضت.. انقبض قلبه من صرختها التي اخترقت جدران الغرفة، لكنها أنعشته، وإذا به يهدئها، ويعاود المحاولة معها من جديد. ولما انتهى شعر بمتعة كبيرة، وظل يراقبها وهي تبكي، ثم طوقها برفق وقال لها: «لا تخافي مني». ثم ظل يُقبِّلها.. وبدت مستسلمة تمامًا، وتوقفت عن البكاء. وأدمنت الفتاة هذه العادة، بعد أيام كانت تشعر بالمرارة من أثرها المؤلم، ولما فترت عضلة الشرج بدأت هي تطلبها منه. وتمرست على ممارسة الجنس معه؛ تعلَّما مع بعضهما أداء القبلات ببراعة، لدرجة

أنهما كانا يستنزفان وقتًا طويلاً والشفتان ملتحمتان في شهوة لا حدود لها. واستمتعا ببعضهما، واستمر هذا الجماع بينهما قرابة العام. ولما بدأ الإعياء يبدو عليها، بدأت تعاني من مرض السيلان؛ حيث ظلت النجاسة تلازمها طوال الوقت بعد أن ترهلت فتحة الشرج، وبدأت القذارة تخرج منها بطريقة لاإرادية. وخشيت أن تتحدث مع أمها في هذا الأمر؛ مما جعلها تتجه لسماع العلماء في هذا الفعل، حيث إن معظم الخليجيين يتخذون من علماء الدين أطباء أيضًا. ولما سمعت عالمًا يتحدث في ذلك، أنصتت له.. وكانت كارثة بعد أن سمعته يتحدث عن الأمراض التي تنتج عن هذا الفعل الآثم؛ مثل مرض الإيدز، والتهاب الكبد الفيروسي، والتهاب الشرج الجرثومية.. وأن الله عندما حرم هذه العملية، كانت لهذه الأسباب؛ حيث نهى عنها بشدة. وقال العالم كيفية التخلص من هذه العادة التي أحيانًا تصير إدمانًا.. أولاً التقرب إلى الله، والدعاء أثناء السجود؛ حيث يكون العبد أقرب إلى ربه.. ثم أكل الطعام الحار؛ مثل الفلفل، وزيت الشطة.. غير استخدام الماء بغزارة؛ فدَفْعُ الماء داخل فتحة الشرج يسهل طرد الديدان التي تتغذى على المني. انهارت بعد سماع هذا الكلام، ونفذت بدقة ما قاله العالم، وشيئًا فشيئًا بدأت تتخلص من هذا الإدمان.. وكانت حين تشعر برغبة في ممارسة هذه العادة، تهرع إلى الصلاة وذِكر الله.. إلى أن جاء لها ذات يوم وطلب منها أن يجامعها، فقالت له بحدة:

- اتركني.. لا تلمسني. وإذا به يقترب منها ويحتويها ويعتصرها بين ذراعيه؛ فصدرت منها صرخة يعرفها جيدًا.. ثم جامعها بنفس الطريقة. استسلمت، وظلت تبكي بينما هي مستمتعة؛ لم تحاول مقاومته. طلبت منه بعد أن قضى وطره ألا يقذف قذارته بداخلها مرة أخرى؛ لتتجنب الأمراض.. استغرب طلبها، وقطب حاجبيه

الكثيفين علامة على التعجب، ثم ابتسم ساخرًا.

وقالت له ذات مساء:

- «نوَّاف»، إحنا بنسوي جريمة.. حتى الحين ما زلتُ بنتًا!

قال لها:

- أنتِ زوجتي، وهذا شيء مفروغ منه.. وممارستي معكِ هذه ليست عيبًا ولا حرامًا.

- لكن الله حرَّمها.. سمعت كثيرًا من الشيوخ يتحدثون في ذلك.. هذا من الكبائر.. «نوَّاف».. أنا مريضة.

- من الكبائر أن تعصي زوجك.. أنتِ ملكي، وبسوي معاكي اللي بيريحني.. وأنتِ لو عصيتِ تكوني خاطئة؛ لأن الزوجة الصالحة تكون حيث إرادة زوجها.

- سألت شيخ؟

امتقع وجهه وقال:

- بدون أن أسأل.. هذا شيء مفهوم.

- أريد أن أطمئن وأسمع من الشيخ بنفسي.. «نوَّاف».. أرجوك.

زفر بتنهيدة وحشية وصرخ:

- أنتِ اتجننتي؟

- خلاص أنا بحكي لأمي. احتقن وجهه وبدا كالثور الهائج.. لطمها بقوة؛ فسقطت على الأرض تصرخ.. ثم رفعها وقال لها بغلظة:

- إذا فعلتِها فستكونين طالقًا.. مفهوم؟

هكـذا قـضى «نـوَّاف» حياتـه هنـاك. وفي النهايـة قـرر أن يبتعـد عنهـا؛ إنهـا مريضـة بالفعـل، كانـت تزكـم أنفـه رائحـة قـذرة وهـي نائمة بجـواره.

***

لا توجـد امـرأة طبيعيـة عـلى وجـه الأرض تميـل جنسـيًّا إلى ممارسـة هـذا النـوع الشـاذ مـن الجنس؛ لأنـه ببسـاطة لا يُمتعهـا أبـدًا، ولأن هـذا الموضع هـو موضـع خـروج وليـس دخـولاً.. فالدخـول شيء غـير طبيعـي (كأنـك تحـاول أن تتنـاول الطعـام مـن الأنـف). هـي تشـعر بـألم شـديد يجعلهـا في قمـة القهـر والحـزن، عـلاوة عـلى إهانتهـا؛ فتلـك الممارسـة مهينـة للمـرأة الطبيعيـة. لكـن كثـرة التكـرار يجعـل مـن تلـك الممارسـة عـادة تُحـوِّل المـرأة الطبيعيـة لمـرأة شـاذة جنسـيًّا.. وشـيئًا فشـيئًا تتحـول لمريضـة بهـذه العـادة.. ومـا قالتـه زوجـة «نـوَّاف» كان يُنـذر بحـدوث المـرض.. لم تسـتطع التوقـف عـن الاسـتجابة لـه؛ ليس خوفًـا منـه، وإنـما هـي رغبـة في ممارسـة العـادة، كأنهـا تنتقـم مـن نفسـها.. ربـما تسـتمتع بعبـث يديـه في ثديهـا، أو بقبلاتـه الحـارة.. لكـن لا توجـد متعـة حقيقيـة في جماعهـا بهـذه الطريقـة.. تسـمعه يئـن مـن فـرط اللـذة، وعنـد بلوغـه الرعشـة ينتفـض ويـصرخ.. ولكـن هـي لم تشـعر بـأي متعـة؛ إن للمتعـة عندهـا طريقًـا واحـدًا، لم يطئـه «نـوَّاف»، ولم يفكـر أن يخطـو نحـوه خطـوة واحـدة.

في شـقة «عبـدون النـو» دخـل في أول صراع عنيـف.. الشـقة الفسـيحة التـي تُفتـح عـلى خمـس غـرف نـوم، بجانـب صالـة واسـعة بهـا بـار صُفَّـت عليـه أجـود أنـواع الخمـور.. وكانـت تعبـق الشـقة رائحـة البخـور؛ لتغطـي عـلى رائحـة الحشـيش التـي تنبعـث مـن طاسـة تتوسـط الصالـة.. غـير الموسـيقى الشرقيـة التـي تصـدح في الشـقة.. فتشـعر وكأنـك في بدايـة القـرن التاسـع عـشر. وكان يـتردد عـلى هـذه الشـقة فتيـات مـن مجتمعـات

مختلفة.. فـ«عبدون النو» السوداني معروف في محيط العمارة بأنه شاعر من السودان، له دواوين، وغنَّى له بعض المطربين الكبار؛ لذا كانوا يتفهمون طبيعة الجو الذي يعيش فيه. ويتنهد عبدون من الأعماق عندما يتذكر سنوات خدمته عند الأمير «خالد العشيري»: «آه.. أيام العز والخير». كان الأمير ابن كلب يقول لي: «أنا راضٍ عنك»، فتُفح لي طاقة القدر. الشيء الوحيد الذي كان يضايقه من هذا الأمير هو تلذذه بضربه بالحذاء.. وهذا لم يتعارض مع كرامة عبدون، ولكن لا يستبعد أن تُذهب الخمر بعقله ذات مرة؛ فيقتله بمسدسه المرصع بالذهب الخالص، ثم يلقيه كغذاء للنمور التي يحرص على تربيتها في مزرعته.

كان «عبدون النو» من شمال السودان؛ بشرته سمراء، وجهه هادئ وديع، عيناه عسليتان، ويده ناعمة.. يحرص على صبغ شعره المجعد بالحنة الطبيعية على يد زوجته.. علاوة على رائحته الجيدة، ونظافة ملابسه، والعناية بمظهره. وبعد أن ادخر أموالاً استطاع هو وزوجته أن يكسباها من الخدمة في الخليج، حضر إلى القاهرة في مطلع التسعينيات، واستأجر شقة في أرض اللواء، وظل يدرس السوق قرابة العام. وأخيرًا اهتدى لفتح كوافير حريمي تديره زوجته في شارع السودان، ونجح المشروع وفاق ظنونه. واستأجر شقة في شارع جزيرة العرب؛ للإقامة فيها وممارسة هواياته المفضلة التي يبرع في أدائها، وترك بناته وزوجته في شقة أرض اللواء. وفي أول مقابلة مع «نوَّاف»، احتضنه كأنه أب يحتضن ابنه بعد غياب، ثم عزمه على زجاجة بيرة، واصطحبه ليجلس بعيدًا عن الضوضاء.. جلسا في البلكونة المطلة على شارع جزيرة العرب، وبادره قائلاً:

- في مصر لا تعتمد على حد سوى «عبدون النو»؛ المصريين لصوص تو ما بيعرفوا إنك خليجي هيسرقوك.. أنا كنت الخادم الأمين

للأمير «خالد العيشيري». ويرفع «نوَّاف» حاجبيه الكثيفين بمكر (على أن عبدون لا يجد حرجًا من تكرار لفظ «خادم» على نفسه؛ فهو يسعى دائمًا إلى أن يُشعر أصدقاءه بأنه خادم قابع أسفل أقدامهم.. تلك طريقته في التعامل مع الأثرياء فقط) ويسترسل عبدون:

– أول شيء تتعلمه هو أن تتحدث مصري؛ حذارِ أن تتحدث خليجي.. مع سواق التاكسي تتحدث مصري.. في المطاعم تتحدث مصري.. حتى في الحمام؛ أصل الشياطين هنا مصريين!

ويضحك عبدون، لكن «نوَّاف» قاطعه بحدة وقال:

– خلصني.. أنا ما عندي طولة بال.. أنا بعرف أتصرف. ورغم ذلك، فإن «نوَّاف» شعر بالراحة من أن عبدون سوداني؛ فهو يعلم جيدًا أن السودانيين أمناء حتى إذا امتهنوا أقذر المهن. وبرع عبدون في خدمة «نوَّاف» طوال شهر بالكامل. وأخيرًا شعر بضمير القوَّاد أن «نوَّاف» ينقصه شيء، وبالطبع لم يفصح له «نوَّاف» عن شيء، بل ظل يتردد على الشقة يتجرع البيرة ويدخن الحشيش، ثم ينصرف.. حتى عرف عن طريق مومس عاشرها «نوَّاف» أنه يريد فتاة خامًا؛ فقال عبدون بنرفزة:

– تقصدي بنت بنوت.

– مش شرط.. هو بس بيحب القذارة. وفطن عبدون لمدلول الكلمة، وصرخ في وجهها بصوته الرفيع وأمرها بالانصراف، وعزم على أن يقدم له فتاة تعوضه عن كل الليالي السابقة.

***

ولكن من هو القوَّاد؟

سـؤال يسـتغربه البعـض؛ لأن الإجابـة حـاضرة في الأذهـان. ولكـن عندمـا تتأمـل «عبـدون النـو» سـتجده شـخصًا عاديًّـا، ولـه حيـاة طبيعيـة جـدًّا.. ينفعـل أحيانًـا، ويهـدأ أحيانًـا أخـرى.. يحث أسرتـه عـلى الانضباط، ويفـرض عليهـم نمـط الحيـاة الشرقيـة، ويحـرص عـلى أداء فريضـة الجمعـة بانتظـام، ويراقـب بناتـه بحـرص، مثـل تاجـر المخـدرات بالضبـط؛ يبيـع المخـدرات للنـاس، لكنـه يحصِّـن بيتـه منهـا تمامًـا، ولـو علـم بـأن أحـد أفـراد أسرتـه تعاطاهـا يثـور ويقلـب الدنيـا، ويبكـي ويـصرخ.. وأغلـب الذيـن يعملـون وسـطاء بـين الرجـل والمـرأة، لا يقبلـون كلمـة واحـدة عـلى نسـائهم. وفي قهـوة «مـصر والسـودان» يعرفـه الجميـع وينعتونـه بـ»الرجـل الطيـب»؛ يقـدم خدماتـه بصـدر رحـب، لـه علاقـات مـع رجـال مهمـين؛ لـذا قـام بتوظيـف بعـض الشـباب.. وأيضًـا لا يـتردد في إقـراض أحـد المتعثريـن؛ يقـول لـه بعـد أن يعطيـه المبلـغ: «سـيبها عـلى الله يـا سـيدي؛ كلنـا بنكمـل بعـض».

أمـا عـالم «القـوادة» فهـو عـالم خـاص؛ لـذا يحـرص عـلى ممارسـة عملـه ومزاجـه رائـق، فلـو عكـر مزاجـه شيء، عـلى الفـور ينـزوي بعيـدًا. بقـدرة ناتجـة عـن إيـمان قـوي بحريـة المكسـب وجلـب الأمـوال، يعمـل القـوَّاد.. فضـلاً عـن أن القـوَّاد يملـك أسـلحة كثـيرة، وقـت اللـزوم يسـتخدمها في الدفـاع عـن نفسـه.. مـن خـلال العاهـرات يسـتطيع أن يعـرف كل خبايـا الرجـل؛ قوتـه، شـذوذه، ضعفـه.. كل الأسرار التـي لا تخـرج عـن حيـز السريـر.. إن الرجـل الشرقـي يـرى أن كل حياتـه قائمـة عـلى قدرتـه فـوق السريـر.. لذلـك لا يسـتطيع هـؤلاء الرجـال إغضـاب القـواد.. يصاحبونـه، ويتحدثـون معـه عـلى أنـه صديـق.. وقـد يعلـم القـواد أنهـم فيـما بينهـم ينعتونـه بالعبـارات البذيئـة، ولكـن يسـتمد مـن ذلـك قوتـه

وسطوته. وبعد أن انفرد بإدارة الكوافير، جلس يستقطب النساء بعناية.. يشعر بالمتعة وهو يتفحص المرأة؛ متعة من يؤدي عملاً يحبه فيجد راحته وسعادته في أدائه بإخلاص.. ويهمس بفخر: «أصدقائي من عِلية القوم.. فلوس ما لها آخر». ولما تنظر له المرأة نظرة يعرفها جيدًا، يتقدم نحوها، وينحني بأدب ويُقبِّل يدها، ويضع رأسه في الأرض ويقول: «عبدون النو.. تحت أمرك يا هانم.. يشرفني أن تكوني صديقتي.. وأنا أحب أن أساعد أصدقائي». له طريقتان في التعامل مع السيدات.. لو أن المرأة تمتهن الدعارة، فإنه يتعامل معها كأنه أمام تاجر يُثني على بضاعته، ويحثه في نفس الوقت على خفض قيمة البضاعة؛ يؤدي ذلك ببراعة.. هذه هي الطريقة الأولى. أما الطريقة الثانية، فإذا كانت المرأة تلجأ لهذه العملية لسد حالة مادية متعثرة، فإنه يقف أمامها بقامة مقوسة، ويجاهد بكل كلمة وحركة أن يصدِّر لها شعورًا بأنها امرأة شريفة نقية؛ لا يُشعرها بأنها مومس أبدًا، ويمجدها بثقة تجعلها هي تستغرب ذلك.. إنه لا يستطيع أن يجرحها.. لقد وهبهن الله هذا الجمال لاستثماره، فليستعملن أجسادهن في طلب المال؛ ليست هناك مشكلة.. إنه يساعدهن.. يؤمن جدًّا بدوره في كسر حالة الرهبة عند حديثة العهد.. دوره هو إقناعها بالموهبة التي منحها الله إياها لتستثمرها. وبرع في ذلك.. تدفق على الشقة أصدقاؤه من العرب والمصريين، وشملهم برعايته.

***

كانت «حنة» زوجة «عبدون النو» سيدة لها سيط في أرض اللواء، لا تمر من شارع إلا وتُقبل عليها النساء في سعادة.. يَدْعُنَّها لشرب الشاي أو تناول الغذاء، ولا يكففن عن أخذ النصائح منها. كانت «حنة» تبادر في الأفراح بوضع الحنة للعروس دون مقابل، أو بأسعار

بخسة؛ فباتت أمامهن امرأة تعرف الأصول وحق الجيرة. وعلى غير العادة، فإن السيدة «حنة» كانت محبوبة رغم بشرتها السوداء وملامح وجهها الغليظة وضخامتها؛ فلم يتهكم عليها أحد. برعت في الرسم بالحنة، وأطلقت عليها النساء اسم «حنة»، وتقبلت هذا الاسم بسعادة. واتسعت شهرتها أكثر فأكثر، وشملت أحياء أخرى؛ فتضاعف عملها، وأسندت لزوجها إدارة الكوافير، وأخذت هي شقة في أرض اللواء كانت بمثابة كوافير حريمي متكامل؛ فاتسعت شهرتها حتى شملت الأحياء الراقية المحيطة بأرض اللواء.. وشيئًا فشيئًا ظهرت في أحد البرامج التلفزيونية، وتحدثت عن الرسم بالحنة لأكثر من ساعة. وبعد ذلك توسعت وقصدها الفنانون.. كل هذا كان يوتر عبدون؛ «فكلما اشتهرت، زاد الخطر» هكذا قال لها وهو منفعل.. بيد أنه شعر بالراحة من إدارته للكوافير منفردًا؛ فوجودها كان يقيد حريته.

والآن يجلس عبدون يفكر في خدمة «نوَّاف الرشيدي»، كل النساء يرفضن معاشرته.. وهرش في فروة شعره ليوحي لنفسه بشيء من التركيز، وراجع بعناية كل الفتيات اللاتي عرفهن.. وعاد يهرش في فروة شعره ويتجرع من كوز البيرة وقد يئس، وقال في نفسه: «ولا واحدة تصلح؛ مزاجه مقرف.. أنا عارفهم كويس.. مش فاهم داء المؤخرة.. فكّر يا عبدون». وسرعان ما شعر بالسعادة: «الأوروبيات يقبلن أي شيء مقابل المال، والخبرة عندهن متوفرة.. برافو يا عبدون.. «ليلى فتمير» ليس سواها».

طُلب منه أكثر من مرة أن يأتي بفتيات أوروبيات، ومن هنا بدأ يضع في خطته فتاة أو اثنتين أو ثلاثًا يقدمهن لزبائنه الراغبين في الأوروبيات. ولكن لم يكن الطلب عليهن كثيرًا؛ كان ينعتهم البعض بأن أجسادهن باردة، ولذلك بدا هذا الجانب في تجارته كاسدًا، ومع

الوقت أهملهن. ولكنه استطاع أن يدرك قدرات الفتيات العربيات والأوروبيات.. فالأوروبيات يتعاملن بذكاء؛ فهذا يعد عملاً وليس جماعًا طبيعيًّا، ولهذا العمل قواعد..كيف يكنَّ على قدر المهمة؛ لا بد أن يستمتع الزبون، ليس له علاقة بها سوى ساعة؛ ساعة واحدة وسيرحل. أما الفتيات العربيات فليس لديهن أي خبرة، سوى الثرثرة ومحاولة الاستيلاء على الأموال بأقل مجهود، حتى وإن اكتسبن خبرة من طول العمل فإنهن بجهلهن لا يستطعن إرضاء الزبون، حتى وإن مثلن أنهن استمتعن فدائمًا يكون الأداء رديئًا.. تعرَّف عليهن من خلال زوجته، التي وكل لها صبغ فتيات أوروبيات للعمل كومبارس في فيلم سينمائي.. شاهدهن كثيرًا واستمع لهن، أكثرهن من روسيا.. ومن بينهن عثر على «ليلى فتمير»؛ فتاة جميلة.. تمتاز بالطول، وبجسد ممشوق، ومؤخرة طرية.. وجهها طويل غائر الخدين.. ملامحها تتخذ شكلاً حادًّا، وفي عينيها تكمن نظرة شرسة، فضلاً عن جفون حمراء، كأنها لا تنام أبدًا.. ينتشر النمش في أنحاء الوجه، وتحديدًا عند الوجنتين.. شعرها كستنائي طويل.. تتحدث العربية بطريقة ركيكة، لكنها مفهومة إلى حد ما. اقترب منها ذات مرة وفحصها بنظرة قوَّاد محترف.. الفتاة ليست بالشقراء، ولا السمراء؛ إنها برونزية، ليس من بين من عرفهن مثلها.. وألقى بشباكه عليها؛ في محاولة منه لضمها لترسانته.. كانت تأتي للسيدة «حنة».. تحدث معها عن عالم التمثيل، فقالت له:

- أهوى التمثيل.. وزوجتك من السهل عليها أن توفر لي فرصة عند هؤلاء المنتجين.
- وماذا كنتِ تعملين؟

– راقصة.. أرقص رقصة «السالسا»؛ تلك الرقصة اللاتينية.. إنها مرهقة جدًّا، تتطلب فتيات نشيطات.. أنا مدخنة ومهمومة؛ ولذلك تركتها.

– أنتِ رائعة.

– أشكرك.

– الفرصة ستأتي قريبًا.. أعدكِ بذلك.

رفعت حاجبيها ما بين السخرية والاندهاش، وقالت:

– يبدو أنني أتحدث إلى منتج.

قهقه عبدون ونفخ دخان سيجارته في لذة وارتياح وقال:

– ليس لهذه الدرجة.. ولكن أستطيع أن أوفر لكِ فرصة.. عما قريب سنلتقي.. أعطيني رقم هاتفك.

– أنا أقيم في فندق «سيتي فيو» في وسط المدينة، ستجدني هناك.

***

تذكر كل هذا رغم مرور عدة أشهر على هذا اللقاء؛ فاتصل بها وحدد معها موعدًا، والتقيا في مقهى «جروبي»، كان ذلك في مساء يوم من أيام يونيه. اتخذ مكانه بجوار الجدار الزجاجي، وكشف بنظرة واسعة شارع سليمان باشا.. الموسيقى تصدح في جنبات المقهى بإيقاع هادئ.. شاهدها قادمة وقد ارتدت بنطلونًا وقميصًا أبيضين من قماش الكتان، وقد بدت منهما ملابسها الداخلية؛ فأثارت المارة، وانتعلت صندلاً برزت منه أصابعها الرقيقة البيضاء المصبوغة بعناية.. انتعشت أكثر فور دخولها المقهى.. الهواء البارد يعبق المكان، والموسيقى تنعشه. أشار لها فتقدمت نحوه، قام وصافحها بحرارة..

جلست فزكمت أنفها رائحته الجميلة؛ فقالت له:

- ثمَّة اختلاف بينك وبين زوجتك.
- وما هو؟
- لا شيء. ثم ضحكت وواصلت:أنا بين يدك.. ها، وجدت الفرصة التي وعدتني بها؟
- نعم.. ولكن لا بد من التحدث والاتفاق.. نشرب القهوة ونتحدث.
- حسنًا.

تناولا القهوة، ثم قالت له:

قبل أن تحدثني في التليفون، كنت أحزم متاعي للعودة إلى «البوسنة».. أنبأني عامل الريسبشن أن هناك مكالمة لي، ظننتها من صديقتي مدام «أندرا كانتاكوزينو»؛ لتحثني على المكوث قليلاً.. ولكن فوجئت بك أنت، وهذا أسعدني.

- أشكرك.

واعتدل في جلسته كأنه سيلقي كلمة أمام جمهور:

- كم يساوي سروالك يا ليلى؟
- ماذا؟! هكذا قالت في دهشة مقرونة بفزعة جعلتها تعتدل فوق مقعدها.

ولكن «عبدون النو» بخبرة قوَّاد محترف ظل ثابتًا، عيناه تلمعان بثقة كبيرة.. أخذ رشفة من فنجان القهوة، وعاد يقول في ثقة:

- كم يساوي سروالك؟ أعتقد أن السؤال واضح.

- هذا ليس سؤالاً.. أظنها مزحة سخيفة؛ أليس كذلك؟ هكذا قالت وقد امتقع وجهها.
- لكل شيء ثمن؛ كل الناس يدفعون ليعيشوا.
- هذا شيء صعب.. أنت تطلب مني أن أكون مومسًا؛ أليس كذلك؟
- نعم، هذا ما أقصده بالضبط.. أنتِ تسعين لمجتمع لا يؤمن بالمواهب؛ يؤمن فقط بالسراويل. خيم عليها الذهول، وبدت عاجزة عن الحديث. فلمح في عينيها لمعة حائرة؛ فقرر أن يواصل غاراته بكثافة، فقال:
- أنتِ رائعة، وتستطيعين أن تستخدمي جسدك في جلب المال والشهرة.
- أنا مسلمة، وأعرف ديني جيدًا.. أمي كانت مسلمة وعلمتني الكثير.. لا أستطيع أن أتخلى عن ديني.ألست مسلمًا؟ هكذا قالت في سذاجة.
- نعم.. كلنا مسلمون، ومُسلِّمون بالواقع.. ولكن هناك ضروريات تحتم علينا تغيير المسار.. ليلى، لن تكوني إلا إذا استثمرتِ هذا الجمال.

شملت المكان بنظرة واسعة وعادت تنظر في وجهه، ثم أوقدت سيجارة وراحت تنفث دخانها في عصبية، ثم قالت:

- أنت تاجر نساء؟
- أنا أساعدهن.. ولن أسمح بأي أسئلة أخرى.. الموضوع عرض وطلب.
- كيف؟

- جلسة واحدة مع شاب متحضر، لديه المال والجمال.. سيساعدك في كل شيء، لن تندمي أبدًا.. ساعة واحدة؛ ستأتين لإعطائه درسًا في الرقص.. أليس هذا طبيعيًّا؟ فرصة كبيرة ولن تعوض؛ ربما ينتج لكِ فيلمًا أو اثنين.

أوقدت سيجارة أخرى وراحت تنفث دخانها في توتر، وطلبت فنجانًا من القهوة. ولمح عبدون في عينيها لمعة توحي بحماسها وتفاعلها مع الفكرة.. وهمست في نفسها: «يا لك من قواد ماهر!».

- الفرصة في يدك، ولكِ الاختيار.

- دعني أفكر.

- ليس أكثر من ليلة واحدة.. غدًا مساءً سأتصل بكِ لأعرف الرد.. لا تتأخري عليَّ.

ودعا عبدون النادل بعد أن طرقع له بإصبعه، فجاءه.. وطلب منه الشيك.. ألقى نظرة سريعة عليه، ثم أخرج محفظته الجلد والتقط منها ورقه فئة المئة جنيه، وضعها في النوته الخاصة بالشيك، وقال له:

- انتظر السيدة حتى ترحل؛ كن تحت أمرها. ونظر لها، وكشف عن أسنانه البيضاء بابتسامة واثقة وقال:

- مضطر أن أذهب؛ لديَّ ميعاد.. سأتصل بكِ غدًا.

وانتظرت وقد استرخت أكثر فوق المقعد الجلد المشبع بالهواء البارد، وأخذت جرعة من كأس الماء، وشاهدت عن قرب بضعة أطفال متسولين يركضون تارة، ويشحذون من المارة تارة أخرى. وتذكرت أيام القبعة الزرقاء والوشاح الأحمر؛ زي المدرسة.. الطفولة والبراءة.. ثمَّة ذكريات ظلت تطاردها من وقت لآخر، كثيرات من

صديقاتها أقبلن على المتاجرة بأجسادهن، وعُرض عليها الأمر، تعلم جيدًا أنها مطلوبة، ولكن كانت تقابل ذلك بسذاجة، جعلتها مطلوبة أكثر.. ولكن عبدون جاء وقال الحقيقة: «كم يساوي سروالك؟».

***

«أنا ليلى فتمير»

من البوسنة والهرسك، أعمل راقصة ضمن فرقة ترقص رقصة «السالسا»، جئتُ للقاهرة مع السيدة «أندرا كانتاكوزينو»؛ حيث أقمت معها في الحي الإنجليزي، وأنشأت معها الفرقة، كان ذلك في منتصف التسعينيات، ولكن سرعان ما سببت لها متاعب كثيرة، وفي النهاية قالت لي: «ليلى»، السلوك العدواني التي تنتهجينه لن يُفيد في شيء.. كل شيء انتهى.. لا تكترثي لأحزان الماضي.. أنتِ الآن تقيمين في الحي الإنجليزي، لستِ في سراييفو». أظنها كانت على حق؛ هي لم تتذوق ما تذوقته من مرارة، لم تشاهد أمها تُغتصب أمامها، لم تُقتل عائلتها، لم تُشرَّد.. كم أكره هؤلاء الأوروبيين الذين يأتون إلى المدرسة منتفخي الصدور؛ ماذا يظنون أنفسهم؟ إنهم سفاحون.. قتلة؛ حكومتهم تقتل الأبرياء، أو بالأحرى تساهم في قتلهم؛ سواء بالصمت، أو بالقوة الكهنوتية.. فضلاً عن أنها تنهب أموال الشعوب وهم ينعمون بالرفاهية.. كان هذا اعتقادي، وما زال. لذا لم أستطع الاستمرار في المدرسة، تركتها قبل أن أقتل رجلاً هولنديًّا فلاحًا ممن كانوا يأتون.

«أنا ليلى فتمير»

كانت أمي بوسنية مسلمة؛ أمي التي ماتت وهي تدافع عني.. لطمها الجندي الصربي بقوة في أذنها؛ فأُدميت وسقطت على الأرض، واغتصبها أمامي هو واثنان آخران.. نعم شاهدت هذه المأساة وما

زلتُ أتنفس.. لا تسألوني كيف استطعت البقاء على قيد الحياة حتى الآن؛ إنها إرادة الله كما علمتني أمي.. تبقى هذه المشاهد في ذاكرتي، ومحفورة بسكين في قلبي.. أمي أمامي بين ثلاثة رجال تقاوم بضعف.. وتصرخ.. تستغيث.. عندما جاءت عيني في عينها شعرت أنني أموت؛ نعم هذا هو الموت في أبشع صوره.. أراد الجندي الصربي أن أرى أمي؛ فكلما وضعت يدي فوق عيني رفعهما وقال لي: «انظري» ويضحك.. وجاء الدور عليَّ، وقاموا باغتصابي؛ الثلاثة دفعة واحدة، بعد أن قاومت بضراوة.. ولكن مع الجوع والخوف، ومشاهدتي لأمي وهي جثة هامدة.. خارت قواي.. واستطاعوا أن يغتصبوني على مدار عشرة أيام متواصلة.. حتى قالوا إنني تعفنت، وبدت رائحتي كريهة، وأحمل في جسدي مرضًا ما، وإنني على مشارف الموت.. ولذلك تركوني. قبل ذلك بأشهر قليلة، كانت أمي تحثني على الهجرة للإقامة مع شقيقتي في المجر.. «ليس الآن» هكذا كنت أقول.. لم أعرف أنها كانت تشعر بشيء.. الأيام جميلة والبلاد منتعشة.. وفجأة سقطت علينا القنابل، وجاء قوم طالما رأيناهم بشرًا طبيعيين مثلنا.. جاءوا مدججين بالبنادق والقنابل ليقتلونا.. إنها التصفية؛ تصفية العِرق.. أنا مسلمة؛ إذن أنا هالكة.. أليس كذلك؟ نعم الله سيدعمنا.. «متى؟» هكذا كنت أصرخ بيني وبين نفسي؛ فأترنح بين اليأس والإيمان.. شعرت أنني أهوي من مكان بعيد، فتتلقفني الطير وتُلقي بي فوق الجبال دون رحمة.. آه ماما.. كم أفتقدك.. قتلوكِ الكلاب.. ذبحوكِ أمامي.. كل همك كان حمايتي.. وأنتِ تحتضرين عيناكِ تبكي عليَّ.. كانت بداية مشؤومة؛ فُرض الحصار على العاصمة، وانحدرت المدينة في صراع هو الأكثر دموية في أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية.. العالم صامت، ونحن نموت.. العالم يغني، ونحن نموت..

الأطفال يُقتلون، والنساء يُغتصبن، والرجال يقاومون ويموتون.. إنها النهاية.. هكذا ظننتها. وألقوا بي في المعتقل، وتعرفت على زوجي هناك، قصصت عليه كل شيء؛ هز رأسه في أسى وقال: «ستتمكن من الهجرة إلى المجر، وهناك نتزوج». وتمكنا من الهجرة في مدرعة. وفي المجر التقيت بشقيقتي التي ظلت تبكي بمرارة، حكيت لها كل شيء.. كيف ماتت أمنا.. كيف تم اغتصابي مرارًا وتكرارًا.. كيف قتلوا أطفالنا ورجالنا.. كيف استعبدونا وأهدروا كرامتنا.. أن تتجرد من ملابسك أمام أعين الناس حتى وإن كانوا من طائفتك، هذا شيء مفزع.. ويوم كان يُخرجون الرجال عند الفجر ليسخروهم في حفر الخنادق.. كنا نعلم أن أغلب الرجال سيموتون.. ونحن نقوم بغسل ملابسهم، وتنظيف غرفهم، ونمكث تحت أقدامهم؛ إنها العبودية.. ثم نعود للمعتقل، وهناك يجلس القائد ومن حوله الجنود، ويختارون الفتاة.. أي فتاة تقع أعينهم عليها، نعلم أن هذه الليلة آخر ما تبقى من عمرها .. حفلة اغتصاب جماعي حتى تنزف.. ثم تموت.. قتلونا وشرحوا جثثنا، ثم باعوا الأعضاء.. على ضفاف المدينة المحاصرة بالقنابل والبنادق والقناصة المتمكنين، مكث سماسرة الأعضاء لينقلوها إلى أوروبا.. انتعشت تجارة الأعضاء، وربح السماسرة الملايين، وجعلوا أطباءهم يتدربون في أجسادنا.. لن يبقى أي مسلم على هذه الأرض.. ألم أقل لكم إنها النهاية؟ كانت محاولة لاجتثاث الإسلام من هذه الأرض.. وصرخت في وجه أختي: «هل تعلمين لماذا؟ لأننا مسلمون.. نعم مسلمون». وقال لي زوجي وقد جاء مهمومًا: «ليلى، أريد أن أسمع قصة اغتصابك من الجنود الصرب مرة أخرى». وقلت له منفعلة: «ألم أقص عليك مرارًا وتكرارًا هذه القصة؟ أرجوك طلقني؛ أنت تشعر بشيء في صدرك، وأنا أريد أن أترك البلاد.. طلقني..

أنا لا أستطيع العيش هنا». وطلقني، وجئت إلى القاهرة في منتصف التسعينيات.. عهد جديد، وبداية لا أعلم ستأخذني إلى أين. قالت لي مدام «أندرا كانتاكوزينو»: «تمتلكين جسدًا رائعًا.. سأعلمك الرقص، وننشئ معًا مدرسة ستُدر علينا ربحًا كبيرًا».

***

جاءت في الموعد المحدد.. بطريقة رسمية أملاها «عبدون النو» العنوان في التليفون، وأكد عليها أنها لو تأخرت دقيقة واحدة فسيلغي الميعاد، وستضيع عليها الفرصة؛ الأمر الذي جعلها تتحمس وتُعد نفسها جيدًا. وجاءت في الميعاد بالثانية. وقف التاكسي أمام عمارة رقم ٧ في شارع جزيرة العرب؛ الشارع ضيق ومكتظ بالسيارات والمارة.. نزلت من التاكسي وسط أبواق السيارات المكتظة خلفها.. توترت، وأخذت ترطن بلغتها في عصبية، ثم التقطت من شنطتها الورقة التي خطت فيها العنوان؛ تأكدت من العمارة، وراجعت رقم الشقة «الطابق الرابع شقة ١٦».. صعدت للطابق الرابع، وفور خروجها من المصعد، فُتح الباب وكان في استقبالها عبدون.. كشف عن ابتسامة وضيئة، شد على يدها وحياها بحرارة.. زكمت أنفها رائحة البخور، وشملت الشقة بنظرة واسعة.. أجلسها عبدون على البار، وأحضر لها بنفسه كوز بيرة مثلجًا.. ظلت تتفحص الشقة بدقة؛ إنها ماخور.. أُناس يجلسون ولا يعبئون بها.. فتيات عربيات رائعات يجلسن مع الرجال.. ثمة موسيقى شرقية تنبعث في جنبات الشقة الواسعة.. وتساءلت في نفسها وقد شعرت بالنقص لأول مرة: «لماذا أنا؟ ماذا يريد مني بالضبط؟». وجاء عبدون ومعه «نوَّاف»، تفحصها بنظرة عميقة، ومد يده يصافحها؛ فابتسمت في توتر، وهزت رأسها وقد شعرت بسخونة تلف أذنها.. وقام «عبدون» بتقديمها في

صورة تليق بها: «مدربة رقص رائعة.. ستتحول معها إلى فراشة».
وتحول إلى «نوَّاف» وقال لها: «الأستاذ «نوَّاف الرشيدي لا يبخل على المواهب بالمساعدة». وتفحصته بنظرة جريئة.. شاب طويل ذو قامة نحيفة لكنها مشدودة بعروق نافرة، وجهه لا بأس به، شعره أسود ناعم يفرقه من النصف، وعيناه كحيلاتان فيهما نظرة ذئب يتوثب للانقضاض على فريسته، تبدو ملابسه غالية جدًّا، فضلاً عن الإكسسوارت التي يتزين بها. وتركهما عبدون، وجلسا معًا على البار يحتسيان البيرة ويدخنان.. وشيئًا فشيئًا استطاع أن يجعلها تضحك. ومن على بُعد ثلاثة أمتار أشار له عبدون برأسه؛ علامة على أن الغرفة جاهزة.. وأخذها إلى الغرفة؛ سحبها خلفه وقد بدا عليها الخمول.. وفي الغرفة جلسا، وقالت له بلسان متراخٍ:

- لن أستطيع أن أعلمك شيئًا.. لا أشعر بقدمي.

ومال عليها ولثم شفتيها.. ازدردت ريقها وامتصت شفتيها، وعادت تحملق فيه في تركيز، ثم قالت:

- أنت لا تريد الرقص.. أنت تريد شراء سروالي؛ أليس كذلك؟

- نعم.

- وكم دفعت لهذا القوَّاد؟

- لا تكترثي به.

جلست فوق السرير وقد شعرت بأطرافها ترتعش.. ثمَّة رائحة غريبة تزكم أنفها، ومرارة لا تعرف مصدرها تستقر في حلقها.. لثم شفتيها المستسلمتين مرة أخرى، وظلت ثابتة.. خلع ملابسه، وبدا أمامها عاريًا وقضيبه منتصبًا.. وبدأ يجردها من ملابسها.. ظلت مستسلمة، عيناها نصف مقفولتين.. ولما بدت أمامه عارية إلا من

ملابسـها الداخليـة، جـف حلقـه، وشـعر بتوتـر لم يـزره منـذ عهـد زواجه.. حمـرة جسـدها أثارتـه، خاصـة مؤخرتهـا.. وتركتـه يعبـث في ثديهـا الصغـير الأشـبه ببرتقالتـين.. وانحـل وعيهـا لذكـرى الجنـود المغتصبـين.. كلهـم مغتصبـون، خُلقـت المـرأة لتُغتصب.. أنتـم معشر الرجـال منكـم القوادون، ومنكـم المغتصبـون.. لـكل شيء ثمـن.. المـرأة الجميلـة ملعونـة في الدنيـا والآخـرة.. المـرأة الجميلـة أشـبه بقطعـة سـكر لا تجـذب سـوى الحـشرات والقـاذورات، تجـذب الرجـال؛ وأي رجـال.. السـاديين، والمغتصبـين، والمجرمـين.. وهـا أنـا أتخلى عـن ديني لرجـل مريـض يعبـث في جسـدي.

ومالـت نحـوه لتبعـده، لكنـه بقـوة طرحهـا عـلى بطنهـا؛ فـبرزت مؤخرتهـا أمامـه شـهية، وامتـدت أصابعـه تعبـث بهـا.. فصرخـت ولكمتـه بكوعهـا في صـدره؛ فانفعـل عليهـا وبصـق عـلى وجههـا، وهمـس في أذنهـا:

- افعليها ثانية لأقتلك أيتها المومس.

- ابتعد عني.. أريد أن أذهب.

فشـعرت بجسـم سـاخن في مؤخرتهـا، ثـم ألم شـديد.. وشـهقت شـهقة ارتـج لهـا صدرهـا في قـوة، وصرخـت: «مـاذا تريـد يـا حيـوان؟». واسـتحوذت عليـه رغبـة لذيـذة افتقدهـا منـذ أمـد.. ودفعتـه بـكل مـا لديهـا مـن قـوة وبصقـت عليـه، ثـم لطمتـه بقـوة؛ إنهـا قطـة صغـيرة تدافـع عـن نفسـها، يدهـا رقيقـة.. ولكـن لا بـد مـن ردعهـا لتستسـلم. لـذا لكمهـا بقسـوة في صدرهـا؛ فسـقطت عـلى السرير تعـاني ألمًـا شـديدًا، وظلـت تسـعل.. ومـضى هـو إلى ملابسـه والتقـط البنطلـون وجـاء منـه بأنبوبـة، وقـال لهـا في تهكـم:

- جئـت بهـا مخصـوص مـن أوروبـا عشـان الـلي مثلـك لا يتـألم.
واسـتأنف:

- كم أنا رحيم بكن يا مومسات يا ملعونات.

وأخذ منها جرعة على إصبعه.. وكانت قد أرهقتها اللكمة وخارت قواها، فطرحها على بطنها وبدأ يضع الجرعة، وصدره يعلو ويهبط في حركة سريعة تعكس بلوغه الشهوة.. وبدأ يُصدر أصواتًا غريبة. ومرة أخرى فور شعورها بهذا الجسم الساخن الذي آلمها بشدة، تضربه بكوعها في صدره.. في هذه المرة صرخ، وقال لها في عنف:

- أنا بوريكي يا مومس يا بنت المومس. وجاء بحزام البنطلون، ووقفت أمامه وجسدها يترنح.. ضربها بالحزام على ظهرها، فتقوس الظهر وسقطت على الأرض.. حملها وألقى بها فوق السرير، وقيَّد ذراعيها بالحزام، ورفع ساقيها فبرزت المؤخرة أمامه كشباك خالية من حارسها.. وحاول أن يولج قضيبه، لكنها تخلصت منه بركلة في صدره.. امتزج شعوره بالألم والمتعة؛ لذا نظر لها وهي تتلوى وتتألم فوق السرير في محاولات بائسة للوقوف على قدميها، إنها في النزع الأخير من المقاومة، ستستسلم وسيقضي معها العمر كله عند لحظة صراخها، ستطربه الحشرجة الأولى، ولمعة عينيها، ورعشة يديها.. كل ذلك سينعش مزاجه. وفيما هي عارية تحت ضوء الشمس المنبعث من البلكونة، بدت في عينيها نظرة غريبة. توقف «نوَّاف» حائرًا من انتصابها بهذا الشكل وكأنها تؤدي التحية العسكرية، وإذا بها تقفز من البلكونة!

وقع الصدمة جعله يتصرف في ثوانٍ؛ حيث جمع ملابسه وارتداها في لمح البصر.. فتح الباب في حرص، وكانت الحركة داخل الشقة طبيعية.. أغلق الباب خلفه، وترك المفتاح ملقًى على البار، وغادر الشقة دون أن يلاحظه «عبدون النو»، ونزل من العمارة ومر أمام

الجثة.. كانت الحركة في الشارع قد توقفت تمامًا، وتكدس الناس حول الجثة، وقد جاءوا بغطاء سيارة وألقوه فوقها ليستروها.. وبهدوء نظر لها من بعيد وهي سابحة في دمائها، تعبث بها أيادي المارة حتى نقلوها فوق الرصيف. ومضى عام على ذلك الحادث، وصادف «نوَّاف» «عبدون النو» ساعيًا على قدميه في شارع النادي في الحي الإنجليزي.. كانت ملامحه قد تبدلت بعض الشيء، لكنه ما زال هو، حتى عزمه على كأس في «بار الكرة الذهبية».

***

الغرفة تزداد مساحتها كلما تأملت السقف العالي وهي ممتدة فوق السرير الكبير؛ فتشعر بالاضطراب تارة، وبالهدوء تارة أخرى.. ويزداد الاضطراب كلما نظرت في الساعة المثبتة على الحائط؛ دقاتها بطيئة أشبه بأنفاس رجل يحتضر.. الصمت المطبق على الشقة الفسيحة جعلها كئيبة. بعد أن يخرج كل من في البيت للعمل، تقطع المسافة بين المطبخ وغرفتها عدة مرات.. مرة تحضر كوب الشاي، ومرة تصنع بشيء من التأني بعض الطعام؛ مثل صينية كيك، أو طبق أرز باللبن.. فضلاً عن أداء بعض التمارين الرياضية ليظل جسدها ممشوقًا؛ بالطبع لا تفعل ذلك إلا تحت إيقاع شاذ من الموسيقى الغربية. هكذا قضت داليا أوقات مكوثها في البيت، إلى أن يأتي باقي أفراد الأسرة؛ فينشغلون في خلافات دائمة على نفقات المعيشة التي تساهم فيها. الشقة الفسيحة التي تُفتح على أربع غرف، تبدو وكأنها بنسيون، يقبع كل فرد من أفراد الأسرة داخل غرفته ولا يعنيه الآخر في شيء.. أحيانًا يجمعهم التلفزيون، أو اقتراح بصُنع طعام شهي يجتمعون على الاشتراك فيه، ويوزعون المهام على بعضهم البعض.. حتى ينتهوا من عملية الطهي التي يندمجون فيها في تركيز؛ تركيز يدل على الرغبة في إنجاز شيء هم

يحبونـه ويسـعون إليه.. ويجلسـون إلى السـفرة ويلتهمـون الطعـام، ويتبادلون التعليقـات، ويلقـون باللـوم عـلى بعضهـم البعـض في شيء مـن السـخرية، مثـلاً: شرائـح البطاطـس كبـيرة، الملـح زائـد، خلطـة الدجـاج ينقصهـا شيء.. لكـن المهـم في ذلـك هـو الجلـوس عـلى مائـدة واحـدة.. تبـدو عـلى أفـراد الأسرة السـعادة. وتسـعد الأم بهـذه الفقـرة التـي تتكـرر كل شـهر مـرة أو اثنتـين عـلى الأكثـر.. الأبنـاء مشـغولون في عملهـم، والبيـت دائـماً مـا يخلـو منهـم، والنمـط الأوروبي تَمَكَّـن مـن المنـزل في إيقـاع منتظـم.

***

«هي داليا محمد عبد المقصود»

كانـت داليـا عظيمـة الشـعور بأمريـن؛ عقلهـا وجمالهـا، ولا تثـق بأحـد مهـما كانـت صلـة قرابتـه لهـا، تشـعر دائـماً بالوحـدة؛ شـعور ليـس قاسـيًا، وإنـما هـو شـعور يمنحهـا الحريـة في اختيـار الحيـاة التـي تريدهـا دون أن يعترضهـا أحـد، تعلمـت الحقائـق مبكـرًا؛ لـذا تعـرف جيـدًا مـاذا سـتأخذ ومـاذا سـتعطي، تـرى الدنيـا طريقًـا طويـلاً لا بـد أن تسـلكه حتـى النهايـة، ولكـن بمفردهـا؛ هـي محطـة لعـالم آخـر، عـالم أكثـر اتسـاعًا، ثمـة أنـاس سـتقابلهم مـرة واحـدة لا أكثـر مـن ذلـك، سـتعطيهم وسـتأخذ منهـم، ليسـت هنـاك حسـابات أخـرى؛ لذلـك لم تعـرف في حياتهـا طعـم الصداقـة الحقيقيـة، الحيـاة التـي تربـت عليهـا تكمـن في ١+١=٢، كانـت مؤمنـة بجمالهـا؛ لـذا تقـول دائـماً لنفسـها: «إن الله لم يخلـق جمـالي عبثًـا، وإنـما هـو منحـة منـه لأسـتفيد؛ ولذلـك وهبنـي هـذا النضـج وهـذه القـوة».. جمالهـا هـو اسـتثمارها الوحيـد في هـذا العـالم المـادي؛ ولذلـك حافظـت عـلى قوامهـا بالغـذاء الصحـي وممارسـة الرياضـة بانتظـام، وحـددت ميزانيـة تُعـد ربـع دخلهـا الشـهري للإنفـاق عـلى جمالهـا.. ترتـدي أفضـل الثيـاب،

وتقتني أفخر العطور والمساحيق. وأيضًا كانت مؤمنة بعقلها؛ لذا عكفت على قراءة الكتب منذ الصغر، منذ أن كانت تجلبها أمها لها ولأشقائها، جميع التجارب التي خاضتها خرجت منها ظافرة، أثناء الدراسة الجامعية رفضت جميع الصداقات، بعد أن تقدم لها زميل وطلب يدها دون معرفة سابقة.. إن داليا على عكس أغلب الفتيات تكره وبشدة من يتفقد جسدها، هذا لا يُشعرها بأنها جميلة والنظر لها شيء طبيعي، ولكن يُشعرها بأنها مومس.. شعرت بالغيظ وتدفق الدم يغلي إلى وجهها، وقالت بوحشية: «أنت لا تعرفني.. أنت شخص وقح.. ابن حرام» ورفعت في وجهه إصبع الاتهام، وقالت في عنف: «لو تعرضت لي مرة أخرى سأبلغ الأمن وأقدم شكوى لعميد الكلية.. أنت فاهم؟» وكادت أن تنشب بينهما معركة، لولا تدخل البعض، والحقيقة أنها كانت متحفزة لذلك جدًّا؛ كانت تريد أن تلطمه أو تركله، فلو كان جاء وطلب التعرف عليها لكان اختلف الأمر.. وشعرت بالمرارة من هذه التجربة؛ إنه لا يعرفها، لكنه يعرف جمالها وجسدها جيدًا، هو جاء بدافع الشهوة وليس الحب، جاء ليقفز فوقها.. هذا ما يعرفه عنها.. وأيضًا استفزتها جرأته؛ كيف تجرأ وتحدث معها؟ كان يطمئنها أن يقال عنها «ما أفظعها» عن أن يقال عنها «ما أطيبها». وتخرجت في الجامعة ظافرة بتجارب عدة، أهمها الشخصية القوية، وعدم وجود أصدقاء كثيرين، وعملت بعد تخرجها في إعلانات مستحضرات التجميل، لكن ظلت الأموال شحيحة والمطلوب منها أكثر بكثير من العائد؛ لذا تركت هذا المجال، بيد أنها صورت إعلانًا فوتوغرافيًّا لبيرة «كارلسبيرغ».. انتشر البوستر على جدران محال الخمور وأمامها (وكانت الصورة مثيرة؛ إذ التُقطت لها وهي في حمام السباحة ورأسها على حافة الحمام،

وبجـوار وجههـا الطويـل كأس البـيرة الممتلئـة بالرغـاوي، وإلى جوارهـا الكـوز الصفيـح).. لكنهـا سرعـان مـا جلسـت إلى نفسـها وتفكـرت في هذا الطريـق وحسـبتها جيـدا؛ فقـررت أن تُعـرض عـن تصويـر الإعلانـات.. وتعرفـت خـلال عملهـا في الإعلانـات عـلى عـالم آخـر؛ عـالم كبـير ليس له حـدود، حـدوده تبـدأ بـالأرض وتنتهـي بالسـماء، ولكنهـا حـدود ليسـت لهـا نهايـة، تبـدأ في عـالم وتنتهـي بفتـح عـوالم أخـرى؛ عـالم النفـس، لـكل نفـس عـالم واسـع؛ مـن القـذارة، والشـذوذ، والمتاجـرة، والتلاعـب.. وقالـت: «حقًّـا لقـد سـيطر عـلى العـالم هـؤلاء الشـواذ».. أمـا باقـي العـالم فهـم أُنـاس حالمـون، مطمئنـون.. تعاملـت مـع رجـال يتحدثـون بغلظـة، حديثهـم معجـون بألفـاظ بذيئـة، وبنغمـة شـاذة، وبالسـخرية مـن المقدسـات.. قلوبهـم جبـارة.. لا يردعهـم أي مخلـوق.. حتـى الله لا يخشـون منـه.. كأنهـم مطمئنـون لـشيء.. يقولـون إن الدنيـا كذبـة كبـيرة ونحـن محظوظـون.. تحملـت شـذوذهم بصـبر وقـوة، لكنهـا في النهايـة مدينـة للخمـر بديـن كبـير؛ فكانـت لهـا دور في غفلتهـم عنهـا شـيئًا.. لـذا خاضت رحـلات الـزواج العـرفي، أو بالأحـرى زواج المتعـة، بيقظـة.. هـو عمـل تؤديـه بإتقـان، أي غفلـة منهـا مـن الممكـن أن تـؤدي إلى فقدانهـا عذريتهـا.. خاضتهـا خمـس مـرات، برفقـة أثريـاء عـرب أو مصريـين، في كل مـرة يسـتمر الـزواج أسـبوعًا أو اثنـين أو شـهرًا عـلى الأكثـر، وتخـرج ظافـرة بالمـال والتجربـة التـي أثبتـت فيهـا قدرتهـا عـلى الحفـاظ على نفسـها، ثـم يتـم الطـلاق بعـد انتهـاء المـدة بتمزيـق الورقتـين.. رفضـت علاقـات كثيرة خـارج إطـار الـزواج العـرفي، الـزواج شرط أسـاسي في إبـرام الاتفـاق بينهـما، عـلى الرغـم مـن أن الجـماع ليـس كامـلاً، ولكـن كأن هنـاك شـيئًا في صدرهـا لا يطمئـن إلا بعـد كتابـة هاتـين الورقتـين.. لكـن شروطهـا بعـد ذلـك قوَّضـت فرصتهـا، كانـت تكتفـي بمنـح القبـلات الحـارة، وتقديـم

عـرض سـاخن بالملابـس الداخليـة.. لكـن كل هـذا لا يغنـي عـن الجماع، خاصـةً في وجـود هـؤلاء الروسـيات؛ لـذا لم تعـد مرغوبـة.

ويـوم أن ذهبـت لتدفـع اشـتراك مـدام «إيفـون»؛ المـرأة العجـوز التـي تقـضي لهـا مـن يـوم لآخـر بعـض الخدمـات، قابلتهـا مـدام «أنـدرا كانتاكوزينـو»، وبـدون مقدمـات قالـت لهـا: «تعملـين معـي؟» وبـدون تـردد أجابـت: «نعـم.. لِمَ لا؟».

فرصـة جـاءت مـن السـماء؛ لـذا أخـذت القـرار بسرعـة ودون تفكـير، إقامتهـا في البيـت تجلـب لهـا المشـكلات مـع أمهـا وأشـقائها حـول نفقـات المعيشـة، ودائـمًا مـا تـصرخ أمهـا في وجههـا: «داليـا، راعـي ظـروفي.. أتحمـل نفقاتـك منـذ أشـهر.. أف».

وقامـت المـدام بتدريبهـا بنفسـها.. ولم تخيـب ظنهـا، راهنـت عليهـا، فتفوقـت عـلى كثـيرات، وقالـت عنهـا المـدام: «داليـا فظيعـة؛ يكمـن تحـت جلدهـا شيء مثـل الكهربـاء، حماسـها لا ينطفـئ أبـدًا».

والحقيقـة أنهـا جميلـة، كصـورة رائعـة نُقشـت بالزيـت لفتـاة جميلـة وعُلقـت في إحـدى القاعـات الفخمـة.. جمالهـا يكمـن في رؤيتهـا فقـط، وليـس في التعامـل معهـا.. جسـدها مـرن، وطولهـا ممشـوق كعارضـات الأزيـاء، ينبعـث مـن شـعرها المبلـل دائـمًا رائحـة الزيـوت المسـتوردة، في وجههـا شيء مثـير، شيء غامـض، بـدآ مـع صمتهـا وحديثهـا القليـل، أنّ ثمَّـة سرًّا وراءهـا، عـلى أن ذلـك كان يميزهـا، لـذا كانـوا يشـبهونها في «رابطـة المغتربـين» بالفتـاة التـي تشـبه الأفعـى في صمتهـا، لهـا جبهـة بـارزة تشـعر أنهـا شيء قبيـح في وجههـا؛ لـذا تُخفيهـا أحيانًـا خلـف قُصَّـة ناعمـة مـن شـعرها الكسـتنائي.. طريقـة ارتدائهـا للملابـس خضعـت مؤخـرًا لـذوق المـدام، التـي أقنعتهـا بـأن مؤخرتهـا كبـيرة؛ ولذلـك لا بـد أن ترتدي

البنطلونـات الفضفاضـة.. ومنـذ علاقتهـما أملـت عليهـا بعـض التمـاريـن التـي تحـد مـن اسـتدارتها المثـيرة، واسـتمرت عـلى أداء التمـاريـن بانتظـام.

«تبقى عدة مواقف عنها تلخص الكثير»

انجرفـت كقـارب صغـير فـوق شـلالات هائجـة، فارتطمـت كثـيرًا في الصخـور، لكنهـا ظلـت فـوق المـاء تقـاوم المنحـدرات والصخـور.. تـرى الشـاطئ يقـترب شـيئًا فشـيئًا؛ لذلـك ظلـت تقـاوم وتقـاوم، يومًـا مـا سـتصل إلى هنـاك وتجلـس فـوق الرمـال الدافئـة، وتقطـف مـن أشـجار الفاكهـة، وتسـترخي تحـت ظلهـا في سـلام وطمأنينـة؛ لـذا استسـلمت لاندفاعهـا دون وعـي.. تؤمـن جـدًّا بـأن كل إنسـان مسئول عـن نفسـه، كل إنسـان في رأسـه عقـل، وفي صـدره قلـب، كل إنسـان حـر، ليـس هنـاك مـن سـيتحمل أخطـاء الآخـر، ليـس للأغبيـاء مـكان في هـذا العـالم؛ لـذا تعاملـت بحـدة مقرونـة بغـرور، ونقـص ملحـوظ في العواطـف.. تعـرف قيمتهـا جيـدًا؛ قيمـة ثقافتهـا، وجمالهـا، وقدرتهـا عـلى التكيـف مـع الآخـر.. لذلـك لم تشـعر بنفسـها التـي بـدت كريهـة لمـن يتعامـل معهـا.. فعندمـا كانـت تجلـس في المطاعـم الفاخـرة لتتنـاول الغـداء أو العشـاء، تطلـب أولاً أن تتفقـد المطبـخ، أو تسـتدعي النـادل وتطلـب منـه أن تـرى أظافـره إذا مـا لاحظـت أنهـا طويلـة متسـخة.. إنهـا تتعمـد أن تضـع الأشـخاص في هـذه المواقـف كنـوع مـن العقـاب الصـارم، وتـشرع في إلقـاء محـاضرة طويلـة عن النظافـة، وإذا لـزم الأمـر تحـث الـرواد عـلى مغـادرة المـكان وتحريـر محضر.. وتختتـم المحـاضرة بقولهـا: «أنتـم لسـتم أغـلى عنـدي مـن نفسـي».

عـلاوة عـلى أنهـا تصـف الفقـراء بالأغبيـاء؛ طالمـا يملكـون العقـول ولم يسـتخدموها إذن فهـم أغبيـاء، انتماؤهـا لهـذه الطبقـة يعكننهـا؛ لـذا تحـاول أن تتـبرأ منهـم في مجالسـها، فتنعتهـم بأقـذر العبـارات، تشـعر بأنهـا تحـارب

بمفردها لتستخلص لنفسها مكانة كبيرة في مجتمع كبير يسيطر عليه الشواذ، فهي قادرة على تغيير المسار؛ أي مسار مهما كان من الممكن تغييره طالما الآلة تعمل؛ تقصد عقلها.

أما صوتها المشروخ بنغمة شاذة، فإنه ناتج عن احتجاجها الدائم.. فهي لا تملك ثقافة اللامبالاة.. لا تستطيع أن تترك أحدًا تحرش بها، أو نظر لها نظرة وقحة دون أن تسجل احتجاجها؛ لذا استقرت على خطة بدأتها بالبصق في وجوههم، وهذا كلفها خوض معارك طاحنة، فأضافت للبصق كلمة اختارتها بعناية كان فيها السحر؛ كلمة «برص».. بذكاء ناتج عن ثقة كبيرة قررت أن يكون العقاب قاسيًا، فتوثبت لمحو أي نظرة بكلمة واحدة؛ تذهب للشاب، وبصوت خارق بعد أن تقترب من وجهه تقول: «صحيح برص».. كان للكلمة مردود قاسٍ في نفس أي رجل، مهما كانت مكانته ووسامته، على الفور يداهمه إحساس بأنه ضئيل كبرص لزج على حائط.. هكذا تعاملت بقسوة شديدة.. تختار عبارات وألفاظًا تعلم أثر وقوعها في نفس الشباب، لكل واحد منهم ما يناسبه من الألفاظ الجارحة.. وكانت توجه هذه الألفاظ حتى للشباب المسالم الذين تقع أعينهم عليها دون قصد، على الفور تنعتهم قائلة: «صحيح برص»؛ مما جعلها في كثير من الأحيان تخوض معارك دامية.

والحقيقة أنها ليس عندها مانع أن تسوق أحدًا إلى قسم الشرطة.. بل من الممكن أن يتطور الأمر للتشابك بالأيدي؛ فهي تحمل في شنطة يدها شيئًا أشبه بكرباج مصنوع من السوستة المعدن، حجمه لا يتعدى ١٠ سم، عند دفعه في الهواء بقوة يتمطَّط ويتجاوز طوله المتر، في آخره كرة معدن ثقيلة، إذا ارتطمت في رأس أحد كفيلة بأن تُسقطه أرضًا.. أخذت هذا الشيء من المدام، فضلاً عن «إسبراي

الشطة»؛ رشة واحدة في وجه أي شخص ستحوله لضرير لبضع دقائق.. ذات مرة تحرش بها رجل أربعيني في محطة المعادي أثناء ذهابها للعمل، وقف خلفها وضربها على مؤخرتها؛ فانقضت عليه في عنف، وظلت متشبثة به في قوة، وقبضت على قميصه، وظلت تسدد له الركلات القوية السريعة، وتبصق في وجهه مع سيل من السباب.. تجمهر الناس حولهما، وأصيبت هي بكدمة في كتفها من أثر ارتطامها في عمود الإضاءة.. بينما أُدمي أنف هذا الرجل إثر لكمة عشوائية منها.. كان من موظفي مصنع ٥٤ الحكومي؛ لذلك انحاز له عمال المحطة، وتجمهر حولهما زملاؤه.. رؤيتها لدمائه زادت من عزيمتها وقوتها، واستعرضت قوتها على الملأ. وتدخلت بعض النسوة، ولكن دون جدوى.. وتمكن الرجل من طرحها أرضًا، وانطلق وحوله أصدقاؤه، وظل يصرخ واصفًا إياها بالعاهرة.. وانفض التجمهر، وبدا على الجميع عدم التعاطف معها. تقلصت عضلات وجهها، وأطلقت سيلاً من الألفاظ البذيئة للجميع.. وكالعادة بصقت على الأرض، وذهبت منفعلة.. ولكن ظلت بينها وبين نفسها سعيدة بضرب هذا الرجل، تستدعي صورة أنفه الدامي؛ فتغمرها السعادة.

«وأخيرًا وليس آخرًا»

أما حرصها على ألا تفقد عذريتها مع هؤلاء الشواذ، فنابع من إيمانها بقيمة العذرية.. العذرية عندها ليست فقط غشاء هشًّا سهل الاختراق، ولكنها روح ينبع منها الاستقرار والأبناء؛ فلا ينبغي أن تُلوث.

وذات يوم طلبت من المدام الإقامة معها، ولما لمحت في عينيها بوادر الرفض، قالت بسرعة: «سأقوم بجانب عملي بعمل آخر». فقالت لها المدام: «ماذا ستعملين؟». فأجابتها: «تنظيف المدرسة» واستطردت:

«رغم أن هذا عمل شاق.. فضلاً عن طهي الطعام، وتنظيف الملابس.. وأتقاضى ثلاثمائة جنيه فوق راتبي بعد أن تخصمي نفقات طعامي».

ووافقت المدام على هذا العرض. ومكثت عند المدام أشهرًا طويلة، شعرت بالراحة من الإقامة في الحي الإنجليزي. ولما مرت المدرسة بفترة ركود، أصبحتا صديقتين حميمتين..

***

في هذا اليوم استيقظت داليا حوالي الساعة الثانية عشرة، كانت قد قضت سهرة طويلة مع المدام في النقاش حول مصير المدرسة، امتدت حتى الثالثة فجرًا.. استيقظت مذعورة بعد سماعها بكاءً شديدًا وتنفُّسًا سريعًا عنيفًا متقطِّعًا مصحوبًا بكلمات غريبة.. انتفضت من فوق السرير، واندفعت إلى حيث مصدر الصوت؛ فوجدت المدام جالسة في الصالة وقد احمر وجهها من أثر البكاء، وبدت ملابسها وحذاؤها قد تعفرا بالتراب إثر رحلة شاقة؛ فتساءلت في ذعر:

- ماذا حدث؟ هكذا قالت وقد شحب وجهها، واندفعت تلقائيًّا إلى المطبخ وجاءت بكوب ماء، تناولته المدام وأخذت جرعة، ثم مالت بظهرها على المقعد، وكأنها خرجت لتوها من أعماق بحر عميق بعد صراع عنيف مع الماء الثقيل.. التقطت أنفاسها في يسر.. وعادت داليا تسأل:

- ماذا حدث؟

فعادت المدام تبكي من جديد.. مسحت أنفها الذي احمر، وقالت بعد لحظات تجرعتها داليا في مرارة:

- ماتت صديقتي وحبيبتي «ليلى فتمير».

مدام «أندرا» تجاوزت الأربعين عامًا، لكنها تملك جسدًا رياضيًّا صلبًا؛ مما يجعلك تظن أنها في الثلاثينيات.. طولها وجسدها متناسقان، وجهها أملس، عيناها عسليتان.. كل شيء في وجهها صغير وملموم؛ الأنف، الفم.. وشعرها الذهبي المجعد القصير تجمعه في ضفيرة واحدة.. على أن مقدمة شعرها قصيرة لا تتصل بالضفيرة؛ فيبدو هائشًا، فيعكس شكلاً مثيرًا للضحك، كأن طفلاً رسم صورة للشمس فأضاف لها عينين وأنفًا وفمًا.. هكذا تبدو. جاءت من المجر مع شقيقتها؛ حيث أسلمت وتزوجت من رجل مصري يعمل في سوق الكاسيت، فأقامت في القاهرة منذ نهاية الثمانينيات، وعادت إلى المجر واستقرت فيها عدة أعوام، بعدها قررت أن تأتي إلى القاهرة مرة أخرى وتفتتح مشروعها، واستأجرت شقة لتعليم رقصة «السالسا»؛ هي من الأوائل الذين فتحوا مدارس لتلك الرقصة في مصر، وبالطبع لم تعانِ ركودًا أبدًا؛ فقد قصدها أغلبية كبيرة من الأجانب القاطنين في الحي الإنجليزي، فاستأجرت شقة أخرى كبيرة في شارع ١٥، وبدأت تعمل هي و»ليلى فتمير» في تعليم الرقصة للراغبين، حتى راودتها فكرة تكوين فرقة كبيرة تقدم عروضًا في الفنادق والحفلات الكبيرة.. وأنشأت الفرقة، التي كانت تضم روسيات ومصريات من الجنسين، وعملت الفرقة في أكثر من فيديو كليب لأشهر المطربين في بداية التسعينيات.. ولكن شيئًا فشيئًا تقلص عدد الراغبين في تعلُّم هذه الرقصة، التي تحولت لشيء ممل قديم بعد أن ضربت التسعينيات موضة الأغنيات الصاخبة، وكانت على رأس هذه الأغنيات أغنية «ماكارينا».. انجذب لها جيل التسعينيات من مختلف الطبقات؛ ليس في مصر فقط، ولكن في العالم أجمع، وصرخت المدام في جنون:

- جميع الشباب يرقصون «ماكارينا».. في النوادي، والحدائق،

والشـوارع.. وأيضًـا في المـدارس.. أنـا ضحيـة هـذه الأغنيـة اللعينـة. وجلسـت المـدام تنتظـر مـن يطـرق بـاب المدرسـة بفـارغ الصـبر، وكان رواد المدرسـة في هـذا الوقـت مـن النسـاء المتقدمـات في السـن. وعـلى الرغـم مـن أن المدرسـة انتعشـت إلى حـد مـا، فإنهـا كانـت تشـعر بالكآبـة مـن إيقاعهـن البطـيء. وفي ذات يـوم، جـاءت لهـا سـيدة ممـن يتدربـن عندهـا، وقالـت لهـا:

- مـدام «أنـدرا»، أنـتِ لسـتِ ضحيـة هـذه الأغنيـة.. أنـتِ ضحيـة الجهـل.

كانـت المـدام تجلـس كعادتهـا في البلكونـة تحتسي قهوتهـا الفرنسـية التـي تعكـف عـلى صناعتهـا في تـأنٍ.. اعتدلـت فـوق المقعـد وقالـت في دهشـة:

- أنا لا أفهم شيئًا.

ضحكت السيدة وجذبت مقعدًا وجلست إليها، وقالت:

- أنـا إسـبانية.. وهـذه الأغنيـة أصبحـت حديـث العـالم.. أزعـم أن هناك أُناسًـا لا يعرفـون إسـبانيا، لكنهـم يعرفـون «ماكارينـا»؛ هـذه الأغنيـة التـي تتسـم برقصتهـا وإيقاعهـا المبهـج تتحـدث عـن فتـاة خائنـة مجرمـة خانـت حبيبهـا مـع صديقـين لـه عندمـا ذهـب إلى الجيـش.

فضحكت المدام وقالت:

- يعني الموضوع فيه خيانة!

***

لم تعـد المهندسـين تروقـه؛ فقـرر تركهـا.. ثمـة رائحـة تزكـم أنفـه؛ رائحـة «ليـلى فتمـير».. صـورة جثتهـا لا تفـارق خيالـه.. فقـد الاسـتمتاع بـأي متعـة، خاصـة عندمـا يقـترب مـن مـكان الحـادث ينقبـض قلبـه..

وصفتها صحيفة بفتاة عاهرة انتحرت من الطابق الرابع، وأخرى وصفتها بأنها تعاني اضطرابًا نفسيًّا من أثر الحرب. قرأ قصتها في الجرائد: «فتاة بوسنية هربت من جحيم الصرب لتنتحر في مصر». شعر «نوَّاف» بالغيظ من «عبدون النو»؛ فاقتفى أثره، وعلم أنه استطاع أن يفلت من العقوبة، لكنه أغلق الشقة، واعتزل القوادة. وعاش «نوَّاف» أشهرًا من المرارة، وفي النهاية قرر أن يترك الحي ليتخلص منها تمامًا. وأخيرًا استقر في الحي الإنجليزي، في عمارة فيكتوريا.. عمارة ضخمة وقديمة، شرفاتها بحرية، تطل على ميدان فيكتوريا.. «حي هادئ وكئيب» هكذا وصفه. ثمة هدوء في باراته قتل طموحاته نحو الشهوة. قصد «بار الكرة الذهبية».. البار يضج بالنساء الإفريقيات؛ لذلك يضج أيضًا بالفرنسيين والألمان الشواذ متعقبي الفتيات الملونات. البار في مبنى قديم، وتملكه سيدة مصرية كانت تعمل في العقارات، متزوجة من شاب مسيحي، فرض سطوته على البار وعليها، وجعل له مكانة كبيرة في هذا الوسط، يستقطب البلطجية لحماية البار، وحمايته هو شخصيًّا.

بنظرة محترف، استطاع «نوَّاف» من أول وهلة تقييم البار .كان يزحف وراءه «عبدون النو»، وقال له:

- ده مش مقامك يا «نوَّاف» بك.
- – شيء جديد.
- أغلب المومسات اللي هنا أنا عارفهم كويس؛ من الجنوب مسيحيين، وأنت تدري المسيحيين مش نظاف.. أنا خايف عليك.
- لا تقلق.. أنا حبيت أحتفل بيك بعد الغيبة دي.
- آه.. الحال اتغير. هكذا زفر عبدون في يأس.

- عشان الحادثة؟

- نعم.

جلسا على البار معًا يحتسيان البيرة، وسط ترحيب شديد من الفتيات بعبدون.. شملهم «نوَّاف» بنظرة قرف.. وقال عبدون وهو يطرد دخانًا كثيفًا متنهدًا في عصبية:

- كانت شؤم.

- وأنت غبي. هكذا قال «نوَّاف» في لهجة فظة.

خفض عبدون رأسه، وقال بانكسار:

- معلهش يا «نوَّاف» بك.. يبدو أنها كانت عازمة على الانتحار، وأرادت ذلك في منزلي.

فقال «نوَّاف» يستفزه:

- لكنها كانت لذيذة، ولكن مجنونة.. والحقيقة أنها لم تنتحر.. أنت لست غبيًّا فقط، ولكنك ظالم.. هي لم تنتحر، أنا من دفعت بها من الشرفة.

- ماذا تقول.. أنت؟!

- نعم، أنا من قتلها.. ولكن اثبت يا حلو.

- أنا هقتلك.

- تقتل مين يا كلب؟ نزّل إيدك يا حيوان.. والله أصرعك برصاصة لا تساوي جنيهًا.

وألقى عبدون بالكأس على الأرض؛ فأحدثت صوتًا جذب أنظار الرواد، وانقض على «نوَّاف».. وقبل أن يسدد له لكمة، استبقه

«نـوَّاف» بلكمـة قويـة مـن أثرهـا سـقط عـلى الأرض.. فتوقفـت الحركـة في البـار، واقـترب منهـما العاملـون.. وظـل «نـوَّاف» واقفًـا بثبـات.. إلى أن قـام عبـدون في هـدوء، وأخـرج منديـلاً قماشًـا مـن جيبـه وجفـف بـه الدمـاء، وتنـاول جرعـة مـاء، وظـل شـاردًا لدقائـق.. أوقـد سـيجارة ونفـث دخانهـا في هـم، ثـم قـال لـه بنـبرة تـدل عـلى عجـزه وانكسـاره:

– أنا بيتي اتخرب.

– عشـان تعـرف تختـار البنـت كويـس.. مـش تجيـب بنـت مجنونـة هاربـة مـن حـرب.

– حبيت أبسطك.

– أنت خربت مزاجي. ثم واصل:

– ورغم كل هذا القرف، بعطيك فرصة أخرى.

– أنا لا أعمل.

– اسـمع يـا بابـا.. آخـر مـرة أعطيتـك مئتـي دولار، وكانـت هتبقـى النتيجـة كارثـة لـولا سـتر الله.

– «نوَّاف» بك، أنا حبيت أخدمك.

– حبيبي.. أريد مالي في الحال.

– بدلك على مطرح هايل.

– بابـا.. المـال.. أنـا لسـتُ ربيـب المواخـير، كنـت بعطيـك فرصـة، لكـن طلعـت حمـار.

– مش هتندم يا «نوَّاف» بك.

ودار «نـوَّاف» برأسـه يتفحـص البـار مـن جديـد، وكان قـد ضـج أكثـر

في هــذه الســاعة المتأخــرة.. الأصـوات مختلطــة، والضحـكات صاخبــة، ويعبـق ســماءه خليط مـن خيـوط الدخـان.

- أي مطرح تريد أن تدلني عليه؟

انفرجت أسارير عبدون، واعتدل فوق مقعده العالي وقال:

- أنا الآن أعمل عند جماعة خواجات.. سواق.

بدا على وجه «نوَّاف» الاندهاش، وقال:

- سواق!

- نعـم يـا «نـوَّاف» بـك.. لحـين الهجـرة؛ لـن أسـتطيع العيـش في القاهرة، ألم أقـل لـك إن بيتـي اتخرب. واسـتأنف:

- وذات مرة طلبت مني المدام أن أوصلها لمدرسة الرقص.

- مدرسة رقص!

- نعم يا «نوَّاف» بك.

- وكانـت عبـارة عـن شـقة كبـيرة في شـارع ١٥.. صاحبـة المدرسـة امـرأة خوجايـة، بتعلـم الرقـص للنسـاء والرجـال.. وبيعمـل عندهـا بنـات عـلى الفـرازة، يقمـن بتعليـم الراغبـين.

- وماذا تريد مني؟

- تقدم في المدرسة.. وبإذن الله مقبول.

- أنت بتضحك عليَّ.. أليس كذلك؟

- حاشـا لله «نـوَّاف» بـك.. أنـا بدلـك عـلى المـزاج كلـه.. بعـد أن تُقبـل في المدرسـة، سـتخضع للتدريـب؛ يعنـي طـول النهـار مـن حضـن دي لحضـن دي.. وتـدري رقصـة «السالسـا»، كلهـا أحضـان.

تفكَّر «نوَّاف» قليلاً، ولمعت عين «عبدون النو» بثقة، ثم أردف:

- بها شيء جديد ممتع.

وتساءل «نوَّاف»:

- وما طبيعة الرقصة بالضبط؟

- رقصة مستوردة من أمريكا اللاتينية.. بتعتمد على الأجسام الطرية والمؤخرات الكبيرة.

- واو! هكذا قال في سعادة.

- بفلوسك يا «نوَّاف» بك، سيخضعن لك.

أخرج محفظته وأبرز منها ورقتين فئة العشرة دولار، وقذف بهما إلى عبدون وهو يبتسم في سعادة.

***

ما هذا السحر! ما هذا الجمال! الموسيقى الكلاسيك تصدح في الصالة الكبيرة المفروشة بباركيه لامع، والملفوفة بمرايا كبيرة، انعكست عليها أجسادهن.. فيها عالم كبير يضج بالجميلات، فيها الدنيا كلها، مقطع طولي وعرضي لأجمل حسناوات العالم. واسترخى على المقعد الدافئ في لذة، وتمنى لو أن يظل هكذا جالسًا؛ لا يريد أكثر من ذلك.. إنه معهن بعيد؛ بعيد عن المشاحنات، والصحراء، وحرب القدماء، والدماء، والتقاليد والعادات التي فُرضت على الضعفاء.. إنه بعيد عن كل هذه السخافات.. عالم متحرر.. مؤخرات ليس لها رابط ولا ضابط، ونهود متحررة تتنفس، ليست مربوطة بأحبال الجاهلية.. وجاءته المدام، وقالت له بعربية ركيكة:

- أي خدمة؟

- أريد أن أقابل المسئول من فضلك.
- أنا المسئولة هنا.. أنا «أندرا»، ماذا تريد؟
- أريد أن ألتحق بالمدرسة.
- رائع.. تفضل. هكذا قالت، وقد بدا عليها نوع من الاندهاش.
- جلس «نوَّاف» وجلست أمامه.. بدا أمامها قزمًا، شعر بأنها تعلم بنيته الخبيثة؛ لذلك جاهد في أن يبدو طبيعيًّا.
- ماذا تريد بالضبط؟

أربكه السؤال وتوتر.. لكنه سرعان ما قال:

- أليست هذه مدرسة؟
- نعم.
- إذن أريد أن أتعلم.. أعتقد أنه لا يوجد شيء آخر.
- يوجد.
- ما هو؟
- نحن ندرب على أنواع مختلفة من الرقصات.. الرقصة الأساسية التي قامت عليها المدرسة هي رقصة «السالسا».. لكن هناك من يرغب في رفع لياقته بنوع آخر من الرقصات.. هذا ما أقصده بالضبط.
- وأنا هنا لرقصة «السالسا» فقط.
- تحت أمرك. ثم اتجهت نحو مكتب صغير جذبت منه دفترًا، وعادت لتجلس مرة أخرى.. بدأت تدون بعض الأشياء، ثم نظرت في ساعة يدها ودوَّنت التاريخ، وأردفت:
- ما اسمك؟

- نوَّاف الرشيدي.
- سنك؟
- ٢٥ عامًا.
- أين تقطن؟
- هنا في هذا الحي.
- عظيم.. سنقوم باختبار لياقتك؛ لتحديد البرنامج المناسب لك.
- تمام.
- سنبدأ بحصة واحدة في الأسبوع.
- قليل.
- سنكثف الحصص تدريجيًّا. هكذا قالت وهي ترفع عينيها في وجهه.

فقال وهو متذمر:

- تمام.
- ثمن الحصة عشرون دولارًا. ثم نظرت في عينيه نظرة طويلة؛ إنها بالغت لترى رد فعله الذي سيحدد رغبته الحقيقية.. وسرعان ما قال دون تردد:
- ما فيش مانع. هزت رأسها وأدركت سبب مجيئه، فواصلت:
- وكلما زادت الحصص، انخفض السعر.
- المهم عندي هو الإتقان في التدريب.
- سترى مستر «نوَّاف».. والمواعيد من خمسة مساءً حتى التاسعة.

- تمام. هكذا قال وقد بدا عليه الضيق؛ من ضيق الوقت، إنه يريد أن يسهر وينام في المدرسة.

- أهلاً بك مستر «نوَّاف». وقامت المدام وصافحته، وقالت له:

- تستطيع أن تجلس لتشاهد أنواع الرقصات.

- بالطبع. وجلس يتفحصهن بعناية.. جذبته واحدة فقط من بينهن، تحت جلدها البرونزي تفور الدماء، بركان يتأهب لحرق العالم.. من تركها هكذا متحررة؟ مالها لا تنظر لي.. أنا هنا أيتها الفتاة.. «نوَّاف الرشيدي» يتحدث.. مغرورة، تقود الفتيات بصرامة.. أرهقتهن التمارين العنيفة، أما هي فإنها بمئة رئة.

***

أحيانًا تكون في حاجة لاتخاذ موقف يعطيك مصداقية عند الناس، ربما يكون الأمر أنت لست ضده، لكن الغالبية ضده؛ فتتنازل عن موقفك وتنحاز لموقف الغالبية؛ فقط لتكسب ثقتهم.. وهذا ما فعله عبد الكريم حين سمع قصة «نوَّاف الرشيدي»، وما يتبعه من سلوك سيئ. اربدَّ وجهه، أو تصنَّع ذلك، وتحدث بصوته الجهوري وبلكنته الممزوجة بكلمات إنجليزية كثيرة وعربية ركيكة:

- أنت يا دكتور فعلت الصواب.. حذرته؛ أليس كذلك؟

قال الدكتور عبد الجواد الجالس جواره وقد بدا قزمًا:

- طبعًا.. وهزقني، وتوعد لو ذهبت مرة أخرى هيرميني من البلكونة.

- عظيم.. إذن ما سأفعله هو الإنذار الأخير. ألقى هذه الجملة بعصبية، ثم انتفض واقفًا.. فبدا طوله قد تجاوز الجالسين، غير

جسده السمين.. له بشرة سوداء، ولحية كثة أسفل ذقنه وخفيفة عند الصدغين.. يفوح منه عطر طيب كالذي يملأ جو المساجد في شهر رمضان.. يرتدي الجلباب القصير النقي المكوي بعناية.. ويدس قدمه في صندل من الجلد الطبيعي تبرز منه أصابعه الغليظة. نزل إلى «نوَّاف» بخطى سريعة أحدثت ضجيجًا واسعًا.. ثم وقف أمام شقته، وبقبضته الكبيرة الصلبة طرق الباب بشدة. كان أعضاء اتحاد الملاك قد اتبعوه من بعيد يترقبون ما سيفعله بشغف.. في لحظة خرج «نوَّاف» عاري الصدر، محتقن الوجه.. فوجد عبد الكريم في وجهه يقف كتمثال من الجرانيت.. ارتعد وحاول التماسك، ثم تساءل بلطف:

– خير يا مولانا؟

اقترب منه، ثم مسكه من ذراعه النحيفة، وجذبه نحوه بقوة.. فترنح «نوَّاف».. ثم سرعان ما تنرفز، ودفعه بيده اليمنى في صدره؛ مما جعل عبد الكريم يستشيط أكثر، فسدد له لكمة سريعة قوية جعلته يرتطم في الباب، ويتدحرج لداخل الشقة كأنه كرة.. ثم نهض بسرعة، وأغلق الباب في وجهه صائحًا:

– أنا هبلغ البوليس.. أنت إرهابي عايز تموتني.. أنا مش هسكت. بينما هندم عبد الكريم ملابسه، وقال بصوت عالٍ:

– افعل ما تستطيع فعله.. ولكن حذارِ أن تفعل الفحشاء هنا يا كلب.

بعد أن جاء «نوَّاف الرشيدي» ليقطن في الحي الإنجليزي، قرر أن يقيم حفلاً كبيرًا يحضره أصدقاء عرب ومصريون؛ وداعًا لحي المهندسين.. وأطلق على هذا الحفل «حفل الهجرة»؛ أراد أن يجدد دماء أخرى غير التي عكرتها هذه الحادثة. ويعلم «نوَّاف الرشيدي»

أن الحـي الإنجليـزي لا يليـق بـه، يقطنـه الأجانـب.. حتـى البـارات فيـه تتلخـص في الجلـوس، والاسـتمتاع بتنـاول مـشروب، وسـماع الموسـيقى الكلاسـيك. العـمارة الضخمـة التـي تقـع في ميـدان فيكتوريـا أصبحـت شـاهدة عـلى أفعالـه، سـجلت لـه أول حفلـة؛ حيـث ضجـت العـمارة كلهـا بـزواره الذيـن توافـدوا عليـه. كانـت السـاعة قـد تجـاوزت الثانيـة عـشرة بعـد منتصـف الليـل، وإذا بفتيـات يأتـين في ملابس مثـيرة يصطحبـن معهن شـبابًا خليجيـين ومصريـين. طغـت عـلى مدخل العـمارة رائحـة العطـر التي أيقظـت البـواب في سـاعة متأخـرة، ناهيك عـن الضحك والحديـث بصوت عـالٍ يشـبه الـصراخ.. كان جالسًـا صامتًـا.. اكتفـى بمراقبـة مؤخـرات الفتيـات.. كلهـن جميـلات، لكنهـن يفتقـدن الأنوثـة التـي يحب أن يمزقها.

وفي صبـاح اليـوم التـالي، اسـتيقظ عـلى طـرق شـديد عـلى البـاب أحـدث ضجيجًـا هائـلاً.. قـام مفزوعًـا لاعنًـا كل الأشـياء، فتـح البـاب فوجـد رجـلاً قصـير القامـة يبـدو مـن مظهـره أنـه تجـاوز السـتين عامًـا.. تفحَّصـه، ثـم صـاح:

- أنت مين وعايز إيه؟
- أنـا الدكتـور عبـد الجـواد عويـس؛ رئيـس اتحـاد مـلاك العـمارة. هكـذا قـال بزهـو وترفُّـع.
- اتكلـم مـع مـدام ناهـد. هكـذا قـال وهـو يغلـق البـاب، فاسـتوقفه الدكتـور وقـال:
- اسـمع يـا أسـتاذ، أنـا جـي أحـذرك أنـت.. مـدام ناهـد ليهـا كلام تـاني معايـا. قـال ذلـك وهـو يشـير بإصبـع الاتهـام في وجهـه، كأسـلوب متبـع مـع الجميـع.
- نعم.. تحذرني أنا؟!

- شغل الخليج ده مش عندي هنا.. اللي حصل إمبارح لو اتكرر هنطردك من العمارة.. ده بعد ما نستدعي بوليس الآداب ونعملك فضيحة.

- طظ فيك وفي بوليس الآداب.. وأنا بحذرك لو جيت هنا تاني، أنا هرميك من البلكونة.. أنت اللي فاهم؟ ثم صفق الباب في وجهه بعنف.

احتقن وجه الدكتور، وانصرف على الفور إلى شقته. لاحظت زوجته انفعاله الشديد؛ فتساءلت:

- مالك؟

- مدام ناهد مش هتجبها البر.. لتاني مرة تأجر الشقة لخليجيين، أنا مش فاهم إيه حكايتها مع هؤلاء بالضبط؟ أنا خلاص قرفت.. أنا حالاً هعمل اجتماع للملاك؛ عشان نشوف حل للمسخرة دي. والتقط السماعة وطلب سكان العمارة.

الدكتور عبد الجواد عويس هو طبيب بشري على المعاش، تولى رئاسة اتحاد ملاك العمارة فور خروجه على المعاش، والحقيقة أنه أثبت أحقيته لهذا المنصب؛ فتحولت العمارة في عهده إلى تحفة.. اهتم بحديقتها الأمامية، واستقطب لها بستانيًّا اعتنى بها وزرعها.. وغيَّر رخام المدخل والسلم وماكينة المصعد. وكان يطلب من الملاك أن يجتمع بهم كل شهر، ينتظر هذا اليوم بفارغ الصبر؛ ليطرح عليهم بدقة كل قرش أنفقه في صيانة العمارة؛ ليس للأمانة فحسب، ولكن متعة الدكتور تكمن في أن يجتمع بالملاك.. يجلس على رأس المائدة، ويفرد أمامه أوراقًا كثيرة لا تعرف ماذا دوَّن فيها بالضبط، يتأنَّى في شرح كل تفصيلة.. وسرعان ما يتحول الاجتماع لحوار طويل بينهم؛ حوار

عـن أحـوال بعـض السـكان الذيـن تركـوا الشـقق لمسـتأجرين، وأحيانًـا يتطـرق الحـوار للسياسـة العامـة. ويمتـد الاجتـماع حتـى الغـروب، يكـون الدكتـور قـد تشـبَّع وأفـرغ طاقتـه المكبوتـة، واسـتعرض مهارتـه ولباقتـه. الدكتـور يمتـاز بجسـد مدملـك قصـير، ووجـه مكتنـز بالشـحوم، يضـع فـوق عينيـه نظـارة طبيـة طـراز (قعـر كوبايـة)، لا يعتنـي بشـعره؛ لذلـك يبـدو دائـمًا هائشًـا.. يسـتخدم إصبعـه في حديثـه، ويشـير بـه علامـة عـلى التوعـد. كان دكتـورًا في قـصر العينـي، وخـرج عـلى المعـاش وتفـرغ للعناية بالعـمارة. يبـدو عليـه الانضبـاط، والحقيقـة هـو منضبـط فعـلاً. لـه عـادات دائـمًا مـا تثـير اسـتهجان الآخريـن، يتعامـل مـع مـن حولـه كأنـه مواطـن أوروبي متحـضر.. مثـلاً عندمـا يـرى معركـة في الشـارع، يذهـب للاتصـال بالبوليـس، وهـذا تـصرف طبيعـي؛ لكـن الشرطـة لا تـأتي أبـدًا، وإذا جاءت تكـون بعـد أن تنفـض المعركـة، لكـن لديـه ثقـة عجيبـة بالشرطـة؛ فإنـه مؤمـن جـدًّا بدورهـا، يتحـدث دائـمًا بالقوانـين. الدكتـور عبـد الجـواد لا يفتـح بـاب شـقته لأحـد جـاء دون ميعـاد مسـبق، وهـذا طبيعـي، حتـى لـو حطـم البـاب. ولـه طريقـه في التعامـل مـع المتاجـر؛ فعندمـا يطلـب طعامًـا مـن أحـد المطاعـم، يقـول: «أنـا العميـد عبـد الجـواد» ولا بـد أن تكـون في صيغـة أمـر، كأنـه يعطـي أمـرًا لأحـد جنـوده؛ ليضمـن أن الطعـام سـيأتي بسرعـة، عـلاوة عـلى جودتـه. وعندمـا يتحـدث إلى صيدليـة ليطلـب منهـا دواء، يقـول: «أنـا الدكتـور عبـد الجـواد.. عايـز كـذا وكـذا» عـلاوة عـلى إضافتـه الأخـيرة: «الدكتـور عبـد الجـواد رئيـس قسـم الجراحـة مستشـفى قـصر العينـي»؛ ليضمـن دواء غـير منتهـي الصلاحيـة. ويزعجـه جـدًّا قطـع الأشـجار، كـم يحزنـه هـذا، كـم مـن المـرات التـي حـرر فيهـا محـاضر في قسـم شرطـة المعـادي، ولكـن دون جـدوى. وكان البعـض يقـول عنـه إنـه عـلى المعـاش؛ فـاضي.. ولذلـك مزعـج.

في مساء هذا اليوم تم الاجتماع في شقته، قص عليهم ما حدث؛ فانفعلوا بشدة. كان يُجلس البواب عند باب الشقة، فاستدعاه وقال له بحدة:

- أنت لازم يكون لك دور يا رمضان، بلاش تبقى أنت والكرسي حتة واحدة.. إيه معندكش نخوة؟ دا حتى أنت صعيدي يا رجل.. امنع أي مومس تطلع للحيوان ده.. ولو اعترضت، تكلمني وأنا هبلغ البوليس. قال البواب باضطراب:

- أنا مش حمل مشاكل مع مدام ناهد.. كلمها أنت يا دكتور. وانزعج الدكتور من أن يواجه هذه القوادة؛ فاحتقن وجهه وصاح في نرفزة:

- خلاص اسكت، وامشي استنى بعيد.

كان البواب رجلاً ريفيًّا ضخمًا تجاوز الخمسين عامًا، يتمتع بجسد صلب، لكنه يخشى أي شيء يهدد رزقه، حتى لو كان منع مومس من الصعود لشقة. قال أحد الجالسين للبواب بمكر:

- انزل بلغ السيد عبد الكريم أنه يحضر الاجتماع معنا، وأننا في انتظاره.. هذا لو لديه وقت.

تساءل الدكتور عبد الجواد:

- المستأجر الجديد الإفريقي؛ أليس كذلك؟

- أيوة يا دكتور.. ومن حسن حظ هذا الشاب أنه كان غائبًا لأكثر من أسبوع، كان مسافرًا.. لسه الصبح شايفه.. ده اللي هيوقفه عند حده. ونطق آخر خمس كلمات بنبرة مشحونة بالغيظ، ثم أعقبها بضرب الترابيزة بباطن يده بقوة:

- بس ده مش من ملاك العمارة.
- مش مهم.. المهم أنه يتعاون معنا.

وتغاضى الدكتور عن أن السيد عبد الكريم ليس من الملاك، رغم أن هذا أزعجه؛ فهو يحب أن يكون كل شيء منضبطًا.. لكن فكرة أن يخلصه من «نوَّاف» جعلته يوافق فورًا.

***

- هه.. ميقدرش حد يمشيك يا أستاذ «نوَّاف»؛ دول كلهم ولا ليهم لازمة.. اللي يكلمك فيهم حط صباعك في مؤخرته. هكذا تحدثت «ناهد راشد» بتهكم وثقة كبيرة.
- واجعين لي دماغي يا مدام ناهد.. أنا مش عارف أذاكر دروسي.. لو لا قدر الله حدث رسوب هذا العام، هتبقى مصيبة كبيرة.
- هتنجح السنة دي والسنة اللي جاية إن شاء الله.

رغم أن مدام ناهد تعلم أنه أنهى تعليمه الجامعي، فإنها دائمًا ما تجاريه.

- هشوف.واستأنف: البواب الزفت هو سبب المصايب دي كلها.. هو كلب الدكتور عبد الجواد.. أي حاجة تحصل يجري يقولها على طول.. ده مش لازم يستنى.. لازم يمشي فورًا.
- البواب مش هو المشكلة.. ورغم كده هخلصك منه.
- كمان الرجل الإفريقي الإرهابي كان هيموتني.. أنا مش لازم أستنى في العمارة.. أنا هموت هنا.

حدجته بنظرة حادة، ثم قالت في غضب:

- وبعدين.. أنت مش بتسمع الكلام ليه؟ مش قلت هخلصك.
هكذا قالت بنرفزة. فأذعن لها وصمت؛ فالسيدة لديها قدرة كبيرة على فرض سطوتها على أصدقائها من الخليجيين، فهي تتعامل معهم بثقة زائدة؛ ثقة تغريك بمعرفة مصدرها.. لكن في حسبة صغيرة ستعلم دون أن ترهق نفسك؛ فقد ذهبت المرأة للعمل في الخليج لبضعة أعوام، بعد أن حصلت على دبلومة في التمريض، عرض عليها أحد المصريين هناك أن تعمل خادمة لكنها رفضت ذلك، وقررت أن تعمل «بوابة» لتكون في خدمة سكان العمارة جميعًا، وليس فردًا واحدًا.. استطاعت في بضع سنوات أن تكنز من المال ما يكفي لتبدأ بداية قوية، قصدتها كثيرات من النساء اللاتي جئن للعمل، واستطاعت أن تكون مركزًا واسعًا يستقبل الوافدات، وفي النهاية قررت العودة والراحة. أنشأت شركة كبيرة للعقارات، وابتاعت في الحي الإنجليزي فقط أربع شقق خصصت شقتين للبعثة الدبلوماسية الإسرائيلية؛ لذا تتمتع بسلطة قوية في قسم شرطة المعادي، وفي الهرم شقتين، وفي حي المهندسين شقة واحدة. وقصدها الأصدقاء الذين حرصت على إقامة علاقة معهم بعد تركها هذه البلاد، فوجهت لهم الدعوة للقدوم إلى القاهرة لقضاء وقت يستمتعون فيه. وبحرفة قوادة ماهرة أصبحت مركزًا كبيرًا للوافدين العرب، لكن المرأة لها تاريخ حافل في هذه الممارسات. وقد اعتادت ناهد راشد تلك المواقف والمواجهات الساخنة بينها وبين سكان العمارات التي تملك فيها شقة، لكنها وللأمانة حريصة على أن تحصن نفسها؛ لذا لها أكثر من طريقة، فذات مرة اقتحم بوليس الآداب شقة الهرم وقبض على ثلاث مومسات، وكان بها ثلاثة رجال من الخليج، ولما

حضرت إلى التحقيق انفعلت وقالت بحدة مقرونة بثقة كبيرة:

- أنا لا أعرف هؤلاء.

واتضح أن المدام تؤجر الشقق لبعض المواطنين السودانيين الذين يعملون عندها، أو الذين سافروا، ثم يقوم هؤلاء بتأجيرها لأولئك من الباطن، بعلمها طبعًا؛ وبذلك تكون المدام في مأمن من أي اتهام. فعلى الرغم من أنها لم تتلقَ تعليمًا قويًّا، فإنها تملك عقلاً قادرًا على الطرح والجمع والضرب، وعلى أن يخطط للمستقبل بحرفية، فلها مقولة دائمًا ما تعلمها للعاملين عندها؛ تقول لهم: «ابنِ في ابنك، ولا تبنِ له». لذا ألحقت ابنتيها منذ الصغر بالتعليم الخاص، حتى التحقتا بالجامعة الأمريكية، بل حرصت أن تفصلهما عن حياتها تمامًا؛ اشترت لهما شقة لا يعرف طريقها أحد، واستقطبت لهما خادمة إفريقية قامت على تربيتهما والحفاظ عليهما.

تكره الرجال؛ لذا تتعامل معهم بحدة ونفور جعلهم يتشبثون بها أكثر، ويتوددون لها. ولكن وللأمانة ظلت وفية لزوجها، لم تبع نفسها قط، مات زوجها بعد معاناة مع مرض التهاب الكبد الفيروسي، وأكثر ما شغلها هو جمع المال؛ فاحترفت القوادة، واكتشفت أنها موهوبة، فتدفقت الأموال، واهتمت بابنتيها ثم بنفسها. تدخن الحشيش، وتتجرع أكواز البيرة بشراهة، بعد أن أفتاها شيخ بحلالها. ورغم ثرائها ظلت وفية للسيجارة السوبر، تقول إن السيجارة السوبر بينها وبين كوز البيرة شيء مثل الاندماج.. التفاهم. إنها تشعر بالمتعة واللذة، ولا تدخن الحشيش في سجائر، وإنما تضعه على أحجار الشيشة بعد أن تفركه بعناية بالمعسل.. هكذا تكافئ نفسها، فهي تشعر بأنها تنجز عملاً شاقًّا وعليها أن ترتاح، وأن تستمتع. أما كرهها للرجال،

فناتـج عـن قرفهـا، فهـي لا تميـل للجنس بشراهـة، فإنها تسـتطيع أن تشـعر بالمتعـة مـن مجـرد التفكـير في المـاضي، ولـو كانـت شرهـة لتزوجـت؛ فهـي لا تقبـل بعلاقـة تُغضـب الله سـبحانه وتعـالى، لكنهـا تشـعر بـأن ليـس ثمـة رجـل عـلى البسـيطة قـادر عـلى إمتاعهـا، كل ليلـة تحكـي لهـا الفتيـات عـن قـرف الرجـال، وشـذوذهم؛ لـذا اكتفـت بالحشـيش والبـيرة.

كلـما تذكـرت المـاضي البعيـد، ازداد مقتهـا للفقـر.. عاشـت طفولـة قاسـية، وعانـت أمهـا وأبوهـا مـع المـرض، كـم يخيفهـا هـذا الوحـش القـادر عـلى إهـلاك أعتـى إنسـان عـلى الأرض؛ وحـش المـرض.. لـذا تجـري فحوصـات شـاملة عـلى نفسـها كل شـهر في مستشـفى السـلام. وعـلى الرغـم مـن أنهـا تجـاوزت السـتين عامًـا، فإنهـا تملـك جسـدًا رشـيقًا وممشـوقًا؛ فقـد اعتـادت ممارسـة رياضـة المـشي قـدوة بالأجانـب، فهـي تؤمـن بـأن الخواجـات - عـلى حـد تعبيرهـا - لا يخطئـون؛ لـذا تحـذو حذوهـم في كل شيء.. مارسـت الرياضـة فحافظـت عـلى لياقتهـا، لا تصبـغ وجههـا بشـذوذ وإنـما تقتنـي المسـاحيق الطبيعيـة، فتشـعر بـأن وجههـا مورد كفتـاة صغـيرة. أمـا شـعرها الغزيـر فدائـمًا مـا تقـرأ لـه في سرهـا سـورة الفلـق خوفًـا مـن الحسـد؛ فالفتيـات يُكثـرن مـن ثنائهـن عليـه، فشـعرها ذهبـي طبيعـي، ولم يـضرب فيـه الشـيب حتـى هـذه السـن. جسـدها صلب وعروقهـا نافـرة، وترتـدي البنطلـون والبلـوزة، وتشـمر الأكـمام، وتُصـدر لمـن لا تعرفـه تقلصًـا فظيعًـا يرعـد أي شـخص كأنهـا جـاءت لتخـوض معركـة عنيفـة. وأيضًـا لا تشـعر مـن حديثهـا بأنهـا نصـف متعلمـة، ولكـن تشـعر بأنهـا امـرأة أرسـتقراطية لبقـة، تسـتخدم في حديثهـا ألفاظًـا إنجليزيـة، وأحيانًـا فرنسـية، هـذا أمـام الجمهـور الراقـي مـن أصدقائهـا الأثريـاء.. أمـا أمـام جمهورهـا مـن الفقـراء، فتتحـول إلى ناهـد راشـد القـوادة.

نزلت وطرقت باب البواب بعصبية، فخرج البواب، وفور رؤيتها اربدَّ وجهه، وأدرك أنه في مواجهة معركة.

- خير يا مدام. هكذا تساءل بانزعاج

- بقولك إيه، شغل الفلاحين ده مش عليا.. مالك ومال «نوَّاف» بك؟

- مليش صالح بالأستاذ «نوَّاف».. اتكلمي مع رئيس اتحاد الملاك.

- أنت بتهددني بالدكتور بتاعك.. أنا همشيك أنت وهو.

أوقدت سيجارة ونفثت دخانها في وجهه بعصبية، وظلت تحملق فيه وكأنها تريد أن تستأنف معه الحديث لإهانته فقط.. لكنه قطع عليها السكة بكلمات قليلات.

فقالت بسخرية:

- فين سيدك دلوقتي؟

- موجود في شقته.

وظلت المرأة في حيرة.. إنها تريد أن توبخه، وكان هناك شيء ما في نفسها يدفعها تلقائيًّا لإهانة البواب؛ فقالت له في حدة:

- أنت فاكر نفسك نظيف.. لو اعترضت طريق «نوَّاف» بك مرة أخرى، همسح بيك الأرض.

وانفعل البواب.. لكنه تماسك قدر استطاعته، فقال لها:

- شوفي حالك يا مدام.

- أنت اتجننت؟

فخرجت زوجة البواب، وكانت امرأة في منتصف الثلاثينيات، فقالت لها في حدة وقد وضعت يدها حول خصرها استعدادًا للمعركة:

- عيب يا مدام تكلمي جوزي كده.. احترمي نفسك. ودفعت زوجها جانبًا لتحتل مكانه أمام المدام.
- الله ..الله .. البومة بتتكلم. وألقت السيجارة على الأرض، وجذبتها من شعرها وقالت لها وهي تلهث من الغيظ: وحياة أمك يا مرة.. المرة الجاية هطفي السيجارة في «......».

وحال بينهما رمضان، والتف حولهم الأطفال الصغار يبكون أمهم التي سقطت على الأرض من دفعة قوية من «ناهد راشد»، التي قالت وهي تلهث:

- أنت مش هتستنى في العمارة دقيقة واحدة.
- الأرزاق على الله.
- طيب.. هنشوف.

وصعدت للدكتور عبد الجواد، وكان يبدو عليها النرفزة، وظل وجهها محتقنًا، وطرقت الباب وصاحت من ورائه: «أنا مدام ناهد راشد.. افتح الباب يا دكتور.. مش معقول كده». كان صوتها عاليًا أحدث رنينًا مزعجًا.. ولولا نداؤها ما كان فتح لها.. ولما فتح الباب، استقبلته بالصياح:

- معقول كده يا دكتور.. أتبهدل في العمارة، وتبهدلوا المستأجرين بتوعي؟
- مش هنتكلم على الباب يا مدام.. اتفضلي.

دخلت الشقة وجلست وجلس هو أمامها مفتخرًا بنفسه، يشعر بقوته وسطوته على العمارة؛ فهو يديرها بقبضة من حديد.. فقال الدكتور في هدوء استمده من ضعفها أمامه:

- اسمعي المفيد يا مدام.. الولد اللي اسمه «نوَّاف» طول الليل يجيب مومسات أشكال وألوان.. وإحنا عمارة محترمة.. ودي مش أول مرة تحصل.. أيضًا المستأجر اللي قبل منه.. هي إيه الحكاية بالضبط؟

- جرى إيه يا دكتور، أنت هتقولي أسكّن مين وما أسكنش مين؟ هكذا قالت منفعلة.

- لأ طبعًا، بس في أصول.. العمارة بتسكنها عائلات محترمة، ميصحش اللي بيحصل.. راعي الجيرة يا ستي.

- أنا مش جاية أناقش قصة المستأجر.. عارفة كويس أنه شاب محترم سايب بلده وجي متغرب عشان يتعلم.. مش فاهمة إيه اللي بيحصل.. بدال ما نكرم الضيف نحاسبه عشان زميلة جاءت تذاكر معاه.. أنا جاية عشان أتبرع بمبلغ لصيانة العمارة.. شكلها بقى يقرف.. والحمار اللي مش عارفة أنت جايبه منين قاعد بس يحط مناخيره في شئون العمارة، مش ينظفها ويعتني بيها.. سايب عياله المبربرين يلغوصوا في المدخل والأسانسير.

- أنا البواب بتاعي شاطر يا مدام ونظيف.. هو في بوابين اليومين دول عندهم ذمة؟

- في إيه يا دكتور بالضبط.. هو قريبك؟

- خلي بالك من كلامك يا مدام. هكذا احتج الدكتور؛ لقد أهانته إهانة كبيرة بهذه الصفة.

ويبدو أن السيدة ارتاحت لنرفزته؛ فبدا وجهها صافيًا.. أوقدت سيجارة والتقطت شنطتها الكبيرة وفتحتها، ثم قالت:

- أنا هتبرع بـ ٢٠٠٠ جنيه. وأبرزت من حقيبتها قيمة الإيجار الذي أخذته من «نوَّاف»، ومدت يدها بالمبلغ، فاستوقفها الدكتور وقال:

- مش هاخد ولا مليم.. أنتِ بتدفعي كل ثلاثة أشهر زيك زي باقي السكان.. متشكرين.

***

ومضى يوم واثنان.. والبواب جعل شغله الشاغل «نوَّاف الرشيدي»؛ فقد كلفه الدكتور بمراقبة تحركاته في العمارة، واستقوى الدكتور بالشيخ عبد الكريم.

قال له الدكتور:

- رمضان، أنت تتزرع هنا على الكرسي ده.. أنت بتقوم بمهمة جليلة لمنع تدنيس العمارة.. متخفش من حد. وسعد البواب بهذه الكلمات.

كان الدكتور ينزل ليتفقد الحديقة الأمامية والمدخل والبدروم، ويطرح اقتراحاته بصوته الرفيع الواثق، فيتبعه رمضان بهز رأسه.. يظل الدكتور من الصباح حتى صلاة الظهر في محيط العمارة بالقميص المكوي، والكرافتة الرفيعة السوداء ذات الخطوط الحمراء، والبنطلون القماش طراز السبعينيات بدون كسر، والحذاء الكلاسيك اللامع. أحيانًا يلتقي برئيس اتحاد ملاك عمارة مجاورة، ويتحدثان في تطوير الشارع، بل يعكفان على كتابة تقرير وإرساله لرئيس الحي. كم يجد الدكتور متعة في ذلك؛ فيشعر أن وقته قد ازدحم، وأنه يقوم

بأعمال كبيرة.. فهو يخاطب رئيس الحي ويحدد ميعادًا معه، رغم أنهما لم يلتقيا، لكن شعور المسئولية يساوره فيشعر بالسعادة. يطلب من رمضان أن يصنع له كوب شاي بالنعناع، ويستغرق في محادثات شيقة تنتهي بقرارات يخطها بعناية في كراسته. أما إذا وقعت حادثة في الشارع أو محيط العمارة، مثل حريق في صندوق كهرباء، أو انفجار ماسورة مياه، أو طفح بالوعة صرف صحي.. فإنه يأتي بسرعة، يستقبله المتجمهرون حول الحادثة باحترام وتقدير، ويشرعون في شرح ما حدث، بل يسعدهم إنصاته لهم بعناية، ويتركونه يعاين الحادثة بجدية مفرطة، يظلون صامتين هادئين مترقبين، وسرعان ما يهز رأسه الكبير ويدوِّن ملاحظاته بعناية في كراسة يحملها معه طوال الوقت.. ويرشف من الشاي واضعًا يده في جيبه، مستغرقًا متأملاً نشاطه وهمته.. ويتنهد ويهز رأسه قائلاً: «البلد بتنهار.. اتفوخص على المسئولين» ويجاوبونه بهز رؤوسهم. ولما يترك المكان ويراجع تأثيره القوي على الناس، يقول:

- قال على المعاش.. دا أنا بفضل الله أستطيع إدارة دولة، مش عمارة.. لكن المحسوبيات.. البلد دي يا رمضان بتحارب الكفاءات.. مش من مصلحة النظام أن واحد زيي يكون في الحكومة.. الإخلاص والأمانة أصبحا عارًا.

وفي ذات يوم، وقف ميكروباص محملاً برجال الشرطة، ونزل شرطي وتقدم نحو البواب وقال له:

- أنت بواب العمارة؟

- أيوة يا سعادة البك.

- معاك رخصة؟

شعر البواب بالاضطراب، وقال له عاجزًا عن الرد:

- رخصة.. أي رخصة يا سعادة البك؟ أنا بواب.. مش سواق.
- رخصة العمارة.. العمارة يا ناصح.. رخصة فيها سحنتك الوسخة دي، وعليها شعار الدولة، وبتقول إنك حارس.
- لا يا سعادة البك.. مش معايا رخصة.
- يعني أنت جيت من بلدكو من غير لا أصل ولا فصل، وعملوك بواب على عمارة مهمة زي دي.. أنت مين؟ وبلدك إيه؟ وأثناء حديثه كان قد التف حوله بضعة رجال.. وبإشارة يدركونها جيدًا، مسكوه وجروه للسيارة وسط صياحه وصياح أبنائه الصغار.

***

- أنا مش فاهم يا حضرة الضابط من إمتى كان للبوابين رخصة؟! هكذا قال الدكتور عبد الجواد مستعجبًا.
- إجراءات جديدة يا دكتور.. المنطقة زي ما أنت عارف بيسكنها دوبلوماسيين كبار من الأمريكان والإسرائيليين، والمنطقة محتاجة تأمين على أعلى مستوى.. وعشان كده في إجراءات جديدة.. مش كل واحد هارب من بلده ولا متشرد هيبقى بواب على عمارة مهمة زي دي.. كل مفاتيح العمارة تبقى في إيده.. من السهل إن أي حد يسيطر عليه بالمال، ويعمل من سطح العمارة وكر لقناص ينش شخصية مهمة هنا ولا هنا وتبقى مصيبة، وأول من سيُسأل هو رئيس اتحاد الملاك. ونظر للدكتور.

ثم استأنف:

- دي حماية لك.. ثم البواب هيطلع، بس مش هيستنى في العمارة إلا بإقرار منك شخصيًّا.. ها.. هل تستطيع تحمل هذه المسئولية؟

شعر الدكتور عبد الجواد بالعجز.. وهز رأسه الكبير، وذهب يائسًا.

واستطاعت مدام ناهد الإطاحة بالبواب بكل سهولة، واتصلت بـ«نوَّاف» عن طريق التليفون المنزلي فرد عليها، فقالت له:

- خلاص مفيش بواب.. ومفيش حد هيقدر يتعرضلك تاني.. اعمل اللي أنت عايزه يا بني.

وتفكَّر قليلاً في هذا الخبر بعد أن وضع السماعة، وهمس في نفسه: «حرام!».

على الرغم من أن «نوَّاف» يسعى للأذية، فإنه لا يستطيع تحمل وقوعها. اشتد به الحزن على أطفال البواب المسكين، ومكث في شقته يومين لا يبرحها أبدًا. على الرغم من ممارساته، فإنه متواضع جدًّا.. في بداية عهده في العمارة، كان عندما يمر بغرفة البواب وتُسكر أنفه رائحة الملوخية، يطرق بابه ويقول له:

- الله على رائحة الملوخية يا رمضان. ولما كان رمضان يدعوه لتناولها معه، لم يكن يتردد لحظة واحدة.. فيدخل الغرفة الضيقة الواقعة أسفل السلم، ويجلس على الأرض.. وعندما يأتي له رمضان بوسادة ليجلس فوقها، يقول له:

- يا سيدي كلنا منها.

ثم يستأنف في ضحك:

- لا تحدثوني على الطعام.. هكذا علمني والدي.

ويتناول الطعام بشراهة، ثم يعقب عليه بكوب شاي بالنعناع. وأحيانًا كان يشتري الملوخية لتطبخها له زوجة رمضان، وكان رمضان يعترض قائلاً:

- زوجتي لا تعمل عند أحد.

فيقول له:

- أنا لا أريدها تعمل عندي.. أنا أريد أن تطهو الملوخية، وأنا أتناولها في غرفتكما.. إذا سمحتما طبعًا.

فـ«نوَّاف الرشيدي» بسيط لدرجة كبيرة؛ إنه يتعامل بالفطرة التي تربى عليها في منزل «الرشيدي». وقرر أن ينتقم من الدكتور عبد الجواد؛ فنزل لشقة الدكتور، وصاح أمام بابها بدافع التعزية والثأر للبواب؛ ففي نظره الدكتور هو من تسبب في قطع عيشه:

- افتح الباب يا دكتور، أنا «نوَّاف الرشيدي». وعاود الطرق بقوة.

انفعل الدكتور بشدة.. ولما خرج، وجد «نوَّاف» واقفًا أمامه؛ فتساءل:

- في إيه؟ هكذا بادره الدكتور في عنف.

فقال «نوَّاف» في برود:

- معي أغراض بريد حد ينزلها.. والبواب مش موجود، يا ريت تشوفه فين.

- احترم نفسك.. أنا مش شغال عندك.

- أنا محترم، وابن ناس محترمين، وبدفع فلوس عشان حد يخدمني.

- البواب مش موجود.. اخدم نفسك اليومين دول لحد ما نشوف غيره. ثم صفق الباب في وجهه.

بهذه الواقعة أراد «نوَّاف» أن يعكنن على الدكتور، وأيضًا يتبرأ من طرد البواب. كل هذه الأشياء كانت تسعده؛ فـ»نوَّاف» خليجي ثري يستطيع أن يقطن في فيلا مستقلة، ويستقطب فيها العاهرات والشواذ ويفعل كل ما يريده، لكنه لا يستمتع ولا يستلذ بالمتع السهلة التي لا تعقبها ولا تسبقها إثارة وجهد شاقين؛ الجزء الأساسي من متعته هو الحصول على الشيء بمنتهى الصعوبة؛ ولذلك وجد متعته في هذه العمارة.. فقد تعذب كثيرًا لجلب مومس، وفي كل مرة كان يفسد عليه المتعة سواء الدكتور عبد الجواد، أو الشيخ عبد الكريم.

***

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. هكذا بادر الشيخ عبد الكريم الدكتور في الصباح، وكان الدكتور واقفًا مع أحد البوابين طالبًا معاونته في جلب بواب له أصل وفصل.. ومعه رخصة.. إلا أن قصة الرخصة أحدثت هلعًا عند البوابين، الذين تساءلوا بعفوية عن الجهة المنوط بها استخراج «رخصة حارس عقار».

– وعليكم السلام يا مولانا.. حمد لله على السلامة.

– الله يسلمك.. خير، جئت أمس من السفر ولم أجد الحارس.

تنهد الدكتور في أسى، وقال:

– الشرطة طردته.. قال إيه ممعهوش رخصة.

– مش فاهم.

فقال له الدكتور بالإنجليزية:

– ليست لديه أوراق للعمل حارس عقار.

– عال.. الشرطة يقظة.. لا بد أن يكون له أوراق تثبت جدارته

وإمكاناته في الحفاظ على أمن العمارة.. في أوروبا يحدث ذلك، وهناك شركات أمن تقوم بتدريب هؤلاء والعناية بهم.

- في أوروبا يا مولانا، لكن في مصر الحكاية مختلفة تمامًا.. من يوم ما البلد فرطت في الأرض الزراعية والكل باع واشترى فيها، الفلاحين هجروا الأرض واشتغلوا في العمارات.. هياكلوا منين؟ كانت الأرض حضناهم.. ماشيين على برنامج زراعي له حسابات في البيع والشراء.. من يوم ما كل واحد خد له فدانين، والبلد باظت.

- معلهش كله يتصلح. هكذا قال الشيخ عبد الكريم جاهلاً ما يقوله الدكتور.

- يومين ونشوف بواب جديد.

- على بركة الله.

واستقل السيارة البيجو السبعة راكب، وكالعادة كان بها الشباب الملازمون له على الدوام.. يستقبلونه بأدب جم، وينحنون يقبِّلون يده، ثم يركب هو في المقعد الأمامي بجوار السائق، ويتكدس الشباب في المقاعد الخلفية.. تبدو عليهم الهيئة الريفية؛ ملابس بسيطة، ويطلقون لحاهم فتبدو هائشة منتشرة عند الصدغين والذقن، أجسادهم نحيفة، ولكن يمتاز البعض منهم بقامة طويلة.. والنحافة لا تعني الضعف، ولكن يبدو عليهم القوة.. ملامحهم بريئة أحيانًا، وحادة أحيانًا أخرى. انطلقت بهم السيارة إلى مكتبه في شارع ١٠٥ بجوار «عمر أفندي».. وفور وصوله، نزل وقصد المكتب.. رغم سمن جسده فإنه نشيط جدًّا؛ صعد السلم في عدة قفزات سريعة، ودخل المكتب المعبق برائحة البخور.. الشركة تستورد من السعودية أجود أنواع العسل والزيوت

الطبيعية، ومن باكستان البخور والإكسسوارت الإسلامية من سبح ومصليات. شريكه هو الشيخ «حسان النخيلي»، تعرَّف عليه أثناء عمله هناك؛ حيث كان يعمل في شركة «المقاولون المصريون» سائقًا. وكان معروف بـ»حسان العفي»؛ فعندما كان يقود السيارة الميكروباص المحملة بالعمال، كان ينطلق بها بسرعة لا تتناسب مع الطرق الصحراوية ذات المنحدرات الخطيرة، ودائمًا ما يتعمد أن يضغط على دواسة الفرامل فجأة ليرتطم العمال ببعضهم البعض في قوة شديدة؛ ينتج عنها كدمات وتورمات في أنحاء الجسم، وسرعان ما كان يطلق ضحكة عالية تستفز البعض، ولكن من منهم يستطيع الوقوف له؟ إن لحسان جسد صلب، وقبضة حديدية، علاوة على شخصية قوية، جعلته يأخذ مركز القيادة وسط زملائه السائقين؛ فدائمًا يتحدث باسمهم.. وجهه أحمر، ولحيته كثة أطلقها منذ أن كان شابًّا. التقى بعبد الكريم هناك، ونشأت بينهما صداقة عميقة. وكان عبد الكريم يعمل مشرفًا على المشروع، وكان محط اهتمام المسئولين. ولم تكن هذه وظيفته؛ فعندما جاء من «غانا» عمل في جني البلح تحت سماء حارقة، فقد جاء مسيحيًّا، ولما اعتنق الإسلام عن إيمان وعقيدة - كما يقول -أكرمه الكفيل بعمل آخر؛ وهو الإشراف على العمال فقط. وكان الكفيل معجبًا جدًّا به، ويحبه حقًّا، كان يشاهده وهو يصلي أو يقرأ القرآن فيشعر بالسعادة؛ فهو له الفضل - بعد الله سبحانه وتعالى - في إسلامه. وبالمناسبة فإن الكفيل هو من أطلق عليه اسم «عبد الكريم»؛ كان يدعى «أُوسي بيليه عبيدي»، فقرن اسم «عبد الكريم» باسم جده «عبيدي»؛ فأصبح يُدعى «الشيخ عبد الكريم عبيدي».

والتقى بالشيخ «حسان النخيلي»، الذي أقنعه بأن يعود معه لمصر وينشئا شركة لاستيراد البخور وجميع أنواع العطور. وجاء معه لمصر،

وتـزوج مـن شـقيقته، ولا ينسـى عبـد الكريـم حـين سـمعها تتهكـم عليـه وعـلى بشرتـه، وقتهـا كان جالسًـا منتظـرًا في المنظـرة؛ وهـي مـكان أشـبه بصالـة لاسـتقبال الضيـوف يلفهـا الكنـب الشرقـي، كان ذلـك في بيـت «النخيـلي» الكبـير في حـي البسـاتين.

– ده أسـود قـوي. هكـذا اخترقـت الكلمـة أذنـه؛ فتقلصـت عضـلات وجهـه تأثـرًا.

ولكـن اسـتطاع شـقيقها أن يُلـين عقلهـا، وأن يقنعهـا بقبـول الـزواج منـه. وتزوجهـا عبـد الكريـم لينتقـم منهـا ويعطيهـا درسًـا في الأدب، ولكـن عندمـا شـاهدها نـسي أي إهانـة.. فقـد جذبتـه بنعومتهـا ورقتهـا؛ فالفتـاة صغـيرة، لهـا جسـد مثـير، تتحـرك داخـل الجلبـاب الفضفـاض فتبـدو أكثـر إثـارة.. أردافهـا المكتنـزة وثدياهـا الكبـيران يهتـزان بعنـف مـن وراء الجلبـاب.. عـلاوة عـلى وجههـا المـشرب بالاحمـرار الفلاحـي.. ومـع ذلـك عيناهـا سـوداوان.. غـير شـعرها الطويـل الغزيـر الفاحـم. افترسـها في ليلـة الدخلـة، ظلـت تـصرخ.. ومـع كل صرخـة كان يزمجـر كحيـوان يفـترس صيـدًا ثمينًـا بعـد جـوع مُضـنٍ.. ولم يتركهـا إلا بعـد أن بـدت في يـده غـير قـادرة عـلى التنفـس. والحقيقـة اسـتمتعت بمعاشرتـه، ووقعـت في حبـه، لكنهـا ظلـت حبيسـة شـقة عـمارة فيكتوريـا لا تبرحهـا أبـدًا بعـد مـا حـدث. ففـي أول خروجـة لهـما، جذبـت أنظـار المـارة، وتلقـى تعليقـات لاذعـة؛ لأنهـا بيضـاء مشربـة باحمـرار فلاحـي، عـلاوة عـلى أنهـا صغـيرة في السـن.. وهـو ضخـم، في منتصـف الأربعنيـات.. فضـلاً عـن بشرتـه السـوداء الداكنـة، ولحيتـه الكئيبـة.. كاد أن يدخـل في أكثـر مـن معركـة مـع المـارة. ولمـا قـال لهـا:

– إذا أردتِ أن تخرجي معي، فعليكِ ارتداء النقاب.

احتقن وجهها وقالت في تحدٍّ:

- أنـا لا أداري جمـالي أبـدًا.. وخـلي بالـك أنـا فاهمـة كويـس.. وأنـت قبلـت أن تتزوجنـي عـلى هـذا.

كانـت «شـيماء» تسـتخدم معـه نـبرة صـوت توحـي بالثقـة والكبريـاء؛ فـكان يستسـلم بسرعـة، ويقـترب منهـا ويلمـس بقبضتـه الكبـيرة وجههـا قائـلاً:

- بخاف عليكِ.

- مـن مـاذا؟ أنـا بنـت نـاس محترمـين، ومتعلمـة، وفاهمـة كويـس.. ولـو معندكـش ثقـة في نفسـك تبقـى مشـكلتك.

- ماذا تقصدين؟

- لا شيء.

- شـيماء، هـذا آخـر كلام عنـدي.. الخـروج بالنقـاب. هكـذا تخـرج الكلـمات مصحوبـة بنـبرة توحـي بعاصفـة قادمـة؛ فتصمـت وتقـرر اسـتئناف المعركـة في وقـت آخـر. فعندمـا ينتفـض جسـده الضخـم وترتـج شـحومه، تـدرك عـلى الفـور أنـه قـد غضـب؛ فتلجـأ للصمـت خوفًـا مـن أن يصفعهـا عـلى وجههـا فتفقـد أسـنانها وضروسـها. وعـلى الرغـم مـن أنهـا كانـت تشـعر بالقهـر في هـذه الشـقة الفسـيحة، فإنهـا كانـت سـعيدة جـدًّا بهـذه الحيـاة المرفهـة؛ فالرجـل شـملها برعايتـه وأغرقهـا في العـز، وجلـب لهـا خادمـة تُدعـى «توفيقـة» تفاصيـل جسـدها وملامـح وجههـا تقـترب بنسـبة كبـيرة منـه؛ لـولا شـعرها وقـصر قامتهـا لظننـت أنهـا هـو! فضـلاً عـن قوتهـا الملحوظـة في تعاملهـا مـع الأشـياء؛ مثـلاً تسـتطيع رفـع كنبـة ضخمـة بمفردهـا، وتحمـل ثـلاث كراتـين ميـاه معدنيـة مـرة واحـدة. عبـد الكريـم لا

يتصرف هكذا عبثًا، ولكن كل شيء يخضع لخطة دقيقة. أما شيماء فكانت تتصرف معه بذكاء مقرون بمكر؛ تعلم جيدًا متى تكون عنيدة، ومتى تذعن لرغباته دون مناقشة؛ فهي تعلمت وحصلت على دبلوم الزراعة بفضل إصرار والدها. أما السر الذي جعل شخصًا قويًّا مثل «حسان النخيلي» يتجنبها، ويتغاضى عن الالتزام الذي فرضه على نساء البيت وهو ارتداء النقاب ويتركها هكذا بالحجاب التقليدي، فيعود لقصة.. فذات مرة جاء حسان من السفر كعادته كل عام، وضجت الأسرة حوله يسألونه عن أحواله ويطمئنون عليه، وكان ذلك وعمره لم يتجاوز الثلاثين عامًا، وكانت هي تقريبًا تجاوزت الخامسة عشر عامًا. وبعد أن قضى أيامًا في البيت ينعم بالراحة والطعام الشهي، بدأت تلاحظ عليه شيئًا غريبًا.. توتُّر.. قلق.. المهم أنه كان ينتظر بفارغ الصبر خلو البيت ويقفز بسرعة إلى السطح، فاتبعته مرة وأخرى، وهي تجهل سبب تحمسه للصعود إلى السطح. وفي كل مرة تتبعه، عند وصولها تجده قد اختفى تمامًا. ساورها الشك، حتى ذات مساء اتبعته بحرص شديد حتى النهاية، بعد أن كاد يشعر بترقبها في المرات السابقة؛ لذلك كانت حريصة جدًّا في اقتفاء أثره.. فوجدته قد جاء بحبل غليظ على شكل ضفائر كبيرة، وعقده بإحكام في أحد الأعمدة الخرسانية، وألقاه بحرص بين بيتهم والبيت الملاصق، ونزل عليه، وعند الطابق الثاني قفز داخل البلكونة؛ حيث كانت تنتظره جارته المتزوجة، فقد دامت هذه العلاقة بينهما قرابة الثلاثة أعوام تقريبًا منذ أن تزوج جاره وجاء بهذه الحسناء. وتربَّصت به، واستعدت لصيده، وقد سحبت الحبل. ولما خرج يترقب كعادته، لاحظ أن الحبل ليس عالقًا في

مكانـه؛ فخفـق قلبـه، ورفـع رأسـه تلقائيًّـا حيـث السـطح، فوجدهـا واقفـة ثابتـة كاشـفة عـن ابتسـامة سـاخرة. وألقـت لـه الحبـل باسـتهانة وهـي تنظـر لـه بمكـر جعلـه يرتعـد، وتسـلق الحبـل بصعوبـة، وشـعر بالمـرارة وهـي تنظـر لـه، وللأمانـة فكـر في أن يـترك الحبـل ويسـقط منتحـرًا؛ ولكـن بهـذه الطريقـة سـيموت بفضيحـة كبـيرة. كانـت المسـافة بـين الطابـق الثـاني والسـطح لا تتجـاوز طابقين بمسـافة خمسـة أمتـار عـلى الأكثـر، ولكـن قطعهـا في وقـت بـدا لـه دهـرًا. ولمـا اسـتقر عـلى السـطح، جلـس في ذهـول ولم يسـتطع التحـدث بكلمـة واحـدة، بـل لم يسـتطع النظـر في عينيهـا. وتركتـه ونزلـت.. وبعـد مـرور خمـس دقائـق، سـمعها تناديـه بـ»حسـان« مـن دون أن تقرن الاسـم بالشـيخ أو مولانـا كعادتهـا؛ هكـذا: «حسـان، تعـالَ عشـان تـاكل».

وشـعر حسـان بانتقـام المـولى عـز وجـل منـه، وانـزوى بعيـدًا، مكـث في المسـجد ليـل نهـار لا يفعـل سـوى الصـلاة والخشـوع إلى الله. ولاحـظ أهـل البيـت هـذا الانـزواء فتسـاءلوا، وقـال لهـم: «ربـما مللـت مـن المكـوث في البيـت». لم يسـتطع الجلـوس في البيـت أمامهـا ولا الصـلاة.. وعـاد بسرعـة إلى السـعودية؛ فقـد قطـع إجازتـه. وبالطبـع عجـز أهـل البيـت عـلى فهـم شيء بمـن فيهـم مـن النسـاء؛ فقـد عجـزت نسـاء البيـت أيضًـا عـن تفسـير هـذا الإذعـان المسـتفز لهـا. واسـتغل حسـان حـب والـده لهـا، فقـال لهـن: «لقـد أوصـاني أبي في محيـاه ومماتـه أمـام الله ألا أغضبهـا أبـدًا.. فأنتـن تعلمن أنـه كان يحبهـا». ولم يجـد حسـان فرصـة للسـطو عليهـا وتقييدهـا؛ لذلـك كان يتجنبهـا دائـمًا. فالفتـاة عاشـت طـوال فـترة الدراسـة وغيرهـا ترتـدي الحجـاب فقـط، وكان والدهـا يقـول لهـا: «لا داعـي للنقـاب.. هـذا الجـمال خلقـه الله لـيرى النـور، ويراه النـور». حتى في الـزواج اسـتطاع أن يقنعها من بـاب أنهـا سـتعيش في الحـي الإنجليـزي، وأنـه سـتكون هنـاك خادمـة تحت

أمرها؛ «هذه فرصة لن تتكرر» هكذا ختم حديثه، ومن هنا وافقت.

***

دخل عبد الكريم الشركة، فوجد حسان جالسًا خلف المكتب يتفحص ملفًّا ضخمًا. فجلس وهو يزفر بتنهيدة عميقة؛ فقال له حسان وما زالت عيناه في صدر الملف:

- مالك يا مولانا؟
- الصبغة بدأت تنتشر بين القوم.
- عظيم.. وهل هذا يجعلك تزفر هكذا في ضيق؟
- لا، هذا ليس له علاقة بالأمر.. وإنما هناك شخص يستفزني وجوده، وأفكر في إيقافه عند حده.
- من هذا؟

زفر عبد الكريم مرة أخرى، وقال وهو يهم بالقيام:

- لا تشغل بالك.. المهم طمني.
- عال.. والفضل لله عز وجل.
- الحمد لله.

في هذه الأيام انتشر المصحف المرتل بالصوت الخليجي في البلاد، وخاصة في الأرياف؛ أصوات ليست مألوفة على الآذان المصرية.. تقبَّلها البعض بسعادة، والبعض الآخر نفر منها واصفًا إياها بخلوها من الإحساس.. ولكن فرضت هذه الأصوات واقعًا ملحوظًا لفترة ما بعد السبعينيات. وكانت هذه الأصوات ترتل القرآن بنبرة رفيعة، سريعة، مشوشة بعض الشيء، تترك انطباعًا سيئًا مزعجًا.. ولكن إلى حد ما كان هذا الصوت يشبه الواقع السريع المشغول بجمع المال

فحسب. كانت هناك محاولة تدعمها قوة كبيرة لفرض سلوك ونمط معين على الأسرة المصرية.. انتشرت أشياء كثيرة في هذه الأيام؛ مثل ملابس المحجبات، والجلباب الأبيض الخليجي، فضلاً عن محال البخور والسبح.. وشيئًا فشيئًا اصطبغ الشارع المصري بصبغة ليست مألوفة للكثيرين. حتى العائدون من هذه البلاد، لا تعرف هل عهدوا إلى أنفسهم اتباع هذا النمط، أم ماذا حدث بالضبط.. تجد العائد جاء ومعه كل ما يمكّنه من صبغ منزله بهذه العادات الجديدة، وسماع هذه الأصوات العجيبة. وتدفقت الأموال.. وكلما صدح صوت هؤلاء القراء الجدد، تدنت الأخلاق، وفُقدت القيمة الحقيقية لسماع القرآن.

وتوسعت التجارة، وتضخمت شركة «العبيدي للاستيراد».. فبجانب استيراد البخور البكستاني، وسجاد الصلاة، والسبح المصنوعة من الخرز الفاخر والكريستال والفضة، والعسل الخليجي بشتى أنواعه.. دعمت الشركة في الفترة الأخيرة بعض الشيوخ؛ يعني استيراد الشيوخ أيضًا! جاءوا بعد أن بُنيت المساجد الكبيرة بأموالهم.. والتقوا بالأصدقاء، واستطاعوا أن يفرضوا نمطًا جديدًا على المصريين. وظهرت أسماء جديدة أيضًا، لها مجلدات ضخمة، قام بعرضها وتبسيطها بعض التلامذة الذين عكفوا على تعليمها هناك.. وشعر الشيوخ بالسعادة لاستجابة الشارع المصري لهم، وقالوا إن هذا فتح جديد لمصر.

نفض حسان يده من الملف الضخم، واعتدل في جلسته، واستوقف عبد الكريم الذي قام لدخول مكتبه المجاور، وقال له:

- كل عام وأنت بخير؛ اليوم أول أيام شهر رجب.

- وأنت بخير. ثم تنهد، وعاد ليجلس مرة أخرى بعد أن لاحظ شيئًا في نبرته.

- هذا العام سيكون مختلفًا تمامًا. هكذا قال حسان في سعادة.
- كيف؟
- لـن نـوزع أي معونـة عـلى الفقـراء مثـل العـام المنـصرم.. ولكن سـنقيم مائــدة كبيرة.
- مائدة!
- نعم.. مائدة لإطعام الفقراء.. ستكون مائدة مختلفة تمامًا.
- كيف؟
- مائـدة ضخمة سـننفق عليها كثـيرًا؛ سرادق كبـير بجوار «عمـر أفندي»، ولا بـد أن يكـون الـسرادق فاخـرًا مـن حيـث الترابيـزات والمقاعـد.. وسـنطعم فيهـا الفقـراء، عـلاوة عـلى أننـا سنسـاهم في علاجهـم وترميـم منازلهـم.. سـنذهب ونقـوم بتصويـر دورات الميـاه والمطابـخ وغـرف النـوم.. وبالطبـع سـتكون المناظـر سـيئة؛ لأننـا سـنختار أفقـر الأسر وأقـذر الأماكـن.. ولكـن كل هـذا لا بـد أن يتـم تصويـره بدقـة بأحـدث الكامـيرات؛ لأن هذه الصـور سـتذهب إلى «أولي الأمر».. ومن خـلال الدعـم الـذي سـيتدفق علينـا، سنسـتطيع الاسـتمرار بقـوة.

وهز عبد الكريم رأسه في حماس، وقال له:

- أنـت مـن عائلـة تعلـم مـاذا تريـد بالضبـط، ولكـن الإسـلام في حاجـة للدعـم أكثـر مـن الفقـراء.. فلـو صـح الديـن صحـت النفـوس.

فابتسم حسان في مكر، وقال له:

- على بركة الله.

لا يقـل حسـان النخيـلي دهـاءً عـن عبـد الكريـم؛ فكلاهمـا مـن طينـة واحـدة؛ ولذلـك برعـا في التعامـل مـع بعضهـا، وكوَّنـا ثنائيًّـا رائعًـا..

ولكـن كان حسـان دائـمًا مـا يستغل عبـد الكريـم في طلـب المعونـة.. دائـمًا يصـدِّره.. يسـتغل حـب الشـيوخ لـه وتعاطفهـم معـه، عـلاوة عـلى أنـه ليـس مصريًّـا؛ وهـذا كان يطمئـن البعـض.

***

كان جالسًـا خلـف مكتبـه البعيـد في أقـصى الشـقة، ورغـم ذلـك كاد الطـرق عـلى البـاب يخـرق أذنـه. جاءتـه زوجتـه وقـد احتقـن وجههـا مـن الغيـظ، وقالـت لـه في عنـف:

– عبـد الجـواد، لازم تشـوف حل مع هـذا الحيـوان.. دا مجنـوووووون.. أف، مـش ممكن.

أحكـم غلـق الـروب الحريـر حـول خـصره، واندفـع بقـوة ناحيـة البـاب وفتحـه وقـد احتشـد جيـدًا لمواجهتـه:

– أنت أكيد اتجننت.. أنا هطلب البوليس.

– بـس بـس.. بوليـس إيـه؟ أنـا عايـز حقوقـي.. أنـا بدفـع فلـوس هنـا عشـان بـواب يخدمني.. فـين البـواب؟

– قولتلك مفيش بواب اليومين دول.. لسه بندور.

– خلاص لحين ما تلاقي، أنت بتقوم بخدمتي.

– آه يـا قليـل الأدب.. أنـت أكيـد مجنـون.. أنـا لازم أتكلـم مـع السـفارة بتاعتـك.. أنـت تعديـت حـدودك.. أنـا هربيـك وأعرَّفـك مـن هـو الدكتـور عبـد الجـواد عويـس.

– أنـت بتربينـي؟! أنـت قـد كلامـك.. أنـا أشـهد العـمارة كلهـا عليـك. وصـاح بصـوت خـارق: يـا نـااااس.. يـا جـيران.. الدكتـور بيقـول إنـه يريـد أن يربينـي مـن جديـد.. أنـا أمامـك.. ربينـي. وتراجـع خطـوة

وقال في حسم: لا بد أن تتصرف.. إما أن تخدمني بنفسك، أو تجيب بواب.. وإلا من الآن فصاعدًا لن أدفع صيانة العمارة.. أنت فاهم؟

ألقى الجملة الأخيرة وهو ينصرف.. كان يشعر بسعادة لا حدود لها.. أصبح يوميًّا يطرق باب الدكتور ويلقي عليه هذه الكلمات، وأحيانًا كان صوت الدكتور يصدح في أرجاء العمارة وينفذ للعمارات المجاورة.. بدا له «نوَّاف» كابوسًا لا يستطيع التخلص منه.. فلجأ للسيد عبد الكريم.. يعلم أنه ينزل من العمارة بعد أداء صلاة الظهر؛ حيث تأتي السيارة البيجو وتنتظره ليستقلها إلى مكتبه. ظل الدكتور منتظرًا مضطربًا.. ولما شاهد السيد عبد الكريم يخرج من المدخل، تصنَّع الدهشة وقال له:

- مولانا.. بدور عليك عشان أهنئك بحلول شهر رجب.
- وأنت بكل خير وسعادة. هكذا رد بلكنته الإفريقية الصلبة.
- لا، أنا لست بخير يا مولانا.
- لماذا؟
- أتتذكر الشاب الخليجي؟
- نعم، وأحشد له.
- عظيم.. منذ أن ذهب البواب وهو يفعل الأفاعيل، وعندما أتعرض له يصيح.. وأنت تعلم لا يمكنني التصدي له وحدي.

اربدَّ وجه عبد الكريم من الغضب والتوتر.. منذ أن علم بوجوده في العمارة، وهو لا يبرح الشقة إلا للعمل، ويعود بسرعة.. رغم وجود «توفيقة» لكن لا يطمئن أبدًا، ولا يثق بزوجته، يعلم أن به شيئًا ناقصًا؛ وهو الجمال.. وهؤلاء النساء يبحثن عن الكمال في الرجل.. مجانين.

- آه الملعون.. أين هو؟ هكذا صاح.
- في شقته.
- تعالَ معي. وقطع الشيخ المسافة ما بين الشارع والمصعد في عدة قفزات سريعة. كان الدكتور يهرول وراءه في سعادة طفل جاء بوالده ليدافع عنه. وصعدا إلى الشقة، وقام عبد الكريم بطرق الباب بقوة.. ولما فتح «نوَّاف» الباب وشاهده أمامه جامدًا، وجهه مربد، يتطاير الشرر من عينيه.. ارتعد، وقال في نبرة رقيقة:
- خير يا مولانا؟
- ليس هناك خير أبدًا طالما لا تسمع الكلام ولا تصغي لتحذيري.. والله ما أسهل عليَّ أذيتك.. ولكن تشفع لك إقامتي في بلادك عمرًا.. ولكن طالما أنت تصر على هذه الأفعال، فلك مني ما هو مستحق.
- أنا لم أفعل شيئًا. هكذا قال «نوَّاف» بسرعة.
- الدكتور يقول إنك تأتي بعاهرات بعد أن حذرتك.
- لم يحدث.. الدكتور يشتكيني لك لأني أطالب بحقوقي.
- أي حقوق؟
- أنا أدفع هنا في العمارة ليخدمني البواب في حمل متاعي؛ أليس كذلك؟
- نعم. هكذا قال الشيخ.
- والآن لا يوجد بواب.. وبما أن الدكتور رئيس اتحاد الملاك، فيجب أن يخدمني.. أليس هو المسئول؟

التفت الشيخ للدكتور، وقال له في غضب:

- لا يصح أن تكذب عليَّ يا دكتور.
- أنـا لا أكـذب يـا شـيخ.. هـو يفعـل ذلـك ليثـأر منـي.. أنـا لسـت مسـئولاً عــن حمـل متاعـه.
- لا يــا دكتــور.. أنــت مســئول.. ولا بــد أن تتــصرف بسرعــة وتــأتي ببـواب. ونظـر عبـد الكريـم لـ«نـوَّاف» نظـرة طويلـة تحمـل شـيئًا مـن الغـيرة والحقـد.. وانـصرف عنهـما وهـو يزفـر بتنهيـدة عميقـة.

***

تأملـت داليـا الصالـة بنظـرة طويلـة، وزكمـت أنفهـا رائحـة شـاذة؛ رائحـة لا تنعـش المـزاج وتصفـي الذهـن، وإنـما رائحـة عطـر رديء شـعبي مخلـوط برائحـة عـرق؛ فنتـج عـن ذلـك شـعورها بالقـرف. وتأملـت بـازدراء «نـوَّاف» وهـو يرقـص مـع الفتيـات، وقالـت في نفسـها: «مـن هـذا الكائـن العجيـب الـذي يعبـث في أجسـاد البنـات، ويزعـم أنـه يتعلـم الرقـص؟ هـذا تحـرش صريـح، لا بـد أنـه مصيبـة جديـدة مـن مصائـب المـدام». وجلسـت مـع المـدام التـي ملتهـا في الآونـة الأخـيرة، وقالـت لهـا:

- هذه ليست مدرسة.
- اسـمعي يـا داليـا، هـذه مدرسـتي، وأنـتِ موظفـة هنـا.. مـن فضلـك احتفظـي بوظيفتـك في سـكوت.. هـل تفهمـين؟
- نعـم.. أفهـم. هكـذا قالـت في استسـلام ليسـت معهـودة بـه؛ فبـدا غريبًـا عـلى المـدام.

وكان «نـوَّاف» قـد شـعر بالسـعادة مـن التزامـه الدقيـق في حضـور الحصـص، التـي كثفتهـا المـدام مـن ثـاني أسـبوع تدريـب لثـلاث حصـص في الأسـبوع الواحـد.. تراقبـه مـن الردهـة المؤديـة لغرفـة النـوم، وتجـده قـد

عقد اتفاقات مع بعض البنات، خلاف رقصه معهن الذي بدا شاذًّا؛ فهو لا يرقص ولكن يقوم بعملية تفعيص في مؤخراتهن ونهودهن. ولكن «نوَّاف» يدفع خمسة وعشرين دولارًا في الحصة الواحدة، خلاف الهدايا التي يغدقها على المدام. وبعد شهر من التعلم والمراقبة والاختيار، استطاع أن يدعو لـ«عبدون النو» بقلب خالص ويسامحه.. واتفق مع فتاة روسية تدعى «إريتا»، شديدة الجمال، لحمها طري، ورقيقة جدًّا، فضلاً عن صوتها المثير.. قال لها في نبرة رسمية:

– متى ستأتين؟

– غدًا.

– لا.. بعد غد، ولا تتناولي الطعام حتى تأتي.

– لماذا؟! هكذا قالت في دهشة.

– أريد أن أستمتع معكِ بطريقتي.. تناولي قدرًا كافيًا من اللبن فقط.

وفطنت الفتاة لرغبته، وشعرت بالقرف، ولكن قررت أن تفعل ما يريده.. إن لديه المال. وتناولت الفتاة على مدار اليومين قبل الميعاد اللبن فقط، مع قليل من العنب. ولما جاءت له، قال لها:

– هل تناولتِ الطعام؟

– لا.. لا تقلق.. أليس لديك دورة مياه؟

– نعم.

– حسنًا.. سأنظف مؤخرتي جيدًا.. ستجدها كما تريد.

زمَّ شفتيه، وفطن لتمرسها.. وقال لها في عصبية:

– هيا.

واستغرقت في الحمام وقتًا لا بأس به.. ولما خرجت له بدت مثيرة؛ قامتها لم تكن بالطويلة، مؤخرتها متماسكة صلبة، فضلاً عن نهدين قافزين وحلمتين منتصبتين. جلست إلى جواره، وتجرعا أكواز البيرة بشراهة، وضاجعها على الكنبة؛ استسلمت لرغبته، وبدأت تتعامل معه بحرفية.. استطاعت أن تجعله يستمتع؛ متى تصرخ، ومتى تقفز منه وتتوسل إليه أن يكف، ومتى تصده بيدين ضعيفتين. وعلى الرغم من أن «نوَّاف» كان يعلم أنها متمرسة، فقد أنعشه هذا الأداء الرائع. وبعد أن انتهى، قال لها:

- أنتِ ممثلة رائعة.. ولكن لا أعتقد أنني سأرغب في مضاجعتك مرة أخرى.

***

(أن تعيش في بيئة جاهلة وأنت جاهل.. أفضل بكثير من أن تعيش في بيئة جاهلة وأنت متعلم.. قطعًا ستعاني).

«أنا فتاة محظوظة وتعيسة» هكذا تقول.

تعلمت داليا الحقائق مبكرًا..

فلم تخضع لعملية الختان هي وشقيقتها؛ انزعجت أمهما من ذلك، وحسمت الأمر: «لن أشوه بناتي».

***

كانت فترة الدراسة في المدرسة الثانوية في الحي الإنجليزي مشحونة بالمواقف والنقاط المهمة، تتذكر هذه المواقف دائمًا كأنها تقوم بتنشيطها من وقت لآخر.. فذات يوم جاء شيخ من الأزهر، واجتمع بهن في بهو المرسم الضخم الذي تأسس منذ عام ١٩٥٠، وكان الشيخ شابًّا

وسيمًا بدا في عمامته وجلبابه أنيقًا، وجلس بجوار الناظرة، وتحدث عن حقوق المرأة في الإسلام في خشوع، وتلا كثيرًا من الآيات، وكان صوته هادئًا رقيقًا، وسرعان ما قال:

- من منكن لديها سؤال رجاء تكتبه في ورقة، والدادة ستمر عليكن وتأخذ الأسئلة.

ودخلت الفتيات في وشوشة بدت شيئًا مزعجًا؛ خليطًا من الضحك والتهكم والغضب.. انتهت الفتيات، وبعثن بأسئلتهن. أخذ الشيخ يقرؤها، وسرعان ما همس بكلمة في أذن الناظرة وقد شحب وجهه، وقال بصوت عالٍ قد تغير وبدا عصبيًّا:

- من منكن التي كتبت هذه الورقة ودوَّنت فيها هذه العبارة: «ما هو الجنس؟» واستأنف: عيب يا بنات.. نحن في محاضرة مهمة، رجاء الجدية. وأخذ ورقة أخرى؛ فاحمر وجهه وقال: لا.لا.لا.. ميصحش الكلام ده.. مين قليلة الأدب اللي كتبت: «يا ترى بتعرف تبوس بدقنك اللذيذة دي؟». ثم مال على الناظرة وقال لها شيئًا؛ فزمَّت شفتيها في نرفزة وأخذت الورقة منه.. وعاود القراءة من جديد، فأطال وقطب حاجبيه المستديرين، وقال: سؤال عظيم، ولكن لا أستطيع أن أجيبكن عنه. وناول الورقة للناظرة، التي التقطت نظارتها الطبية وقرأت الورقة بعناية، ثم احتفظت بها.

وبعد انتهاء اللقاء، جاءت دعاء وهي صديقة لداليا؛ تماثلها في كل شيء، إلا أنها كثيرة الكلام والبكاء، وقالت لها:

- داليا، ماذا أرسلتِ له؟

- لا شيء.

- لماذا؟

- ليست عندي أسئلة.. وماذا أرسلتِ أنتِ؟
- آخر ورقة امتنع عن الإجابة عنها.
- وماذا دوَّنتِ فيها؟

اقتربت منها وقالت في مكر:

- العادة السرية، حرام ولا حلال؟

فقالت «داليا» ببساطة واستهانة:

- لا شيء في السؤال يدعو لعدم الإجابة.. أنا أجيبك بالنيابة عنه: لذيذة.. لا أعتقد أنها حرام.

تمكنت داليا من ممارسة العادة السرية منذ صداقتها بـ»كلي»، وهي فتاة أمريكية.. كانت فتاة نحيلة، شعرها ذهبي ناعم، ووجهها مدور، وأسنانها عريضة.. هي من أسرة من الأسر التي تعمل أمها خادمة عندهم. كانتا جالستين في الغرفة، فقامت الفتاة وأغلقت الباب جيدًا، ثم جلست فوق السرير، وقالت لها:

- داليا.. ما زلتِ بدون صديق؟
- نعم.
- أشفق عليكِ.. مسكينة مثلي.. أصبحنا متماثلتين أيضًا في هذا.
- لماذا.. أين صديقك؟
- ظن أنه الفتى الوحيد في العالم؛ فقرر أن يذهب (واختتمت بشخرة كبيرة).
- رائع.
- أنا أستغربك.. كيف لا تمارسين الحب إلى الآن؟

- وأنا ليست مشكلتي أنكِ فتاة غبية.. نحن مختلفتان اختلافًا كبيرًا في هذا.. هل تفهمين؟

- نعم. نعم. نعم.. ولكن هل تشعرين بالقهر؟ مثلاً ظهرك يؤلمك.. تشعرين بصداع.. تتوترين بسرعة؟

- أحيانًا.. ولكن ثمة أشياء كثيرة هي السبب، وليس الصديق المجهول.

- هؤلاء الشباب كلاب.. يظنون أنفسهم كل شيء.

- تبرَّزي عليهم.

- نعم، أنا أفعل ذلك كل يوم.

- كيف؟! هكذا قالت وهي ترفع عينيها من فوق صفحات مجلة.

- أأتي بصورته وأمارس العادة فوقها.

- أنتِ قذرة.. تفعلين أشياء مقززة.

- هذا ما يستحقه.

- «كلي»، أنا أشعر بالقيء وأنا معكِ.

- ها ها ها.. أنتِ مثالية.

- وأنتِ لا تتحدثين إلا عن مؤخرتك ونهديكِ الصغيرين.

- نعم.. وأنتِ مؤخرتك كبيرة، ونهداكِ كبيران رائعان.

- «كلي»، كفِّي.. أنا مرهقة.

- الجنس سيريحك.. لا تتكبري.

- أنتِ مجنونة.

- أنا طبيعية.. فتاة طبيعية تمارس شيئًا طبيعيًّا.. أما أنتِ فباردة.

– أنا لست باردة.

– هه..

وهكذا استمرت الحياة بينهما في هذا الأثناء. ولكن ذات يوم جلست بمفردها في غرفة «كلي» تنتظرها، وفتحت درجًا في خزانة صغيرة إلى جانب السرير، والتقطت مجلة؛ لفت نظرها الغلاف وما عليه من امرأة عارية.. ظلت تقلب في الصفحات، وتتأمل العارضات والأوضاع، والأسهم التي تُشير إلى الأعضاء التناسلية مع الشرح، فضلاً عن شرح العادة السرية وطريقة فعلها، وأسهم تشير نحو البَظْر.. تفاصيل دقيقة عنه؛ يحتوي أعصابًا أضعاف أعصاب القضيب عند الرجل.. وعند حدوث الإثارة الجنسية، يندفع الدم من خلال الأنسجة الموجودة في البظر؛ فيتمدد ويزداد طوله حوالي مرة ونصف عن طوله وهو مُرتخ. البَظْر هو العضو الذي تستمتع من خلاله المرأة.. وشرعت تقرأ بعناية وتلذُّذ، شعرت لأول مرة بأنوثتها.. جف حلقها، وخفق قلبها بقوة، وارتعشت يدها.. الحب.. ما هذا كله؟ رباه.. رباه..

***

وأعلنت الناظرة في طابور الصباح أن هناك سيدة ستأتي من الإدارة التعليمية لتلتقي بهن، ولا بد من الحضور.. اللقاءات ستستمر على مدار أسبوع.

وحضرت داليا هذا اللقاء، كان في المرسم. وأثناء الانتظار وسط الضجيج، إذ دخلت عليهن امرأة في عباءة أنيقة وغطاء رأس ممووج بترتر. كان وجهها مدورًا تتراكم فوقه الشحوم، فضلاً عن ضخامتها. شملتهم بنظرة واسعة، وقالت بنبرة تفتقد أي معنى من معاني الود؛ نبرة أتوماتيكية اعتادتها، فبدت شيئًا تقليديًّا مستفزًا:

- هدوء يا بنات.. أنتن فتيات الصف الثالث، أليس كذلك؟
- نعم. هكذا جاءت الإجابة في نفس واحد.
- هدووووء يا بنات.

اتخذت مجلسها على المكتب الكبير، ووضعت أوراقها وشنطتها الخاصة، واتبعتها الدادة بكوب الشاي. ظلت لدقيقة تعبث في أوراقها، وكانت الفتيات قد هدأت وطأتهن إلا من همهمة خفيفة أشبه بحفيف جناحي طائر.

- يا بنات، أنا هنا لست مُدرسة، ولكن «أم».. هنتكلم في موضوع مهم جدًّا، وهو «العادة السرية عند البنات».

ارتفعت الهمهمات، ولاحظت أنهن في حاجة لطريقة رسمية تجعلهن يلتزمن؛ فضربت سطح المكتب بيدها وصاحت بصوت قوي:

- بس.. ميصحش كده.. أنتن لستن صغارًا.

وهدأ الإيقاع شيئًا فشيئًا، ثم صدر منها صوت نحنحة أعقبته برشفة من كوب الشاي، ثم قالت:

- طبعًا منكن من يعرفها جيدًا، لكن لا تعرفن أخطارها.. طبعًا تسمعن عن أخبار الحوادث التي تقع كل يوم عن زوجة قتلت زوجها.. ودائمًا السبب يكون خلافًا عائليًّا تقليديًّا.. وهذا ليس حقيقيًّا، لكن الحقيقة أن المرأة التي تمارس هذه العادة عندما تتزوج تتحول لمرأة عنيفة شرسة؛ فهي لا تستطيع أن تستمتع بالعلاقة الحميمة إلا من خلال هذه العادة السيئة.. لماذا؟ لأنها تحولت إلى مدمنة.. فتشعر أن زوجها جاء ليحرمها من هذه العادة التي هي مصدر الاستمتاع الحقيقي لها؛ لذلك تشعر أن

معاشرته الطبيعية لها ما هي إلا عملية اغتصاب إذا ما تصدت لها بالبرود.. وهذا يحدث لكثيرات ستتصدى له بالقوة، وهنا تكون الكارثة. بالطبع أنتن تعلمن قصة الفتاة التي ماتت هنا في المرسم منذ خمسة أعوام على وجه التقريب، الحقيقة أنها ماتت عندما مارست العادة السرية بطريقة خطأ، ففقدت عذريتها؛ لذلك انتحرت. هل فهمتن المقصد؟

وصاحت المرأة بعد أن وجدتهن قد انشغلن عنها بالتهامس لبعضهن وقد شحبت وجوههن:

- لو سمحتن شوية هدوء. هكذا قالت وهي تتناول آخر رشفة، ثم جمعت أشياءها من فوق المكتب وذهبت.

***

المسافة من «عزبة البوليس» حيث تسكن إلى «الإدارة التعليمية» أربع محطات، قررت أن تأخذها على قدميها؛ سلكت الطريق من خلال شارع ٩ بمحاذاة شريط المترو، كم رائع من الأسئلة التي قررت أن تطرحها على هذه «المُدرسة» الكذابة، طوال الطريق وهي ترتب الأسئلة. ولما وصلت الإدارة، وهي مبنى ضخم مرفق به عدة مدارس، سألت الفراش: «من فضلك الأستاذة منى؟».

- اذهبي لغرفة المدرسات.. هناك. هكذا أرشدها.

وفي الغرفة كانت جالسة وسط المدرسات تحتسي الشاي وتقطع من الكيك البيتي.

- ميس منى؟

التفتت لها وقالت في ملل:

- نعم؟
- من فضلك أريد التحدث معكِ.
- عايزة إيه يا ماما؟
- نتحدث.
- اجلسي.
- ليس هنا.. بمفردنا.
- من أنتِ؟
- داليا محمد عبد المقصود، المدرسة الثانوية .
- مش فاضية دلوقتي.
- لكني أريد أن أتحدث.. مسألة مهمة.
- بعد غد سأذهب لعقد لقاء بالبنات.. انتظريني هناك.

ولما شعرت أنه ليست هناك فائدة منها، نفخت بنرفزة، ثم ركلت المقعد وذهبت.. فصاحت المُدرسة:

- صحيح بنت قليلة الأدب. ووجهت حديثها لصديقاتها اللاتي تفاعلن معها:
- كل بنت تظن أنها اشترتني.. هه.

***

وذهبت إلى مدام «جيسيكا» والدة «كلي».. كانت امرأة رائعة، تصف داليا بابنتها الثانية، ودائمًا ما تشملها برعايتها. فقد اعتادت داليا منذ صداقتها بـ»كلي» أن تقضي معها يومي الجمعة والسبت.. وفي

هـذه الأثنـاء أرادت أن تفهـم منهـا بعـض الأشـياء؛ فتركـت «كلي» تنـام، وذهبـت إليهـا في المطبـخ:

– أهلاً. هكذا بادرتها.

– داليا، تعالي.. اجلسي.. ها، ما أخبارك؟

– زفت.

– أوه.. ماذا حدث؟ هكذا قالت وقد تقلصت عضلات وجهها.

– أريد الحقيقة؟

– أي حقيقة؟

– حقيقـة كل شيء.. أنـا لا أعلـم لمـاذا يفعلـون كل هـذا معنـا؛ إنهـم يضلوننـا ويلوثوننـا.

– داليا.. أنا لا أفهم.

وجلسـت المـدام أمامهـا، وقـد أفرغـت لهـا جرعـة مـاء وقدمـت لهـا الـكأس:

– تكلمي.. ماذا حدث؟

– هناك أشياء أريد أن أعلمها.

– ما هي بالضبط؟

– العادة السرية.. الجنس.. كل شيء.

قطبت حاجبيها الدقيقين وقالت:

– واو.. وهل هذه الأشياء لا تعريفينها؟!

– نعم.. لا أعرفها.

– أستطيع أن أشرح لكِ.

- أرجوكِ.
- حسنًا.. بعد الغداء نجلس معًا ونتحدث في كل شيء.

وجلستا في المكتب بعد أن تناول ثلاثتهم الطعام.. أوقدت المدام سيجارة، وقالت لها وهي تنفث الدخان:

- هذا موضوع يطول شرحه.. ولكن لديَّ سؤال.
- تفضلي.
- حتى هذه السن وأنتِ على مشارف السابعة عشرة لا تعرفين شيئًا.. ماذا يدرسون لكنَّ في المدرسة.. أليست هناك توعية؟!
- سطحية.. ليس هناك أي شرح.
- معقول.. هه! وأشاحت بوجهها بطريقة ساخرة، ثم أطلقت دفعة دخان وواصلت:
- تعتبر مادة الثقافة الجنسية جزءًا من التوعية حول مواضيع الصحة العامة، وتطرح أمورًا متعلقة بتشريح الجسم البشري، والوظيفة الجنسية، والأمراض المنتقلة عبر الجنس كالإيدز.. وكذلك الميول الجنسية، والإجهاض، ووسائل منع الحمل.
- لا أعرف لماذا لا يتحدثون في هذا؟

زمَّت شفتيها، وقالت في نبرة مشحونة بالغيظ وقد اقتربت منها:

- لا بأس.. العادة السرية تعتبر نشاطًا جنسيًّا صحيًّا وطبيعيًّا، ولا ضرر طبيًّا مهمًّا من ورائها. وسكتت المدام لحظة، ثم قالت: انتظري يا داليا. وجاءت بعد دقيقتين بصورة كبيرة للمهبل، وقامت بشرح دقيق.. هذا هو البَظْر، من خلاله ينتج الاستمتاع، الوسيلة الآمنة هي استخدام ماء الشطاف.. كيف تكون الحالة

مرضية وخطيرة؟ عندما تمارسها الفتاة في كل مكان؛ في المواصلات العامة.. في العمل.. هنا نعلم أن الحالة مرضية، ستعاني منها ومعها زوجها الذي سيفقد معها ممارسة الحب.. لذا يجب أن تكون منفسًا طبيعيًّا يتكرر كل بضعة أيام للحد من التفكير والأرق.

واقتربت المدام منها، وقالت بصوت منخفض:

– هل تعلمين أن «كلي» قطعت علاقتها بصديقها؟

– نعم.

– هل قالت لكِ السبب؟

– لا.. لكنها كانت تسبه كثيرًا.

هزت رأسها ونحَّت الصورة جانبًا، وقالت:

– السبب أنه كان شاذًّا جنسيًّا.. أراد أن يجامعها من الخلف.. تصوري يا داليا، هذا الحيوان أراد أن يدمر ابنتي.. أنبأتني بذلك، وطردته من تلقاء نفسها.

– لماذا؟

– لأن هذه العادة تقتل المرأة في أنوثتها، فضلاً عن الأمراض الناتجة عنها .

– أمراض؟! هكذا قالت داليا وقد شحب وجهها.

– أووه.. أمراض كثيرة.. يرافق ممارسة الجنس الشرجي عدد من المضاعفات، منها زيادة فرصة انتقال الأمراض التي تنتقل جنسيًّا؛ كفيروس الورم الحليمي البشري، والإيدز، وفيروس التهاب الكبد، والإصابة بالتهابات القناة البولية التناسلية، والتهاب فتحة

الشرج، وتوسُّع العضلة الشرجية مما يسهل خروج البراز تلقائيًّا، والبواسير، وسرطان الشرج.

«آآآه.. ما هذا الصداع الذي يخترق رأسي ويشطره نصفين؟ ما هذا كله؟!» هكذا قالت داليا في نفسها وهي تضع يدها حول رأسها، ثم قالت:

- هذه أشياء لا أعرفها.. ولو كنت تزوجت وطلبها زوجي مني، لظننت أنها شيء طبيعي. ماما كانت تحدثنا على استحياء.. وعلمتني وشقيقتي الكثير.. أما «الجنس الشرجي» فلم تحدثنا فيه من قبل.
- أعتقد أن السيدة سميرة لم تتخيل أن يصل شذوذ بعض الرجال لهذه المرحلة الحيوانية.

ثم اقتربت مدام «جيسيكا» من داليا وطوقتها، وقالت بحنان:

- داليا، دائمًا أثق بكِ.. أنتِ ابنتي، ودائمًا تبحثين عن الحقيقة.

وأجهشت داليا بالبكاء، وقالت:

- أنا أبكي لأنني اكتشفت بعد كل ذلك أني جاهلة.
- لا تقولي ذلك.. أنتِ رائعة.

ولما هدأت، أخذت المدام تشرح لها كل شيء. ولما أزف الوقت، اتفقت معها على عقد لقاءات أخرى. وارتوت داليا بالمعلومات والحقائق التي تجرعتها على مدار ثلاثة أشهر. كانت مدام «جيسيكا» امرأة رائعة من مُدرسات المدرسة الأمريكية اللاتي عملن مع مدام «سِريا» في برنامج التوعية في بداية تأسيس الرابطة.

***

- أنا لست «قوادة».. هل تفهم؟ هكذا قالت المدام لـ»نوَّاف» الذي حثها مرارًا وتكرارًا على أن تضغط على داليا لتقوم بتعليمه. وواصلت بنبرة رسمية:
- اسمع.. أنا أشك في سلوكك من البداية.. ولكن طالما المُدرسات اللاتي قمن بتعليمك لم يشتكين منك، تركتك.. لكن أنا لستُ غبية؛ ثلاثة أشهر وأنت لا تستطيع فعل حركة واحدة تدل على تعلُّمك أي شيء.. ولا أظن أنك إلى هذه الدرجة غبي.. أنت تضر المدرسة.
- مدام.. لا أسمح.
- مستر «نوَّاف»، ابحث لك عن ماخور تجد فيه متعتك.. هنا مدرسة محترمة.
- ماخور.. مدام أنتِ تهينيني.. أنا لستُ شاذًّا.. ولا مرابيًا.. أنا شخص متمدن يريد أن يتعلم شيئًا صحيًّا.
- وأنا لا أستطيع مساعدتك.
- فرصة أخيرة.. حاولي أن تقنعيها بمقابلتي.. وإن لم أتعلم في خلال شهر واحد، قومي بفصلي.
- للمرة الألف، داليا لا تتعامل مع العرب والمصريين.
- سأدفع الضعف.. أنا في حاجة للتعلُّم.. مستقبلي يضيع.. أرجوكِ.

لاحظت أنه يسخر منها، فقالت بحدة:

- أرجوك لا تستفزني أكثر من ذلك، أنت لا تؤمن بهذه الأشياء.. أنت لديك متسع من الوقت، وتبحث عن إضاعته في اللهو.
- لا.. أنا أحاول أن أحافظ على لياقتي.. ألا ترين أنه قد ظهرت كتل دهنية حول خصري من جديد؟

وضعت يدها فوق رأسها، وأشاحت بوجهها، وتنهدت بصعوبة، وشعرت بمكونات رأسها ترتج داخل جدار الرأس.. وتمتمت: «كابوس». ثم واصلت في يأس:

- هذه المرة لو رفضت، أرجوك لا تأتِ مرة أخرى.. ابحث لك عن مدرسة أخرى.
- موافق.

ابتسم وقدَّم لها ساعة سويسرية قيِّمة.. نظرت المدام له وأخذتها وهي تبتسم، ثم قالت: «لنرَ».

***

عالم ليس له حدود، سماء عالية تتزين بملايين النجوم اللامعة، وهواء مشبع برائحة البحر النقية، وموسيقى كلاسيكية تملأ الفراغ الواسع بين السماء والأرض، ظلت تطير وتطير مثل كائن رقيق، الرقص متعة.. حرية ..رفاهية. في هذا العالم تتجرد من الأفكار؛ تبدو كطفل يراقب العالم من حوله وهو يضحك، ليس هناك شواذ.. ولا مال.. ولا تجارة.. ولا حرب.. ولكن نقاء. ولما تضغط المدام على زر إغلاق مسجل الموسيقى، تعود لهذا العالم، وينتهي كل شيء جميل. تعلم بمن جاء ليتعلم الرقص، ومن جاء ليقترب منها ويلمس جسدها.. هكذا توافد على المدرسة بعض الرجال المصريين الأثرياء، وكان من بينهم رجل أربعيني ثري، وجاء ذات يوم وطلب من مدام «أندرا» تعلم الرقص، وكانت هناك فتاة من صربيا تقوم بتعليمه، وكان لا يفعل شيئًا إلا أن يحتضنها لفترة لا تتجاوز العشر دقائق، تمضي في إطار أتوماتيكي ممل، وسرعان ما يتركها ويذهب. وذات يوم وداليا في الحمام، سمعته يتحدث إلى المرآة قائلاً: «أنا مريض.. مريض».

وتولت تعليمه بعد رحيل صديقتها؛ حيث سافرت إلى إسبانيا. وفي أول حصة، قال لها:

- أنتِ غبية لا تستطيعين تعليمي.

وقالت المدام لها:

- يأتي كل ثلاثة أيام ليقضي وطره في مدرستي؛ يا للحقارة.. والشذوذ.. والقرف! هؤلاء لا بد أن يقضوا نصف حياتهم يبحثون عن العلاج، بدلاً من أن يلوثونا ويقرفونا. وهكذا مهدت المدام بهذه المقدمة لتتحدث معها في شأن «نوَّاف»؛ فقالت بلؤم:

- ولكن لا حيلة.. لم يعد الأجانب يهتمون.. حتى المصريون لا يرغبون في أن تعلمهم فتاة مصرية.. وينصرفون واحدًا تلو الآخر.

- شواذ ولاد كلب.. هذه مدرسة محترمة يا مدام، وليست منزلاً للدعارة.. أليس كذلك؟

- نعم.. نعم.. ولكن يقولون إنهم يثقون بتدريب المدربة الأجنبية عن المصرية.. أنتِ لستِ مطلوبة.

- مدام، ليس لي عمل آخر.

تظاهرت المدام أمامها بأنها لا تستطيع أن تُبقي عليها، وانشغلت عنها بترتيب الصالة، ثم قالت وهي تتصنَّع اللامبالاة:

- خلاص، تستطيعين أن تقومي بتدريب «نوَّاف الرشيدي».

- مدام، هذا ليس إنسانًا.

- لكنه سيستطيع أن يدفع المال الذي يسد راتبك وجميع النفقات.

وشردت تفكر في تركيز، وقد أدركت ما كانت تخطط له.

اتصلت «ناهد راشد» بـ«نوَّاف الرشيدي» لتطمئن عليه، وتدعوه لحضور حفلة كبيرة في فيلتها في شارع ٧. وحضر في الميعاد.. كانت فيلا «ناهد راشد» قد شُيدت بالحجر الفرعوني؛ فهي فيلا ضخمة، لها حديقة واسعة، من طابقين، الأثاث قليل؛ فبدا البهو واسعًا جدًّا، أجزاء منه تُفتح على الحديقة. حضر «نوَّاف» وتفقَّد الجو العام؛ فتيات مصريات، فضلاً عن بضعة رجال من العرب ومن المصريين الذين يعملون سماسرة عقارات. مساحة من الحرص فرضتها في بيتها ومكتبها. أما إدارتها للدعارة، فتقودها بالتليفون فقط. اختلط الجميع في جو مشحون بالضحك.. سماسرة، ورجال عرب، وأثرياء، وعمال بسطاء، فضلاً عن الخدم.. كل هؤلاء اختلطوا ببعضهم في مزيج رائع. ورحبت بـ«نوَّاف» وقبَّلته كما تُقبِّل المرأة ابنًا لها، وجلس جوارها، وهذه مكانة كبيرة جدًّا، وجاءت له فتاة تحمل كوز بيرة، تناوله منها وأخذ جرعة كبيرة، ثم تجشَّأ؛ فضربته المدام في صدره بود. وجاء لها رجل عراقي يدعى «أيسر إمام الأخضر».. كان قصيرًا وله كرش كبير، وجهه مدور أحمر، له شارب كث، وعينان ضيقتان مرهقتان تنتشر فيهما الشعيرات الحمراء، فروة شعره صفحة بيضاء.. جلس وقال لها:

- منذ أن حضرت وأنا لا أرى هذا المزيج الرائع سوى هنا في فيلتك؛ حيث المدعوون يكونون سواء.. لا فرق بين غني وفقير، ووزير وغفير.. وهذا الأمر لا أراه إلا هنا وفي المساجد فقط!

وتشعر المدام بقدرتها على تقديم هذا المزيج؛ إنهم يخضعون لها. كان «أيسر» يأتي إلى هذه الحفلات فقط ليراقب الجميع ويسخر منهم، عندما يتحدث عن الدين تجده خاشعًا، فضلاً عن أنه لا يمكن أن يترك صلاة أبدًا، يحافظ على الصلاة حتى إذا حان موعدها في حفل مثل هذا؛ يضع كأسه جانبًا، ويدخل غرفة يغلقها خلفه بالمفتاح،

ويؤدي الصلاة في خشوع.. لا يهتم بآراء الناس فيه، يعرف جيدًا أنهم ينكرون هذه الأفعال عليه، ولما يلاحظ ذلك في أعينهم يقول: «هل تشاهدوني أترنح؟ هل تشاهدوني أسب المدام؟» وتنظر له كأنها احتجت.. ثم يستأنف: «عذرًا يا مدام.. عندما أفعل ذلك تكون الخمر أطاحت برأسي، وعند هذا لا أستطيع أداء الفريضة» ويشير إلى رأسه ويقول: «افهموا». تتم في هذا النوع من الحفلات صفقات كثيرة بين رجال الأعمال والسماسرة، وتخضع هذه الصفقات لموافقة المدام، فضلاً عن العمولة. وقال لها رجل مصري ثري يملك شركة صرافة يدعى «جابر الفكهاني».. له جسد مربع، أنيق، يصفف شعره بعناية، ووجهه أيضًا مربع، كل شيء فيه مربع:

– أنا لا أعترف أبدًا بهذه الاتفاقية بين مصر وإسرائيل.

– لماذا؟ هل وجودهم في شقتي ليس برهانًا على الاتفاقية؟ هكذا قالت المدام في سخرية.

– ولا سفارتهم برهانًا عليها. هكذا قال وهو يرفع الزجاجة من على فمه.

– أنت تخاطر بحياتك. قالتها، وسرعان ما ارتفعت ضحكتها الجافة، وضجوا من حولها يضحكون، ثم قالت وهي تتصنَّع الاحتجاج:

– لمعلوماتك يا مستر جابر، أنا امرأة أنقذت الدولة من فخ كبير.

– ما هو إذن يا كونتس؟

– أمثالي هم من صبغوا هذه الاتفاقية بما يسمى «صاف يا لبن حليب يا قشطة».. أنا من الشعب، وأعاملهم معاملة الأم لأبنائها. وواصلت بنبرة تحمل قدرًا من الجدية:

- للأمانة، هم قوم مهذبون.
- نعم أعلم ذلك.. ولكن وجه اعتراضي أنني لن أعترف بوجودهم إلا إذا الشيكل تداول هنا بين العامة.

وضحك من حوله، وقالوا له:

- أنت تعلن الحرب.. أنت وقح تريد أن تنغص علينا حياتنا. هكذا تبادلوا الألفاظ فيما بينهم وهم يضحكون.

وتحدثت المدام لـ«نوَّاف» الذي ظل يتابعهم دون أن ينبس بكلمة:

- مالك؟ هكذا بادرته.
- لا شيء.. فقط أتابع الجلسة.
- أي جلسة؟
- جلسة الأمة العربية.
- ها ها.. أنت لا تعجبني اليوم.
- لا شيء.
- الدكتور عاد يقرفك من تاني؟
- لا.. أنا الذي أقرفه، عامله شغلتي.. ها ها ها. هكذا قال في سعادة.
- برافو.. أي ساكن في العمارة يضايقك، أنا أؤدبه.
- بفكر أذهب إلى الإسكندرية أرتاح شوية.
- عال.. لو تحب تأخذ معاك بنتًا، أنا أرسلك الغندورة فيهن.
- لا.. أريد أن أكون وحدي.
- لما ترجع كلمني.

- أكيد.

وقضى السهرة بينهم وهو يتجرع البيرة ويدخن.

***

التقت داليا «نوَّاف الرشيدي» لأول مرة عن قرب، تصافحا بالأيدي وجلسا في الصالة، وبدأت تدوِّن في نوتة بعض الأرقام، ثم شطرت الصفحة بخط رأسي، وكتبت في اليمين «البرنامج الغذائي»، وفي اليسار «البرنامج التدريبي». بدت أمامه في هيئة رسمية، لم تنظر في وجهه أبدًا؛ ظلت تحدثه وعيناها على الجدول. أثارته جديتها، رائحتها كانت تنفذ إلى قلبه فتسكره، ثدياها رائعان، لا توجد حول خصرها أي ترهلات تخنق المؤخرة.. ظل يتأمل ملامحها بعناية كأنه سيرسم لها لوحة.. أناملها الرقيقة، أظافرها النظيفة الخالية من أي طلاء، أنفاسها الحارة، شفتاها الصغيرتان المكتنزتان، أسنانها البيضاء القوية، جبهتها العريضة والقُصَّة التي تحجبها على استحياء.. رفعت وجهها وقالت له:

- أول حصة يوم السبت الساعة الخامسة.
- اسمعي.. داليا، أنا أريدك صديقة. هكذا قال وهو يحاول أن يبدو خجولاً.

وضعت النوتة جانبًا، وقالت بنفس النبرة الرسمية:

- هذا سيكلفك.

ارتاح لهذه البداية، وكاد أن يقفز.. ثم قال وهو مستمر على أن يبدو خجولاً:

- عيوني لكِ.

- لا داعي.. خليهم عشان بس تعرف تشوفني.
- ها ها.

قامت وقالت بنبرة رسمية وهي تصافحه:

- هذا المكان ليس مناسبًا للحديث، انتظرني في مطلع الأسبوع القادم الساعة السابعة في مطعم «بالما» فندق «ريدز دنس».

ظلت داليا على مدار ثلاثة أيام قبل لقائها «نوَّاف» تفكر في الهجرة؛ لا مكان لها في مصر، هي درست التجارة في جامعة القاهرة وتفوقت، فضلاً عن إتقانها الإنجليزية وشيئًا من الفرنسية بفضل تربية أمها وحرصها الشديد عليهم في الصغر. ويبدو أن الثقافة التي تشبعت بها منذ الصغر أثرت على حياتها؛ حيث تبلورت الأفكار التي طالما قرأتها وحاولت تطبيقها على الواقع، فاتخذت شكلاً محددًا واضح المعالم؛ وهو الإيمان الشديد بنفسها وقدرتها، لذلك فشلت في الحصول على وظيفة، فذات مرة طلبها مدير فندق «ريدز دنس» وقال لها: «هناك وظيفة في الريسبشن.. موظفة استقبال». وسعدت جدًّا بهذه الوظيفة وذهبت لتقابله (وكان صديقًا لوالدتها، يدعى الأستاذ رأفت الفيومي)؛ فقال لها: «داليا، أنا أعرفك جيدًا، وأعرف الست الوالدة وأشقاءك، وأثق بقدراتك جدًّا رغم أنكِ ليس لديك إلا الإنجليزية.. لكن سأعطيك الفرصة». والتقط ورقة من أمامه وقال لها: «املئي الفوارغ بما لديك من الأجوبة». والتقطت منه الورقة وأخذت تقرؤها وتملأ الفوارغ.. التاريخ: ٢٠ فبراير عام ١٩٩٢. الاسم: داليا محمد عبد المقصود. السن: ٢٤ عامًا. سنة التخرج: ١٩٩٠. حاصلة على بكاريلوس تجارة بتقدير جيد جدًّا، أتقن الإنجليزية ببراعة.. وأثناء استغراقها في التدوين، وصلت لخانة مكتوب فيها «المرتب الذي ترغب فيه»

استغربت العبارة التي ليس لها حد أدنى ولا حد أقصى.. ظلت تقرؤها في تركيز؛ فاستفزتها جدًّا، فكتبت بخط واضح حيث ضغطت على القلم: «أريد ألف وخمسمائة جنيه مصري، مع إضافة عشرة في المئة كل عام.. هذا هو المرتب الذي أرغب فيه.. وهذه هي قيمتي».

وبالطبع مزقت الورقة، ولم يحدثها المدير الذي صادفها في شارع ١٨ أكثر من مرة.

والآن تفكر في الهجرة؛ لن تستطيع العيش هنا. وبما أنها لا تحتكم على أي مال، قررت أن تخوض من جديد رحلات الزواج، وقالت في نفسها بعد لقاء «نوَّاف»: «يبدو أنه المحطة الأخيرة، وبعدها الهجرة!».

***

الإعداد لتلك الرحلات يعد عملاً مرهقًا؛ رحلة زواج هي في الأصل اتفاق بين رجل وامرأة على المتعة، ولكن أي متعة تمنحها؟ إنها ترفض الجماع الكامل، تمنح جسدها في حدود قاسية، لا يتقبلها الرجل الكامل، حتى وإن أفرطت في تبادل القبلات التي تمارسها ببراعة، أيضًا هذا ليس كافيًا، لا بد من الشعور بالراحة، وهذا لن يحدث إلا عقب الجماع الكامل، تستند على بعض القدرات التي تمتلكها، وأيضًا ثقافتها الجنسية؛ فهي تعلم بالضبط أن الرجل في طبعه البخل الجنسي، وخاصة الرجل الشرقي. شعرت بأن هذا الـ«نوَّاف» غير الرجال العواجيز الذين أرهقتهم بقبلة فموية وهي تشتم في شواربهم رائحة الأب المدخن، ولكن لم تخُض رحلة مع زوج شاب، والآن جاءت اللحظة الفاصلة «نوَّاف الرشيدي».. وتنهدت من الأعماق، ونظرت في الساعة المثبتة وكانت تشير إلى السادسة والنصف.. بدلت ملابسها؛ حيث ارتدت نصف بالطو، أسفله

قميص من الصوف له ياقة عالية، وبنطلون جينز، وانتعلت كعبًا عاليًا، وذهبت إلى الفندق؛ حيث المسافة ما بين المدرسة والفندق لا تتعدى خمس دقائق سيرًا على الأقدام.

***

الحي الإنجليزي في المساء أكثر هدوءًا، في شارع ١٨ يسود الهدوء الشامل؛ حيث تكون الفيلات غائصة وسط الأشجار الكثيفة، فضلاً عن الإضاءة الخافتة التي ترسلها الأعمدة القديمة؛ فكانت تسمع صوت حذائها بوضوح. ومن ميدان مصطفى كامل سلكت طريقها، إلى أن وصل لها صوت سائقي التاكسي المتمركزين على ناصية الشارع ليلتقطوا رواد البار، أو المطعم، أو ديسكو فلاش.. أنعشها صوتهم ومزاحهم.. وصلت الفندق، وكان عبارة عن عمارة ضخمة في شارع ١٨، تبدو في الشارع كشيء شاذ؛ تعتبر هي البناية الوحيدة الشاهقة في الحي، من آخر طابق فيها تستطيع أن تكشف الحي كله؛ سترى مشهدًا رائعًا حيث الأشجار العملاقة والمساحات الخضراء تغطي الحي بأكمله. يعرفها أغلب العاملين في الفندق من عمال الريسبشن، أو مطعم «بالما».. صعدت إلى الطابق الثاني حيث المطعم، وبنظرة شاملة وجدت «نوَّاف» يجلس بجوار الشرفة التي تكشف الشارع، كانت الستائر تنعم بهزة خفيفة من أثر تدفق هواء مارس القارس إلى حدٍّ ما. ابتسم عند مشاهدتها، فأقبلت عليه بخطى سريعة توحي بمدى رشاقتها.. صافحته وجلست وهي تقول:

- اتأخرت دقيقتين فقط.. ها شربت حاجة؟

- لا.

أشارت للنادل، فجاء، فقالت له:

- من فضلك، اتنين بيرة هولستن مع بعض المقرمشات.
- هادئ وملل هذا الحي. هكذا بدأ حديثه.
- أين تسكن؟
- على بُعد مئة متر في عمارة فيكتوريا.
- رائع.. أعلم جيدًا أن لا أحد يستطيع أن يقطن هذا الحي إلا إذا كان يريد الهدوء.
- وأنا لا أريد الهدوء أبدًا.

ضحكت؛ فأنعشته الضحكة، ثم قال:

- متى ستذهبين معي؟
- عندما نكتب العقد.
- أي عقد؟!
- العقد العرفي.

اندهش، ثم تراجع بظهره في المقعد وقال:

- لا أفهم.
- أنا لن أخرج معك إلا بعد كتابة العقد.. هذا لا نقاش فيه.. وبعد انتهاء الرحلة تمزق الورقتين.

حاصرته الأفكار اللذيذة، وسيطرت عليه رغبة في الإذعان لكل شيء تقوله؛ فقال:

- موافق.. ما باقي الشروط؟
- الليلة ثلاثون دولارًا.
- واو.. مش كتير؟

- والجماع ليس كاملاً.
- كمان.
- والدفع مقدم.
- كلام جميل.. بس أنا بستفيد إيه؟
- تجربة جديدة.
- هذه ليست تجربة.
- أنت مش عايز تستمتع؟
- أكيد.
- خلاص.. هتستمتع بطريقة مختلفة.
- وما هي هذه الطريقة التي تخلو من الجماع؟
- بسيطة.. إن لم تستمتع معي، نمزق الورقتين وتأخذ نقودك.

شعر «نوَّاف» بسعادة كبيرة من تلك التجربة الفريدة، وقال لها وهو متحمس ومتشوق:

- نكتب العقد غدًا.. ونسافر غدًا.
- تريدني كم ليلة؟
- عشرة أيام.. ولو التجربة عجبتني، نضيف عشرة كمان.
- موافقة.. إيدك على ثلاثمائة دولار.
- بعد كتابة العقد بعطيكِ المال.

تناولا البيرة، وظلت لنصف ساعة تحدثه عن الرقص وفوائده.. اكتفى فقط بهز رأسه بطريقة آلية، بينما هو بينه وبين نفسه يرغب في الفتك بها، على الرغم من أن ملامح وجهها كانت تميل إلى الجمال

المثير، إلا إنها كانت لا تبدو مومسًا، أنصت لها بكل جوارحه، وهمس في نفسه بجزع بعد أن استفزته ثقتها بنفسها وحديثها الممزوج بالكلمات الإنجليزية: تخوض هذه التجربة مع شخص لا تعرفه. ورغم ذلك واثقة من نفسها.. ولاح في وجهه شيء من الجدية، وقال لها:

- مفيش أي شيء اليوم.

- لا. هكذا قالت بنبرة رسمية.. وعادت تأخذ جرعة من الزجاجة، ومالت نحو طبق البطاطس المحمرة والتقطت منه عدة أصابع، وراحت تأكل وتتجرع البيرة في صمت. وبعد انتهاء الجلسة التي سيطر الصمت على ربعها الأخير، قام ووصلها إلى المدرسة.. وأثناء جلوسها بجواره في السيارة الجيب شروكي الزيتي الفاتح، المميزة بعبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» المنقوشة على زجاجها الخلفي، قال لها:

- تعلمين أنني أتيت أمس للجلوس في هذا المطعم الملعون؟

- لماذا؟

- لأتدرب عليه.. مثل ما يفعله لاعبو الكرة حين يتدربون على ملعب سيخضون عليه مباراة مهمة.

- وتدربت جيدًا؟

ضحك وقال:

- أنا لا أستطيع التكيف مع هذه الأماكن الأجنبية؛ طبيعتي غير ذلك. لهذا حتى لا أكون متوترًا من المكان، أردت أن أزوره.. هذا كل ما هنالك.

- أنت تخطط لكل شيء جيدًا.

- هذا ما تعلمته وأحرص عليه.. لا أفعل شيئًا إلا إذا درسته بعناية.

وصلا المدرسة، فنزلت من السيارة، فاستوقفها وهو يقول:

- سأنتظرك. ثم ودعها بابتسامة، ولما ابتعدت شيئًا قال: فاكراني خليجي حمار بنت المومس.. «أرافقك دون جماع.. هه بس هتستمتع».. وحياة أمك.. هه.. سنرى.

***

رن التليفون الخاص بالعمارة في شقة الدكتور عبد الجواد؛ فانزعج جدًّا، ولولا أنه منتظر عامل الصيدلية ما كان رد. التقط السماعة، وصاح بانفعال:

- أيوة يا سيدي الدور الرابع.
- مساء الخير يا دكتور.
- مساء النور.. مين بيتكلم؟
- سيادتك الدكتور عبد الجواد عويس؛ رئيس اتحاد ملاك العمارة؟
- نعم.. أنت مين؟
- أنا العميد عمرو الشرقاوي من مكتب حراسات الوزراء.. من فضلك عايز أقابل سيادتك.
- كده من غير ميعاد.. هل هذا يصح يا سيادة العميد؟
- بعتذر لسيادتك.. بس الأمر مهم.
- خير؟
- أنا اعتذرت يا دكتور، وبقول أمر مهم.. مش هاخد أكثر من عشر دقائق.

- أنا نازل.. انتظرني في مدخل العمارة هفتح لك الباب. وانطلقت زنة من الباب، فدفعه العميد ودخل.. وبدا عليه الانفعال، وحدَّث رجلاً معه:

- دا يبدو أنه مش طبيعي.. هيحقق معايا.

- معلهش.

نزل الدكتور بعد لحظات قليلة، وتقدم نحوهما بثقة، ومد يده يصافحهما.. وجد رجلاً أنيقًا في بدلة كاملة، ملامحه تدل على أنه موظف حكومي؛ تفوح منه رائحة تقليدية، ربما رائحة الردهات الحكومية، أو الأوراق والأحبار الرديئة المنسكبة عليها.. عرَّف نفسه للدكتور بأنه «العميد عمرو الشرقاوي من حراسات الوزراء». وكان يقف بجواره شخص آخر، كان يرتدي صديري سميكًا مرقعًا بالجيوب، ويبدو أنه محشو بأشياء ثقيلة، وأسفله تيشرت ملتصق على صدره وذراعيه؛ فبدا مفتول العضلات.. علاوةً على البنطلون المرقع بالجيوب، التي كان يبدو عليها كذلك أنها محشوة بأشياء ثقيلة؛ فبدت متهدلة. كان يبدو من هيئته أنه ليس مصريًّا.. وجهه مشرب بالبياض الأوروبي، وشعره ناعم.. كان مبتسمًا في ثقة، بينما أثناء وقوفه لم يتوقف عن الالتفات حوله.. وعرَّفه العميد عمرو الشرقاوي قائلاً:

- السيد «يودا» رئيس الحرس الإسرائيلي.

- أهلاً وسهلاً.. خير يا فندم؟ هكذا قال الدكتور بعدم اكتراث.

- هي العمارة مفيهاش بواب ولا إيه؟

- اسأل رجالتك يا سيادة العميد.

- خير؟

- رجالتك طردوه بحجة أنه ممعهوش رخصة.
- معقولة؟! مممم.. أنا هشوف موضوع الرخصة ده. هكذا قال بنبرة لم ترُق للدكتور الذي حدجه بنظرة حادة، ثم قال في سخرية:
- يا ريت؛ أصل العمارة دلوقتي عُرضة للسرقة.. والصراحة السكان خايفين.. وكمان أنا مش بنام؛ ليلاتي الحرامية بيحوموا حول العمارة.. أنا بشوفهم بنفسي كل ليلة من الشرفة.. في غياب تام للبوليس. آخر جملة قالها ضاغطًا على مخارج الألفاظ.
- أنتم عمارة محظوظة يا دكتور.

فنظر الدكتور لـ«يودا» وقال:

- أهلاً وسهلاً.
- السيد «يودا» هو رئيس الأمن للجالية الدبلوماسية الإسرائيلية في الحي.. قبل ما تسكن الجهة الدبلوماسية، بيعاين بنفسه مرافق العمارة.
- ومين اللي هيسكن في العمارة؟
- القنصل الإسرائيلي يا سيدي.
- وإيه المطلوب مني؟
- تدلنا على مداخل ومخارج العمارة.. وكمان عايز أشوف سطح العمارة، والجراج، وقائمة بالسكان. بدا على الدكتور الانزعاج، وشعر أنه سيحل بدلاً من البواب؛ فقال محتجًّا:
- مش الواجب يكون مع سيادتك صاحب الشقة. واستدرك:
- صحيح هيسكن في شقة مين؟

- مدام ناهد راشد.
- هذه امرأة لا يأتي من ورائها الخير أبدًا.
- معلهش يا دكتور، مش هنزعجك أكثر من ذلك.
- ولماذا لا تأتي معك الهانم؟ دي مش أصول.. رئيس اتحاد ملاك العمارة مش بواب يا سيادة العميد.. الأصول أن الهانم كانت حضرت معكما.. معقول؟ هكذا انفعل الدكتور وقد احمر وجهه، ولمعت جبهته العريضة، وخلع نظارته الطبية ومسحها بالمنديل القماش الكروهات.. ولما هدأ قال لهما:
- تفضلا.

ومن أول لحظة بدأ «يودا» يصور كل ركن في العمارة؛ بداية من المداخل والمخارج، حتى خلفية العمارة صوَّرها، علاوة على الشوارع الجانبية.. بالإضافة لسيارات السكان؛ صوَّر اللوحات المعدنية الخاصة بكل سيارة. ثم صعدوا للشقة التي تركت مفتاحها مع رئيس الحرس؛ صوَّر الشقة ركنًا ركنًا، وصوَّر الشوارع من أعلى. ثم صعدوا السطح وعاينه، وعاين ماكينة المصعد، وهنا علق الدكتور قائلاً:

- إحنا لسة مغيرين الماكينة. هز «يودا» رأسه بود، واستكمل معاينته.

ثم طلب منه العميد قائمة بأسماء السكان للتحري عنهم في أمن الدولة، فقال له الدكتور بنبرة لا تخلو من الزهو:

- كل السكان ناس محترمين؛ أطباء ومهندسين وموظفين حكومة.. مفيش غير شقة المدام.. مستأجرها شاب خليجي بيدرس في جامعة القاهرة.

- مدام ناهد صديقتنا، ونحن عندنا علم به. وهنا ابتسم رئيس الحرس بود؛ فهو يعرفها جيدًا. وكان رئيس الحرس يتقن العربية بطلاقة.. ثم قال له العميد قبل أن يرحل:
- ستكون عمارتكم محظوظة إذا ما قطنها القنصل.. ستحميها وزارة الداخلية، وستؤمَّن من كل الجهات.

هز الدكتور رأسه في لامبالاة. ولم يمر أسبوعان حتى جاءت الموافقة من الجهات الأمنية، وسكن العمارة القنصل، واستقر أمام العمارة عدد ثلاثة جنود من الداخلية ومعهم رقيب. وفي المدخل استقر رجل أمن ببدلة أنيقة من حراسات الوزراء المكلفة بحراسة الأشخاص المهمين.. علاوة على تمركز سيارة نجدة على ناصية الشارع، ورجل أمن ناحية الجراج الخلفي. وسعد الدكتور بهذه الحراسة القوية، وكلف إحدى الخادمات في العمارة بمسح السلم والمدخل في الأسبوع مرتين، وكتب بيانًا وضعه على باب المصعد كتب فيه: «على الراغبين من سكان العمارة في تنظيف عرباتهم أن يتصرفوا.. العمارة ليست مسئولة». كان أغلب القاطنين في العمارة من الموظفين القدامى، بعضهم مستأجر هذه الشقق ببضعة جنيهات، وكانت مثل هذه المصروفات ترهقهم؛ إذ إنهم تعودوا دفع ملاليم مقابل خدمات كثيرة.. فمثلاً عندما عرض عليهم الدكتور جلب شركة أمن تحرس العمارة، لم يوافقوه؛ فالشركة ستأخذ نظير الأمن ما يعادل ٢٠٠٠ جنيه، بينما البواب سيتحصل طولاً وعرضًا على ٣٠٠ جنيه، وسيقوم بتنظيف السلم والمدخل والسيارات.. ولذلك كانوا مصرين على جلب بواب. وكانت خزانة العمارة تنعشها فقط الشقق التي يقطنها الأجانب، بعد أن تركها أصحابها ليستفيدوا منها. وكانت العمارة ضخمة؛ الدور الواحد تحتله ثماني شقق، بارتفاع تسعة أدوار.

وبعد أسبوع، شعر سكان العمارة بقيمة الأمن الخاص؛ حيث طرأ على العمارة الانضباط، لا أحد يستطيع الدخول والخروج مثلما كان يحدث.. حتى المارة من الناس كانوا يتفادون المرور أمامها. وفوجئ «نوَّاف» بهذا الكم من الجنود المدججين بالبنادق، واتصلت به «ناهد راشد» وقالت له: «نوَّاف.. هؤلاء الجنود لا يستطيعون أن يقتربوا منك؛ هؤلاء لحماية سيادة القنصل فقط. ولو تحب يا حبيبي تسكن في شقة تانية، أنا تحت أمرك». فقال لها: «نتكلم لما أرجع من الإسكندرية». وسمع طرقًا شديدًا على الباب، ولما فتح الباب وجد الدكتور واقفًا أمامه حيث برز صدره في ثقة وقوة، وقال له ملوحًا بإصبعه:

- ورّيني هتجيب مومس هنا ازاي؟
- أنت بتتحداني.. أنا بجيب اللي عايزه.. وريني بتمنعني ازاي؟
- دا كان زمان يا بابا.. النهاردة العمارة في حماية الإسرائيليين.. شكوى صغيرة مني أطردك من العمارة والبلد كلها. وانصرف عنه الدكتور، لكنه سرعان ما توقف واستدار مرة أخرى ورفع سبابته وقال:
- يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.. بقى يا ربي اللي يطهر العمارة اليهود!

***

(السيد عبد الكريم رجل محترم، فضلاً عن أنه رجل معتدل، لم يسجل تاريخه أي شيء يضر بمصلحة القنصل.. في حاله.. لا يفعل أكثر من جمع المال. أما صديقه حسان النخيلي فهو رجل متعاون، وله فضل كبير. زوجته هي شقيقة حسان، تزوجته لتستمتع بحياتها؛ لا يهمها أي شيء سوى مصلحتها فقط.. هي امرأة غبية؛ لو سألتها:

هـل تعرفـين اسـم رئيـس الجمهوريـة؟ غالبًـا سـتقول لـك: تدفـع كام؟! فلا خوف من عبد الكريم).

***

سـافرا الإسـكندرية في سيارته الجيـب شروكـي، أخـذت معها ملابسـها في حقيبـة صغـيرة، كان الاتفـاق عـلى أسـبوع واحـد. قـاد السـيارة بسرعـة رهيبـة، فقالـت لـه:

- هننزل في فندق إيه؟
- أنا لا أحب الفنادق.. هننزل في شقة.
- لم نتفق على ذلك. هكذا قالت بسرعة وقد شحب وجهها.
- شقة سوبر لوكس.. مملكة يا ماما.. فندق إيه وقرف إيه.
- لم نتفق.
- أنـا بعتـذر.. ولكـن كنـت أخبـئ عليـكِ لأننـي ظننـت أنهـا مفاجـأة، كـما أنـتِ تخبئـين عنـي مفاجآتـك.

وهكـذا أدركـت داليـا أن الرحلـة سـتأخذ مسـارًا آخـر؛ فنـدق يعنـي الونـس، وإذا مـا حـدث شيء النجـدة عـلى البـاب.. أمـا الشـقة فهـي ملكـه فقـط، سـتخنقها الجـدران. وشـعرت بانقبـاض في فـم المعـدة؛ هـذا الانقبـاض الـذي لا يعقبـه الخـير أبـدًا.. ونظـرت لـه محتجـة؛ فطقطـق بلسـانه وقـال:

- لن تندمي أبدًا.

اسـتخدم ألفاظًـا اسـتفزتها «حبيبتـي.. مامـا».. فضـلاً عـن حـركات ورقصـات كان يؤديهـا وهـو جالس أثنـاء القيادة.. سـباب المارة والسـيارات المجـاورة، تحديـه لهـم، دفعـه للمخالفـة المروريـة بسـخرية وتهكـم، بصقـه

على الشرطة.. شعرت أنه يخبئ لها شيئًا، ودفعها غرورها فقط لاستئناف الرحلة، رغم أنها كانت تستطيع النزول والعودة. واعتدلت في جلستها واسترخت فوق المقعد، وتظاهرت بالنوم، فضلاً عن رفع قدميها فوق التابلوه.. وعلا صوته وهو يغني.

وصلا العمارة؛ عمارة ضخمة على كورنيش الإسكندرية.. هرع نحوه البواب الضخم، وحمل الحقائب، وأمطره بالسلامات.. وصعدا للشقة، وكان يزحف وراءه حاملاً حقائبه:

- الشقة نظفتها كويس يا «نوّاف» بك.. كل شيء تمام.

الشقة فسيحة تطغى عليها الروح الخليجية، تنقسم لأكثر من قاعة عربية.. شلت ملقاة على الأرض، ومقاعد وتربيزات من خشب الأرابيسك، علاوة على الكؤوس النحاسية. تفقدت الشقة الكئيبة التي تملؤها رائحة البخور العتيق الخانق.. فتحت النافذة فتدفق هواء البحر؛ فغمر الشقة بالحياة، فقال لها:

- أنتِ هتشبعي من هذا البحر.. تعالي غيَّري ملابسك.

***

بدت السماء في هذه الليلة كئيبة؛ لم تُطعم بنجمة واحدة، وبدا القمر قاتمًا تكتنفه السحب الرمادية، ومع ذلك كان الهواء يعصف بالستائر حاملاً نسيم البحر المنعش. وكانت العمارة لا تقل كآبة عن هذه الليلة؛ إذ كانت تخلو من روح السكان.. بعد ثلاثة أشهر بالتمام والكمال ستختنق بالمصيفين، أما الليلة فإنها كريهة. بدَّل «نوَّاف» ملابسه، وخرج لها وكانت جالسة في الصالة الشرقية تتفقد الأشياء. تقدم نحو المسجل وألقمه شريط كاسيت يحوي أغاني خليجية، ثم طرح نفسه فوق الأرض وظل يردد الأغاني باستفزاز، بينما يشير

لها أن تفعل مثله.. جلست على البار وقد استقرت في عينيها نظرة فاحصة، فتقدم نحوها وجلس بجوارها وقال:

– إيه مش ناوية تغيري ملابسك.. هيا عشان ترتاحي من السفر.. أما أنا فلا سبيل لي إلا الرقص حتى الموت.

التقطت زجاجة بيرة من على البار، وأفرغت في جوفها جرعة كبيرة، ثم مالت نحوه وقالت:

– الموت هو السبيل الوحيد للنجاة!

– من؟

– الحياة..

– أتفق معكِ.. لكني لا أريد الموت على الفراش.

– تريد الشهادة؟

– في سبيل المتعة.

– أي متعة؟

– امرأة تقتلني.. أو أقتلها.

– وأي متعة هذه؟

– ليست لي طاقة بالفلسفة.. ولكن قتل امرأة واحدة عندي يساوي قتل ألف شيطان.

أفرغت جرعة أخرى في جوفها، والتقطت سيجارة من علبة أمامها وأوقدتها، وقالت في حماس:

– تريد أن تقتلني؟

– لا.. لمعلوماتك أيتها الحسناء، القتل أنواع.. ليس موت الجسد فقط.

– حدِّثني.

– النساء عالم كبير؛ كبير جدًّا، وسر خطير لا يعرفه أحد.. تزوجت، فشعرت بأنني انسلخت، ثمة أشياء لا تُرى إلا عند الاحتضار.. والزواج هو الموت؛ يعني الصدام بين اثنين.. ورأيت عالمًا كبيرًا وخطيرًا.. تمنيت أن أكون بلا قلب، وبلا رغبة حقيقية فيهن.. المرأة تستطيع أن تقتل الرجل بأقل مجهود؛ كائن جاء بفعل الخطيئة.. لذا أستمتع بقتلهن.

– كيف؟

– أن أسلخهن عن أنوثتهن.

– لا أعرف ماذا تقصد.. ولكن ثق تمامًا أن ليست كل النساء قاتلات؛ فيهن المقتولات أيضًا.

وأراد أن يغير مجرى الحديث، فقال لها:

– تزوجتِ من قبل؟

– لا.

– أنتِ عذراء؟

– نعم.

– الآن أدركت لماذا لا ترغبين في الجماع الكامل.

– لك المتعة.

– سنرى.

وجـاء الليـل بعـد حديـث طويـل مشـحون بالألغـاز، قاومـت بقـوة فلسـفته الظالمـة المعجونـة بالسـادية.. واصرفـت في حديثهـا معـه إلى الحيـاة في المدرسـة، والرقـص، والأجنبيـات.. وحدثهـا عـن «إريتـا»؛ فقالـت لـه: «صديقتـي». وهـز رأسـه وقـال: «متمكنـة، لكنهـا سـهلة». وجلسـت في البلكونـة ملتفحـةً بغطـاء شرقـي أتـت بـه مـن عـلى الأريكـة، وصنـع لهـا فنجـان شـاي ثقيـلاً، وظـلا يتحدثـان وينظـران لظلمـة البحـر المخيفـة، ويسـمعان أمواجـه التـي كانـت تتحطـم فـوق الصخـور.

ثـم تنـاولا العشـاء مـن مطعـم قديـم؛ قطـع مـن الفيليـه والجمـبري الطـازج، وأعقبـا ذلـك بكـوزَي بـيرة.. ثـم قالـت لـه:

– تحب الآن؟

نظر لها وقال:

– ماذا تقصدين بالضبط؟

– سأقدم لك عرضًا رائعًا.

ودخلـت غرفـة النـوم، وبدلـت ملابسـها بارتـداء ملابـس داخليـة سـاخنة مصنوعـة مـن الحريـر الفاخـر، وخرجـت لـه. جلس يراقبهـا في ذهـول؛ بـدا لونهـا البرونـزي لامعًـا تحـت النجفـة.. واسـتقرت عينـاه عـلى مؤخرتهـا المسـتديرة؛ فقـال:

– بالراحة عليا.

وشـعرت بالسـعادة مـن انبهـاره، ورقصـت حتـى خـارت قـواه.. وظـل يلهـث وراءهـا في الصالـة، وفي كل حركـة كانـت تؤديهـا كانـت تسـكره رائحتهـا.. شـعر بأنـه سـيموت كـما تمنـى فـوق أفخـاذ امـرأة قـادرة عـلى احتـلال العـالم بجمالهـا.. هـذه هـي النهايـة يـا «نـوَّاف».. مـن أيـن جـاءت

هذه الملعونة بهذه الثقافة؟ لو أنها ترقص عارية لما فعلت فيه هذا، وإنما الإثارة تكمن في حجب الأشياء كما فعلت.. المؤخرة بين يديه، لا يفصلها عنه سوى خيط رقيق من الحرير، لكنه يبدو فيها كجدار عالٍ تمامًا.. ومنبع السعادة يراه مكتنزًا يتنفس في استقلال وينظر له متعاليًا؛ ما زال المنبع مغلقًا، من يستطيع أن يقترب؟ وفرد ذراعيه واحتضنها، وسرعان ما صرخ وسقط تحت أقدامها.. فتركته ودخلت الحمام. أوقد سيجارة وبدأ ينفث دخانها في عصبية؛ استطاعت أن تستدرجه بكل سهولة، إنها متمرسة ملعونة. وشعر بالمرارة، ولعن داء القذف السريع، وقال في نفسه: «هذه المرة لها». وذهب لها حيث غرفة النوم، وجدها ترتدي ملابس الخروج؛ فسألها في غيظ:

- رايحة فين؟

هزت كتفيها وقالت:

- أبدًا بحب أكون جاهزة.

- اسمعي يا داليا، نحن نعقد اتفاقًا آخر.

- اتفاق آخر؟

- نعم.. أنتِ لا تنوي أن تفقدي عذريتك، وأنا موافق وعند كلامي.. بس الحب بحره واسع، وممكن ترضيني من غير ما تفقدي عذريتك.. قلتِ إيه؟

- ودا اللي أنا عملته معاك.. هو أنا قصرت؟

- سيبك من شغل العيال المراهقين اللي حصل من شوية.. ماما، فتحي مخك معايا.. أنتِ فاهمة كويس ماذا أريد.

- بيننا اتفاق، وأنا لم أخل بوعدي.. أنت استمتعت؛ أليس كذلك؟

- هـه.. اسـمعي يـا مامـا.. الحـب بحـره واسـع، وأنـا هعلمـك شيء جديـد.
- تقصد إيه بالضبط؟
- مؤخرتك لذيذة.. دفعت فيها كتير.. أريد أن أدلكها بالزيت.
- آه.. أنـت تقصـد الجنـس الشرجـي. هكـذا قالـت وقـد جلسـت عـلى حافـة السريـر تسـمعه.
- الشرجي.. المؤخري.. أي شيء.. المهم ها قلتِ إيه؟
- أنـت مريـض قـذر.. تقـدر تبحـث عـن ولـد شـاذ تمـارس معـه هـذه القـذارة. هكـذا قالـت دفعـة واحـدة، بيـد أنهـا لمحـت في عينيـه نظـرة لا تطمئـن.

وقال وهو يتصنَّع الهدوء:

- لماذا كل هذا.. هتخسري إيه؟
- اسـمع يـا «نـوَّاف».. ليـس مـن العيـب أن نعـترف بأمراضنـا، العيـب أن نبحـث لهـا عـن حيـل ضعيفـة.. يبـدو أنـك مريـض، ويجـب أن تعـترف بذلـك؛ ليـس مـن أجلـك، بـل مـن أجـل زوجتـك وأبنائـك في المسـتقبل.. لذلـك يجـب أن تذهـب للطبيـب وتتعالـج، بـدلاً مـن أن تمـارس مع زوجتك الجنس الشرجي؛ زوجتـك أم أبنائـك.. هل تفهم؟
- آه يـا ملعونـة يـا مومـس.. أنـتِ بتعطينـي درس وبتصفينـي بالمريـض.. أنـا سـأفعل كل شيء معـكِ عشـان تجيبـي سـيرة زوجتـي وبيتـي تـاني يـا بنـت المومـس.
- أنت قذر.. مريض.. اذهب لزوجتك ومارس معها شذوذك.
- خلاص.. أنا بوريكِ.

- خلاص.. أعطني الورقة وخذ نقودك. هكذا قالت وهي تتراجع عدة خطوات.

- بعينك يا ماما.

- يعني إيه؟

- أنام معاكي بالطريقة اللي بتريحني.. وبعدين أعطيكي الورقة وأكثر.

- أنت أخذت حقك بما فيه الكفاية. هكذا تحدثت وهي تتصنَّع القوة والبرود.

ضحك بسخرية ومال بعيدًا عنها، وقال:

- إيه يا ماما.. شيفاني حمار.. واحدة مومس زيك بتضحك على «نوَّاف الرشيدي».. لا يا حبيبتي، حقي وهاخده.

- ملكش حق عندي. هكذا قالت في حدة عنيفة، واستفزتها بشدة كلمة «مومس» التي ظل يرددها طوال الوقت؛ لذلك شعرت بأنه تخطى كل الطرق السلمية، وبأنها في مواجهة معركة عنيفة.. وتراجعت عدة خطوات أخرى، واقترب منها وتحدث بفظاظة توحي بنفاد صبره:

- قولتلك مش واحدة زيك تضحك عليَّ.. أهون عليَّ أموت ولا واحدة زيك تضحك عليَّ.

- قلتلك خد فلوسك.. واعتبر المسألة لم تكن.

- لازم أكسر أنفك.. فاكرة نفسك مين.. أنتِ مومس وبس.. وشوية الشطارة اللي بتلعبي بيهم على الناس ميمشوش معايا.

وأدركت أنها في مواجهة عنيفة، وظل صدرها يعلو ويهبط بسرعة كأنها قطعت مسافة كبيرة راكضة، وقالت بخبث:

– متعتك مش عندي.. مش هقدر أساعدك.. اسمع الكلام.

– لأ.. عندك.. هيا، لديَّ زيت طبيعي مستورد بيستخدمه الخواجات عشان يسهل المرور.. مش هتحسي بأي ألم.. الخواجات دول ملاعين.. ما تركوا شيء إلا وصنعوه.

– أنت قذر. ثم نظرت له بتحدٍّ وقد كورت قبضة يدها الصغيرة، بعد أن تقدم نحوها وأصبح في مواجهتها.. فقال:

– فاكرة أنك ممكن تمنعيني من حقي.. بالعكس، رفضك ده جزء من متعتي.

– طلبك مش عندي.

أوقد سيجارة ونفث في وجهها الدخان، ثم مسكها من شعرها وجرها نحو السرير بقوة.. حاولت إبعاد يده لكنه كان الأقوى، ثم سرعان ما بدت مستسلمة، فقالت بصوت لاهث:

– سبني أدخل الحمام أغير.

فقال لها بإصرار:

– مش ضروري.. أنتِ كده أفضل؛ بريد أمزق ثيابك..حتة.. حتة.

واستطاعت بعد عناء أن تقنعه بتبديل ملابسها؛ فقد شرعت تتوسل إليه، وتُقبِّل يده لكي يتركها تبدل ملابسها.. كل ما هنالك أنها كانت تريد فقط أن تختلي بنفسها بضع دقائق.. وارتاح لإذعانها بهذا الشكل؛ إذ بدت عليه القوة بعد أن تراخت معه وتلاشت قوتها، فظل يمطرها بألفاظ بذيئة. كان يتلذذ حين يدفعها أمامه فتترنح أو

تسقط على الأرض. وأرسلها إلى الحمام بصفعة على مؤخرتها، وظل هو يتجرع أكواز البيرة ويُحضِّر أشياءه.. عطر «سلطان»، والزيت.. إنها ليلة لن تتكرر. شعر بالسعادة، وتخيل وهو يفقدها أنوثتها لأول مرة؛ فصرخ من فرط النشوة. وفي الحمام جلست تفكر في هذه الورطة، تصبب العرق من جبهتها البارزة، وظلت تجفف عنقها وشعرها، وتقرض أظافرها.. وسرعان ما التقطت من شنطتها «إسبراي الشطة»، تعرف جيدًا أن هذا الإسبراي قادر على حمايتها؛ رشة واحدة في عينه ستنعدم الرؤية تمامًا.. ورجت الإسبراي جيدًا ليتفاعل السائل بسرعة ويتدفق من الأنبوب مُركَّزًا، وهمست بصوت رن في أذنها فقط: «لن يستطيع الحيوان الشاذ..» وضربت الأرض بقدميها، واندفعت خارجة في خطوة سريعة. ولما خرجت وجدته جالسًا فوق السرير يدخن بانفعال، وبدا الدخان كثيفًا يكاد يحجب موضعه فوق السرير.. ثم ظهر وجهه مكفهرًا تلوح فيه أشياء غريبة.. عيناه حمراوان محملقتان، وأنفاسه عالية يهتز لها صدره بشدة.. كانت الغرفة يسودها صمت رهيب مخيف؛ حيث امتلأت بأنفاس الخوف ونظرات الترقب من كليهما. وكانت تشعر بداخلها بإحساس لم ينتابها من قبل في ظل هذه الرحلات؛ خوف.. قلق.. لكن الأمر كله كان يتوقف على كلمة ينطقها هو، لكنه ظل فوق السرير يتابعها بعينين تنطقان بالشر، ثم قال:

- أنتِ مش قولتِ هتغيري ملابسك.. أنتِ مجنونة.. وأنا أجن؟

كان الإسبراي في يدها، ولم يلاحظ ذلك؛ إذ كان بالكاد يُلاحَظ من صغر حجمه.. وقالت في مكر:

- إيه رأيك نسهر الليلة؟ ومدت يدها وفتحت الدولاب وهي تلتقط سترتها، وكانت تراقبه بحذر كأنها تسابق الزمن.. فهي

تعلم أن اللحظات التالية قد يتوقف عليها أشياء كثيرة، إن لم تكن حياتها.. نزل من فوق السرير، ومضى نحوها بخطى سريعة مندفعة في جنون لا يبرره سوى نفاد صبره تجاهها، وتكلم بفظاظة:

- تظنيني خليجي عادي ممكن تضحكي عليه.. لا يا ماما.. أنا باخد حقي بالكامل.. والحين.

- حقك أخدته.. ده كل اللي عندي. هكذا قالت بقوة واستعداد، ثم رشت الإسبراي في وجهه؛ فقفز تلقائيًّا عدة خطوات للخلف. طاردته بعد أن اندفع خارج الغرفة، لحظة فاصلة لا تتعدى الثانية أنقذته، حين التفتت له ورفعت يدها في وجهه، وكان يظن أنها ستلكمه.. بالطبع تجنبت المواقع التي ينتشر في جوها السائل؛ لذلك كانت مرافقة له في كل ركن يهرع إليه. ولما فرغ أنبوب الإسبراي ألقت به على الأرض، واندفعت نحو الغرفة.. عجز «نوَّاف» للحظات عن تفسير هذا الشيء الذي كانت تطارده به، وانقض عليها وصاح ثائرًا:

- آه يا ملعونة.. ماذا تريدين بالضبط.. هذه اللحظة لن تنسيها أبدًا يا بنت المومس. ثم مد يده نحو ثدييها، واعتصرهما بقسوة.. انفعلت، ونجحت في التخلص من يده، وعادت للخلف عدة خطوات.. كان شعرها الأسود ما زال يحمل بقايا الماء؛ فبدا مستسلمًا في خصلات ثقيلة، وعيناها اتسعت وكأنها قطة شرسة تصارع من أجل البقاء.. أخذت وضع الهجوم استعدادًا له.

- كيف تمنعيني من حقي يا مومس يا بنت المومس؟ أنا بوريكي ليلة سودة. وجرها بقوة من شعرها؛ فشعرت بألم شديد.. ثم مسكها من عنقها في محاولة لخنقها؛ فصدرت منها حشرجة، وبدأت

قدماها في ركل الهواء حتى ارتطمت في عدة أشياء؛ فأحدث ذلك ضجيجًا.. ولم تستطع التخلص من قبضة يده. كان يتصرف نحوها بجنون.. ركلها بقوة؛ فصدرت منها صرخة ارتجت لها جدران الغرفة الكئيبة.. وانحل وعيها لأحاديث الأمهات والمُدرسات «البنات لا يُركلن في المؤخرة.. هناك نوع ضعيف من غشاء البكارة ينفض لأي ركلة في جدار المؤخرة.. حذارِ يا بنات» وأي شيء تحافظ عليه وتقاتل من أجله مثل هذا الغشاء العجيب، الذي يمنحها ثقة وراحة، تستمدهما من عيون المومسات المنكسرات الضعيفات.. وانتفضت بعد أن بصقت في وجهه بلغمًا.. وانفعل أكثر، فتُرجم ذلك إلى مضاعفة الخنق؛ فبدا وجهها منفوخًا تعلوه زُرقة مخيفة، وبدت عيناها وكأنهما على وشك الانفجار.. نفرت عروق الرقبة المخنوقة، وكذا يدها، وحاولت بكل ما لديها من قوة أن تغرز أظافرها في لحم يده.. كان جسدها كله يرتج ويرتعش بقوة من شدة التركيز وتوجيه القوة كلها في أصابع يدها، لكنه ظل صامتًا مترقبًا منفعلاً مصرًّا إصرارًا عنيفًا.. وحل إحدى قبضتيه من عنقها، ثم سدد لها لكمة قوية من أثرها ترنحت قليلاً للوراء؛ وشعرت بأنها تُبعث من جديد.. إنه تركها.. ودون أن يقصد منحها الفرصة.. كادت تسقط على الأرض.. وتقدم نحوها بعد أن أمطرها بالسباب، ومد يده نحو مؤخرتها بقوة، ثم حملها من فوق الأرض؛ فزكمت أنفه رائحتها النظيفة كأنها طفلة نقية، وهذا ما استفزه جدًّا؛ شعر بمتعة طالما افتقدها منذ أن فعل ذلك مع زوجته التي استسلمت بسرعة.. ولكن هذه المرة تأتي بعنف؛ عنف جعله يشعر برغبة في استمرار المعركة حتى الموت.. دس يده نحو مؤخرتها، لكنها دفعته بما فيها من

قـوة.. ثـم عـاد إليهـا مـرة أخـرى، فدفعتـه وهـي تمضي خـارج الغرفـة بخطـى متثاقلـة. لحق بهـا ومسـكها مـن شـعرها حتـى صرخـت، ثـم صفعهـا عـلى وجههـا؛ فمالـت عـلى حافـة الـدولاب الأربيسـكي مسـتندة عليـه، وبركبتهـا ركلتـه في خصيتـه؛ فوقـع عـلى الأرض وهـو يعـوي مـن فـرط الألم، لكـن عينـه كانـت تراقبهـا بحـرص.. ولـما تحركـت نحـو البـاب، تحامـل عـلى نفسـه ولحـق بهـا، ثـم صرخ:

– يـا بنـت المومـس. وسـدد لهـا لكمـة سريعـة في أنفهـا؛ فشـعرت بـأن الغرفـة تـدور بهـا، وبسـائل دافـئ يتدفـق مـن أنفهـا وفمهـا.. تمالكـت، وتصـورت سريعًـا مـاذا لـو سـقطت، ومـا الـذي سـيفعله.. وانحـل وعيهـا إلى ذكـرى بعيـدة عـما يجـري.. فـترى سـعيد شـقيقها وأمهـا سـميرة يتشـاجران كالعـادة، أو مشـاهد لهـا وهـي ترقـص مـع الفرقـة تحـت سـحر الموسـيقى الغربيـة.. هكـذا كانـت تـرى وتحـدث نفسـها. ومـضى نحوهـا وهـو يعـاني ألمًـا وغيظًـا، ثـم أمسـك برأسـها ودفعهـا في حافـة الـدولاب؛ فارتطمـت بقـوة، وبـدأت تتشـنج وعيناهـا متسـعتان، وتدفقـت الدمـاء مـن رأسـها.. ثـم وقـف يلتقـط أنفاسـه وينتظـر سـقوطها أرضًـا وهـو قابـض عـلى خصيتـه بـين راحتيـه متألمًـا.. تلطـخ جسـدها بالدمـاء التـي مـا زالـت تتدفـق مـن أنفهـا ورأسـها.. وبـدا نهداهـا عاريـين يعلـوان ويهبطـان بسرعـة مـع كل شـهقة، وبـدأ الـدم يسـيل فوقهـما ويشـكّل ممـرات متشـابكة. جفـف الـدم بعنـف وهـو يعتـصر نهديهـا، ثـم فـك أزرار البنطلـون الجينـز.. أحسـت بيديـه تعبثـان بهـا، ورأتـه عاريًـا، كانـت تـراه وكأنـه خيـال أو مـن وراء ضبـاب، كأنـه يضـع قدمـه فـوق رأسـها داخـل حـوض مـاء وهـي عاجـزة عـن التنفـس.. ظـل جسـدها ينتفـض بسرعـة وكأنهـا تحتـضر، وشـعرت بأنـه هـو المـوت يتجسـد فيـه بـكل قسـوته؛

فقررت أن تقاتل من أجل الخلاص. هكذا ظلت تقاوم بكل قوة، وشعرت بشيء به سخونة دافئة يستقر بين ثدييها، ويقترب من فمها.. وكان هو يرتعش ويتساقط العرق منه بغزارة، وبدا قضيبه خاملاً من أثر الركلة.. لكن ها هي اللحظة التي طالما انتظرها بفارغ الصبر.. الآن عليه أن يستمتع بها وهي واقعة تحت يديه غارقة في دمائها، لكن الخوف والركلة جعلاه عاجزًا عن فعل شيء؛ فقام من فوقها وصاح بصوت خارق:

- آآآه.. يا بنت المومس.. أنا بخلص عليكي. فركلته ركلة أخيرة، لا تعرف أين ستذهب، كأنها تسديدة كرة في نهاية ماتش مهم يحدد مصير الفرقة.

وساد صمت مخيف.. سمعت صرخة مكتومة، وصوت حشرجة، ورأت شبحًا جالسًا فوق الأرض عاريًا.. زكمت أنفها رائحة الدماء، وظلت الغرفة يسودها هذا الرعب وهذا الصمت.. وراحت في غيبوبة لا تتعدى دقائق، شعرت بعدها ببرودة شديدة تنفذ إلى عظامها.. فتحت عينيها بصعوبة، وتحسست أردافها العارية، ثم وجدته منكمشًا على بعد أمتار قليلة.. رفعت البنطلون الذي كشف عن جزء من مؤخرتها، وقامت مستندة على الدولاب، ثم أسرعت في جمع أشيائها.. كانت تتحرك في صعوبة، وتكتم أنفاسها خوفًا من أن يشعر بها، تنظر نحو الباب وكأنها ترجوه أن يقترب.. فتحت الباب بحرص ثم خرجت، ونزلت عبر السلم الضيق المظلم، تحسست الحائط حتى أضاءت النور.. كانت تشعر بهبوط بعد أن فقدت قرابة نصف لتر من دمائها؛ حيث لم تتوقف أطرافها عن الارتعاش، ولما انتهت من نزول السلم، ووقفت أمام العمارة الشاهقة الكئيبة، تنفست في ارتياح، ما زال شعرها مشبعًا بالدماء حتى بدا ناشفًا، وشفتها

السفلى متورمة وما زالت تنزف من أثر اللكمة.. طعم الدماء العالق في لسانها جعلها تشعر بنوع من الخوف؛ خوف من الموت، أو مصير بائس.. أخرجت من حقيبتها قبعة من الصوف وغطت بها رأسها، ووقفت تنتظر تاكسي يقلها إلى محطة مصر. نظرت خلفها وتخيلت لو لحق بها، لكنها كانت مطمئنة؛ إن المعركة في الشقة تختلف كثيرًا عن الشارع.. وكان البحر أمامها يترامى في ظلمة موحشة، وكانت أمواجه تتضارب في ثورة.. لمحت خيالاً وراءها؛ فتطلعت خلفها بترقب، فوجدت البواب واقفًا يتأملها في صمت.. كانت ملامحه تبعث على الرهبة؛ ضخامته، ونظرته الثاقبة التي تشع من عينين كبيرتين. فتح فمه وكأنه يتثاءب، ثم قال بطريقة حاسمة:

- «نوَّاف» بك لسة فوق؟

لم تجبه. ثم استأنف قائلاً:

- هو حاسبك ولا لسه؟ ثم استأنف بنبرة آمرة لما وجدها صامتة: أنتِ خرستِ؟ ردي عليَّ.. أنا ممكن أحاسبك. ثم مسحها بنظرة شاملة وقال:أعطيني رقم تليفونك.. الموسم داخل علينا، وأنا زبايني من عينة «نوَّاف» بك.. الثلثين والثلث.. ها قلتِ إيه؟

نظرت له وقالت بنبرة لاهثة:

- مش وقته. كانت تريد أن تتخلص منه بسلمية؛ لن تستطيع أن تخوض معركة أخرى، وخاصة أن هذا القواد على استعداد لسحقها تمامًا، لن تتحمل صفعة واحدة من يده الغليظة. ابتسمت بصعوبة، وتقدمت بضع خطوات، أوقفت تاكسي، وجلست على المقعد الخلفي ووجَّهته في صوت مبحوح: «أقرب صيدلية من فضلك». وانطلق بها، تأملت كل شيء، حتى لحظات الموت.. نظرت خلفها

فشاهدت البواب يبتعد شيئًا فشيئًا؛ فشعرت بارتياح.. تأملت اللحظات الحديثة التي ما زالت تحمل أثرها.. كل ذلك تأملته في ذهول، وتخيلت لو كان ضاجعها.. وسرعان ما امتقع وجهها أكثر، واتسعت عيناها، وهتفت في نفسها: «الورقة!». وضعت يدها على جبهتها وشعرت بالمرارة. انحدر السائق إلى شارع المحطة، وتوقف أمام صيدلية عتيقة.. نزلت بصعوبة حيث بدأت تشعر بالألم، ثم تحركت إلى داخل الصيدلية.. استقبلها طبيب عجوز، ونظر لها طويلاً وقال لها:

- ماذا حدث؟
- محاولة لسرقتي. وجاء بالمطهر وطهر الجبهة والشفة في حالة من البرود، وقال لها بصوته الواهن:
- القطع اللي في الجبهة لازمه عدة غرز.
- أكيد؟
- ده مش ممكن يكون بني آدم، أعتقد أن في كسر في الأنف، والشفة متورمة وملتهبة.
- كلب.

وجاء بالدواء ومعه كوب ماء، تناولت عنده بعض المسكنات والمضادات، وانطلقت إلى التاكسي بسرعة ووجَّهته: «محطة مصر من فضلك».

***

ما هذا العالم المخيف؟ الشهوة.. اللذة.. الشذوذ.. المال.. يا الله، متى تخلصني من هذا المستنقع الذي أغوص فيه؟ ما هذا الكائن العجيب؟ كاد يقتلني.. مريض.. مجنون.. هل مات؟ آه.. واستنشقت

عبير الصباح وقالت: «آه.. ما ألذ الحياة هنا بين الحدائق.. ما ألذ العيش مع قوم يعقلون!». ونزلت من التاكسي وصعدت إلى الطابق الرابع، وطرقت الباب، وجاء صوت المدام مستعلمًا:

- من؟

- أنا داليا.

فتحت الباب؛ فاندهشت وقالت في ذعر:

- ماذا حدث؟

- الضريبة.. لا بد من دفع الضريبة يا مدام.

- داليا، لتذهب الفلسفة إلى الجحيم.. ماذا حدث؟

- معركة مع «نوَّاف».

- «نوَّاف»!

- نعم.. كان يريد أن يغتصبني؛ فدافعت عن نفسي.. وكانت النتيجة كما تشاهدين.

- وهل توصلتما لحل.. أم انتهى الصراع بينكما على لقاء آخر؟

- لا أعرف.. تركته يعاني ركلة في خصيته.

- داليا، أنا لا أريد مشاكل. .هذا الخليجي الثري يستطيع أن يفعل أشياء كثيرة.. أرجوكِ اتركي المدرسة.

- لا أستطيع.. لا بد من الإقامة معكِ بضعة أيام.

- سيأتي إلى هنا.

- لا يستطيع أن يفعل شيئًا.. أنتِ امرأة غربية.. صدقيني لن يتعرض للمدرسة أبدًا.

جلست وفردت ساقيها فشعرت بألم، فكشفت عن ساقيها؛ فإذا بآثار الركلات قد تركت بقعًا حمراء.. كان وجهها خاليًا تمامًا من المساحيق يحمل آثار معركة حديثة.. الشفة تورمت وشُطرت من الجانب، والعينان يغشاهما الأرق.. تحسست القطع في جبهتها، وكانت الدماء تجمدت فوقها.. قشرت بأظافرها الدماء الجامدة؛ فانسالت دماء جديدة.. وكان شعرها يحمل آثارًا للدماء؛ فكانت الخصلات مجعدة أشبه بالقش المبتل. جاءت المدام بطبق مياه دافئة وقطن وبعض المطهرات، وراحت تطهر الجرح وتداوي الشفة الملتهبة، وظلت داليا تتحدث بعصبية وهي تسعفها: «ماذا كان يريد؟ أظنه من البداية ليس سوى.. أشعر أنه مريض.. لديه المال.. يبعثر أمواله على كل شيء تافه».

فقالت لها المدام: «داليا، لا بد من الذهاب للطبيب.. ولا بد من تحرير محضر في القسم».

وأقامت داليا عند المدام خمسة أيام؛ فاعتنت بها جيدًا، واستردت عافيتها.. وفي مساء اليوم السادس سمعا طرقًا شديدًا على الباب؛ فأدركتا مجيئه.. فدخلت داليا الغرفة بسرعة وخرجت المدام، وفور فتحها للباب اندفع بجنون لداخل الشقة يبحث عنها.. صرخت المدام بصوت عالٍ أرعده، وجعله يتوقف:

- اخرج بره يا حيوان.
- مش قبل ما آخد المومس اللي عندك.. يا قوادة.
- أنا هطلب البوليس.
- تمام.. عشان يقبض عليكِ.. أنتِ قوادة.. وأنا مش هسيب حقي.. المومس اللي عندك كانت هتموتني.
- معنديش حد.. اخرج بره. ودفعته في صدره بقوة وصاحت:

- أنا أتصل بالسفارة حالاً.. أنت مجرم ولص.
- أنا هقفل هذه الشقة.. وأنتِ هتشوفي «نوَّاف» بيسوي إيه.

ووقف مذهولاً عاجزًا، ثم نفخ في ضيق وانصرف.

***

كان يشاهدها، لكنه عجز تمامًا عن الوقوف واللحاق بها.. كانت الركلة قوية.. استرخى تمامًا فوق الأرض وشعر بأنه يحتضر.. تذكر والده؛ فانقبض قلبه.. حاول دفع هذه الذكرى بعيدًا. وكانت الغرفة تدور به، وكانت أطرافه ترتعش.. فقد الحديث والحركة، وشعر بالعجز التام. ولما شاهدها تقف أمامه، ارتجف وانكمش أكثر.. كانت ترفع رأسها للسماء وتتحرك بقوة.. تنظر له تارة.. وللسماء تارة أخرى.. ماذا تريد هذه الملعونة؟ الدماء تغطي وجهها.. هل أصبحنا أنا وهي أموات؟ ما هذا العالم المخيف؟ والغرفة يكتنفها هذا الظلام والسكون المطبق. ولما تحركت نحو باب الغرفة وفتحته، تدفق منه الهواء؛ فاستنشقه بصدر واسع، وشعر بالراحة شيئًا فشيئًا.. ولما سمع صوت غلق الباب، ارتخى تمامًا لمدة لا تقل عن ساعة. وبعدها قام ودخل الحمام، تفقد قضيبه بحرص وصاح: «يا بنت المومس». واتصل بمدام «ناهد راشد» التي قهقهت بصوت خرق طبلة أذنه.. لكنها في النهاية قالت له معاتبة: «عشان تبقى ترمرم.. المهم ضع حوله ثلجًا، ولا ترتدي أي سراويل ضيقة حتى يسترد قوته» وعادت تضحك من جديد.. واستدعى البواب، وركله بالشلوط وقال له: «كيف تتركها تمشي يا حمار.. سرقتني.. أنت غبي».

***

في «بـار الكـرة الذهبيـة» ظهـر «نوَّاف الرشـيدي» مـرة أخـرى، كان واقفًا يحملـق في الفتيـات.. زكمـت أنفـه رائحـة البـيرة الشـعبية الرديئـة «سـتيلا»، غـير الضجيـج الـذي نتـج عـن الزحـام.. ثـم سرعـان مـا تقـدم بسرعـة ليجلـس بجـوار فتـاة إفريقيـة تتحـدث العربيـة بطلاقـة، كانـت تتجـرع البـيرة باسـتمتاع.. كان يبحـث عـن داليـا، ربـما يجدهـا؛ يعلـم أنهـا تـتردد عـلى مثـل هـذه البـارات.. بـادر الفتـاة الجالسـة جـواره قائـلاً في هـدوء:

– هـي تشـبهك.. بـس طويلـة حبتـين.. آه لـو أطولهـا، مـش هسـبها غـير خالصـة.. وليـكِ الحـلاوة.

– اسمها إيه؟

– داليا.

تأملت الاسم لبضع ثوانٍ، ثم قالت:

– لا أعرف واحدة بهذا الاسم. واستأنفت:

– هي لازم داليا؟

– لأ طبعًا.

– خلاص أنا بعوضك عن ستين داليا.

– يا سلام.. أنتِ من وين؟

– السودان.

– آه.. يـا سـلام.. والـدي دائـمًا يقـول نـاس السـودان طيبـين.. مخلصين.. خدّامين.

– نعـم. هكـذا قالـت وهـي تمـط شـفتيها الغليظتـين محتجـة عـلى لفـظ «خدّامـين».

فاستدرك «نوَّاف» بسرعة:

- تعرفي «عبدون النو»؟
- مين فينا لا تعرف سيدي عبدون.. أيامه كانت كلها خير.
- وين راح؟
- بطّل شغل.. هو بيشتغل على خفيف.
- كان بيشتغل عندي سواق.

أخـذت الفتـاة جرعـة مـن زجاجـة البـيرة ونظـرت لـه مندهشـة، ثـم قالــت:

- معقول.. أنت تبقى مين؟
- أنا «نوَّاف الرشيدي».
- من وين؟
- خليجي.
- واو! هكذا قالت في سعادة.. ثم اعتدلت وقالت له:
- أنــت بتتكلـم مـصري شـوية، حتـى طريقـة ارتدائـك للملابـس مصريــة.
- من عاشر القوم أربعين يوم.. أنا بقالي كام سنة.
- داليا سرقتك؟
- لأ.
- ليك عندها إيه؟
- متعة.

- أنا بمتعك.
- أنا ليا في المُتع دروب يجهلها الأغبياء.
- أنـا أصـلاً محجـوزة للخواجـات.. بـس عشـان أنـت محـترم أنـا معـك في أي درب.
- هل تعلمين معنى كلمة الدرب في اللغة العربية؟
- لا.

تنحنح «نوَّاف» وأخذ وضع الوقار في جلسته، وقال:

- الدَّرْبُ: هو المدخل الضيق.. وأنا بعشق المداخل الضيقة.
- آه.. أكيد داليا من النساء اللاتي يشمئزنَّ من البصق. وواصلت:
- متعتك عندي.. تحب في بيتك ولا عندي؟

تنهد بضيق وقال:

- عنـدك. وغمغـم: «الدكتـور عبـد الجـواد حصَّـن العـمارة.. الله يخـرب بيتـه».

***

استعاد «نـوَّاف الرشـيدي» قدرتـه عـلى ممارسـة الجنس، خاصـة وأنـه يـمارس الجنس بطريقتـه الخاصـة؛ حيـث يـأتي المـرأة مـن دبرهـا، وهـذا يستلزم قضيبـًا حديديًّا يستطيع خـرق المؤخـرة بسـهولة.. وصـلا إلى شـقة في عـمارات نيركـو، تطـل عـلى غابـة مـن أشـجار الزيتـون.. كانـت الشـقة لفتيـات إفريقيـات، اسـتخلصت منهـن غرفـة، ودخلـت بـه، ثـم قالـت له:

- اجلس هنا.. بحضر الشغل وآجي علطول.

وجاءت له الفتاة شبه عارية تحمل صينية فوقها زجاجة ويسكي «بلاك ليبل» وكأسين.. تجرع أول كأس ثم الثانية، ثم نحَّى الزجاجة جانبًا.. وبدت له الفتاة باردة كلوح ثلج.. وقضى معها ليلة مملة؛ حيث كانت سهلة جدًّا، رغم أن ملامحها مثيرة، وجسدها ملتهب.. سمحت له بأن يأتيها من دبرها، بل هي التي طلبت ذلك.. وكانت مؤخرتها من كثرة المران فيها واسعة.. وسهلة.. ليس بها أي متعة.. أفسدت عليه الليلة.. وبعد ما انتهى، قام ونهرها صائحًا: «أنتِ واحدة باردة.. أنا مفيش بنت خلتني بالحالة دي غيرك يا حلوفة» ثم قذف في وجهها الورقات المالية، وخرج من الشقة يبحث عن داليا.

***

الجزء الثالث

«صباح الخير يا مستر جونز»

هكـذا قالـت سـميرة، وهكـذا أصبحـت هـذه التحيـة روتينيـة منـذ أكثـر مـن عـشرة أعـوام؛ منـذ أن عملـت عنـد السـيد «روجـر جونـز» مديـر المدرسـة الأمريكيـة.

بدايـة أسـبوع العمـل دائـمًا مـا تكـون بدايـة ليسـت نشـيطة، يغمرهـا الكسـل والاسـترخاء، وعـادةً يبـدأ الجسـد يتهيـأ تلقائيًّـا في اليـوم الثـاني، لكـن الأمـر مختلـف عنـد السـيدة سـميرة التـي تجـاوزت الخامسـة والخمسـين عامًـا، ومـا زالـت تعمـل خادمـة، وهـذه مهنـة شـاقة تحتـاج لجهـد.. تمـارس عملهـا بنشـاط وعنايـة، كلـما أثنـت عليهـا ربـة المنـزل تشـعر بالطمأنينـة؛ إنهـا مـا زالـت تعمـل ولديهـا القـدرة عـلى ذلـك.. مـا زالـت تنفـق عـلى نفسـها دون الحاجـة لأحـد.

أعـدت السـيدة سـميرة نظامًـا روتينيًّـا في حياتهـا منـذ أن عملـت؛ فهـي تخـرج مـن البيـت في السادسـة والنصـف صباحًـا.. تأخـذ دُشًّـا بـاردًا أو سـاخنًا - حسـب الطقـس - وتجلـس تتنـاول الإفطـار، ثـم ترتشـف فنجانًـا مـن القهـوة. وبعـد ذلـك ترتـدي ملابسـها الأنيقـة الغاليـة؛ التايـير الكامل، والحـذاء الكلاسـيك اللامـع، وتـترك شـعرها مرسـلاً عـلى كتفيهـا يفـوح منـه رائحـة الصابـون المسـتورد. يوحـي وجههـا المـدور بأنهـا مـا زالـت في الثلاثينيـات مـن عمرهـا.. العينـان البنيتـان البراقتـان تسـتظلان تحـت حاجبـين دقيقـين تعكـف عـلى رسـمهما بمهـارة، وأنـف ملمـوم صغـير، وفـم دقيـق ذو شـفتين صغيرتـين محمرتـين، دائـمًا تمتصهـما ليكتنـزا، لكـن عنـد العنـق تظهـر التجاعيـد الخفيفـة. في سـيرها تبـدو شـاردة.. تجدهـا تسـير بتُـؤدة، هـي تتعمـد ذلـك؛ حتـى لا تفقـد رائحتهـا النظيفـة. تسـتقل المـترو مـن محطـة طُـرة حتـى محطتـي المعـادي وثكنـات المعـادي، فهـي

تقطع هـذه الرحلـة في الأسـبوع أربـع أو خمـس مـرات منـذ أكثـر مـن خمسـة عـشر عامًـا. وتعـود في المسـاء في السـاعة الخامسـة، تبـدل ملابسـها وترتـدي العبـاءة الفضفاضـة المشـغولة بالخـرز، وتتنـاول الغـداء، وغالبًـا ما تتناولـه بمفردهـا، ثـم تصنـع فنجـان القهـوة المضبـوط. وتنتقـل للجلـوس في البلكونـة الخلفيـة التـي تطـل عـلى القنـاة الضخمـة الجافـة الممتـدة إلى النيـل، وتناطـح شرفتهـا شـجرة التـوت العتيقـة، فترَنُـو إلى زقزقـة العصافير حينًـا، وتتصفـح الجرائـد بعنايـة حينًـا آخـر بعـد أن تضـع فـوق عينيهـا عوينـات طبيـة رقيقـة. وبعـد ذلـك تصنـع طعـام الغـد، وتضعـه جاهـزًا في الثلاجـة؛ فهـي عـادة قديمـة منـذ أن كانـت حديثـة العهـد بالـزواج، ولا تنسـى أن تُعيـد ترتيـب دولابهـا مـن جديـد، هـذه مسـألة لا تملهـا أبـدًا؛ ملابسـها الغاليـة تُعـد شـيئًا عظيـمًا في حياتهـا.. ثـم تجلـس أمـام التسريحـة وتراقـب ملامـح وجههـا الآخـذة في الذبـول، كـوردة في طريقهـا للنهايـة.. تضـع الكريـم المرطـب حـول عنقهـا وأسـفل عينيهـا، ثـم تخلـد إلى النـوم.. هـذا النظـام لم يتغـير طـوال عشريـن عامًـا تقريبًـا.

لكـن في ليـالي الشـتاء الطويلـة ثمَّـة ذكريـات تداهمهـا؛ فتتذكـر زوجهـا عندمـا كانـت تنـدس في أحضانـه وتسـتمتع بالـدفء.. إنهـا سـنوات الحـب، وتزفـر بتنهيـدة عميقـة تـدل عـلى حرمانهـا. وسرعـان مـا يداهمهـا ألم في ظهرهـا؛ ألم داهمهـا منـذ وفـاة زوجهـا، فتعـض شـفتيها الذابلتـين، وتغمـض عينيهـا في تأثـر، تتمنـى أن يـأتي مـن يخلصهـا مـن هـذا العـذاب، تعـرف جيـدًا أن الرياضـة التـي يجب أن تمارسـها المـرأة ليسـت في التماريـن التقليديـة، ولكـن التماريـن التـي ترحـم المـرأة مـن ألم الظهـر هـي تماريـن الحـب! لـذا يُثيرهـا دائـمًا البيـت الخـالي الهـادئ، فتتحـرر شـيئًا فشـيئًا؛ تخلـع ملابسـها كاملـة، وتراقـب جسـدها بعنايـة، وسرعـان مـا تشـعر بحـرارة لذيـذة تسـتحوذ عـلى جسـدها كلـه؛ لـذا تُطفـئ هـذه الحـرارة المتأججـة

في عروقها بطريقة خاصة؛ حيث تقف أسفل الدُّش وتفتح المحبس بحرص، فيتدفق منه سرسوب أشبه بخيط رفيع.. يبدأ مجراه من رأسها مرورًا بالنهدين الكبيرين، ثم يسلك طريقه حيث منبع السعادة والشقاء.. وتهدأ المرأة، وتخرج من الحمام ووجهها مورَّد.

هكذا استطاعت أن تتغلب على هذه الشهوة لسنوات طويلة، ولكن بعد بلوغها الأربعين عامًا شعرت مرة واحدة أنها نسيت هذه الحياة في ظل زحمة العمل والجهد الذي تبذله؛ فتجمد طموحها الجنسي تمامًا، حتى من العادات التي كانت تريحها.. ولكن لسنوات طويلة كان يأتيها محمد عبد المقصود في المنام؛ يداعبها أو يواسيها.. وأحيانًا كثيرة في السنوات الأولى التي أعقبت وفاته، كانت تقوم مفزوعة وتصرخ: «الأولاد!». تتذكر هذا المساء البعيد.. ليلة مظلمة؛ لا يتنفس فيها القمر، ولا تبدو النجوم في سمائها.. لكل واحدٍ منا ليلة كئيبة في حياته، يرى فيها آيات الجمال تتحول لأشياء قبيحة.. في البلكونة الكبيرة جلس أمامها يحكي كعادته.. عرضت عليه أن تعمل، فقال لها: «ليسانس الآداب لا يؤكِّل عيشًا.. منها لله مدام أنجل؛ هي من أقنعتك بدراسة هذا التاريخ». وكانت سميرة تنفعل بطريقة درامية وتقول له: «لا تسبها.. إنها كانت مؤمنة جدًّا بالتاريخ الفرعوني والإسلامي.. أرجوك توقف». فعرضت عليه أن تعمل في خدمة الخواجات، لكنه قابل العرض بالرفض التام.. وظل صامتًا ينظر في اللاشيء، ثم قال:

– أريد أن أطمئن.

ونظرت له وقالت مندهشة:

– محمد، ماذا حدث؟!

– أريد أن أطمئن على تربية الأبناء؛ من حيث التعليم والرعاية.. سميرة، سيكون الحمل ثقيلاً، ولكني أثق بقدرتك. وجلس يرتشف القهوة.

كانت هذه هي الليلة الأخيرة؛ أراد أن يطمئن قبل الرحيل. استيقظت على أذان الفجر، فوجدته مطروحًا على الأرض؛ وكأنه كان نائمًا على الكنبة وأثناء النوم سقط من أعلاها، ولما حاولت أن تُوقظه أدركت أنه مات.

بعد الوفاة جاء الأقارب، وقال لها أشقاؤه:

– نحن نريد الأبناء.

فصاحت بعنف:

– أي أبناء؟!

– الولدان.

«آه يا ملاعين تريدون الأرض» هكذا قالت في نفسها.

ترك لهم محمد عبد المقصود ثلاثة أفدنة، تَصارع أشقاؤه على أخذ الولدين ليضعوا أيديهم على الأرض. هكذا فطنت سميرة لموقفهم؛ الذي ظاهره مودة وباطنه نقمة. وباعت الأرض واشترت هذه الشقة لتضمن لهم المأوى، بعد أن كانوا يقيمون فيها بالإيجار.. عانت سميرة منهم جدًّا، وكذلك من أقاربها وأشقائها.. قاتلت بضراوة لتربي الأبناء.. إنه أوصاها ألا تغفل عن تربيتهم.. وعاشت في شبه عزلة عن أقاربها.

كانت «عزبة البوليس» مكوَّنة من عدة منازل، لا يتجاوز عددها العشرة، في بقعة كبيرة جدًّا بمحاذاة قطار البضائع، يفصل بينها وبين

«ليمان طرة» قناة ضخمة ممتدة إلى النيل.. المنازل في هذه البقعة الهادئة ليست ملتصقة؛ بين كل منزل وآخر عدة أمتار، فضلاً عن فناء واسع تظلله أشجار الكافور العتيقة.. لكن المنازل رغم كونها في بقعة هادئة إلى حد ما، فإنها مصبوغة بمسحة شعبية رديئة.

ومنذ وفاة محمد عبد المقصود وهي تعمل.. وبفضل إتقانها اللغة الإنجليزية، وبعض الصداقات القديمة مع حارسي الفيلات والسائقين النوبيين، استطاعت أن توفر لنفسها أكثر من فرصة عمل عند شخصيات مهمة من الأجانب.. في أول عهدها بالعمل، كان الأبناء لا يزالون صغارًا في حاجة للرعاية؛ لذا كانت تعد لهم الإفطار، ثم تفصل خرطوم الأنبوبة، وتذهب وتوصي جارتها السودانية أم ياسين أن تأخذ بالها منهم (الأمر الذي كان يرتعد منه سعيد وهو طفل؛ فيشاهد أم ياسين بضخامتها وبشرتها السوداء عفريتًا! لذا كان يُلقي الألعاب من يده، ويهرع بسرعة ليختبئ أسفل السرير خوفًا منها، ويظل يلهث من فرط الخوف). وتعود السيدة سميرة لهم عند الغروب، محملة بالألعاب والحلوى، التي عادةً ما تجلبها من عند الأجانب التي تعمل عندهم، غير أنها لا تنسى أن تقص عليهم تعاليم مدام «أنجل» باستمرار؛ تجمعهم حولها وتقول لهم: «كان والدي يأخذني كل عطلة أسبوعية عند المدام، كان زوجها مستر «ليدجر» أستاذًا لعلم الاجتماع في جامعة القاهرة.. وكان بيتها جميلاً جدًّا؛ منزل صغير وسط حديقة معشوشبة تكتنفها الأشجار والنباتات الرائعة.. كنا نجلس في الحديقة، وتقوم بتعليمنا أشياء كثيرة». وسرعان ما تتوقف وتحل هي بدلاً من مدام «أنجل»؛ فتوجه الأسئلة لأبنائها قائلة: «هيا فكروا معي، ماذا لو هاجم اللصوص البيت في غيابي.. هيا؟».

فتقول داليا بسرعة:

- أهرب.
- خطأ. هل هناك إجابات أخرى؟
- أصرخ. هكذا يقول سعيد.
- خطأ. هل هناك إجابات أخرى؟
- أحاول الاتصال بالبوليس. تقولها مديحة في ثقة.
- أعتقد أن اللصوص أذكى من أن يتركوا لأحد فرصة رائعة هكذا. هل هناك إجابات أخرى؟
- ماذا نفعل؟ هكذا يقول أشرف في هدوء.
- عظيم.. تحاولوا التعامل مع هذه اللحظة بهدوء، أعلم أنكم أمام رجال غرباء جاءوا متسللين إلى البيت ليسرقوه، ولكن لا بدَّ أن يكون التصرف عقلانيًّا؛ إنهم لن يترددوا في أذيتكم.. لذلك الأمر الأول: عدم الخوف. ثانيًا: الاختباء في مكان لا يصلون إليه، مثل البلكونة أو أسفل الأسِرَّة؛ لأن أغلب اللصوص هدفها المال، وليس الأطفال. أما إذا وقع أحد في أيديهم، فلا يخاف أبدًا؛ لأن الخوف عامل جبار في نفوس اللصوص.. هو لص، وأنت خائف. لكن الحقيقة أنه أكثر خوفًا منك، فإذا ما تضاعف خوفه ستكون النتيجة كارثية؛ لذلك ينبغي الهدوء، وليس ذلك فقط.. تحدثوا معهم، وتعاملوا ببرود كأنهم أصدقاؤكم! لا تستفزوهم، ادعوهم لتناول الطعام.. كل هذه الأفعال ستحد من تهورهم.. على الأقل سيتركونكم وهم مندهشون، سيظنون أنكم مختلون. أعلم أن هذه الخطوات صعبة جدًّا، ولكن لا بدَّ من إتقانها جيدًا. على الأقل

إن لم تستطيعوا فعل ذلك، تظاهروا بالنوم، ولا تعارضوهم أبدًا.

واستطاعت أن تعلمهم جيدًا، وقد كرمتها مدرسة الشرقية الابتدائية، وأعطتها لقب الأم المثالية. لكن أمرّ لحظة مرت بها السيدة سميرة هي تلك التي تداول فيها العاملون في الحي من سائقين وبوابين قصة وفاة زوجها، وكانوا يقصون هذه القصة ببراعة؛ حيث يبالغون في شقائها ليجلبوا لها المساعدات، فضلاً عن اختراع قصص أخرى عن عدائها الشديد لأقاربها.. لذلك جاءت لها المسئولة عن دار الأيتام في الحي مدام سامية - وهي امرأة أرستقراطية من سكان الحي القدامى - وقالت لها:

- سميرة، الجمعية تستطيع أن تساعدك في تربية أبنائك. وقبل أن تستأنف حديثها، قالت سميرة في حدة:

- شكرًا على اهتمامك يا مدام. هكذا قالت وقد احتقن وجهها ولمعت عيناها بشدة، وأضافت:أنا مش ممكن أفرط في أولادي؛ تقبلينها أنتِ؟ وتركتها بسرعة قبل أن يتطور الأمر.

بكت بمرارة، وقاطعت الكثيرين من أصدقائها الذين استثمروا قصتها هذا الاستثمار الرخيص من وجهة نظرها، وشعرت أنها لا بدَّ أن تنتقم منهم. وقالت في نفسها: «كيف يظنونني؟ شحاتة مثلهم، أستطيع أن أتخلى عن أبنائي لضغط النفقات؟». وحدثتهم بحدة: «لا أستطيع التخلي عن أبنائي.. كيف فكرتم في ذلك؟!».

هذه الواقعة فرضت عليها نمطًا جديدًا في التعامل مع هؤلاء؛ فلم تعد تجلس تتناول الشاي معهم، ولا تحدثهم، ولا تتوسط لهم عند الخواجات.. أصدرت فرمانًا بأنه لا مساعدات، ولا خدمات؛ إن التواضع مع هؤلاء لا يصلح.. فالسيدة سميرة لا ترى نفسها من

نفس الطبقة؛ هم جهلة، وهي متعلمة، هم أشخاص قذرون، وهي نظيفة.. وثمَّة فوارق كثيرة بين أبنائها وأبنائهم، الذين أحيانًا تصحبهم معها، فلا تستطيع أن تفرِّق بينهم وبين أولاد الذوات. واستغلت ثقافتها ومعاشرتها للأجانب في جعل الخدم من بوابين وسائقين يخضعون لرغباتها وتسلطها؛ يعني ظلت لفترة طويلة تدير المنازل من على رأس المائدة. وللأسف صدَّرت صورة سيئة عن المصريين، انعكست على معاملة بعض الأُسر لهم؛ كل ذلك عقابًا لظنهم أنها مثلهم. ونشأ أبناؤها في كَنَف الخواجات، واستطاعت أن تهتم بأهم جانب في تربية أبنائها؛ وهو القراءة.. جلبت لهم قصص «مارك توين» و«تشارلز ديكنز»، فضلاً عن الألعاب.. إضافةً إلى حرصها الشديد على دروس يوم الجمعة؛ ليست الدروس الدينية فحسب، لكنها كانت تخص الابنتين بدرس «غشاء البكارة»؛ فتأتي لهما بورقتين بيضاوين، ثم تثقبهما من النصف وتأمرهما بكتابة أي موضوع يخطر في بالهما، ولما تندمجا في الكتابة ويصل الحبر عند الثقب، يتعكر مزاجهما وتتوقفا عن الكتابة، ثم تقول لهما: «هذه هي حياة الفتيات؛ هنا. لو أن الورقة سليمة ستمتلئ، أما إذا كانت مثقوبة فإنها لن تمتلئ، أو بالأحرى لن يُكتب فيها أصلاً؛ لأن مصيرها الحقيقي هو سلة القمامة».

ولما كانت السيدة سميرة تمر بلحظات سعيدة مثل تفوق أبنائها في الدراسة، كانت تتصرف مع الخادمات والسائقين بتواضع؛ فتشعر للحظات أن الله يكافئها بتفوق أبنائها.. لذلك قررت أخيرًا أن تفك الحصار شيئًا فشيئًا، وبدأت المساعدت تتدفق على البوابين والسائقين بعد أن كانت محجوزة بكلمة منها. ولما وصل الأبناء لمرحلة الأمان من وجهة نظرها؛ وهي الثانوية العامة، بدأت تجلس مع النساء. ولما كنَّ يُحضرن لها مقعدًا لتجلس عليه، كانت تمانع في البداية وتفرط في

الحديث عن التواضع، فهي تجد متعة في الحديث معهن؛ متعة تعكسها رغبة في إبراز الفارق الكبير بينها وبينهن.. لذلك كانت تستعرض عليهن ثقافتها، وتجلس ويجلسن من حولها في دائرة.. وبعد حديث طويل معهن عن الحياة والدنيا، تتركهن وتذهب. ولكن كل ذلك لم يصبغ الواقع باللون الوردي؛ فهي خادمة.. مهما فعلت خادمة.. تعلمت تثقفت.. خادمة؛ مهمتها أن تنظف المنازل. وكبر الأبناء، وشيئًا فشيئًا تنازلت عن غرورها، وجلست على الأرض مع النسوة يتحدثن بحرية أكثر، وظلت تعمل بطريقة آلية. ومرت السنوات وهي صلبة تعمل بقوة من أجل أبنائها.. والتحق الأبناء بالجامعة، وتخرج أشرف - الابن الأكبر - في كلية التجارة، وظل يحلم بالوظيفة.. وكان أشرف يختلف كثيرًا عن أشقائه، حتى في ملامح وجهه؛ فهو يشبه أعمامه من حيث الطول والعرض والشعر الأسود المجعد، فضلاً عن ملامح تميل في قسماتها إلى الصرامة؛ الجبهة العريضة المجعدة بخيوط عرضية.. لمعة عينيه التي تفتقد الضحك.. تدخينه بشراهة.. وتوتره الدائم.. كل ذلك جعله يختلف تمامًا عن أشقائه، فضلاً عن قربه من أعمامه وزيارته المتكررة لهم. وذات مساء جاء ودخل غرفته، واستغرق فيها ساعة كاملة.. خرج منها مرتين قطع فيها الردهة في خطى سريعة إلى الحمام، ثم عاد.. كان الأشقاء متواجدين ومعهم الأم.. بعد ذلك خرج عليهم وفي يده حقيبة كبيرة، وقال:

- أراكم على خير.

التفتت له السيدة سميرة وقالت:

- إلى أين؟

– الكويت.. جميع أوراقي استُوفيت أمس، وميعاد الطائرة بعد ساعتين.. مع السلامة.

– أنت وشأنك.. أنت تفكر مثل أعمامك. وأشاحت بوجهها عنه.

ونظر إليها نظرة طويلة كأنما يريد أن يقول شيئًا ولا يستطيع، وهز رأسه في لامبالاة، ونظر لأشقائه نظرة شاملة؛ فهي لا نظرة عطف ولا نظرة قسوة، كأنه يرى أمامه غرباء.. بينما لم يعبأ أشقاؤه الثلاثة بقراره، ولا بسفره المفاجئ. وكانت داليا ترى فيه صورة طبق الأصل من أعمامها؛ إنهم يسافرون للخليج ويعملون هناك.. وهكذا سافر أشرف بلا وداع، ولا كلام؛ كأنه سيبتاع علبة سجائر ويعود.. ولم يتحدثوا في أمره كثيرًا.. «إنه تعلَّم ويعرف ماذا يريد» هكذا قالت سميرة وقد شعرت بالحزن لبعض الوقت. ومضى عام، وأرسل لهم برقية يقول فيها إنه تزوج من فتاة من تايلاند تعمل طبيبة بشرية، وإنهما سيرحلان لبلد آخر.. إنه لا يريد أن يطمئنهم عليه.. إنه لا يعبأ بذلك أبدًا.. ولكن أراد أن يقول لهم إنه يعيش على الأرض، وإنه نجح، وسينجح. وقالت سميرة بحكمة: «هه.. تزوج من ممرضة أسيوية، وربما خادمة. لكنه سيظل هكذا متعاليًا عن أي واقع يمر به؛ إنه مختلف عنكم تمامًا». وتهيأت السيدة سميرة بعد ذلك بقلب أم يحنو أحيانًا ويقسو أحيانًا أخرى، لأن تتلقى الطعنات بصدر مفتوح.. هذه هي النتيجة الطبيعية لطريقة تربيتها لأبنائها؛ ألم تفرض عليهم تعليمات ما زالت ترن في آذانهم كأنها صيحات قائد في كتيبة: «كل واحد مسئول عن نفسه، لن يساعدكم أحد». ببراعة استطاعت أن تجعل منهم أنانيين، اختارت أن تربيهم على هذا النمط لتضمن سلامتهم من الأقارب.. كم عانت منهم، ومن تسلطهم؛ لينشأوا هكذا

غربـاء، أفضـل بكثـير مـن أن ينشـأوا في كنـف الأسـرة والترابـط المغشـوش الهـش.. لـكل واحـدٍ منهـم عائلتـه، ومصـيره المرهـون بتدبـيره وذكائـه.

***

تحـت وطـأة راحتيهـا القويتـين تئـن في لـذة، وتشـعر أنهـا تقـوم بفـك عظامهـا، ثـم تقـوم بتشـحيمها وتزييتهـا بزيـت الكافـور، ثـم تعيـد تركيبهـا مـرة ثانيـة.. «آه.. كـم أنـتِ رائعـة يـا أم ياسـين!».. أصابعهـا القويـة تغـوص في لحمهـا، وتتخلـل عضلاتهـا، وتسـمع طقطقـة العضـلات فتطربهـا.. في كل مـرة تعيدهـا شـابة في العشرينيـات؛ شـابة قـادرة عـلى صـد هـواء الخريـف بقلبهـا الدافـئ.. قـادرة عـلى تسـلُّق جبـال الثلـج عاريـةً.. قـادرة عـلى الـصراخ كطفلـة متمـردة.

كفاية يا أم ياسين.

عـلى أن أم ياسـين لا تتوقـف أثنـاء عملهـا عـن الضحـك، وثنائهـا المتواصـل عـن جمـال جسـدها وبكارتـه. ولمـا يكـون مـزاج سـميرة غـير رائـق، عـلى الفـور توقفهـا بكلمـة واحـدة: «هجبلـك سـعيد».

وهنـا يحتقـن وجـه المـرأة، وتسـتأنف عملهـا صامتـة. ولمـا تنتهـي مـن عملهـا، يتـورد وجـه سـميرة، وتشـعر براحـة نفسـية كبـيرة.. ثـم تلتقـط شـنطتها، وتـدس في يـد أم ياسـين ورقـات نقديـة. تمانـع المـرأة بكلـمات اعتـادت أن تقولهـا بعـد أن تحـول زبائنهـا لأصدقـاء، ثـم سرعـان مـا تلتقطهـا وتدسـها في شـنطة يدهـا.. وتختتـم سـميرة:

- متزعليـش.. سـعيد ابنك..وتشـعر سـميرة بـألم في قلبهـا؛ الوحيـد الـذي أخفقـت في تعليمـه وعلاجـه هـو سـعيد.

***

وأثبت الأبناء أنهم تشربوا هذه التعاليم؛ فمديحة - وهي أصغر الأبناء - عندما كانت تقرضها مبلغًا من المال، تقول لها: «ماما، أنا عندي التزامات؛ لا تتخلفي عن السداد في الميعاد الذي اتفقنا عليه». ومديحة لا تقل في جمالها عن داليا، بخلاف شيئين فقط؛ الأول شعرها المجعد. فرغم أنها اقتنت أجود وأفخر أنواع الزيوت المستوردة والمحلية، فإنه يبدو كـ«سلك المواعين». وعندما كانت تتشاجر مع داليا، كانت توجه كل طاقتها وقوتها لشد شعرها ومحاولة جذره.. وكانت لا ترتاح إلا وفي يدها شُعيرات منه.. هكذا كانت تنتقم منها؛ فتشعر بالراحة. والحقيقة أنها جميلة جدًّا؛ بشرتها برونزية، لا تضع المساحيق بكثافة؛ تكتفي فقط بشد خطين من الكحل عند أطراف عينيها، فضلاً عن اقتنائها أفخر الإيشاربات لتغطي شعرها، رغم أن شعرها المجعد متناسق تمامًا مع ملامح وجهها؛ ولكنها ترى غير ذلك. فلو بدلنا شعرهما لبدت داليا قبيحة، ولبدت مديحة كذلك أيضًا.. فكل واحدة منهما تمتاز بجمال خاص. أما الشيء الثاني فيكمن في قِصر قامتها؛ فربما لا يتجاوز طولها ١٥٠ سم.. فضلاً عن أنها مدملكة، وليست دملكة ناعمة، ولكن أردافها وذراعيها مكتنيزتان بالعضلات. لذلك فإنها تشعر بالغيرة من داليا التي منذ الصغر وهي تجذب الأنظار، وتمحو وجودها تمامًا.. وكانت دائمًا تقص على سميرة وهي في المرحلة الابتدائية ما تراه من مغازلة المارة لداليا وتجاهلها هي، فتقول: «ماما، الناس ينظرون لداليا ويغمزون لها» ثم تقوم بأداء الطريقة. وكانت سميرة تسمع وترى ذلك؛ فتسقط على الأرض من فرط الضحك. أما مديحة فكانت تشعر بالغيظ، وتستأنف في نرفزة: «لماذا لا يفعلون معي مثل ذلك؟».

وفي النهاية، لجأت لنقد داليا عن طريق الدين؛ فقالت لها ذات

مـرة: أنـا براعـي ربنـا.. أنـتِ مسـمعتيش إمـام المسـجد قـال إيـة في الخطبـة الـلي فاتـت عـن الفتـاة غـير المحجبـة.. قـال إنهـا شـيطانة.

ولكـن مهـما بلـغ نقدهـا مـن حـدة، فإنهـا سرعـان مـا تشـعر بالعجـز؛ فتتنحـى جانبًـا، وتجلـس تفكـر في هـذا الشـعر الـذي أرهقهـا ماديًّا ونفسـيًّا.

وذات مسـاء، عـادت إلى البيـت فوجـدت أم ياسـين جالسـة مـع أمهـا، فقالـت لهـا وهـي تنـزع الطرحـة مـن عـلى رأسـها وتلقـي بهـا عـلى المقعـد:

- أف.. يـا إلهـي، ألا توجـد طريقـة تجعـل مـن هـذا الشـعر شـعر بنـي آدمـين؟

فضحكت أم ياسين وقالت لها:

- أنـتِ تعيشـين بـين الخواجـات.. أنـا لا أفهـم كيـف لا تسـتعيرين منهـن قصـات وتسريحات.

- ماذا تقصدين بالضبط؟

- أعلم أن شعرك جذوره ناشفة.. ملوش غير حل واحد.

- وما هو؟ هكذا سألت مديحة في اهتمام.

- زيرو.

- نعم؟

- القَصـة تكـون زيـرو يـا مديحـة.. ويـا سـلام لـو تركـتِ جانبًـا وأزلـتِ الآخـر.. في الحـال الحـي كلـه هيتحـدث عنـكِ.. صدقينـي، جمالـك ليـس في الشـعر.. جـربي، ولـن تخسري شـيئًا. لـو فشـلتِ لا قـدر الله، أنـتِ كـده كـده بتضعـي فـوق رأسـك الحجـاب.

اتسـعت عينـا مديحـة في تأمـل واضـح وعميـق للفكـرة، واتخـذت ملامـح وجههـا شـيئًا مـن الجـد، وقالـت في حمـاس:

– تعجبني فكرة القَص.. والله ما هو قاعد على راسي من بعد النهاردة.

وقالت لها أم ياسين بعد أن وجدتها جادة:

– لا بدَّ من بعض الإكسسوارات؛ قرط في الأنف، وواحد في الأذن يكون طويلاً.

غرقت مديحة في التركيز، وبدا عليها الاهتمام، ولمعت عيناها بالسعادة. وفي ذات الليلة أخذت هذا القرار المصيري، وبقلب قوي يحمل مرارة الأعوام الخالية استطاعت أن تمسك بالماكينة الكهربائية، وبضربة واحدة أطاحت بجانب.. في المرآة شعرت لأول مرة بأنها تخطو خطوة غريبة لم تُكرِّس لها الوقت الكافي للدراسة. لكن ظهور وجهها مشرقًا بهذا الشكل، دفعها لتستكمل عملية الخلاص من هذه الغابة الكثيفة من الشعر الرديء. وبعد أن أزالت جانبًا، شعرت أن ذلك أكثر إثارة. ثم استدعت أم ياسين؛ مما جعل سعيد ينتفض ويذهب إلى غرفته وهو متذمر. وجلست المرأة تقص الأطراف بمهارة. وجذبته مديحة يسارًا، وتأملت رأسها في ذهول؛ تغيرت للأفضل بكثير، بدت جميلة، أشبه بالمطربات الأمريكيات، كيف غابت عنها هذه الفكرة؟ فلتحيا أم ياسين المرأة ذات العقلية الجبارة. وقفزت في الهواء في سعادة كبيرة، وأطلقت ضحكة عالية نابعة من أعماق قلبها، وهزت رأسها في سعادة، وخرجت للأشقاء وقالت لهم في سعادة طفلة:

– ما رأيكم؟

اندهشت داليا وقالت لها:

– رائع ومثير. وظلت تتأملها وهي تحييها على جرأتها.

بينما قال لها سعيد:

- الآن أنا فخور بكِ.. وجهكِ ازداد بريقًا.

أما سميرة فقالت:

- ابحثي عن زوج شاذ يقبل الزواج منكِ. ثم حدجتها بنظرة ذات معنى.

على الرغم من أن سميرة تتعمد ألا تتدخل في قراراتهم، فإنها تضطر أحيانًا لتنبيههم لطبيعة المجتمع الذي يعيشون فيه.

واستنكرت مديحة قولها بإيماءة من رأسها، ولكنه وقع في نفسها وقعًا مؤلمًا. شردت للحظات تتفكر، وهمست في نفسها بجزع: «زوج؟ أي زوج تقصده؟ إن الزوج الذي أريده ليس موجودًا في هذا المجتمع القذر».

***

- لماذا لا تستطيع السيدة سميرة استدعاء أم ياسين إلى البيت في وجود سعيد؟

الإجابة: لأنها سودانية.

- وما معنى ذلك؟

- إنها سوداء، أو تميل بشرتها إلى السمرة مثل أهل أسوان.

- وهل هذا يزعجه؟

- بالتأكيد.

كان سعيد في ملامحه أقرب إلى أمه، إلا أن وجهه طويل أملس؛ الأمر الذي كانت داليا ومديحة تحسدانه عليه. يفرق شعره الناعم من النصف؛ فيبدو رائعًا منسدلاً على الجانبين. عنقه طويل، وله منكبان نحيفان؛ لكن في الملابس تبدو الكتفين ممتلئتين قويتين. يمتاز بالطول والنحافة غير الملحوظين؛ فهو في تفصيلة جسده من حيث الطول

والرشاقة يبدو كداليا. بشرته بيضاء مائلة للحُمرة، دائمًا وجنتاه وشفتاه محمرتان كأنه يصبغهما.

منذ أن كان طفلاً وهو يكره، بل يمقت، الإنسان الأسود. عندما شاهد أم ياسين، تلقائيًّا وصفها بالقردة. ضربته سميرة ونهرته، وقالت له: «أنت حيوان». وعلى الرغم من العقوبة القاسية التي طبقتها عليه، فإنه لم يتراجع عن موقفه. كانت تخيفه ملامحها وهو طفل؛ إنها سوداء، والتراث الأطفالي يقول إن العفاريت لونها أسود قبيح. ظل بينه وبين نفسه يكرهها ويحتقرها، ولا يستطيع أن ينظر في وجهها أبدًا. وقاتل بضراوة ابنها ياسين، وعمل على تحريض الصبية عليه. وكان يُلاقي من الجيران ما يؤكد له أنه على الحق المبين؛ فطالما وصفوا أم ياسين بالمرأة السوداء، وطالما وصفوا ابنها بالقرد الصغير.. عبارات كثيرة كان يسمعها فيطمئن. ولما فشلت الأم في علاجه، قالت له: «أنت لا تفهم». ويرد عليها بقوة لا تعرف مصدرها بالتحديد: «أنا أفهم كل شيء.. هل تقبلين أن تكوني مثلها؟ إنها أشبه بالغوريلا التي شاهدتها في الحديقة». وللأمانة كانت سميرة تصرخ في وجهه قائلة: «اخرس يا حيوان يا قذر.. أنت مريض.. فاهم.. مريض».

وكلما تقدم في السن، ازداد مقته لأصحاب البشرة السوداء، ظل كرهه موصولاً بفصول من القذارة التي كان يمارسها ضدهم؛ مثلاً تجده يسخر منهم بتأديته حركات القرد أمامهم، ثم يشير لهم أنه يقوم بتقليدهم، ويقول بتهكم: «افعلها؛ هذه طبيعتك.. بدلاً من الذهاب إلى الحديقة، سأدفع لك.. أنت قرد، لماذا تقلد البني آدمين؟ افعلها إذن».

إلى هذا الحد كان سعيد بشعًا، تقييم الجمال عنده مرهون بلون البشرة.. ليس الجمال فحسب، بل الآدمية أيضًا.. لو أن الفتاة شقراء،

فإنها تستحوذ على قلبه من أول نظرة، بل يجد نفسه مغرمًا بها، بل خاضعًا لها. أما لو كانت سمراء، فإنه لا يجد حرجًا من أن يبصق في وجهها.. لن يتأخر سعيد عن خوض معركة دامية لو شاهد فتاة شقراء بصحبة فتى أسود.. حتى لو لم يستطع التغلب عليه، فإنه يشعر بأن ضميره ارتاح ولم يعد يؤنبه؛ لأنه سجل اعتراضا صريحًا أمام العامة، اعتراضًا سيرغم هذه الفتاة الغائبة عن وعيها على تقييم الأمر من جديد.. هكذا يؤمن سعيد بهذا الدور. وإذا علم بأن صديقًا له سيتقدم لخطبة فتاة، أول سؤال يطرحه عليه هو: «ما لون بشرتها؟» فلو قال له: «سوداء»، فإنه يبذل مجهودًا كبيرًا لإقناعه بتركها. ذلك غير متابعته لمباريات كرة القدم بين المنتخب الوطني والمنتخبات الإفريقية، رغم أنه لا يهوى ذلك؛ ولكنه يشعر بلذة أقرب إلى الرعشة الجنسية لو الفريق الوطني تغلب على نظيره الإفريقي، فضلاً عن استمتاعه بسماع التعليقات العنصرية؛ فعلى الفور ينظر لقائلها بإعجاب. هكذا يمارس سعيد استمتاعه بالسخرية من هؤلاء.

تعلق بالحي الإنجليزي منذ أن كان في الثالثة عشرة من عمره.. فذات مرة ذهب ناحية ملاعب الرياضة الخاصة بالمدرسة الأمريكية، تسلق السور العالي وشاهد الأطفال يركضون وراء الكرة. ولم يتمالك نفسه؛ فقفز داخل الملاعب، وعرض عليهم بإنجليزية ركيكة خدماته كحارس للمرمى. وقبلوا عرضه، ووقف حارسًا للمرمى، وأدى مبارة رائعة. ولكن أثناء الخروج، شعر بالخطأ الذي ارتكبه؛ حيث شاهد رجال الأمن.. وحاول أن يعود من حيث أتى، لكنه فشل، وتم القبض عليه بواسطة رَجُلي أمنٍ، وأشبعاه ضربًا لا يليق بطفل. وتوسل إليهما أن يتركاه يذهب على ألا يفعلها مرة أخرى، ولما يئس دلهما على عم متولي. وكان متولي حارس العقار القديم الذي يقطنه

السيد «روجر جونز» مدير المدرسة الأمريكية، والذي تعمل أمه في خدمته. وجاء عم متولي يهرول، وصاح يعنفهما على فعلتهما قائلاً: «إنه يتيم.. سأتصل بوالدته». وجاءت السيدة سميرة تلهث من فرط القلق. ولما شاهدته يبكي متألمًا ومِن حوله رَجُلي الأمن يقفان في بلادة ويعلنان عن فعلتهما بقسوة، تلقائيًّا التقطت هراوة عبارة عن عصا بيسبول قديمة، ولم يستطع أحد السيطرة عليها؛ حيث حطمت أثاث الغرفة تمامًا وهي تصرخ: «يا أولاد الكلب يا مجرمين».. فأصابت الاثنين بكدمات قوية في أنحاء الجسم.

وذهبوا جميعهم إلى قسم الشرطة، وبدا موقفها ضعيفًا، وظلت في حيرة، ونظر لها الرجلان نظرة خبيثة، ثم قال واحد منهما: «لن نتنازل عن حقنا».

- ضربا ابني يا سعادة البيك.
- ابنك حرامي.. دا اعتداء على رجال الأمن يا ست إنتِ.
- لا يا سعادة البيك، ابني أراد اللعب.
- ينط من فوق السور زي الحرامية!
- يا سعادة البيك.
- مفيش كلام، اسكتي.

لم ينقذها سوى السيد «روجر جونز»؛ حيث جاء بواسطة البواب، وقال للضابط:

- كل شيء ينتهي فورًا؛ هذه الملاعب مسئولة مني. وأذعن الضابط لأوامره، وأغلق المحضر.

ونظر لرجلي الأمن، وقال لهما في عنف:

- أنتـما لا تعقـلان أبـدًا.. هـذا طفـل؛ كيـف تضربانـه بهـذه القسـوة؟ حتـى لـو هنـاك لـص تسـلق السـور، يجـب التحفـظ عليـه وسـؤاله. لكنكـما تصرفتـما كـما لـو أنكـما حيوانـات.

وقال لسعيد:

- تستطيع الذهاب إلى الملاعب في أي وقت. واستطرد مبتسمًا:

- هل لديك زي لاعب كرة؟

فهز رأسه نافيًا؛ فقال له:

- اذهـب غـدًا لمسئول الملاعب مسـتر «بِن مـور»، وهو سـيفعل كل شيء.

ومن هنا، ارتبط سعيد بالحي الإنجليزي ارتباطًا وثيقًا.

***

«أنا إيمان عابد»

أو إيـمان خلـف عابـد، والـدي خلـف أو عـم خلـف كـما يطلقـون عليـه في هـذه البقعـة القـذرة. لا أحـب أن أتحـدث عـن أحـد؛ يكفينـي فقـط أن أتحـدث عـن نفـسي. يقولـون إن فتيـات المنصـورة جميـلات.. نعـم جميـلات رائعـات.. ودائـمًا مـا أرى في أعينهـم نظـرة خبيثـة، أدركتهـا فيـما بعـد: «آه يـا ملاعـين»، وأنـا أقـول لهـم:أن المنصـورة كانـت سـوداء، وجـاء الاحتـلال فأصبحـت أكثـر سـوادًا، ورحـل الاحتـلال فأشرقـت الشـمس عليهـا، فصبغـت فتياتهـا باللـون الذهبـي اللامـع. مـن يقـول إن الجنـود قامـوا باغتصـاب النسـاء، عـذرًا فهـو «حمـار» لم يقـرأ التاريـخ. ولمـا قـرأتُ التاريـخ، شـعرت بـشيء أثلـج صـدري، وجعلنـي أنـام وأغـوص في أعـماق الوسـادة بقلـب دافـئ مشـبع بالسـعادة. الآن وبعـد هـذه السـنوات الطـوال مـن القهـر والظلـم، أسـتطيع أن أفسر نظـرة الحقـد في أعينكـم

أيها الخبثاء الجهلاء، فنساؤكم تشبهكم؛ ولذلك اخترعتم ووثقتم هذه الأكاذيب.. ألا إن لعنة الله على الجاهلين.

«أنا إيمان عابد»

في المدرسة كانوا يأتون بي في المقدمة؛ أقف على رأس الطابور الصباحي، في الفصل أجلس على أول ديسك، دائمًا ما كانوا يصدِّرونني كواجهة لهم. أُلقي نشيد الصباح، أو نشرة الأخبار المملة، أو أُنشد أبياتًا من الشعر، وهذا ما كان يسعدني «الشعر». النميمة شيء رائع للجانبين. طالما شعرت بأنني الضحية؛ شعور كان يملؤني بالسعادة، وأعلم أنهن كنَّ يشعرن بالسعادة في الحديث عني. فأنا أختلف كثيرًا عنهن؛ وردة بيضاء وسط عشب أسود، طبيعي أن أكون محلاً للنميمة.. ولكن دعونا من النميمة.

«أنا إيمان عابد»

قررت أن أفضح عائلتي، أو بالأحرى أُبرز العوار الذي أحدث فيها شرخًا عميقًا بين جيلين. نحن نموذج لمجتمع كبير تترامى أطرافه في بقاع المحروسة، ونحن أبناؤها. ولكن مِن مَن هي محروسة؟ هذا سؤال من الأسئلة السخيفة التي ألحت على عقلي الفارغ.. آه علمت؛ هي محروسة من الأبالسة! ولكن هل هذا يعني أنها خالية من الأبالسة؟! إذن هذا العوار أو الشرخ الضارب في أعماقها مَن أحدثه؟ دعونا من المحروسة. للأسف أنتمي لبيئة قذرة؛ سواء بيئيًّا أو ثقافيًّا. يأتي الأقارب، ومنذ الصغر أجدهم يتحدثون عني، ويقولون: «إيمان محجوزة». وتضحك أمي. وأدركت فيما بعد أنهم يتحدثون عن الزواج، ومنذ الصغر وأنا أعرف معنى الزواج ودهاليزه. يذهبون بي للأفراح ويتصدع رأسي، ولكن لا بدَّ أن أذهب،

حتى ضاعت الطفولة ولم أستمتع بها؛ حيث تزاحمت بأفكار غريبة وتصورات جلبت لي الكوابيس. وأحيانًا أنظر لأمي الجالسة أمام المرآة تتزين لأبي، وأقول في نفسي: «لن أكون صورة منها.. لن أجلس لأنتظر من يأتي ليستمتع على حسابي». أقول لكم سرًّا؟ نحن لا نعرف أي شيء عن الجنس.. نحن حوَّلنا الجنس من متعة كبيرة لواجب نؤديه بطريقة آلية مملة.. وهذا ما تعلمته من القراءة في هذا المجال؛ سرًّا طبعًا. ولا بدَّ أن أتعلم؛ خلق الله عقلاً لي لأتعلم، وإلا ما الفرق بيننا وبين المخلوقات الأخرى؟ أليس كذلك؟ هكذا كانت أمي تمارس حياة تقليدية تعيشها سائر النساء في بلادنا. وأبي استمر على هذا الإيقاع المنتظم؛ يعود ليجد كل شيء مهيأ له، الجميع لا بدَّ أن يذعن له. هذه هي الحالة التي كانت تجري عليها الأمور في بيتنا. لا أنسى موجات التحرش التي مررت بها؛ سواء من فراش المدرسة القذر الذي اغتصبني، أو من المارة. وكنت حينئذٍ في الصف الخامس الابتدائي. لا تستغربوا، ولا تندهشوا. هذا الفراش مريض. حتى هذه اللحظة ما زالت رائحته تزكم أنفي، ما زال يسكنني هذا الشعور القاسي حين ضمني بقوة بذراعيه؛ فشعرت بأنني أموت.. غابة من الشعر الأسود كانت تغطي وجهي الغائص في صدره العريض.. ولما زمجر، نفضني من يده بقسوة. ونال عقابه؛ تم نقله لمدرسة أخرى!

«أنا إيمان عابد»

لأمي تعليمات أفادتني كثيرًا، واستغربها الكثيرون.. كانت أمي من المنصورة، وهذا يوفر عليَّ وصف جمالها، أنا مثلها وليست هي مثلي. جمالها كان رائعًا، إلا أنها كانت ممتلئة شيئًا ما. وأتذكر أن والدي كان يحب أن يراها «مربربة».. دعنا من أمي. لنركز في تعليماتها.. في فصل الصيف يكون الجو حارًّا، والشمس في أوج تألقها حيث تبعث

بأشعتها الملتهبة. وكانت أمي ترغمني على ارتداء الملابس التي تغطي جميع أجزاء جسدي؛ ممنوع منعًا باتًّا أن أرتدي قميصًا بنصف أكمام. لماذا؟ حتى لا تصيبني أشعة الشمس، فيتحول لوني ويبدو برونزيًّا؛ الأمر الذي جعلها ترغمني على فعل ذلك حتى ولو بالضرب. ولكن بعد ذلك، قدمت لها الشكر. في بلادنا نستنكر الفتاة السوداء، وننعتها بالبومة. لماذا البومة؟ لأن البومة يُضرب بها المثل في الشؤم وقُبح الصورة (هل تصورتم بشاعة البيئة التي نحيا فيها؟)، فضلاً عن عشرات المشاهد السينمائية التي تسخر منهن سخرية بلغت حد القذارة، ناهيك عن النكات. لذلك الفتاة السوداء في بلادنا منبوذة؛ الأمر الذي جعلني لا أكف عن شكر الله لأنه خلقني هكذا شقراء. فأنا فتاة شرسة، لا أستطيع أن أترك أحدًا يسخر من لوني.. ربما كنت أصبحت سفاحة قابعة في أحد السجون شديدة الحراسة. المهم منذ أن كنت صغيرة والأنوثة تبدو عليَّ؛ ثدياي كانا كبيرين منذ أن أتممت الأحد عشر عامًا.. وهذه حقيقة؛ حقيقة جلبت لي مشكلات كبيرة. ظن الكثيرون أنني أتركهما للأيادي تعبث فيهما. ولكن كانت نسبة هرمون الأستروجين في جسدي عالية جدًّا. وضربني أبي بقسوة، ووقعت على التسريحة؛ فتحطم زجاجها وتناثر على الأرض، فوقعت عليه؛ وهذا أحدث قطعًا طوليًّا في فخذي، وتم علاجي. وشعرت بالمرارة، أقسمت بالله أنه لم يمسسني أحد، ولكن هيهات هيهات أن يصدقوني أمام هذا الثدي المكور.. وبدأت أربرب، وهنا لجأت لجارتي داليا التي وصفت لي برنامجًا غذائيًّا ورياضيًّا رائعًا. اتبعته بعناية، حتى توقفت عملية التضخم التي كانت تزحف فوق جسدي؛ ولكن ثديَّ ظلا كبيرين.

«أنا إيمان عابد»

هنـاك حقائـق كثـيرة غائبـة، أو بالأحـرى نتعمـد طمسـها ومحوهـا. الحقيقـة التـي يجـب أن نؤمـن بهـا ونسـلم لهـا هـي أننـا قـوم جاهلـون.. نعـم.. لا تنفعلـوا وتصبـوا غضبكـم عـليَّ. وهـذه حقيقـة أخـرى؛ نحـن قــوم همجيــون.. نعــم.. في بيئتــي تــوارث الأجيــال عــبر أزمــان مــن الطحـن النفـسي والجسـدي، عبـارات كانـت بمثابـة تحذيـر. انحـصرت هــذه العبــارات الرنانــة في فئــة هــي الأكثــر شــيوعًا في أنحــاء المحروســة. تفكـرت فيهـا ووقفـت عندهـا كثـيرًا، وتسـاءلت: لمـاذا اقتـصرت عبـارة «ابـن البلـد» عـلى الفقـراء؟ وهـل أولاد الـذوات ليسـوا أبنـاء البلـد؟ هـل أولاد الــذوات جميعهــم ســفهاء منحلــون عديمــو الوطنيــة، وأبنــاء البلــد «الفقـراء» هـم فقـط مـن يتمتعـون بالشـهامة والحـس الوطنـي الجامـح؟ آه.. وهنـا أدركـت بُعـد الجهـل الـذي اسـتوطن فينـا، ومـدى المكـر الـذي خططـه قـوم اسـتحلوا سـلخنا وتدمـير عقولنـا. ولأننـي كثـيرة التفكـير، وهـذا أزعـج الكثيريـن خاصـة في المدرسـة، تابعـت ذلـك. ووجـدت وأنـا جالسـة أرتشـف شـاي السـاعة الخامسـة وبجـواري أمـي، فيلـمًا قديـمًا في التلفزيــون.. جذبتنــي بقــوة مقدمــة الفيلــم؛ فأنصــتُّ لهــا في اهتــمام.. كانــت بصـوت شـخص بـرع بقـوة في رسـم صـورة واضحـة لمجتمـع ينتحـر، كان صوتـه هادئًـا يحمـل في طياتـه مكـرًا، وكانـت المقدمة تقـول: «حـوادث هذه القصـة تقـع بـين الحـي الإنجليـزي؛ حيـث القصـور الشـاهقة، والأمـوال الوفـيرة، والأرسـتقراطية.. وحـي بـولاق؛ حيـث البيـوت المتواضعـة، والقناعـة، والقلـوب الطيبـة». وتسـاءلت كعـادتي بينـي وبـين نفسي: «هـل القناعـة والقلـوب الطيبـة مقصـورة عـلى الفقـراء فقـط.. والأغنيـاء ليسـت لهـم قلـوب، ولا لديهـم قناعـة؛ حيـث الأمـوال الوفـيرة والأرسـتقراطية؟».

للأمانـه، لدينـا إدارة رائعـة تحسـن اختيـار المواضيـع التـي تناسـب كل جيـل.. مقدمـة قويـة تجعـل مـن يسـمعها مـن الفقـراء يشـعر بالقـوة، ويحقـد عـلى هـؤلاء، بـل يسـوقه جهلـه إلى أن هـؤلاء قـوم ينبغـي سرقتهـم، وقتلهـم، وطردهـم. وأيضًـا مـن يسـمع هـذه المقدمـة مـن الأغنيـاء بهـذا الصـوت الدافـئ، سـيدرك أن الإدارة تعمـل عـلى صنـع قنبلـة قويـة، بإشـارة واحـدة سـتنفجر، وتحـول قصورهـم إلى ركام.. آه يـا ملاعـين. وصرخـت في نفسـي: «توقـف». أقصـد بذلـك عقـلي طبعًـا؛ إنـه لا يتوقـف عـن سـوء الظـن بالنـاس والإدارة. وقـال لي والـدي: «أنـتِ مختلـة، تضيعـين وقتـك في الـكلام الفـارغ». وفي المدرسـة قالـت لي مُدرسـة التاريـخ وكنـت في المرحلـة النهائيـة مـن الثانويـة العامـة: «مـاذا تعرفـين عـن الفتح الإسـلامي لمـصر؟». قلـت لهـا: «أعـرف الكثـير، لقـد صدعتمونـا بـه.. طالمـا سـمعناه هنـا، وفي خطـب يـوم الجمعـة المملـة، وفي التلفزيـون». قالـت لي: «أنـتِ فتـاة قليلـة الأدب». وللأمانـة شـعرت بأننـي تخطيـت حاجـزًا كان يحـول بينـي وبينهـا.. ظننـت أنهـا ستسـكت، لكـن وصفهـا لي بأننـي قليلـة الأدب شـجعني، فقلـت لهـا: «الأحـرى بكـم أن تعرضـوا التاريـخ كامـلاً؟». قالـت لي: «مـاذا تقصديـن؟» وقـد حدجتنـي بنظـرة مسـمومة، فقلـت: «تاريـخ مذابـح الأقبـاط عـلى يـد الرومـان، أيـن هـو؟» ونظـرتُ لصديقتـي مريـم عـادل، وأكملـت: «أليـس مـن حقنـا أن نعـرف التاريـخ كامـلاً؟ أليـس مـن حـق مريـم أن تعـرف كل الحقائـق؟».

- «تعـالي معـي» هكـذا قاطعتنـي بحـدة، ودفعتنـي أمامهـا إلى غرفـة الناظـرة، وهنـاك ألقـت محـاضرة طويلـة. شـعرت أننـي في لحظـة مـا سـأتقيأ عـلى المكتـب.. وفي النهايـة قالـت لي: «ممكـن أفصلـك مـن المدرسـة خالـص، أنـتِ فاهمـة؟».

«أنا إيمان عابد»

أعرف حقوقي جيدًا.. أحيانًا أعرف ماذا أريد، وأحيانًا أشعر أنني تائهة. المستقبل في ظل بيئة جاهلة يعد مستقبلاً غامضًا.. لا أحب أن أتلصص على أحد، ولا أن يتلصص أحد عليَّ.. أكره في حياتي شيئين؛ الضوضاء، وأصحاب الأنوف الطويلة!

يعمل والدي سائقًا عند الخواجات كما يقولون. لشدة ما كان يغضبني حين يأتي محملاً بالملابس، والألعاب، والحلوى.. لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ هكذا أقولها ثلاث مرات، لدرجة أنه يظن أنني فقدتُ عقلي، ولكن العلة تكمن في شيء طالما تفكرت فيه طويلاً.. نحن فقراء؛ لذلك لا يستطيع والدي أن يرفض هذه القمامة. ولما يجدني منفعلة، على الفور يشرع في محاضرة عن الواقع والحقائق، وكنت أنفعل وأقول له: «إنني أعرف حقيقة واحدة، وهي أنني إنسانة عندي كرامة.. بابا، بيتنا ليس سلة قمامة.. أرجوك راعِ شعوري». وسرعان ما يتنحى عن مناقشتي؛ فأشعر بالذنب، وأذهب وأبكي بين يديه. وأشرقت على حياتي شمس دافئة؛ وهي شمس الجامعة. نظرتُ للقبة طويلاً، تأملتُ المباني العريقة. وذات يوم، جاء والدي سعيدًا يحمل بشرى رائعة.. قال لوالدتي إنه تم تعيينه موظفًا في شركة «جاز خليج السويس»؛ حيث كان يعمل سائقًا لدى خبير أجنبي يعمل في الشركة، واستطاع أن يوظفه فيها رغم أنه تعدى السن القانونية. وتقدم نحوي، وقال لي: «إيمان، شدي حيلك.. الوظيفة تنتظرك». ثم استأنف مفتخرًا: «كما هو معمول به في هذه الشركات الكبرى، فإن أبناء الموظفين لهم الأولوية في التعيين».

***

رسب سعيد في الثانوية العامة ثلاث سنوات تفرغ فيها لخدمة الخواجات. ويوم أن قال له مستر «جونز»: «سعيد، أعدك بعد قضاء الخدمة العسكرية أن أوظفك في شركة سيفن للخدمات»، شعر بأن العالم يستقبله من أوسع أبوابه. لذلك بعد رسوبه العام الثالث، قرر أن يقضي الخدمة العسكرية؛ إنه لا طاقة له بالتعليم. وشعر بأنه في سباق مع الزمن، واطمأن بعد أن وعده مستر «جونز» بأنه سيعمل في فترات الراحة في الشركة ليتدرب، وفور الانتهاء من الخدمة العسكرية يقدم أوراقه، ويتم اعتماده موظفًا تابعًا للسفارة الأمريكية. وجاء لقاؤه بجارته إيمان عابد، التي حددت أن يكون في حديقة الأورمان؛ ربما ليرى الجامعة التي ضحَّى بها.. طالما التقيا في حدائق الحي الإنجليزي الذي يحفظانه جيدًا.. إيمان عابد التي يراها الزوجة المناسبة له. وصل للحديقة، وبنظرة تجهل معالمها استطاع أن يصل لها. كانت جالسة وقد لفت ساقًا بالأخرى، وفي يدها كتيب صغير. لما تقدم نحوها، هزت رأسها في برود، وقالت له بنبرة جافة:

– اقعد يا سعيد.

تفحصها؛ حيث كانت ترتدي ملابس أبرزت أردافها وثدييها. وشد ما شده احمرار الوجنتين، ولمعة العينين، والقُصة التي تغطي جبهتها العريضة. بادرها قائلاً:

– يعني لازمته إيه المشوار دا كله؟ في إيه؟

اعتدلت، وبدا على وجهها الجد، وقالت:

– إيه اللي سمعته من طنط ده يا سعيد؟ (هكذا تحب أن تستخدم هذه الألفاظ في حديثها، مثل «طنط» أو «أونكل»).

– سمعتِ إيه؟

- سمعت أنك هتخش الجيش.
- ودي حاجة تضايق؟
- طبعًا، لما تضيع مستقبلك التعليمي تبقى حاجة تضايق.
- أنا فاهم كويس عايز إيه.. أنا عايز أخلص من ربطة الجيش عشان أتفرغ لمستقبلي الحقيقي.
- الخواجات جننوك.
- الخواجات هينفعوني كتير.. دا المستقبل الحقيقي.

تلاشت الجمودية من على وجهها، وتأملت عينيه الواسعتين، وقالت بنبرة رقيقة:

- متى نويت؟
- ماشي في الأوراق.

ومضت لحظات صمت وكلاهما ينظر نحو السماء، التي بدت من بين أفرع الأشجار الكثيفة ملبدة. واستأنف:

- النهاردة التعليم مش كل حاجة يا إيمان، وأقرب دليل على كلامي شقيقي أشرف (وكان سعيد يحمل لشقيقه ضغينة.. إنه هاجر وتركه.. وكان يصرخ في وجه أمه: «أنجبتِه ليُضيع مستقبلي فقط.. ماذا جنينا منه؟ وجوده السبب في دخولي الجيش، لو كان مات كان أفضل، بوجوده ضيَّع ثلاث سنوات من عمري.. لماذا؟»)؛ إنه ترك البلاد كلها بعد أن ظل يكدح في التعليم.
- لكن التعليم بالنسبة لي مهم جدًّا. هكذا قالت في طمأنينة.
- لماذا؟

- الوظيفة محجوزة.
- أي وظيفة تقصدينها؟
- عند بابا في شركة «جاز خليج السويس»، الوظائف محجوزة لأبناء العاملين كما تعلم.
- أنا لا أعلم، ولا يشرفني أن أعلم.
- سعيد، ماذا تقول؟
- على العموم، ربنا يخليلك والدك.
- مالك بتقولها من غير نفس.. تقصد إيه؟
- أنا مش بحب الكذابين.
- تقصد مين؟
- خلاص.
- مفيش خلاص.. لازم نتكلم.

اعتدل في جلسته وقد شعر بالقوة؛ إنه الآن موظف في أهم شركة أجنبية، يستطيع أن ينتقد أي أحد بقلب قوي:

- يعني إيه الشركة تعلن عن وظائف كل يوم، وعندما يتقدم لها الناس تقول لهم: «الوظائف محجوزة»؟ والله قالوا كده لأشرف شقيقي.. إنه روتين.. كذابين ولا لأ؟ أنا أكره النفاق والكذب جدًّا.
- ولو، هذا حقي.
- عن أي حق تتحدثين؟
- أبي يعمل في الشركة.
- هناك أكفأ وأولى منكِ.

- هذا حقي.
- أنتِ تعتبرينه إرثًا شرعيًّا إذن؟
- نعم.
- إذن لا أحب أن أسمعك تنتقدين الإدارة مرة أخرى؛ الإدارة التي قسمت ظهرنا.

احتقن وجهها، وقالت في نرفزة ممزوجة بهدوء حذر:

- سعيد، أرجوك لا تخلط الأوراق.. هذا حقي.. أرجوك دع هذه الأفكار جانبًا.. هذه فرصة لن أضيعها أبدًا.
- خلاص.
- يعني إيه خلاص؟
- يالا نمشي.
- استنى أنت.. أنا همشي.. الظاهر أن الخواجات اللي أنت بتخدمهم جننوك.

هكذا قالت، وانصرفت بسرعة من أمامه قبل أن يتحدث.. وظل هو جالسًا.

***

على الرغم من معرفتها بالحي الإنجليزي من طول ما عاشت بالقرب منه وعملت فيه، فإنها الآن تجهل معالم الشوارع والفيلات؛ فقد تهدمت أسوار الفل والياسمين التي كانت تطوق الفيلات الرائعة، فضلاً عن هدم الكثير منها، وبدت الشوارع كئيبة بعد أن حل بدلاً من هذه الأسوار التي كانت تعطر الشوارع برائحتها الجميلة، أسوار من الخرسان. وفي كل مرة تقف عند فيلا الخواجة

«روبـرت بلاكينـي» - وكان يشـغل منصـب وزيـر الاتصـالات عـام ١٩١٠ - وترفـع بصرهـا إلى الفيـلا الضخمـة التـي تعـد أقـدم فيـلا في الحي، تشـعر بالحـزن لِمَا طـرأ عليهـا؛ فتبـدو في هيكلهـا الضخـم كمعبـد مهجـور وقـد سـقطت أعمدتـه إلا قليـلاً، وشُـيدت العـمارات الضخمـة حولهـا فخنقتهـا، ومـع مـرور الزمـن بـدا ارتفـاع السـور لا يتعـدى المـتر، مـن خلالـه ترمـق الحديقـة بنظـرة تعيسـة، كانـت في السـنوات الخاليـة تظللهـا أشـجار الكافـور والثـمار. وتتذكـر السـيدة سـميرة مواقـف عـدة عـن هـذه الفيـلا بالـذات؛ حيـث مـرت بظـروف كثيرة، وقطنهـا الكثيرون بعـد رحيـل مسـتر «بلاكينـي».. بهـا مخبـأ سري في الحديقـة، كان عبـارة عـن عـدة حجـرات تحـت الأرض. كان القـادة الإنجليـز في أثنـاء الحـرب العالميـة الثانيـة يجتمعـون فيـه، أو يختبئـون (عـلى أن هـذا النظـام الهنـدسي في بنـاء المخابـئ، كان متبعًـا في أغلـب الفيـلات الضخمـة التـي يقطنهـا القـادة الإنجليـز الكبـار، أو اليهـود الأثريـاء؛ ليحتمـوا بهـا مـن الغـارات الجويـة). وأيضًـا تحولـت هـذه الفيـلا في الحـرب العالميـة الثانيـة لمستشـفى عسـكري أسـترالي.. بفضـل وظيفـة والدهـا اسـتطاعت الذهـاب إلى هنـاك ودخولهـا، ومجالسـة الطبيبـات الإنجليزيـات، ومراقبـة الأمـور بحريـة كبـيرة، وجلسـت ذات مـرة في حديقـة الفيـلا. ومـن الداخـل، تبـدو الحديقة واسـعة رائعـة، كأنـك بداخـل ملعـب كـرة. وكانـت الفيـلا تحـوي أكثـر مـن سـبع غـرف، فضـلاً عـن البهـو الواسـع، الـذي اسـتغلوه فيـما مـضى وحوَّلـوه لعنـبر للمصابـين. وشـاهدت أيضًـا المخبـأ؛ حيـث يبـدأ بـدرج حلـزوني، مدخلـه مـن الخـارج يوحـي بوجـود بالوعـة.. نزلـت عـلى حـين غفلـة مـن الممرضـات، ومـن ثقـب في البـاب شـاهدت الغرفـة التـي كانـت تبـدو كقاعـة اجتماعـات؛ حيـث تتوسـطها ترابيـزة كبـيرة محاطـة بمقاعـد. الممرضـات كـن جميـلات رائعـات مبتسـمات عـلى الـدوام، ونشـأت بينهـا

وبينهن صداقة قوية.. فضلاً عن صداقة الجنود المصابين الذين ألفوا وجودها المَرِح بينهم. وتنتقل مع والدها حيث يقضي حوائج دكتور «هوك»، فيتركها عند مدام «أنجل»، ليعود لها في المساء. هذه الرحلة عاشتها حتى الخامسة عشرة من عمرها، منذ أن كانت في السابعة.

ولا شك أن السيدة سميرة لها معجبون كثيرون.. أي نعم ينتمون لطبقة فقيرة إلى حد ما ثقافيًّا وماليًّا، إلا أنها كانت تشعر بالسعادة من تلك النظرة التي تمسحها وتأكلها. خط السير لم يتغير منذ خمسة عشر عامًا، لم تنقطع سوى في الإجازات، أو لأسباب قهرية. لكن السيدة سميرة منضبطة جدًّا في مواعيدها.. يبدأ خط السير من محطة المعادي. ولو الوِجهة في هذا اليوم إلى مستر «وليام مور» حيث يقطن في شارع ١٣ بجوار المعبد اليهودي، فلا بد أن تمر بفيلا الخواجة «بلاكيني» التي تشهد على ذكرياتها. أما إذا كانت الوجهة لبيت مستر «روجر جونز» مدير المدرسة الأمريكية، فتبدأ من محطة الثكنات حيث شارع ١٥، وهنا المسافة لا تتعدى خمس دقائق سيرًا على الأقدام. وهكذا لكل وِجهة جمهور من البوابين، والسائقين، وموظفي الأمن الخاص.. الكل يعرفها ويلهث وراء كلمة منها.. وللأمانة، فالسيدة سميرة تتمخطر بطريقة تبدو متعمدة. فهي تعلم بكل شيء، وتعرف أنهم ينتظرونها ويتمنون كلمة منها. فهي امرأة في ثوب «هانم»، وفي نفس الوقت خادمة.. وزوجها توفي منذ سنوات (لذلك كان يظنها البعض فريسة سهلة).. فضلاً عن جمالها وأنوثتها الطاغية. وبدأ البعض من هؤلاء الرجال يلقون بأوراقهم أمامها.. فالسائقون يعرضون عليها خدماتهم، وحارسو العقارات يسعون بجهد لإيجاد فرصة عمل لها (رغم أنها لا حاجة لها إلى العمل، ولكن لا سبيل لهم غير ذلك)، وضباط الأمن الخاص يستعرضون أمامها قوتهم،

ويبرزون مسدساتهم الصوت ليوحوا لها بنفوذهم، ويقدمون لها الخدمات بأصوات غليظة. وجاءت اللحظة التي جعلتها تكشف عن أنيابها؛ حين جاءها رجل أمن، وكان هذا الرجل على الرغم من أنه تخطى الخمسين عامًا يملك جسدًا صلبًا.. أوقفها في جرأة، وقال لها:

- صباح الخير يا ست سميرة.

وردت التحية بابتسامة رقيقة. وهنا انشرح صدر الرجل؛ فقال في لؤم:

- في شغل في بيت السفير السويسري.. بس الواد الجنايني له شرط.

وأرادت أن تستدرجه؛ فقالت في لؤم أيضًا:

- وما هو الشرط؟

- ينام معاكي.

للأمانة، مكرها وذكاؤها لم يسعفاها للتخمين بتلك الإجابة. إنه قذر.. وقح. وتساءلت في نفسها مرارًا وتكرارًا بعد هذه الواقعة: «ما الشيء الذي دفعه إلى أن يتمادى بهذه الجرأة؟ ماذا شاهد عليها؟». وشعرت لأيام بأن رأسها يكاد أن يفرقع من فرط التفكير.. إنه قتلها.. شاهدها مومسًا.. يا له من قذر! وعجزت عن الحديث، وشعرت لمرة واحدة أنها عارية.. تقف مكسورة.. عاجزة عن النطق.. وقالت له حينذاك بنبرة توحي بعدم استيعاب الكلام: «أنا؟ هل تقصدني أنا؟». وصرخت في وجهه: «روح منك لله يا قوَّاد.. أتفوخص عليك وعلى أصلك الواطي».

بعد هذه الواقعة تغيرت كثيرًا، حتى طريقة مشيتها تغيرت.. صدَّرت لهم وجهًا حادًّا.. حتى تحية الصباح كانت لا تلقيها عليهم. ولكن هذا الرجل كانت لا تستطيع النظر إليه، تراه من بعيد جالسًا

يرتشـف الشـاي ويتحـدث بثقـة مـع مـن حولـه. وعندمـا تقـترب، لا تقـوى عـلى رفـع عينيهـا في وجهـه، كأنـه جامعهـا. وشـيئًا فشـيئًا، تناسـت هـذه القصـة. أمـا اليـوم، فوِجهتهـا إلى بيـت مسـتر «وليـام مـور». اجتـازت فيـلا الوزيـر «بلاكينـي»، ثـم قسـم الشرطـة، حتـى وصلـت لبيـت قديـم مـن ثلاثـة طوابـق، شُـيد عـلى النمـط الإسـماعيلي مـن حيـث الأعمـدة والزخرفـة. صعـدت إلى الطابـق الثـاني، وقبـل أن تدخـل سـمعت صـوت الموسـيقى يصـدح في جنبـات الشـقة؛ فأدركـت أن مسـتر «وليـام» اسـتيقظ ويقـوم بـأداء التماريـن الرياضيـة.

***

قطعًـا تحـررت أكثـر بعـد أن تخلصـت مـن شـعرها؛ شـعرت أن عقلهـا تنفـس وأصبـح قـادرًا عـلى التفكـير السـليم، عـالم آخـر بـدا لهـا في شـكلها الجديـد، كأنهـا كانـت مدفونـة. كان الحجـاب يفـرض عليهـا أزيـاء لا تميـل لهـا ولا تـبرز مفاتنهـا وجمالهـا، إنـه لا يميزهـا عـن الأخريـات الـلاتي يعملن في خدمـة المنـازل. والآن بعـد أن تحـررت منـه، أطاحـت بالأزيـاء القديمـة التـي طالمـا قيـدت حركتهـا، وبـدأت تقتنـي بعنايـة ملابسـها الجديـدة: البلـوزات الشـيفون، والبنطلونـات الجينـز الضيقـة والقـماش الفضفاضـة، فضـلاً عـن الأحذيـة الرياضيـة والصنـادل الصيفيـة. المسافة مـن طـرة حتـى محطـة المعـادي لا تعـد طويلـة.. نعـم يرمقهـا كل مـن في المـترو بنظـرة اسـتنكارية، وأحيانًـا يتلفظـون بعبـارة «لاحـول ولا قـوة إلا بـالله» أو «أسـتغفر الله العظيـم»، فضـلاً عـن سـماعها مـرارًا وتكـرارًا الحديـث النبـوي «لعـن الله المتشـبهات مـن النسـاء بالرجـال».. ولكـن مهـما بلغـت حـدة هـؤلاء المتطفلـين، فهـي لا تُلقـي لهـم اهتمامًـا، واسـتعانت أخـيرًا بالووكـمان السـوني؛ تضـع سـمعاته في أذنيهـا، وتحلق مـع الأغنيـات الغربية، وتتركهـم يتهكمـون ويسـخرون. وبفضـل ملابسـها الجديـدة، تغـيرت

طريقة المشي؛ بدت الخطوة أوسع، أشبه بقفزة.. وظهر عنقها طويلاً متناسقًا مع كتفيها. وكانت تترك أول زِرَّين من أعلى مفتوحين؛ فتبدو بشرتها البرونزية اللامعة رائعة.. ويرتج ثدياها من وراء البلوزات الشيفون، كأنهما بلونتان ثقيلتان محكومتان. وكانت البنطلونات تسقط من خصرها الصغير؛ فتبدو مثيرة. وتشتد السخرية والتهكم إذا ما انتعلت صندلاً؛ فهي تطلي أظافر قدميها بألوان مختلفة، فضلاً عن الخواتم التي تلبسها في إصبع أو اثنتين في قدميها أيضًا. هكذا تحولت مديحة، وظلت لوقت طويل لا يعرفها أحد من الأصدقاء.

كانت مديحة - وما زالت - تختلف عن أشقائها؛ فهي أول من عملت منهم. منذ أن كانت في الجامعة وهي تعمل بكل جهد، كأنها تسابق شيئًا، أو كأنها ظمآنة وترى النهر بعيدًا وتريد أن ترتوي؛ فتحاول التجديف بكل قوة وسرعة. معروفة مثل أمها تمامًا في الحي، ولها أيضًا جمهور من المعجبين، وهم العاملون في متاجر شارع ٩، وفي مكتب البوستة الذي تدخر فيه نقودها.. لكنها لا تسمح أبدًا لأحد بالخوض في حياتها الشخصية؛ الأمر الذي جعل المعجبين يكتفون بالنظر والتمني. ورفضت رفضًا قاطعًا منذ البداية العمل عند المصريين؛ لأسباب كثيرة، أولها طبقيتهم، فضلاً عن احتقارهم لهذه الوظائف، وللأمانة أيضًا لأنهم لا يدفعون مثل الخواجات.. أما الأوربيون فإنهم يدفعون كثيرًا، ويلتزمون بقوانين العمل. على أن شعور الوحدة زاحمها منذ الصغر؛ منذ أن رنت في أذنيها عبارة أمها التي كانت تقولها بحدة: «شغليه شوية.. أف»، وأمها تقصد بذلك عقلها. عندما كانت تحتار في اختيار شيء، كانت تضطرب وتنزعج من أن تسأل أمها؛ خوفًا من العقاب، فتقول في نفسها: «لا بدَّ أن أشغله»؛ الأمر الذي جعلها تخفق في حل أمور كثيرة.. على أن أمها كانت معها

ومع الأشقاء على هذا النحو. لشدة ما شعرت بالوحدة في قراراتها، هذا الشعور وتَّرها وجعلها تتصرف بعشوائية طوال الوقت، لكنها في النهاية قررت أن تعد العدة لكل شيء.. أي فتاة مصيرها الزواج؛ لذلك استغلت غرفة شقيقها أشرف الذي هاجر، وحولتها لمخزن. وبدأت في جمع جهازها شيئًا فشيئًا، لم تتخلف عن مزاد واحد كان يقام في المدرسة الأمريكية أو النادي الأمريكي. فسرعان ما تهرع بنقودها، وتفتش عن حاجتها. وبفضل صداقاتها، تأخذها بثمن بخس، وتنقلها لبيتها. فتكدست الغرفة بأدوات المطبخ كاملة؛ البوتجاز «الجيمس» الأمريكي، والثلاجة نفس الماركة، والأواني البورسلين، والملاعق.. كل هذه الأشياء عبأتها بعناية في كراتين كبيرة، وكل يوم جمعة تخصص لها ساعتين لتتفقدها وتنظفها.

في هذا اليوم استيقظت متأخرة نصف ساعة، فانزعجت من شيئين؛ عدم تناول الإفطار في «كافيتريا دوللي»، وسماع سيمفونية عن الالتزام بالمواعيد من مدام «براون»؛ المرأة الإنجليزية التي تعمل عندها منذ أربعة أعوام.. استقبلتها المدام منزعجة: «مديحة، لن أسمح بالتأخير مرة أخرى.. هيا تفضلي».

كانت المدام طاهية من العيار الثقيل، لا تحب أن يدخل أحد مطبخها، ولا تتوقف أثناء إعداد الطعام عن إلقاء الكلمات، ودائمًا ما توحي لمديحة بأنها لا تحتاجها، وأنها تستطيع أن تقوم بجميع الوظائف. تجاوزت المدام الأربعين عامًا، وكان لديها ابنتان توأم ملتحقتان بالمدرسة الأمريكية. وكانت وظيفة مديحة في البداية هي رعاية الابنتين؛ فكانت تعمل «جليسة أطفال». ولكن بعد أن دخلتا المدرسة، تحولت لعاملة نظافة في البيت. ولم تعترض المدام، وقبلت

أن تُبقـي عليهـا رغـم جهلهـا بالوظيفـة (هكـذا تذكِّرهـا دائـمًا)؛ ولذلـك كانـت تتدخـل في توجيههـا وتعليمهـا.

ولكـن تقلـص عـدد الأيـام إلى يومـين فقـط، همـا الجمعـة والسـبت. وعـلى الرغـم مـن بخـل مـدام «بـراون»، فـإن مديحـة كانـت تحبهـا. فقـد تعلمـت منهـا أشـياء كثيرة، والمـدام في نقـل خبرتهـا ليسـت بخيلـة، فضـلاً عـن إيمانهـا الشـديد بفصـل الأوقـات.. فهـي تعاملهـا برسـمية شـديدة أثنـاء العمـل، أمـا بعـد ذلـك فتتخذهـا صديقـة.

أمـا في هـذا الصباح فكانـت قـد قـررت أن تتحـدث مـع المـدام في زيادة راتبهـا،إلا أن المـدام بـدت منزعجة من تأخرها نصف سـاعة. لكـن «مديحة» تجاهلـت انزعاجهـا مدفوعـة برغبـة في الانتهـاء مـن هـذا الأمر،فقالـت لهـا:

- مـدام، أريـد زيـادة راتبـي. إلا أن المـدام حدجتهـا بنظرة عميقـة وقالت:
- لا أستطيع

وفي صبـاح اليـوم التـالي، فعلـت معهـا شـيئًا رائعًـا؛ حيـث أعطتهـا شـهادة تثبـت حُسـن سـلوكها نحـو تربيـة الأولاد والحفـاظ عليهـم.

ثم قالت لها: معذرة يا»مديحة» هذا كل ما أستطيع أن اقدمه لكِ

سـعدت»مديحة» جـدًا بهـذه الشـهادة وذهبـت وألصقتهـا عـلى بوابـة المدرسـة الأمريكيـة، وأمـام رابطـة المغتربـين، ولمـدة طويلـة لم تُـؤتي ثمارهـا. وفطنـت لأن الوظائـف عنـد هـؤلاء أيضًـا لا بـدَّ أن تخضـع للواسـطة، وألحـت عـلى أمهـا السـيدة سـميرة حتـى توسـط لهـا مسـتر «جونـز» للعمل عنـد عائلـة مسـتر «دينـس».

ومديحـة فتـاة بخيلـة جـدًّا.. نعـم، هـذه حقيقـة واضحـة مهـما حاولـت صبغهـا بحجـج وبراهـين كاذبـة. فهـي لا تلتـزم بدفـع نفقـات البيـت مثل

أشقائها، إلا بعد خوض معارك طاحنة.. وبدأت في رسم طريقها، وبدأ الطريق بيوم السبت. ويوم السبت تنتظره بفارغ الصبر منذ شهر مضى، بالتحديد منذ أن توظفت عند مستر «دينس»، بعد أن لاحظت شابًّا وسيمًا جدًّا يترقبها؛ بدايةً من محطة المعادي حتى تفرغ من تناول إفطارها في «كافيتريا دوللي»، إلى بيت مستر «دينس». ونظرت إليه بحدة، كأنها تقول له: «أعلم بمراقبتك». وكانت كعادتها تجلس في «كافيتريا دوللي» بجوار النافذة الوحيدة. و»كافيتريا دوللي» هي مطعم صغير يقوم على خدمة عمال المتاجر حوله، وأيضًا يخدم طالبات مدرسة الأميرة فوزية الإعدادية. عمال المطعم يعرفونها جيدًا، على أنهم لم يعرفوها بعد أن أطاحت بالحجاب وقصت شعرها. ولما تعرفوا عليها، ظلوا لفترة طويلة يرمقونها باندهاش. وكانت تلاحظهم يتهامسون، فتضرب بقبضة يدها على الترابيزة؛ في محاولة لبث احتجاجها في نفوسهم بطريقة غير مباشرة، فهي لا تريد أن تخوض معركة معهم وتخسر تناول الإفطار في هذا المطعم الرخيص؛ إنها لا تستطيع أن تتناول الإفطار في مطعم «لوسيان» أو مطعم «أوليفيا» الفاخرين.. وتجنبوها بعد ذلك. وفور جلوسها، يأتي إليها النادل يحمل سندوتشي الجبنة وكوب الشاي المخلوط باللبن. تلتهمهما، وتعقب عليهما بشرب الشاي باستمتاع؛ حيث تصدح من الراديو الصغير الأغاني الصباحية.. وكان هذا الجو ينعش مزاجها. وفي هذا الصباح كانت جالسة متوترة، ولكن ذلك لم يمنعها من تناول الإفطار بشهية كالعادة. وبعد خروجها من المطعم، وجدته واقفًا أمامها كجدار عالٍ؛ حيث بدا طويلاً.. ظل يحملق فيها بجرأة جعلتها تشعر بالخوف. إن مظهره يطمئن، ولكن نظرته كانت تشع بريقًا كبريق الذئب الذي يتأهب للانقضاض على فريسته.. فهرعت بخطى سريعة نحو بيت

مستر «دينس»، وكان هو يتبعها بسرعة، وحاول أن يتكلم لكن شيئًا حال بينه وبينها.. كانت تبدو له عصبية. وفور وصولها بيت مستر «دينس»، هرعت له وقالت بأنفاس لاهثة:

– هناك شخص يترقبني.

وانتفض مستر «دينس» من فوق مقعده، وقال بعصبية:

– شخص.. أي شخص؟!

وخرج للشارع بحثًا عنه، وكان وجهه محمرًّا غاضبًا.

مستر «دينس» مواطن أمريكي، موظف في شركة «بتروجيت للبترول»، طويل القامة، وله صدر عريض لا يتناسب مع ساقيه الرفيعتين، يبدو للبعض حادًّا وللبعض مرحًا؛ فهو غريب الأطوار. في أغلب الأحيان ستجده يجلس على الطوار وفي يده كوز بيرة، وأيضًا ستجده أنيقًا جادًّا منضبطًا. أصدقاؤه عديدون؛ عمال القمامة، والحيوانات، ورجال الأمن. ينفق دولاراته على الجميع؛ يعتبر كل من في البيت عضوًا في الأسرة. بمعنى أن الأسرة لا تقتصر على زوجته وابنه «مايك» فقط، ولكن تشمل جميع العاملين في المنزل؛ ولذلك كان غاضبًا من محاولة سرقة مديحة أو التحرش بها. وأخذ مواصفات هذا الشخص، وكان ينصت لها باهتمام. وكانت هي تحكي كل تفصيلة بدقة. ولما انتهت، التقط عصا بيسبول، واستقل سيارته «الجيب»، وذهب ليبحث عنه.

ولما عاد بعد أن فشل في العثور عليه، أعد خطة مع مديحة، وهي أنها إن وجدته مرة أخرى لا تُظهر خوفًا، وتحاول أن تستدرجه إلى البيت.. ويستحسن أن يكون ذلك في يومي الجمعة أو السبت؛ حيث إجازته. وقال لها:

- ربما يكون معتوهًا.. كوني حذرة.

***

عـادةً، الضبـاط الكبـار في الداخليـة عندمـا يُـوزَع عليهـم الجنـود حديثو التجنيـد، يفضلـون أن يغتنمـوا القادمـين مـن الأريـاف، وخاصـةً الفلاحـين القادمـين مـن وجـه بحـري. وللضبـاط الكبـار عـدد لا يقـل عـن ثلاثـة جنـود؛ يقومـون بخدمتهـم وخدمـة عائلتهـم. فيختـص جنديـان بخدمـة البيـت، يكونـان تحت أمـر الزوجـة؛ حيـث يقضـون لهـا حوائج المنـزل من الطعـام والـشراب، وأحيانًـا يقومـون بتنظيـف الأثـاث وغسـل الملابـس.. بـل هنـاك بعـض الزوجـات تسـتغل الجنـود في تقشـير البصـل ودق الثـوم، ومـن الجنـود مـن بـرع في ذلـك تمامًـا! ولكـن الأفضـل أن يكـون بينهـم واحـد مـن القاهـرة أو الجيـزة؛ ليكـون السـائق. لمـاذا يفضلـون أن يكـون مـن هاتـين المحافظتـين؟ أولاً، لمعرفتـه بالطـرق. وثانيًا، لطريقتـه في الحديث؛ لأن التحـدث باللكنـة الفلاحـي مسـتفز لبعـض الضبـاط؛ حيـث تتمـدد الحـروف، وتتضخـم وتتقلـص؛ فتبـدو مشـوهة. عـلاوةً عـلى أن قاطنـي القاهـرة يرتـدون الملابـس الأنيقـة، ويهتمـون بمظرهـم. وحتـى إن كانـت الملابـس رديئـة في ماركتهـا، فإنهـم يسـتطيعون أن ينسـقوا أطقـمًا متناسـقة.. خـلاف الفلاحـين؛ فهـم يفضلـون الملابـس الزاهيـة. عـلاوة عـلى أنهـم نـادرًا مـا يغسـلون وجوههـم؛ إنهـم تربـوا عـلى أن غسـل الوجـه لأبنـاء البنـدر! بالإضافـة لتعاملهـم مـع البهائـم.. إنهـم لا يسـتطيعون التحـدث بشـياكة؛ ولذلـك يدفنونهـم في المطابـخ، أو أسـفل العـمارات. اقتنص سـعيد مكانـه مـع العميـد متـولي عبـد الظاهـر مسـئول التفتيـش. وكان العميـد ذا خلـق، لا يـترك فرضًـا، ويُحسـن إلى الفقـراء؛ حتـى إنـه اختـص غرفـة بناهـا عـلى نفقتـه في الجـراج لتكـون سُـكنى للجنـود. وكان سـيادة العميـد يقطـن في منطقـة «نيركـو». وخصصـت لـه الـوزارة سـيارتين؛ واحـدة «فولكـس

فاجـن»، والأخـرى «فيـات ١٢٨». وارتـاح لمظهـر سـعيد، وكان يقـول عنـه إنـه «ابـن نـاس»، ويوجـه الحديـث لزوجتـه: «الولـد زي الخواجـات.. والله بيشرفـني.. ده بيتكلـم إنجليـزي كويـس». وظـل سـعيد يقـود لسـيادة العميـد السـيارة. وكان زمـلاؤه ناقمـين عليـه؛ للمعاملـة الطيبـة التـي يتلقاهـا مـن الأسرة كلهـا، عـلاوة عـلى أن سـيادة العميـد رفـض أن يقطـن مـع الجنديـين الآخريـن، وسـمح لـه بالمبيت في المنـزل، عـلى أن يكـون أمـام العـمارة في السـابعة صباحًـا. في هـذا الصبـاح لم يخـرج سـيادة العميـد، بـل خرجـت ابنتـه الكـبرى دعـاء. وعنـد رؤيتهـا، انقبـض سـعيد.. ووقفـت أمامـه، وبنظـرة يدركهـا تمامًـا ظلـت ترمقـه لثـوانٍ، ثـم قالـت بصـوت طفـولي:

– بابا مش خارج.. ينفع توصلني المدرسة؟

– لحظة أبلغ سعادة الباشا.

– اتفضل.

وعـاد بعـد دقيقـة ليجدهـا جالسـة في الكنبـة الخلفيـة تعبـث في شـنطتها. كانـت دعـاء فتـاة جميلـة ورقيقـة، هـي أشـبه بفراشـة في نعومتهـا ورقتهـا. وكانـت ملامحهـا شرقيـة للغايـة؛ عيناهـا واسـعتان سـوداوان كعـين الغـزال، وجبهتهـا عريضـة، تجمـع شـعرها الأسـود الطويـل في ضفـيرة واحـدة. وكانـت طـوال الوقـت تقبـض بيدهـا عـلى منديـل، كأنهـا مصابـة طـوال العـام بالـزكام.

انطلـق بهـا إلى حيـث المدرسـة. ولمـا وصـل، نزلـت وقالـت لـه في رقـة مبالغـة:

– شكرًا يا سعيد.

ولفت سعيد نظر صديقاتها، وأبدين إعجابهن به، وتحدثن عن أناقته.. ولم تعلق؛ فقط اكتفت بجملة واحدة:

- ده عسكري عند بابا.

واستفزها صمته وعدم اهتمامه بها، مختلف تمامًا عن الجنديين الآخرين، ماذا يرى نفسه؟ وانشغلت تفكر فيه باستمرار، وأيضًا ظلت تراقبه؛ فلاحظت أنه انطوائي.. وأيضًا ينرفزه خروجها معه، كانت تدرك ذلك من طريقته في قيادة السيارة، وكان يسعدها جدًّا أن تراه عصبيًّا، ويتضاعف ذلك عندما تكون في صحبة صديقاتها. إنهن يبدُنَّ في نظره صغيرات تافهات؛ صوتهن عالٍ ومزعج، وتزكم أنفه رائحتهن الطفولية.. حتى ملامحهن؛ إنهن لم يتدربن على تهذيب الحواجب، ولا صبغ وجوههن بمهارة.. ينقصهن النضج، رغم أجسادهن الناضجة. فتظل تسترق النظر له في سعادة لا حدود لها، كأنها تعاقبه بذلك. ولاحظ أن الفتاة تلاحقه بعينيها؛ إنها لا تتوقف عن النظر له حتى وهي مع صديقاتها. وبدت شاردة، تجلس في الكنبة الخلفية وتظل شاردة؛ بدا وجهها ممتقعًا طوال الوقت. وقالت له ذات مرة:

- لماذا لا تتحدث معي؟

وفور تفوهها بذلك شعرت براحة كبيرة؛ إنها تجاوزت لحظة تمثل لها الحياة نفسها. وابتسمت بعد أن نظر لها في المرآة المعلقة أمامه وقد قوَّس حاجبيه؛ مدَّعيًا الاستغراب. بينما الحقيقة أنه يدرك تمامًا أفعالها الطفولية، ويلاحظ محاولات تقربها له. فقال لها بسذاجة مصطنعة:

- نعم.

وكان سعيد يعاملها برسمية مبالغ فيها؛ ليجعل بينه وبينها حاجزًا.. فيحدثها بكلمات قليلات، ويستخدم معها كلمات «أفندم»

و«حضرتك» و«تحت أمرك».. وكان يستفزها ذلك؛ إنه يعاملها كما يعامل أمها.. علاوة على أنها شاهدته أكثر من مرة يتحدث إلى فتيات أجنبيات، بل يُقبِّلهن في الشارع ويمزح معهن. فقالت مدفوعة بمشاعر المراهقة:

- لماذا كل هذا الغرور؟

واستعرض أمامها ثقافة اللامبالاة، وهز رأسه مدعيًا جهله بحديثها.

فقالت بحدة:

- أنت تعلم كل شيء، ولكنك مغرور.

وظل على صمته وجهله المصطنع، ولكنها انفجرت بعد أن أزعجها تمثيله هذا الدور السخيف؛ فقفزت إلى جواره، وقالت بنرفزة وهي تشير بإصبع الاتهام في وجهه وقد اقتربت منه:

- اسمع، أنا فهماك كويس.. غرورك مش هيجيب نتيجة.. إنت فاهم؟

توقف بالسيارة، وقال في رسمية:

- ماذا تريدين بالضبط؟

ابتسمت، وملأت عينيها الفرحة، وعادت للمقعد الخلفي، وقالت في سعادة كبيرة؛ سعادة من ظفر بنصر:

- لا تفعل شيئًا.. أنا سأفعل كل شيء.

نشأت دعاء في بيت صلب؛ الأب شرطي قوي، والأم موظفة في رئاسة الحي. وكانت الأم صلبة في تعاملها؛ إنها تبدو موظفة في البيت، لا تتوقف عن إعطاء الأوامر. وكانت تشاهد قسوتها وقوتها مع الجنديين اللذين تم تكليفهما بالخدمة في البيت. وحمدت الله كثيرًا أن الوالد احتفظ بسعيد ليقود له السيارة؛ إنها لا تستطيع أن ترى واحدًا

مثل سعيد يعمل على كنس البيت وغسل الأواني وتنظيف الملابس.

ولما جلست بجواره في اليوم التالي، شاهد لأول مرة عينيها الصافيتين تلمعان بالفرحة. وكانت يدها الرقيقة البيضاء ترتعش من فرط السعادة. ونظر حوله، وقال لها:

- عشان خاطري اجلسي في الخلف.

- مش ممكن.

- مينفعش حد يشوفك بجواري.. لا تؤذيني.

- ولا يهمني.

وظل يدور في الشوارع الهادئة وهي جالسة بجواره لا تتوقف عن النظر إليه، وقالت له:

- عامل مش واخد بالك.

- وهاخد بالي ازاي؟

- بطَّل غرور.. ده أنا كنت خلاص...

- مالك؟

- خايفة (وكان خوفها نابعًا من أن يتخلى عنها ويصدها بقوة.. لكنه استجاب، وتكلم).

- مين فينا اللي يخاف؟ إنت هتوديني في داهية.. هتسجن. هكذا قال في صوت واضح.

امتقع وجهها، وقالت في سذاجة:

- ليه؟

- هتجننيني.. عشان قاعدة جنبي. فسرعان ما قفزت إلى الكنبة الخلفية.
- ها.. كده كويس؟
- أكيد.
- سعيد، أنا عايزاك معايا على طول.
- مينفعش.
- هكلم بابا.
- إنتِ عايزة إيه؟ هكذا قال في عصبية واضحة، لكنها استطاعت أن تتجاهلها، وقالت:
- يعني مش عارف؟
- إنتِ مجنونة.

ضحكت وقالت:

- كويس إنك عارف.. خلي بالك واسمع الكلام.

والحقيقة أن سعيد كان يحب فيها براءتها، وطفولتها، وجنونها.. خاصةً ضحكتها؛ كان يرى فيها البراءة بلحمها ودمها.. ما زالت نقية لم تُلوَّث بعد. كانت مختلفة عن شقيقتها التي تشبه أباها، كانت ترى العالم جنة؛ كل شيء مباح، ليست هناك قوانين اجتماعية تجعل من قربها منه جريمة لا تُغتفر، وكم تساءل في نفسه بمرارة: «لماذا أنا؟ وماذا تريد بالضبط؟ وكيف أتخلص منها؟» ويضيف: «يبدو أنني سأكون ضحية سذاجتها.. كم تبقى من هذه الأيام؟ يا الله، الأيام لا تتحرك». وبدت له في عهدها بطيئة، إن الأيام الجميلة تمضي بسرعة البرق، أما معها فالأيام ثقيلة. كل يوم يمضي في سلام، يحمد الله..

من أين جاءته دعاء؟ إنها القدر الذي يستدرجه كل يوم للنهاية؛ وأي نهاية! وحاول أن يتجاهلها، لكنها أظهرت حدة كبيرة. فقرر أن يجاريها، وألا يغضبها حتى ينهي المدة في سلام ويخرج لعالمه الكبير؛ الوظيفة، والمستقبل الواسع. لم يدفع بنفسه لدخول الجيش من أجل أن تحطمه هذه الفتاة الساذجة، لن يسمح لهذه المراهقة أن تدمر مستقبله؛ لذا قرر أن يكون صبورًا للنهاية.

وظلت الفتاة تفكر في أن تستخلصه لنفسها فقط؛ ليكون معها طوال الوقت. فقالت لأبيها ذات صباح وهم يتناولون الإفطار:

- بابا، أنا محتاجة سعيد معايا.

نظر لها الأب، وقال في غير اهتمام:

- ليه بس؟ عندك جوز خرفان.. اشمعنا سعيد كلكم طمعانين فيه؟

وارتاحت الفتاة لهذه الجماعية، فقالت:

- بحتاجه في حاجات كتير.. بيصور لي الملازم، وبيعرف إنجليزي كويس.. وكمان شكله بيشرفني أمام زمايلي.

- صحيح هو يشرف.. خلاص هو معاكِ، وأنا هخلي شاكر معايا.

وكانت الأم لا تهتم بشيء سوى وجود شخصين على الأقل في خدمة البيت. وعلى الرغم من حدتها، كانت تعامل سعيد باحترام، وكانت تشعر بالفخر عندما يقوم بتوصيلها إلى مقر الحي. إنه وسيم جدًّا، وله جسد ممشوق؛ فيبدو للجميع حارسًا شخصيًّا. وتتذكر واقعة حدثت في عيد الأضحى؛ حيث نزلوا للجراج، وجاءت بالجنديين وأمرتهما بمساعدة الجزار. وظلت تعطيهما الأوامر، وتجعلهما

ينظفان لحم الخراف ويضعانه فوق الصواني الكبيرة. فقال لها الجزار مشيرًا إلى سعيد: «ابن سيادتك يحب يذبح بنفسه؟» وهز سعيد رأسه رافضًا، وقرر الخروج من الجراج منعًا للإحراج.

واستطاعت الفتاة أن تستخلصه لنفسها. وفي كل مرة يذهب بها ناحية ميدان السوارس حيث حصة الدرس، كانت تقفز إلى المقعد الأمامي وتقول له:

– أنا مش فاهمة.. ليه ساكت على طول؟

– أتكلم أقول إية؟ هكذا كان يحدثها بطريقة جافة.

– أحب أعرفك أكتر.

فكان يتحامل على نفسه، ويكظم غيظه، ويقول في ثبات:

– آنسة دعاء، الباشا يؤذيني.. أرجوكِ.

– ملكش دعوة بالباشا؛ أنت معايا أنا، والباشا أمر بكده.. ها؟

– عايزة تعرفي إيه؟

– حبيت قبل كده؟

ارتبك، وشعر بأن مصيبة هبطت فوق رأسه، وقال لها:

– ويهمك في إية حبيت ولا لأ؟

احمر وجهها، وقالت بنبرة آمرة:

– طيب خلي بالك من السكة. وقفزت للمقعد الخلفي.

وظلت لعدة أيام لا تتحدث معه؛ تركب السيارة وتجلس في الكنبة الخلفية، وتظل ملتصقة بالباب، وتنظر للمارة والطريق في تركيز بدا تجاهلاً متعمدًا. وعندما يصل بها للنادي، تظل تنظر له من بعيد

نظرات طويلة، ويتهامس أصدقاؤها عليه. وفي يوم عادت له، وقالت بحدة مزيفة، وكانت عيناها تشعان بلمعة مخيفة من أثر الغيرة:

- مش لازم تبص على أصحابي كتير.. خلي عندك ذوق.

وشعر أنها لن تتركه إلا مسجونًا؛ فقال لها في يأس:

- الباشا لو علم بشيء هيسجني.. يا ريت تراعي ظروفي.

«صدق من قال إن النساء مجنونات؛ في طفولتهن وشبابهن وشيخوختهن» هكذا قال في نفسه.

- على فكرة، مينفعش نتكلم في العربية بالمنظر ده.. إيه رأيك أعزمك على سينما؟

- مينفعش.

عضت شفتيها، وقالت بحدة صريحة:

- أنا هوريك هعمل إيه.

- طيب نقعد في العربية أفضل.

- نروح سينما، ده آخر كلام عندي.

وفي «سينما الثكنات» جلسا إلى جنب بعضهما في آخر صف، وكان يُعرض فيلم «بودي جارد»، وتقمصت الفتاة دور البطلة التي وقعت في حب الحارس الخاص. وظلت سابحة في الرومانسية، بينما ظل سعيد جالسًا بجوارها كقنفذ، كلما دخل شخص ترقبه في خوف. ولما انتهى الفيلم، لفَّت يدها حول يده وقالت:

- إيه رأيك في الفيلم.. فهمت حاجة؟

- لأ. هكذا قال وهو يحل يده من يدها.

- ازاي؟ الفيلم مليان عبارات ومشاهد الحمار يفهمها. ثم نفخت في نرفزة، وقالت بعصبية:

- الفيلم شاهدته عشر مرات، وفي كل مرة أحلم تيجي تشوفه معايا.. ولما تيجي، تقولي مش فاهم.. أنت كذاب.. أنت فاهم كل حاجة.

- وإية المطلوب مني.. حتى لو فاهم؟

هدأت ملامح وجهها الطفولية، وقالت بنبرة رقيقة تشبهها:

- يبقى كفاية أنك تحس بيَّا، وبعد كده نشوف هنعمل إيه.

***

سألها مستر «دينس» مرة ومرتين عن هذا الشخص، وكانت تقول له: «إنه اختفى». فيهز رأسه مطمئنًا، وتقول له زوجته: «مديحة قوية».

لمدة لا تقل عن أسبوعين لم تشاهده. واستأنفت سيرها المعتاد حتى المطعم، وعند دخولها وجدته جالسًا على نفس الطاولة.. احتقن وجهها واتجهت لترابيزة أخرى، وظلت تعبث في حقيبة يدها لتتفادى النظر إليه؛ لكنها شعرت أن السهم قد نفذ، وأن عليها أن تستسلم وتسقط. وظلت تأكل بفم مطبق، وفي يدها المنديل الذي يزيل البقايا العالقة على شفتيها. واستكفت بأكل نصف السندوتش الأول، ثم ظلت ترشف الشاي بطريقة أرستقراطية.. وهذا طبعًا ليس معتادًا؛ المعتاد أنها كانت تلتهم السندوتشات وتبلّع اللقيمات بالشاي.. شعرت به يأتي نحوها؛ نفذ إلى أنفها شذا العطر النافذ للأعماق.. فرفعت عينيها، فوجدته واقفًا أمامها وعلى وجهه ابتسامة عريضة.

- أنا سمير.

هزت رأسها متجاهلة، وقوَّست حاجبيها، ثم قالت:

– ماذا تريد مني؟

– أريد أن أتحدث معكِ.

– هل تعرفني؟

– أكيد.. بس تسمحيلي أجلس.

– لأ، إحنا ممكن نتكلم برة؛ عشان مقدرش أتأخر على العمل.

وأثناء دفعه للحساب، استطاعت أن تسترق النظر إليه.. وجدته شابًّا وسيمًا للغاية؛ عينان سوداوان، وشعر أصفر ناعم.. طويل وعريض؛ أشبه بالخواجات. ولما جاءها، دعاها لتتحرك أولاً بطريقة أرستقراطية. وفي الخارج كان الجو منعشًا، نسيت كل شيء، وتوقف عقلها إلا عن سمعه فقط؛ فقال لها:

– أنا اسمي سمير دانيال، والدي المهندس هاني دانيال؛ معروف في الخارج، له أعمال هندسية كبيرة في أوربا. والدتي امرأة أمريكية. كنت عايش هنا في الحي الإنجليزي، إلا أن والدي قرر السفر فجأة، أو الهجرة، لكن مش قادر أتخلص من حبي لمصر؛ وعشان كده هتلاقيني موجود هنا على طول. أعمل مهندسًا في شركة «أباتشي للبترول»، وأقطن في شارع ١٢.

هكذا أراد أن يقذف كل ذخيرته دفعة واحدة. إن الاسم والمظهر لا يكفيان، لكن الوظيفة والنشأة سيضيفان شيئًا من المساحة لالتقاط الأنفاس.. لا بدَّ أن تنبهر. هو يعلم أنها تعمل في الحي الإنجليزي؛ يراها تستقل المترو، إنها عاملة فقيرة.. لا بدَّ أن تخضع وتستسلم لقذائفه وقوته. فبدا وجهها هادئًا صافيًا، وقالت بمكر:

- وماذا تريد مني؟

- الصداقة.

إنها كلمة لطيفة رقيقة.. إنه ليس غشيمًا ليقول لها إنه معجب بها من أول مرة.

فقالت بنفس النبرة وعيناها في اتجاه آخر:

- أي نوع من الصداقة تريد؟

- الصداقة ليست أنواعًا؛ أنا أشعر بالراحة لمجرد رؤيتك.

فهزت رأسها ببطء، وبدا وجهها متوردًا من السعادة.. وحركت شفتيها مرة ومرتين تريد الحديث، ولا تستطيع. واقترب أكثر منها، وظل يتأملها بشغف، ثم قال:

- أنا لا أعرف اسمك.

- مديحة. هكذا قالت بسرعة، وعادت صامتة متأملة الهدوء من حولها. وكانت أقدامهما قد أخذتهما إلى حيث منزل مستر «دينس».

- لماذا لا تتحدثين.. هل ضايقتك؟

- أبدًا، ولكن لديَّ عمل.

- آسف.

وبدا عليها شيء مثل القلق، كأنها تائهة. فرغم ثقافتها وجرأتها، فإن لسانها تجمد تمامًا عن الحديث.. علاوة على أن قلبها كاد يخرج من بين ضلوعها، وجف ريقها.. ورفعت عينيها تنظر إليه، وقالت في نفسها: «هذا هو الحب من أول نظرة؛ أليس كذلك؟».

- ابتعد عنها أيها المعتوه.. خذ. خذ. خذ.

***

يقطن سمير في شقة عتيقة في شارع ١٢ المتفرع من شارع الثكنات، في عمارة من ثلاثة طوابق.. العمارة قديمة تسكنها الرطوبة؛ فتلاشى لونها الأصلي، وبرزت عظامها من خلال البلكونات والأعمدة، وبرز الحديد صَدِئًا.. علاوة على أن مواسير الصرف الصحي كانت ترشح؛ فبدت خلفيتها رديئة أشبه برئة هالكة من أثر التدخين. يقطن في الطابق الثاني. والشقة إيجار قديم، حاول الدكتور مرزوق أن يستخلصها منه ويبيعها، لكنه رفض رفضًا قاطعًا. «حتى لو وزنها ذهب، لن أتركها» هكذا كان يقول له. وكان السكان أيضًا يرفضون رفضًا قاطعًا ترك الشقق، أو حتى رفع قيمة الإيجار. إنها شقق رائعة في أفضل قطعة في الحي الإنجليزي، وواسعة، وتكتنفها الأشجار.. ورغم ذلك لا يسعون لترميمها. وجاء الدكتور مرزوق بمقعد وجلس أمامها في حسرة. في كل صلاة فجر يدعو الله دعاءً طويلاً، يكون فيه خاشعًا لله سبحانه وتعالى؛ أن تسقط هذه العمارة، ويبيعها؛ ليتحول ثريًّا في لحظة واحدة. ويدعو على المهندس الذي صمم أغلب العمارات لتصمد لمئة عام، أن يبتليه الله بمصيبة لو كان حيًّا. أما إذا كان قد مات، فليَبتلِ أبناءه وأحفاده من بعده. إلى هذا الحد كان الدكتور مرزوق ناقمًا.. الاسم يملك عمارة، لكن الحقيقة أنه يتسول طعامه. لم يكن الدكتور مرزوق ذا شخصية عدائية هكذا، ولكن من شدة ما مر به شعر أنه أخطأ.

لكن شيئًا ما كان يطمئنه في سمير؛ إنه يستطيع أن يتغلب عليه، خاصة أنه لا يستقر في مصر.. سيحاول معه مرارًا وتكرارًا. وجلس يفكر في صيغة تدخل على هذا الملعون المتغطرس. وانتظره أمام باب

العمارة، حتى جاء في الخامسة مساء؛ حيث موعد عودته من العمل. تقف أمام البيت السيارة «الجيمس» الكبيرة، وينزل منها مودعًا أصدقاءه الأمريكيين في ود. وبصوت عالٍ، وجَّه له تحية المساء:

- مساء الخير يا أستاذ سمير. هكذا قال، وتقدم نحوه يصافحه.
- أهلاً يا دكتور.. في حاجة؟ هكذا قال بعربية ركيكة إلى حد ما.
- طبعًا.. عشان أبرئ نفسي أمام الله والقانون، العمارة على وشك الانهيار.. زي ما أنت شايف، الأعمدة تآكلت وبرز منها الحديد.. تعالَ معي. وجذبه ليشاهد الرشح الذي أحدث شروخًا كثيرة في جدرانها، وقال الدكتور بصوت واضح:
- العمارة قديمة، وأنتم مش ناويين ترمموها.
- وإحنا مالنا؟ هكذا أجابه سمير في برود.
- ازاي أنتم مالكم.. مين اللي ساكن في العمارة غيركم؟
- أنت مش صاحب العمارة، وبتاخد الإيجار بانتظام؟
- إيجار! هكذا صرخ الدكتور منفعلاً.
- اسمع يا دكتور، سنين طوال وأنت تتقاضى أجر الشقة، أليس كذلك؟ وأنت ملزم بأعمال الترميم.. أحسن ما أبلغ البوليس.
- اعمل اللي أنت عايزه.. بس أحب أقولك إن العمارة في أي وقت هتقع فوق دماغكم.

هكذا انفعل الدكتور في وجهه، ثم لوح بيده وتركه وذهب.

***

الدكتور مرزوق عبد العظيم هو دكتور جامعي.

والدكتور رجل مثقف. بعد أن رحل البواب، أخذ الغرفة الخاصة به وحوَّلها لمكتبة صغيرة. يجلس وسط أكوام الكتب ليل نهار؛ يقرأ تارة، ويدعو الله أن تنهار العمارة تارة أخرى. فقد ترك التدريس منذ سنوات قائلاً: «إن التعليم في مصر فاشل، والمناهج فاشلة، والطلاب أغلبهم فاشلون مستهترون، وأنا لا يشرفني أن أكون ضمن تلك المنظومة». كان دكتورًا في الاقتصاد والعلوم السياسية، وكان يستمتع بالقراءة ومتابعة الأحوال العامة. يقضي نصف وقته في قهوة كليوباترا؛ يتسول الشاي، ويشحذ السيجارة الرديئة، يقدم أمامهما نصائحه التي اكتسبها من الحياة، على أن البعض كان يدعوه للجلوس شفقةً عليه. طالما تردد على «كشري صلاح» أسفل الكوبري، وطالما تناول الطعام على عربات الفول. وكان السماسرة يعرفونه جيدًا، ويغرونه بمبالغ طائلة نظير الأرض، وكان يحتج ويقول بصوته العالي: «يعني أجيب معول وأهدمها بإيدي؟! ادعوا معي الله أن تسقط.. ولا تحدثوني عن الملايين، أريد أن أعيش مستورًا وأموت مستورًا».

وكانت زوجته قد تركته منذ عشرين عامًا، عندما كان يعمل في التدريس. وهناك قصص رخيصة تتردد عن علاقته بزوجته، يحلو للبعض أن يخوض فيها متسائلاً: «كيف خانته؟ وكيف هربت منه؟». لذلك بدا لهم في ثيابه الرثة، وقذارته، أن الجنون أصابه بعد خيانة زوجته له.. وهذه الحقيقة تريحهم جدًّا، يجدون فيها منفسًا مريحًا لتبرير حالته. لكن الحقيقة أن الرجل طلق زوجته بعد أن فشلا في أن يتقاربا فكريًّا.. كانت تريده رجلاً مزيفًا يجاري العصر، ينافق، ويتغاضى.. إن قصة رفضه للمشاركة في بناء نظام فاشي مستبد هي التي أوصلته لهذه الحالة. كانوا لا يستوعبون هذه القصة أبدًا.. ما

كانـوا يسـتوعبونه هـو أن زوجتـه خانتـه؛ كـم قـال رواد القهـوة في تهكـم: «هـذا ليـس صحيحًـا.. زوجتـه خانتـه».

بـدا في السـنوات الأخـيرة مُهمِـلاً في نفسـه، إلى حـد عـدم الاسـتحمام لفـترات طويلـة، وتَـرْكِ أظافـره تنمـو وتمتلـئ بالقـذارة.

كان الدكتـور مـرزوق يكـره وبشـدة سـمير؛ كان يسـتفزه جـدًّا، نمـوذج طالمـا صادفـه في مسـيرته الطويلـة، كان يقـول عنـه إنـه ليـس طبيعيًّـا، وإنـه يضمـر في قلبـه شرًّا للجميـع. وكان الدكتـور يـرى في عينيـه الخضراويـن مكـرًا ودهـاء لا يقـوى عـلى تحملهـما. وفي ذات مسـاء كان عائـدًا مـن سـهرة، وكان الدكتـور جالسًـا عـلى بـاب العـمارة؛ فقـال لـه:

- مساء الخير يا أستاذ سمير.

بدا على سمير الانزعاج، وكان وجهه محتقنًا؛ فقال له:

- ليس هناك خير أبدًا في مصر.

- لماذا؟

- لـك حـق تسـأل لمـاذا.. ألم تعلـم بمذبحـة أبـو قرقـاص في المنيـا؟ إنهـم علقـوا رؤوس المسـيحيين عـلى أعمـدة الإنـارة.

- أنـا أعلـم بهـذه الواقعـة.. لذلـك اسـتقطبت أصدقائـي وتقارعنـا الأنخـاب، والحقيقـة تأثرنـا. هكـذا تعمـد الدكتـور أن يبـدو في هـذه الصـورة.. يـدرك تمامًـا أن أمثـال سـمير لـن يصدقـوه إذا قـال إنـه تأثـر جـدًّا؛ لذلـك كان يوفـر عـلى نفسـه الخـوض في قضايـا خـاسرة.

- هه.. ماذا تريد؟ هكذا قال سمير في عنف.

- لا شيء.. تبدو حزينًا.. غدًا أو بعد غد نتحدث.

- حديث عن الشقة تاني مش هسمع.. لو هتقع على دماغي لن أتركها.. أنت فاهم؟

وتركه وصعد وهو يقذفه بنظرة حادة، وجلس الدكتور على مقعده تعيسًا يائسًا.

***

مستر «وليام مور» يبدأ يومه بالموسيقى، ويختتمه بالموسيقى. شقته واسعة وتحتاج لجهد شاق لتنظيفها، وطالما فكرت السيدة سميرة في تركه؛ لكن الرجل ظريف ولا يبخل عليها بشيء. فتحت الباب، فوجدته في ملابسه الرياضية يؤدي بعض التمارين الصباحية في البلكونة العريضة. مستر «وليام» تخطى الستين عامًا، لكنه يحرص وبشدة على ممارسة الرياضة.. قصير وجسده ممشوق، وتبدو على ذراعيه وصدره العضلات المحاطة بتجاعيد الشيخوخة.. شعره غزير ضاربٌ الشيب فيه بكثافة، ووجهه مدور بشوش.. عيناه خضراوان ضيقتان، وأسنانه كاملة.

- صباح الخير يا مستر «وليام».

- صباح الخير يا سميرة. هكذا يُلقي تحية الصباح عليها بصوت أنهكته التمارين الشاقة.

فور دخولها ينهي التمارين، ويندفع نحو الحمام ليأخذ حمامًا باردًا مهما كان الطقس. ثم يخرج إلى غرفته ليرتدي ملابسه؛ البدلة الكاملة، فيبدو أنيقًا رشيقًا. وأثناء ذلك تكون السيدة سميرة قد أعدت مائدة الإفطار. يتناول الإفطار بسرعة، ثم يأخذ حقيبته الصغيرة. وقبل أن يخرج من الشقة يذهب لها في المطبخ، ويقول بنبرة رقيقة:

- هل تريدين شيئًا من الخارج؟
- لا شيء.
- مع السلامة. هكذا يقول بعربية ركيكة.
- مع السلامة.

على الرغم من أنها كانت تريد ترك العمل عند مستر «وليام مور»، فإنها سرعان ما أدركت خطأ الإقدام على هذه الخطوة.. فمستر «وليام» يعيش بمفرده، خدمته ليست مجهدة، ويدفع كثيرًا. أما شقته الواسعة، فالعمل فيها مرهِق للغاية. ولكن السيدة سميرة تنظفها يومًا واحدًا بجهد شاق، وباقي الأيام تمر على الأثاث بخرقة. المطبخ ضخم، لا يليق برجل يعيش بمفرده، ولكن للأمانة مستر «وليام» لا يُفسده أبدًا. حتى عندما تزوره صديقة، فإنهما يطلبان عشاءهما من الخارج.. فضلاً عن سهراته المتكررة في «رابطة المغتربين» أو «بار الكرة الذهبية».. إنها لا تستطيع العمل لدى أسرة كما حدث في السابق؛ الصحة لم تعد تحتمل.. تلزم المقعد طوال الوقت؛ تشعر بألم شديد في المفاصل.. عشرون عامًا من العمل المتواصل. إن الخدمة في المنازل مرهقة جدًّا، عصفت بصحتها وقوتها. وتتنهد من الأعماق كلما شعرت بالألم، إن زيارة الأطباء ثقيلة على قلبها؛ لذا تلجأ لوصفات طبيعية، فالكيماويات لا تحسن المريض أبدًا. وينتهي يومها وهي جالسة في البلكونة ترتشف قهوتها، وتتابع حركة الطيور فوق الأغصان. تعلم يقينًا أن مستر «وليام» رجل عربيد؛ تعلم ذلك من أصدقائها الخواجات، يقولون لها: «أنتِ محظوظة يا سميرة؛ فمستر وليام في الصباح غير مستر وليام في المساء.. إنه عربيد، طالما تشاجر مع رواد بار الكرة الذهبية، ومع المارة.. إنه قذر».

ويـوم السـبت مختلـف في برنامجـه عـن باقـي أيـام الأسـبوع؛ حيـث لا يـمارس التماريـن الرياضيـة. يسـتغرق في النـوم حتـى العـاشرة صباحًـا. تكـون السـيدة سـميرة قـد انتهـت مـن إعـداد الطعـام، وتنظيـف الردهـة، وتجهيـز الحـمام، وكـي الملابـس. يقـوم ويأخـذ حمامـه، ثـم يخـرج ويرتـدي الـروب الحريـر، ثـم يتصفـح الجرائـد وهـو يرتشـف القهـوة الممزوجـة باللبـن الطبيعـي. وهـذا اليـوم تقـول عنـه السـيدة سـميرة يـوم الشـجار؛ حيـث تذهـب لـه في البلكونـة وتقـول لـه:

– أي أكاذيب تقرأ؟

يطوي جريدة «الأهرام ويكلي» جانبًا، ثم يقول:

– عذرًا.. نسيت أن هذا هو ميعاد الشجار الأسبوعي.

– لماذا تسمي المناقشة شجارًا؟ هكذا تتحدث سميرة بنبرة هادئة.

– لأنـكِ تتحدثـين حديثًـا لا معنـى لـه.. أنـا لا أفهـم ثقافـة الاعـتراض التـي تعتنقينهـا؛ كل شيء مرفـوض.. كل شيء مخلـوط بالقـذارة والأكاذيـب.. سـميرة، نحـن لسـنا في الجنـة.

– أعلم.. نحن في الجحيم.

– أوووه.. ألم أقل إنكِ قضية خاسرة؟

– أنتـم معـشر الإنجليـز لم تخـسروا أبـدًا.. كل حروبكـم حولتموهـا لقضايـا إنسـانية؛ فاغتنمتـم منهـا الكثـير.. أنتـم مـن اخترعتـم الكـذب والخـداع.. دمـاء البشريـة في أعناقكـم.

– هـا هـا هـا. هكـذا يـرد مسـتر «وليـام» وقـد تحمـس كالعـادة تدريجيًّـا للحديـث؛ فالسـيدة سـميرة قـادرة عـلى أن تبـدو معارضـة متجـددة.

- «دماء البشرية في أعناقكم».. يا لها من عبارة! من البداية ظننتك شيوعية.
- ها ها ها.. هكذا تتوارثون الأفكار؛ من يعارضكم فهو قذر متعفن، أفكاره شيطانية.. هل تستطيع أن تجاوبني عن معنى الديمقراطية في نظرك أيها السيد المحترم؟
- نحن من اخترعنا الديمقراطية وخضنا الحروب من أجلها.
- ها ها ها.. أنا أعجز دائمًا أمام قدرتك التلقائية على تأليف النكات بهذه السرعة.
- أي نكات؟ هكذا قال، وقد أخذ وجهه يربد شيئًا فشيئًا. وهذه هي المرحلة قبل الأخيرة في فض النقاش بينهما.
- الحروب.
- حروبنا ليست نكاتًا، لقد دفع جنودنا حياتهم ثمنًا لتعليم الشعوب الجاهلة.. نحن نسعى دائمًا لنشر الديمقراطية.
- أرجوك توقف.. سأسقط على الأرض من فرط الضحك، وأنا امرأة مريضة.. توقف يا سيدي.
- سميرة، إما أن نتحدث دون سخرية وتهكم، أو لا داعي للحديث.. أريد الاستمتاع بهذه العطلة. هكذا قال مبديًا اعتراضًا بدا غير مقنع.
- حسنًا، لنستأنف الحديث.. بشرط أن تتوقف عن إلقاء النكات.
- أووه.
- أرجوك تحدث بحرية أكثر؛ أنت لست أمام الصحفيين، وليست أمامك كاميرا قذرة، ولا ميكروفونات؛ أنت تجلس بالروب

وتستمتع بسماع الموسيقى.. فضلاً عن تناول القهوة الفرنسية. إذن، دع التكلف وكلمات الدبلوماسيين إلى أوقاتها القذرة.

فاعتدل في جلسته، وقال لها:

- هيا تحدثي، ولكن دون سخرية.

- وهل نشرتم الديمقراطية في مصر؟

- حاولنا. هكذا قال بنبرة مَن فشل في شيء.

- نعم حاولتم بعد أن قتلتم الشعب في الثورة العظيمة عام ١٩١٩.. هل من مبادئ الديمقراطية قمع الثورات السلمية وسحق مطالب الأغلبية؟

- هذه ليست حقيقة؛ الحقيقة أن جماعات من الشعب خرجت عن السلمية وهاجمت جنودنا.. ارجعي للتاريخ جيدًا.

- من الصعب أن تعارض قرار أو موقف موظف مؤمن جدًّا بوظيفته.

- ماذا تقصدين بالضبط؟ هكذا قال وهو يأخذ رشفة من القهوة.

- أنت مكلف من الحكومة الإنجليزية بممارسة هذه الأكاذيب؛ أليس كذلك؟

- سميرة، لن أسمح لكِ.. أنا لست كذابًا. هكذا يقول دائمًا بعد أن ينتفض. وهذه النقاشات تسعده؛ لأنها تبرز موهبته الكبيرة في التمثيل.

- أنا لم أقل ذلك.

- أنتِ تصفيني بالكاذب.

- لا، هـذه ليسـت الحقيقـة.. الحقيقـة أنـك يـا سـيدي تنقـل الأخبـار المزيفـة، وتـبرع في نقلها للجمهـور، رغـم أنـك تعلـم أنهـا كاذبـة.. لكنهـا ليسـت مـن صنعـك، هـم أفهمـوك أنهـا الحقيقـة، وأنـت لا بـدَّ أن تفهـم ذلـك، وأعتقـد أنـك فهمـت.

هكـذا يكـون الحديـث بينهـما في العطلـة الأسـبوعية. ودائـمًا مـا تجـد سـميرة الراحـة في الحديـث والنقـد الـلاذع؛ إنـه المنفس الوحيـد لهـا. ومسـتر «وليـام» يتحـدث معهـا كثـيرًا عـن حياتـه الخاصـة، وأيضًـا يعـرف أبناءهـا، وخاصـة مديحـة التـي عملـت يومـين في خدمتـه أثنـاء مـرض أمهـا. إذن، أيـام السـبت تتنـوع فيهـا الحـوارات مـا بـين العـام والخـاص.

وبعـد أن تنفـضَّ هـذه المناقشـة السـاخنة، يعـود مسـتر «وليـام» لغرفتـه وينـام حتـى الثالثـة عـصرًا، ثـم يرتـدي ثيابـة «الكاجـوال» وينطلـق.

***

- سعيد، لماذا لا تستغل وقت فراغك في المذاكرة؟

وتفكَّر سعيد للحظات، وقال بعدم اكتراث:

- دي شـهادة، وأظنهـا تحتـاج لجهـد كبـير.. هسـتأنف المذاكـرة بعـد قضـاء الخدمـة.

- أنـا معـك وهوفـر لـك كل شيء. بـس خـلي بالـك، أنـا مُدرسـة رخمـة قـوي.. التلميـذ الـلي يقـصر معايـا، عـلى طـول أعاقبـه عقـاب قـاسي جـدًّا. هكـذا حدثتـه دعـاء.

وأدرك أنـه لا يسـتطيع الخـلاص منهـا؛ الأمـر الـذي جعلـه لا يكـف عـن التفكـير في شيء يجعلهـا تبتعـد عنـه؛ فقـرر أن يحتـج عـلى قربهـا منـه بافتعـال المشـكلات. لكنهـا لم تؤثـر عليهـا، بـل تضاعـف قربهـا وحبهـا

لـه. وفي أول لقـاء بينهـما بعـد ذلـك؛ حيـث ميعـاد الـدرس الأسـبوعي، وفي هــذا اللقــاء تسـتطيع أن تجلــس معــه أكثــر مــن ســاعة كاملــة، جلســت في الكنبــة الخلفيــة. وألقــى هــو السـيجارة، ونفـض يـده مـن الخرقـة التـي كان ينظـف بهـا السـيارة، ثـم تحـرك بهـا إلى حيـث الـدرس.

فتحـت الحقيبـة وأخرجـت منها مـلازم كثـيرة، فضـلاً عـن أدوات مكتبيـة كاملـة، ثـم قالـت:

- إيه رأيك؟

واستأنفت في حماس:

- سـألت عـن التعليـم المنـزلي، وعرفـت كل حاجـة.. حتـى المصاريـف وجدتهـا بسـيطة. سـعيد، لا بـدَّ أن تأخـذ الأمـر جـدًّا؛ هـذا سيسـهل لي الحديـث مـع أبي في شـأنك.

فتوقـف بالسـيارة فجـأة؛ فارتطمـت دعـاء في ظهـر المقعـد الأمامـي بعـد أن دوت منهـا صرخـة.

- ماذا تقولين؟

- وأنت ماذا تفعل.. أنت مجنون؟

- أنتِ لن يهدأ لكِ بال إلا وأنا في السجن.. أنتِ قطعًا مجنونة.

- إذا سمحت اهدأ.

- لـن أهـدأ.. أنـا لـن أسـكت أبـدًا؛ سـأتحدث إلى سـيادة العميـد عـن أفعالـك، وليكـن مـا يكـون.. أقـصى مـا في الأمـر سـينقلني. دعـاء، كفايـة.. لـن أسـمح بهـذه التجـاوزات مـرة أخـرى.

- اسمعني.

أدار الموتور، وبدأ يسلك طريقه إلى حيث الدرس. وشعر أنه أمام فرصة لن تُعوَّض، وقرر أن يغتنمها؛ فقلص عضلات وجهه، وصدَّر لها نظرة قاسية.. فضلاً عن صمته. ظلت تحدثه وتتوسل إليه أن يسمعها، لكنه قاوم وبشدة نبرتها الرقيقة. ولما وصلا شارع دمشق، وقف أسفل بناية من ثلاثة طوابق، والتفت لها وقال بنبرة جافة:

- اتفضلي.. أنا مستني هناك. وأشار إلى «كافيتريا أفندينا» بجوار متجر عزيز موسى بائع الخمور.

فنزلت وهي تحدجه بنظرة سامة، ثم صفقت الباب بعنف.

قهوة أفندينا تليق بالشارع الكلاسيكي؛ حيث روادها من الأجانب والمصريين القاطنين حولها.. فهي ملاذ لأصحاب المعاشات. القهوة في طرازها شرقية؛ مقاعدها من الخيزران، وعلى جدرانها نقوش فرعونية مرسومة ببراعة.. فضلاً عن اللوحات القديمة. سقفها به تكعيبة من الأرابيسك تتدلى منها زهور صناعية. جلس سعيد في الخارج، وجاءه النادل، فطلب منه شايًا. أوقد سيجارة، وراح يتأمل قولها. يدرك تمامًا أنها صغيرة، مراهقة، مندفعة في جنون. تريد أن تحدث سيادة العميد في شأني (نهار أسود).. إلى هذا الحد ساذجة.. تظن نفسها أين؟ تريد أن تتزوج من الجندي.. هل صوَّر لها عقلها أن أباها سيقول لها: «موافق.. أنبئي سعيد أن يُحضر والدته غدًا لنتحدث».. يا لها من مجنونة حقًّا! وشعر بالتوتر، فصاح بعنف:

- الشاي.

وجاءه الرجل ووضع أمامه الكوب، فأخذ يرتشف منه ويتفكَّر.. حتى وقعت عيناه على «سيمون»؛ الفتى الإفريقي الذي يعمل في

متجر عزيز موسى.. شاهده يأتي من على الناصية وهو يدفع أمامه صندوقًا كبيرًا محمَّلاً على إطارين. كان وجهه لامعًا، ويداه القويتان تنبضان بالعروق. وكلما اقترب «سيمون»، زاد توتر سعيد. ولما مر بمحاذاة السيارة، قام سعيد تلقائيًّا مدفوعًا بقوة غريبة، وقفز أمامه بسرعة، وأوقفه بيده، وقال بعنف:

– هل أنت أعمى أيها القرد؟

واستطاع «سيمون» أن يفهم كلمة واحدة من هذه الجملة، وهي كلمة «قرد»؛ من طول ما نُعِت بها.

واندهش «سيمون» من هذا الهجوم العجيب، وقال له بإنجليزية ركيكة:

– هل تقصدني؟

– وهل هناك قرد سواك؟ أنت أتلفت سيارتي.

– أي سيارة؟

– إنت أعمى؟

ولم يستطع «سيمون» الكلام، كأنما في حلقه غُصة. وقال بعد وقت استغرقه في الحزن والألم:

– إذا كنت أنا قرد، فأنت ابن مومس.

– ماذا تقول؟

وانقض سعيد عليه بركلات ولكمات سريعة، كأنه كان ينتظر أي كلمة ترخص له الاعتداء. والتف الناس حولهما. وخرج «مايكل» نجل عزيز موسى مدافعًا عن «سيمون»، وتبادل مع سعيد اللكمات

السريعة. فأُدمي أنف سعيد، وشُطرت الشفة السفلى لـ«سيمون».. ووسط كل هذا الانفعال، سُمع صوت أنثوي يصرخ: «سعيد، تعالَ بسرعة.. دعاء أُغمِي عليها».

***

بعد هجوم مستر «دينس» عليه، وبعد أن تفهم الموقف، اصطحبه لمنزله، وأجرت له زوجته الإسعافات الأولية؛ بينما كانت مديحة تقف مذهولة يسيطر عليها الشعور بالذنب. ولما تعافى بعض الشيء، طلب مغادرة المنزل، وذهب للمستشفى، ولم يمكث فيه كثيرًا. عالج بعض الكدمات المنتشرة في أنحاء جسده، وخيَّط القطع الذي كان يشق مؤخرة رأسه.. كل ذلك تم في أقل من ساعة، لم تتركه مديحة خلالها، وكذلك مستر «دينس».. ظلت مديحة صامتة طوال الوقت، وكان مستر «دينس» يداعب سمير ببعض الكلمات؛ فتجاوب معه، وظلا يضحكان وقد نسي سمير الواقعة، وظلا يتحدثان في أمور العمل بعد أن علم مستر «دينس» من سمير أنه يعمل في شركة «أباتشي للبترول».. وحدثه سمير عن أصدقاء له في الشركة، وفور وقوع أسمائهم في أذن مستر «دينس»، كان يهز رأسه ويقول له: «هؤلاء أصدقائي.. كل ليلة نسهر في رابطة المغتربين الأجانب.. لا بدَّ أن تأتي إلى الرابطة».

- أين هي؟ هكذا قال سمير بفضول وهو ينظر إلى مديحة.
- في شارع ١٣.. ستستمتع، وستجد كل أصدقائك هناك.. كل ليلة خميس نسهر هناك؛ حيث نلعب البلياردو، أو نشاهد المباريات.. المكان رائع.. كيف لم تسمع عنه؟

التفت سمير لمديحة، وقال لها:

- ما رأيك أن تسهري معي في الرابطة ليلة الخميس؟

احمر وجهها، وقالت:

- ربما. كانت تشعر بالحرج من مستر «دينس»، الذي كان قد اقترب منها في البيت قائلاً في أذنها: «فتى رائع».

وصاح «دينس»:

- تعالي يا مديحة، سيروقك المكان.

فهزت رأسها في استجابة سريعة.

***

- ما أخبار صديقك يا مديحة؟ هكذا قال مستر «دينس» وهو يكتم ضحكة.
- بخير.
- كان يومًا مأساويًّا.
- نعم، لكنها غلطتي.
- المهم أنني لم أتمادَ في الإطاحة به.. عندما صرختِ في وجهي وأنتِ تقولين بجنون: «مستر دينس، توقف.. توقف»، أدركت على الفور أن هناك خطأ.

تنهدت مديحة وقالت:

- أنت تصرفت بواقعية وبمنتهى الطبيعية.. إنني أكره هؤلاء المتحرشين.
- نعم، أنا كذلك. وتذكري معي ما حدث لزوجتي «روبن» عندما كانت في طريقها لعملها، واقترب منها شابان وتحرشا بها؛ مما

جعلها تركض منهما في هلع، فسقطت في حفرة؛ فنتج عن ذلك كسر في معصمها. حينذاك بحثتُ عنهما في الحي كله بعد أن وصفتهما لي بدقة، وتمنيت من أعماق قلبي أن أجدهما لأحطم رأسهما.

هزت مديحة رأسها في ود، وقالت:

– لكنك حطمت رأس سمير!

***

بعدما أُغمِي عليها، حملها واندفع بها إلى البيت، وهناك استسلمت للبكاء. وراودته فكرة الهروب، ولكن بقي بضعة أشهر وينتهي كل شيء في سلام.. بضعة أشهر لا بدَّ أن تمضي في سلام، وبعد ذلك يخطط لحياته ومستقبله دون أي قيود. ومر أول أسبوع ثقيلاً.. فعندما كان يسمع صوت سيادة العميد، يرتعد وينتفض. ولما زوجته تنظر إليه نظرة طويلة، تبتلعه الظنون في بئر عميقة موحشة. وقال في نفسه وهو يراقب زملاءه الذين يحملون لها الزهور المرسلة، متخيلاً ما آلت إليه من رعاية كبيرة: «الآن تجلس وتستمتع بالإجازة، وتستنشق الزهور، وتستطعم الحلوى، وتشاهد التلفزيون.. وأنا هنا فريسة للظنون والغد المظلم الذي لا يعلم باطنه إلا الله» هكذا أخذت الظنون تؤرجحه بقوة بين شيئين أفضلهما مر.

ولكن دعاء بدت فريسة سهلة للحزن الذي حولها لوردة ذابلة. وعجزت الأم عن أن تعرف سببًا واحدًا لما آلت إليه ابنتها، وهي التي كانت منذ أيام تريد أن تأخذ العالم كله بين ذراعيها؛ فجندت جنديًّا لاستدراج سعيد.. ولكن سعيد فطن لمناوراته الخبيثة، وأيضًا الساذجة؛ فحرص أكثر. ومضى أسبوع آخر؛ أيضًا ثقيل ومؤلم. لقد غَشِي البيت الهم والحزن؛ العميد بدا صامتًا يُصدر تعليماته بفظاظة،

والزوجة بدت حادة كثيرة الصياح مع الجنديين، وهو لا يعرف عنها شيئًا. وأخيرًا، وبعد أن أنهكه الشك ونخرت الظنون عقله، ظهرت أمامه مشرقة.. لم يصدق أنها تتقدم نحوه، وفي عينيها نظرة عتاب كادت تُسقطه أرضًا.. وقالت بصوتها الذي افتقده وقتًا بدا له دهرًا:

- من فضلك، ممكن توصلني الدرس.

ومضى أول أسبوع في سلام؛ تخرج معه، وفور خروجهما من الشارع تقفز إلى المقعد الأمامي، وتظل تعاتبه وتتحدث معه دون توقف.. لم يخلُ حديثها معه من السذاجة فقط، ولكن اتخذ مساحات أخرى؛ مساحات تطرقت للزواج والإنجاب. وأدرك سعيد مدى الورطة؛ فخطط جيدًا لمجاراتها إلى أن تنتهي الستة أشهر الباقية في الخدمة. وقال لها ذات مرة بمكر، وكانا في السيارة وهي جالسة إلى جواره:

- أنتِ تلعبين بي.. تفهمين الواقع أكثر مني بكثير.. ولكن يحلو لكِ أن تلعبي بي وبمشاعري؛ لذلك أقف منك موقفًا قاسيًا، ولن أستسلم.

هكذا قال، وختم حديثه بضحكة استفزتها. احمر وجهها المدور، واندفعت تعانقه وتقبله قبلة فموية، استسلم لها ولمذاقها.. كم كانت شفتاها رقيقتين، وأنفاسها حارة! واصطكَّت أسنانهما ببعضها.. لم يصدق ما حدث.. بدت بين يديه كطفلة صغيرة تهرع من شيء مخيف.. لمعت عيناها بطبقة رقيقة من الدمع، وقالت:

- أنت تريد أن تتخلص مني.. وتعلم أنني أحبك.

وعجز عن الكلام، وبدت له السيارة عالمًا منفصلاً.. تجلس بجواره وتستعد لنوبة بكاء؛ إنها صغيرة وصادقة.. متى تعرف طبيعة الحياة؟ متى تجلس وتسخر من هذا الهراء؟ هل يومًا ما ستجلس دعاء وتضحك على هذه الأيام، وتصف نفسها بأنها كانت معتوهة

جاهلة وقعت في حب جندي فقير، لولا الظروف لكان قبع عند قدم أمها يقشر البصل ويدق الثوم ويغسل المواعين؟ إنها بريئة نقية، طالما حدثته عن احتجاجها على معاملة أمها للجنديين، وكانت تقول له: «لماذا يستسلمان لهذه الأوامر؟ والله يا سعيد حاولت الدفاع عنهما كثيرًا، ولكن أحدهما قال لي: أنا لستُ حزينًا؛ أنا أفعل ذلك مع أمي». حبها لسعيد فتح أمامها عالمًا كبيرًا؛ عالم المهمشين، عالم لم تتخيل أن تطئه يومًا ما. ونظر لها، وكانت قد تراجعت قليلاً والتصق ظهرها بالنافذة، ولاحظ على صفحة وجهها شيئًا مثل الخوف؛ فقال لها ضاحكًا:

- غدًا سأكون إما كابوسًا أو حلمًا.

- ما زلت لا تثق بي. هكذا قالت بمرارة.

وأدار الموتور، وقبل أن يتحرك قالت له: «انتظر». فتوقف ونظر لها، فأقبلت عليه بقبلة أخرى استغرقا فيها وقتًا لا بأس به.. وأدرك بخبرته مدى جهلها في ممارسة القبلات؛ كانت تفتح فمها أو تطبقه. إن هذا أول عهدها بالحب، كانت رائحتها نظيفة، وإن كانت اختلطت برائحة الكتب المدرسية.. وفوجئا بطرق شديد على نافذة السيارة.. ارتعدا، وإذا بهما يشاهدان جنودًا أحاطوا بالسيارة، وضابطًا قد دفع رأسه في زجاج النافذة يتحقق منهما، وصدَّر لهما ابتسامة ساخرة، ثم هز رأسه في برود، وأشار لهما بيده أن ينزلا ويستسلما في هدوء.. وشعر سعيد في أقل من ثانية أن الأشياء تتزاحم أمامه؛ فلم يشعر بأي شيء حسي، كأنه خارج الزمن، حتى حديثها بدا له مثل موجات الراديو المتداخلة.. ثم تحول شعوره للنقيض؛ فبدا كل شيء حوله محسوسًا.. صفارة عالية ظلت تدوي في أذنه، والجنود من حوله ينتظرون أن يقبضوا عليه. وانحل وعيه في ثوانٍ، وشاهد نفسه في صراع أبدي مع

المعقول واللامعقول؛ إنه المصير.. وأي مصير جلبته له هذه الفتاة الساذجة؛ إنها دمرته، وحطمت أحلامه على صخرة الواقع المخيف الذي طالما حذرها منه.. وشعر بالأسف، وتساءل في ذهول: هل انتهيت؟ وبدت له دعاء شيطانًا أعظم في صورة فتاة رقيقة؛ شيطانًا استطاع أن يسوقه إلى هذا المصير الأسود.. إنه مع ابنة سيادة العميد في وضع مخل.. ماذا يفعل؟ إنها كارثة.. لا بدَّ أن يتخلص منها ويواجه هذه الكارثة بمفرده. وبدا كل شيء حوله ثابتًا، كأن الزمن توقف فجأة، كأنها النهاية، وتساءل في نفسه: «هل سيضحك على هذه اللحظة يومًا ما وهو جالس بين أصدقائه؟». وطرق الضابط بقبضة يده على النافذة، ونفذ له صوته الغاضب يحثه على الخروج.. فانطلق بالسيارة بسرعة أطاحت بالجنود في الهواء. فانتفض الضابط وصرخ، واستقل السيارة ومعه جنوده، وانطلقوا وراءه. انحدر بالسيارة إلى شارع بور سعيد، والسيارة من خلفه تكاد تلحق به، ودخل شارع ١٨ بسرعة كادت تقلب السيارة الصغيرة، وصاح بصوت خارق:

- استعدي للنزول.
- لن أستطيع.. ممكن أموت.. سعيد اهدأ.
- سيلحقون بنا.. لا بدَّ أن أواجههم وحدي. واقترب من شارع ٨٥، وهنا صاح:
- اقفزي حالاً. وهدأت السيارة شيئًا، وكانت هي متشبثة بالمقعد. تناول شنطتها في حركة سريعة، ومد يده وفتح الباب وكاد يدفعها؛ لكنها صرخت وقالت:
- خلاص.. استنى عليَّ. ولما تفكرت، ارتعدت وتراجعت. وكانت السيارة تجري بهما ناحية ميدان مصطفى كامل.. عاد يصرخ

والباب مفتوح، وهدأ بالسيارة. واستعدت للنزول، ولكنه سرعان ما شاهد في المرآة العاكسة سيارة الشرطة تقطع شارع ١٣ من ناحية المعبد اليهودي؛ فانطلق بسرعة بينما كانت تقفز.. وسقطت فوق الأسفلت تتدحرج بسرعة حتى ارتطمت في بردورة، وهنا شعرت أنها في عالم آخر؛ لا تدري ما هذا العالم.. عالم اللاوعي.. إنها تطير في سماء لا نهاية لها.. وانتصبت واقفة، الأشياء من حولها سليمة، ولكن تشعر أن لا وجود لها.. الشارع ينعم بالهدوء، ثمة صفارة ترن في أذنها، شعرت بأن هناك زنة في رأسها، وانقبض صدرها، وهمست في خوف: «ماذا يحدث؟»، وسقطت على الطوار، تتدفق من رأسها الدماء كالنافورة، لا ألم ولا خوف.. لا شيء على الإطلاق.. ومرت من أمام عينيها صورة أمها وشقيقتها؛ فانزعجت وظلت تئن في ألم، وهمست: «سعيد، أنا بموت».

***

واستطاع الهروب من سيارة الشرطة؛ خبرته بشوارع الحي سهلت عملية الهروب، فضلاً عن أن السيارة لا تحمل لوحة معدنية من الخلف، حتى اللوحة الأمامية تبدو هالكة مطموسة.. على أن اللوحة تحمل أرقام سيارة ملاكي. فعلى الرغم من وجود اللوحة التي كان مقررًا إصلاحها، فإنه تقاعس عن فعل ذلك وألقى بها في شنطة السيارة؛ مطمئنًا لكونها سيارة شرطة. إن القدر يقف معه حينًا، ويتخلى عنه حينًا آخر.. فضلاً عن أن السيارة تقريبًا لا تخرج من الحي. ولما اطمئن شيئًا، عاد للبيت، وذهب يطرق الباب. فتحت زوجة العميد، وتساءلت:

- أين دعاء يا سعيد؟

قال لها بصوت أنهكه الخوف:

– لا أعـرف.. انتظرتهـا، وعلمـت أنهـا خرجـت مـن الـدرس مـن حـوالي ساعة.

– يعني إيه؟

– لا أعرف.. ظننتها جاءت مع صديقة لها.

– لا.. لم تأتِ.

وعـاد إلى السيارة في خطـوات بطيئـة، وشـعر أنـه في كابـوس. وتلفـت حولـه، وشـاهد كل شيء حولـه ملموسًـا.. الجنديـان يقذفانـه بنظـرة حقـد ويتسـامران، ومِـن حولهـما البوابـون يدخنـون ويتحدثـون ويضحكـون.. وهمـس في نفسـه: «إنهـما ينعـمان بقذارتهـما وإذعانهـما». ودخـل السـيارة بحركـة بطيئـة كمـن فاتـه ميعـاد مهـم ويعلـم أن لا جـدوى مـن التعجـل، ونظـر للمقعـد المجـاور، وشـاهد في الدواسـة فـردة مـن حذائهـا؛ فدبـت في يـده رعشـة، ووقـع رأسـه عـلى عجلـة القيـادة كمـن تلقـى طعنـة نافـذة، وانقبـض صـدره، وظـل منقبضًـا في ألم، وتضاعفـت دقـات قلبـه، وشـعر بمـرارة تجـري فـوق لسـانه، وسـخونة تـسري في عروقـه.. وأدار الموتـور وانطلـق إلى حيـث الحادثـة. بـدت لـه الشـوارع كئيبـة، وكلـما مـرت بجـواره سـيارة شرطـة يتضاعـف ألمـه وخوفـه. ولمـا وصـل، شـاهد جمعًـا مـن النـاس وقـد صنعـوا حلقـة نقاشـية، وكلـما اقـترب تـألم وتضاعـف خوفـه، كأنـه يـرى مصـيره أمامـه؛ نهايـة لا مفـر منهـا، ولا بـدَّ لـه مـن المواجهـة.. وألقـى بنفسـه بينهـم بعـد أن نـزل مـن السـيارة، واسـتعد بصدر مفتـوح لتلقـي طلقـة تصرعـه، وتسـاءل:

– ماذا حدث؟

وأجابه رجل طاعن في السن بجلباب، وعلى صفحة وجهه المجعدة الحزن:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. بنت صغيرة، واحد ابن حرام ألقى بها من السيارة وماتت. وأشار إلى موضع على الطوار، وقال:
- هناك صُرعت. وكان رجل كبير يأتي بالأتربة ويسكبها فوق بقعة دماء كبيرة.

كان مستر «روجر جونز» رجلاً كبيرًا في كل شيء؛ مكانته، ضخامته الجسمانية، وأيضًا قلبه.. لذلك كان يتسع للكثيرين. بعض الأجانب في الحي الإنجليزي يصفونه بـ«العمدة»؛ فالرجل قدم خدمات للجميع، وتستطيع أخذ المشورة منه بقلب مطمئن. مستر «روجر جونز» مدير المدرسة الأمريكية، يقبع في مكتبه بمبنى المدرسة المطل على الحديقة، ويشعل غليونه، ويتفكر دائمًا في مستقبل هؤلاء الأطفال الذين يلعبون ويمرحون أمامه. المسافة من البيت في شارع ١٥ حتى المدرسة الأمريكية لا تتعدى سيرًا على الأقدام عشر دقائق. أحيانًا يذهب على قدمه، وأحيانًا بالدراجة.. يترقب الأمور بعناية، وينزعج من الضوضاء، حتى إنه لا يستطيع أن يسمع أبواق السيارات دون أن يسجل احتجاجه. ويتعجب من تلك الأمور المستفزة، ويضع يده على رأسه، وينهال بالسباب على المزعجين، ويطلب البوليس الذي يحضر بسرعة؛ كل ضباط القسم يعرفونه جيدًا، حتى الجنود في الشوارع يعرفونه.. يغدق على الجميع من أمواله. يبدو بالقبعة الجلد الكبيرة الدائرية كعلامة مميزة، يضعها فوق صلعته الفسيحة في الصيف والشتاء. والآن، أُصيب مستر «روجر جونز» بوعكة صحية ألزمته الفراش. أما زوجته، فهي امرأة رائعة وصديقة حميمة

للحيوانات، وتشعر بالأسف من معاناة الحيوانات المصرية؛ تقول: ما ذنبهم؟ لماذا يعانون هكذا؟ كانت السيدة «جونز» ضخمة مثل زوجها، وجهها مكتنز بالشحوم، ثقيلة في حركتها، تضع فوق عينيها عوينات طبية رقيقة تستقر على الوجنتين المكتنزتين بالشحوم، تتحدث بسرعة، وتزعجها أيضًا الضوضاء، وكثرة الحديث في الأمور الفارغة. وذات مرة، بعد أن لزم مستر «روجر» الفراش، أخذت القبعة الخاصة به ووضعتها فوق رأسها، وارتدت سترته الجلد، وأيضًا حذاءه.. وخرجت. ظنها الجميع مستر «روجر جونز»، وبدأت تسلك طريقه في خطى بطيئة إلى المدرسة وتعود. هكذا فعلت لعدة أيام. وذات يوم، وجدت عامل قمامة يقود عربة كارو يجرها حمار تعيس، وقد انهال على الحمار بقسوة. لم تصدق، وصرخت، واندفعت نحوه ترطن بالإنجليزية وقد وصفته بكل المعاني البذيئة.. وجاء الضابط وأصغى لها باهتمام، وأبدى انزعاجًا مزيفًا من معاملة الحمار بهذه الطريقة، وهز رأسه متضامنًا معها، وقال للعامل:

– ياض يا ابن الكلاب.. تضرب الحمار قدام الخواجات.. إيه مبتفهمش؟ دلوقت أصرت إنها تاخد الحمار.

وصاح العامل:

– ازاي يا سعادة الباشا.. أبوس إيدك.

فعاد للسيدة «جونز» المنتظرة تأخذ الحمار، وقال:

– لن يفعل ذلك مرة أخرى، أنا أتعهد لكِ بذلك.

وصرخت في وجهه، وأشارت في وجهها بإصبع الاتهام، وقالت في حدة:

- أنا بطلب السفارة.. وليست فقط السفارة، وجمعية الرفق بالحيوان.. سأتحدث لكل العالم عن همجية هذا الحيوان.. أنا صورت كل شيء، ولن أسمح له بالذهاب حتى يعطيني الحمار ويجر العربة بنفسه.

وعاد الضابط للعامل، وقال له بطريقة رسمية حادة:

- بص ياض، الست دي ممكن تخليك تاكل براز الحمار.. اسمع الكلام وفك الحمار.. ومش بس كده، جر العربية بنفسك؛ وإلا والله ماهتسيبك.. وأنا مش هسيبك.. دي ممكن تلبسك قضية كبيرة. واقترب منه وواصل:

- الحمير عندهم مش زي عندنا.. فاهم يا حمار؟

وأذعن العامل، وفك الحمار وجر العربة بنفسه، وتألم. وقالت له وهي تربت على ظهر الحمار في عطف:

- ما شعورك الآن؟

وقالت للضابط:

- أيها الشرطي الأمين، هل تسمح لي من وقتك؟

فاقترب الشرطي، وقال وهو يبتسم في طمأنينة:

- أكيد.

- أوووه، أنت رائع.. ساعدني في جر الحمار إلى منزلي. وأشارت بيدها نحو البيت، وكانت أحداث هذه الواقعة تدور في تقاطع شارع القناة مع شارع الثكنات. وشعر الضابط بالحرج، وأمسك الحمار وأخذ يجره، والسيدة «جونز» تمشي بجواره بخطى أنهكتها؛ حيث ظلت شحومها ودهونها ترتج بقوة. ولما وصلت إلى

العمارة، قالت له:

- من فضلك أدخله إلى الحديقة.

فبدا على الضابط الانزعاج وقال:

- وقتي يا مدام.

- آسفة أيها الضابط الأمين.

ولما أدخل الحمار إلى الحديقة، وكانت رائحة الحمار لا تُطاق، صافحته بحرارة وقالت له:

- شكرًا أيها الضابط الأمين.

وفي صباح اليوم التالي أخذت الحمار، وعاونها بواب العمارة متولي الفيومي، وذهبت به إلى «رابطة المغتربين الأجانب»، وقابلت مستر «لارس هيو»، الذي تقدم يصافحها بحرارة:

- صباح الخير مسز «جونز».

- صباح الخير يا مستر «لارس».

- ما قصة هذا الحمار؟ هكذا تساءل في فضول.

نظرت للحمار في عطف، وقالت في حزن:

- هذا الحمار تعيس؛ تلقى ضربات على ظهره حتى تآكل الجلد وبرزت العظام.. كان يسوقة حيوان، ولكني أمرته أن يجر العربة بدلاً منه. والآن يا سيدي، خذوه واعتنوا به.

امتقع وجهه وقال لها:

- مسز «جونز»، أرجوكِ خذي هذا الحمار معكِ؛ هذا المكان ليس للحيوانات.

فقالت له محتجة:

- أنتم تجمعون التبرعات لأجل هذه الحيوانات؛ أليس كذلك؟

- لا يا سيدتي، نحن نجمع التبرعات من أجل إصلاح المصريين.. وأنتِ لديكِ علم بالبرنامج. أعتقد أنكِ دائمًا ما تُشرفينا بزيارتك كل أسبوع لمراجعة الميزانية، وإلقاء نظرة على الحساب البنكي.

- وما الفرق؟

- أوووه، الفرق كبير.. أولاً ليست لدينا زريبة لإقامة الحمار.

- نعم.. نعم.

واستأنف مستر «لارس»:

- تستطيعين أن تعتني به.. ولكن من نقودك الخاصة.

وعادت السيدة «جونز» إلى منزلها حزينة لعدم وجود مأوى للحمار، وكانت تعلم علم اليقين أن هذا الحمار يحتاج لميزانية كبيرة ليحيا في راحة. وأخيرًا، اهتدت لأن تربطه أمام منزلها في حديقة القناة، وجلبت له موظفًا يقوم برعايته.

***

جلست السيدة سميرة أمام مستر «جونز» في البلكونة العريضة التي تطل على شارع القناة، وكانا يتناولان القهوة. اعتدل مستر «جونز» فوق مقعده وقال:

- كان لا بدَّ لي من الرحيل ذات يوم يا سميرة.

- أعلم ذلك.. ولكن متى مرت العشرة أعوام؟! إنني لم أشعر بها أبدًا.

- وأنا أيضًا.

وبكت سميرة؛ فقال لها:

- لا تقلقي أبدًا.
- لا، أنا لستُ قلقة، ولكن أتساءل في نفسي: متى أتممت الستين عامًا؟
- أوووه.. سميرة، لا تذكريني بالأعوام، ولا تكترثي لتقدم عمرك؛ لا بدَّ أن تستمتعي بكل لحظة.
- نعم، سأفعل ذلك. هكذا قالت وهي غارقة في تفكير عميق، كأنها تجاوبه لتتخلص منه. لكن كان في قلبها وعقلها معارك قوية، تشتعل أحداثها وتتطور في كل ثانية. وشعرت بالمرارة، واستطاعت أن تتماسك قدر الإمكان.. واستفاقت على حديثه:
- سأضع لكِ في البنك مبلغًا من المال تنفقين منه.
- المال لا يهم.
- هذا حقك.
- أشكرك.
- سنراسلك ونطمئن عليكِ.
- أتمنى ذلك.

ودخلت عليهما السيدة «جونز» تحمل في يدها فنجان قهوتها، ونظرت لمستر «روجر» وقالت له:

- هل تحدثت معها؟
- نعم.

ونظـرت المـرأة للسـيدة سـميرة، وكان وجههـا قـد امتقـع، واقتربـت منهـا وقالـت لهـا:

- سأفتقدك يا سميرة.

- وأنا كذلك يا سيدتي.

وتفكرت السيدة «جونز» قليلاً وقالت:

- هـل تقبلـين العمـل في رابطـة المغتربـين الأجانـب؟ أسـتطيع إقنـاع الأعضـاء بقبولـك.

هكذا جاوبت على نظرة مستر «جونز» لها.

***

هنـاك لحظـات في حيـاة الإنسـان تجبره عـلى أن يتوقـف ليفكر فيـما وصل إليـه، ويُفنـد الأحـداث التـي مـر بهـا، ويتسـاءل عـما حققـه ومـا أخفـق فيه؛ ربـما تـتراءى لـه أشـياء لم يلاحظهـا مـن قبـل. هـذه اللحظـات ربـما تكـون صادمـة، وربـما تكـون سـعيدة، لكنهـا في مجملهـا حتـمًا سـتغير مجريـات الأمـور؛ سـتجعلك تتـصرف بطريقـة مـا لتعيـد إلى نفسـك الثقة مـن جديد.

أحرقـت نصـف علبـة سـجائر ماركـة «مـور» في أقل مـن سـاعة واحدة، أعقبتهـا بفنجانـين مـن القهـوة السـادة. كان وجههـا شـاحبًا؛ فمنـذ رحيـل مسـتر «جونـز» وهـي لا تتنـاول الطعـام بشـكل طبيعـي.. حتـى إنهـا لم تطـئ الحـي الإنجليـزي إلا لخدمـة مسـتر «وليـام مـور». وضـع لهـا مسـتر «جونـز» مبلغًـا قـدره عـشرة آلاف جنيـه مـصري في بنـك القاهـرة، عـلاوة عـلى إعطائهـا بعـض الأثـاث المنـزلي؛ فقالـت لهـا السـيدة «جونـز»:

- سـميرة، سأقتسـم بينـك وبـين الرابطـة هـذا المتـاع. وبالفعـل دفعـت إليهـا بأشـياء ثمينـة.

وقفـزت مديحـة معلنـة أنهـا ستشـتري كل هـذه الأشـياء، ووافقـت سـميرة عـلى بيعهـا إياهـا مقابـل مبالـغ زهيـدة. وشـعرت بالوحـدة التـي جرعتهـا أبناءهـا منـذ الصغـر وبالمـرض مـرة واحـدة.. ظهرهـا عـاد يؤلمهـا، رأسـها، صدرهـا.. كل شيء بـدا أمامهـا واضحًـا؛ طريـق طويـل، طويـل جـدًّا، يابـس، شـديد القيـظ، لا بـدَّ وأن تسـلكه وحدهـا. واسـتدعت الذكريـات كآخـر سـبيل لهـا للنجـاة مـن الوحـدة، وتذكـرت أيـام الجامعـة، والشـباب، والانطـلاق.. ثمـة ذكريـات قـادرة عـلى أن تجعلها تطمئن شـيئًا؛ طالمـا واجهـت كل شيء وحدهـا، يحلـو لهـا خـوض المعـارك بمفردهـا، لا تحـب الحميميـة.. لذلـك عاشـت حياتهـا كلهـا تتعامـل بالمـادة فقـط، لا مـكان للعواطـف في حياتهـا.. واهتـز قلبهـا بقـوة، وقالـت في نفسـها: «سـأموت وحيـدة.. لـن يشـيعني أحـد.. ثلاثـون عامًـا مـن العمـل المتواصـل، ثلاثـون عامًـا مـن تنظيـف المنـازل وتربيـة الأبنـاء والـصراع الـشرس بـين القلـب والعقـل، ثلاثـون عامًـا مضـت بقهرهـا وذلهـا.. والآن، مـا تبقـى فقـط حصـاد». وتسـاءلت: «هـل سـأكون فريسـة للأعوام الباقيـة؟ وكـم عامًـا تبقـى ليقـضي الله أمـرًا كان مفعـولاً؛ عامـان.. ثلاثـة.. خمسـة؟ والنهايـة هـل عـلى الفـراش، أم في الطريـق، أم في أحـد المنـازل؟». ورفعـت يدهـا إلى الله في خشـوعٍ تـام، وهمسـت بصـوت حنـون: «اللهـم توفنـي وأنـا أقـف عـلى قدمـي.. آمـين».

***

توقـف المـترو في محطـة الثكنـات، لكنهـا لم تنـزل؛ لم يعـد لهـا أحـد في هـذه المحطـة التـي ظلـت عـشرة أعـوام تنـزل فيهـا حتـى عرفهـا عـمال المحطـة والموظفـون. وشـملت المحطـة بنظـرة حزينـة، وانطلـق المـترو حتـى وصـل محطـة المعـادي، نزلـت وسـلكت طريقهـا إلى منـزل مسـتر «وليـام مـور».. طالمـا فكـرت في تـرك العمـل عنـده، والاكتفـاء بالعمـل عنـد

مستر «جونز»، لكن الأخير رحل، وبرحيله حرصت على الوظيفة الوحيدة الباقية. وكالعادة فور وصولها، سمعت الموسيقى تصدح. وفتحت الباب، فوجدت مستر «وليام» يؤدي التمارين الرياضية وقد ابتل جسده بالكامل. ألقت تحية الصباح عليه، فردها بصوت أنهكته التمارين العنيفة. وأعدت له الحمام، ثم الإفطار. فأخذ حمامه وتناول إفطاره، ومضى إلى السفارة. واستأنفت عملها في ملل وحزن واضحين. وذهبت إلى بيتها بخطى بطيئة، حتى إنها مرت بلحظات كانت تجر فيها حقيبة يدها على الأرض من شدة شرودها في أفكار كثيرة.. فقدت السيدة سميرة الشعور بكل شيء بعد أن استيقظت فجأة على الخامسة والستين عامًا؛ الأمر الذي جعلها تفكر في الادخار، والكف عن الإسراف.. لا بدَّ أن تخطط للأعوام الباقية بدقة. وانتظرت بفارغ الصبر يوم السبت حيث العمل عند مستر «وليام»، بدا الملل في صورة وحش لا يرحم؛ وحش يكمن تحت جلدها، ويزحف فوق حياتها بقوته وقسوته.. القراءة لم تعد تُمتعها؛ إن الإرغام على الشيء يُفقده متعته.. هكذا تؤمن. وألقت بكل شيء على الأرض؛ الكتب، والتلفزيون، والراديو.. ومزقت ملابسها، وصرخت في عنف. ولما وصلت ليوم السبت الذي جاء بعد طول غياب، ارتدت ملابسها، وصبغت وجهها بالمساحيق، ونزلت في نشاط. استقلت المترو، ووصلت للعمارة في نشاط، وصعدت للشقة.. ولأول مرة منذ عملها عند مستر «وليام» منذ سبعة أعوام، لم تجده في البلكونة العريضة يؤدي التمارين الصباحية.. تفقدت الشقة في حرص، ولاحظت أن ثمة رائحة غريبة تغلف جوها الذي بدا كئيبًا مظلمًا.. فشعرت بالاضطراب، وتفقدت المطبخ.. ولاحظت وجود صفائح صغيرة من أكواز البيرة، فضلاً عن صناديق من الكرتون بها بواقي طعام.

وتقدمت نحو غرفته وطرقت الباب في حرص.. وجاء صوته بعد وقت لا بأس به محشرجًا غاضبًا. وابتعدت قليلاً. وفتح الباب في نرفزة، وبدا لها شخصًا غريبًا ملتفًّا في الروب الحرير.. وبدا لحمه الأحمر مقززًا، وتقلص وجهه وتزاحمت فوقه التجاعيد، وهتف منزعجًا:

– هذا ليس معقولاً.. لماذا تطرقين الباب هكذا؟

وتأملته لثوانٍ، كأنها تتأكد منه.. لم يبدُ لها من قبل في هذه الصورة، ولكن طالما سمعت عنه أنه غريب الأطوار.. واندفعت تبرهن إقدامها على ذلك. فشاهدت خلفه فتاة مصرية قصيرة، جسدها ووجهها مدوران، خمرية اللون، وشعرها أسود قصير. تفحصتها الفتاة، وتساءلت بإنجليزية ركيكة:

– أليست الخادمة؟

هز رأسه وهو يبتسم لها في بلاهة، وقال:

– نعم.

– دعها تصنع لنا الإفطار. وأشارت لسميرة أن تنصرف إلى المطبخ.

***

ما زالت الصرخة لها إيقاع في أذنه؛ إيقاع مخيف يوقظه كل ساعة وأخرى.. صرخة ارتجت لها الجدران، واقتلعت القلوب، ونفر من وقعها البعض.. ليجد نفسه في مواجهة زوجة العميد.. بقلب أم شعرت أن ابنتها ماتت؛ فصرخت في وجهه بعنف وانقضت عليه:

– فين بنتي يا ابن الكلب؟ هكذا اندفعت نحوه وهي تصرخ. ولما مزقت قميصه، وكان هو مستسلمًا استسلامًا كاملاً لأظافرها التي سلخت لحم عنقه، أبعدها العميد عنه، وتحدث إليه في هدوء حذر،

وقد لمس من صرخة الأم شيئًا لا يطمئن. اربدَّ وجهه وظل يستجوبه، وقبضة يده مقفولة استعدادًا للكمة لا يعرف مسارها. وضاق العميد من صمته، فصفعه على وجهه بقوة؛ فنزفت الدماء من أنفه بغزارة، وشعر أنه عبر منطقة الخطر، لكنه تماسك بقوة وقال في ثبات:

– لا أعرف شيئًا.. اسألوا أصدقاءها.

ساعات من المرارة تجرعها بقوة وثبات انفعالي، وقال في نفسه: «فات الكثير وباقي القليل.. المهم أنهم استعدوا لاستقبال الطامة الكبرى». واستعد سعيد بقوة لمواجهة هذه الكارثة؛ سينكر كل شيء، وسيستعين ببعض الحجج.. فضلاً عن أنها مرت قبل أن تموت بوعكة لها سر عميق حيَّر الأسرة.. وقال في نفسه: «شوية صبر وتحمُّل، وسأستطيع النجاة». وقبل أن ينتصف النهار، اندلعت من الشقة صرخات أفزعت الجميع، كان لها دوي مؤلم في العمارة والعمارات المجاورة؛ فقد جاء خبر الوفاة من مستشفى الفاروق. وذهبوا إلى المستشفى، وكانت قد وصلت المستشفى جثة هامدة.. وحسب التقرير الطبي، كانت تعاني نزيفًا حادًّا إثر كسر مضاعف عند محيط المخ؛ سببه الارتطام القوي بجسم صلب نتج عنه هذا الكسر الذي أدى إلى الوفاة في الحال.

خيم الحزن العميق على الأسرة، وعانى العميد إثر هذه الحادثة، وعجز عن تفسيرها. ولما تم التحقيق في الواقعة، بعد التحريات الدقيقة، تم التوصل إلى أنها إما أن تكون صدمتها سيارة، أو وقعت من داخل سيارة. ولعب الحظ لعبة كبيرة مع سعيد الذي نجا بأعجوبة، إنه مدين لهدوء هذا الحي وهذا المحيط بالذات، مدين له برقبته؛ فلو كان هناك جمع من الناس وشاهدوا الواقعة، لكان

انتهى. حتى سيارة الشرطة التي كانت تطارده كانت مشغولة بالعثور عليه.. ترى أنه لم يرتكب فعلاً مخلاً في الطريق العام فقط، وإنما كاد أن يدهس الجنود، وتجرأ على الضابط بهذه الحركة الجنونية. وتلقى سعيد استدعاءات كثيرة من الضباط الذين هرعوا لإثبات كفاءتهم. وكان التحقيق معه يبدو وديًّا. واستطاع سعيد أن يتجنى على الفتاة بقلب قوي؛ ففي كل مرة كان يقول بعد أن يستعرض ثقافة مغشوشة عن التدين وحرمة الميت: «الصراحة كثيرًا ما كانت تطلب مني الذهاب إلى مقهى أفندينا، وأنتظرها هناك بالساعات حتى تأتي بمفردها.. للأمانة لم أرَ معها أحدًا من قبل» هكذا يبدو في الجملة الأخيرة دقيقًا خبيثًا؛ يعرف أن مدلولها سيحمل معاني أخرى. وكان يحلو للضباط هذه النميمة، التي أحيانًا تعقبها شماتة، أو قسوة مفرطة من الضباط. حتى وقع في يد الضابط الذي هرب منه؛ وقع في يده بطريق المصادفة.. كان خارجًا من القسم، فواجه الضابط عند البوابة الرئيسية الكبيرة.. وتفحصه بتركيز، وسرعان ما صاح في عنف:

- استنى ياض.

ولما وقف أمامه، عاد يتفحصه بدقة، وقال بغلاظة:

- بتعمل إيه هنا؟

- أبدًا يا سعادة الباشا.. كنت عند أشرف بيك.

وبدا له الضابط كشيطان أعظم استطاع أن يصل إليه؛ الجحيم والموت ينتظرانه. وشعر بغُصة في حلقه، وجف لسانه، وعجز عن رسم ابتسامة. ولما حاول أن يذهب، مسكه من قميصه، وأخذ يجره في صمت.. وفشلت كل محاولات سعيد للخلاص منه.. ظل يضحك في خبث وهو يقول: «سعادة الباشا، واخدني على فين؟» وظل

الضابط يجره بقوة، وأخيرًا تلفظ:

- دوختني عليك يا ابن الوسخة، وأنت هنا قدامي.

وظل سعيد في ثوب المكر متشبثًا؛ لن ينجيه إلا هذا الثوب، وقال في ثبات أو متظاهرًا بذلك:

- تقصد مين يا سعادة الباشا بالكلام ده؟ على فكرة أن جندي وبخدم عند سيادة العميد متولي عبد الظاهر.. لو سمحت يا سعادة الباشا بلاش سيرة الأم. هكذا قرر أن يبدأ بالهجوم.. بل ابتسم في ثقة كبيرة وقال:

- سعادة الباشا منتظرني.. أستنى، ولا حضرتك تكلمه إني في ضيافة معاليك؟

وظل الضابط ينظر له ويسترجع الصورة قبل أن يأخذ أي موقف. وقام بكرشه الكبير يتقدم نحوه، ووقف أمامه ووجهه يشع ببريق مخيف ونظرة حادة كسهم نافذ مسموم، ولطمه بقوة؛ فسقط سعيد على الأرض وصاح:

- سعادة الباشا، هو في إيه بالضبط؟

- هي اللي ماتت ياض؟

وابتلع ريقه بصعوبة، وشعر أنه في عالم آخر؛ تزاحمت الأفكار في رأسه حتى عجز عن الرد، وقال مستغيثًا:

- في إيه يا سعادة الباشا بالضبط؟

- في حبل المشنقة يا روح أمك.

- سعادة الباشا، أنا أعرف حقوقي جيدًا، وأي تجاوز تاني أنا مش هسكت.

هـز الضابـط رأسـه مسـتنكرًا قولـه، ودار حولـه نصـف دائرة، ثـم لكمه بقـوة في صـدره؛ فارتطـم في الحائـط وتقيـأ بلغـمًا، وأخـذ يسـعل متعمـدًا.. استسـلم للسـعال والبصـق عـلى الأرض، وجاهـد أن يبـدو متألمًـا.. واحمـر وجهـه، وهتـف بصـوت بـدا متهدجًـا:

- أنا بتصل بسيادة العميد.

وجلـس الضابـط، وأدار خاتمًـا كبـيرًا لـه فـص أزرق في الخنـصر، والتقط السـماعة وهاتـف العميد:

- عاطف المنياوي يا فندم.. صحة معاليك.

- ....

- الحمد لله سعادة الباشا، دايمًا بخير.. أستأذن معاليك.

ثم رفع السماعة من على أذنه، وقال في عنف:

- اسمك بالكامل ياض؟

- سـعيد محمـد عبـد المقصـود. هكـذا قـال وهـو جالـس القرفصـاء عاقـدًا ذراعيـه حـول صـدره، وقـد بـدا عليـه الإعيـاء.

وعاد يتحدث:

- آسـف سـعادة الباشـا.. سـعيد محمـد عبـد المقصـود؛ المراسـلة بتاعـك معاليـك، هيسـتنى معايـا شـوية.

- ....

- في شُبهة يكون هو من تسبب في وفاة المرحومة.

- ....

- في اليوم المشؤوم دا سعادتك كان عندي دورية، وكان قاعد ناحية ميدان فيكتوريا.. أنا جي أسلم على سعادتك وأتكلم مع معاليك شوية.. دا لو وقتك يسمح.

- ....

- أقل من ربع ساعة.. في حفظ الله. ووضع السماعة، ونظر له وقال:

- عرفت إنت هنا ليه يا ابن الشرموطة؟

وانتفض سعيد واقفًا، وكان قد خطط في أثناء جلوسه القرفصاء ألا يستسلم مهما حدث.. ليست هناك أي شبهة حقيقية ضده.. سيقاتل للنهاية.. محامي بتعريفة يخلصه من القضية كلها.. لن يسمح سيادة العميد أن تكون ابنته حبيبته حديث الصحف والوزارة.. وقرر أن يبدأ خطته بالهجوم؛ فقال له بصوت خارق:

- سيادتك أنا فاهم القانون وحقوقي كويس.. ولن أسمح لك بإهانة والدتي مرة أخرى.

- بتقول إيه ياض؟

- اللي سمعته.. وأنا هخرج من هنا فورًا.. لا أنت ولا العميد يقدر يعمل معايا حاجة.. أما إذا كنت عايز تلبسني قضية، فهذا شيء آخر.

- قانون.. بتتكلم عن القانون. هكذا قال الضابط ساخرًا، واستأنف:

- أنا هطبق عليك القانون. وصاح في عنف ينادي الأفراد المتمركزين في الردهة الطويلة، وأمر أحدهم بالتحفظ عليه لحين عودته.

وقبع في غرفة الأفراد، وتلقى تعليقات لاذعة من زملائه؛ تعليقات

ساخرة، وأخرى ماكرة.. لكنه للحظة شعر أنه لم يعد يتحمل كلمة عن دعاء؛ الفتاة الطاهرة، الفتاة الرقيقة.. وتساءل في نفسه: «ماذا لو كانت...؟» وسرعان ما شعر بسذاجة السؤال، وهتف في نفسه: «يا خسارة».. إنها ضحت بحياتها من أجله. أما غرفة الأفراد، فكانت أشبه بزريبة لها جدران من الطوب وسقف من الخرسان.. ملابسهم ملقاة في كل مكان.. البق ينتشر على الجدران، ويسكن الثقوب المنتشرة، ويزحف على الأسِرَّة الخشب.. رائحة البطاطين قذرة، وقد تلبَّدت من كثرة القذارة فالتصقت ببعضها.. وكانت الغرفة رائحتها مكمكمة. ومرت ساعة وساعة أخرى، والفضول ينخر في عقله وقلبه؛ فقد تحولت الصدمة تلقائيًّا لمجرد قصة يتابع أحداثها في فضول. كان يعلم أنه سيقع في يد الضابط، مهما تخفَّى فإن الأحداث ستتعاقب وسيقع في يده، طالما انتظر هذه اللحظة. لقد اجتاز الطامة الكبرى بعد مواجهة أفراد الأسرة. أما بعد ذلك، فيعلم أن الأحداث لن تكون مؤثرة بقوة. واطمأن لشيء في نفسه. وأوقد سيجارة، وعند أول سحابة شعر بألم في صدره؛ فصاح يسب الضابط في نفسه.

وجلس الضابط إلى العميد. وكان البيت تغشاه سحابة الحزن؛ الإضاءة خافتة في جنبات الشقة، وصوت الشيخ المنشاوي يصدح من داخل غرفة الفتاة. وبدا العميد مستسلمًا جالسًا في هيكل نحيف ضعيف، وقد تقلصت عضلات وجهه. وبدا طوال الجلسة عابثًا؛ لا يتحدث إلا بكلمات قليلات. ولم يجد الضابط أي مدخل للحديث عن فتاته.. هل يقول له إنها كانت معه يتبادلان القبلات الساخنة، وإنه تخلص منها قبل أن يكشف أمره؟ ماذا يقول له؟ وقال الضابط بنبرة هادئة:

– معاليك أنا شاكك في العسكري دا.. أنا هوجه له الاتهام وأقدمه للمحاكمة.

وبدا العميد متألمًا، ورفع يده وقال له:

- اللي إنت شايفه يا عاطف.

ارتاح الضابط لهذه الإجابة، لكنه في نفس الوقت شعر بثقلها.. إن الأدلة ثقيلة، لن يتحملها على ابنته؛ حتمًا سيغضب ويثور. لذلك قرر أن ينتقم منه بطريقته. وقام من مجلسه، وودع العميد وهو ينحني قائلاً:

- ربنا يجعلها آخر الأحزان معاليك.

وعاد الضابط ووجهه مهموم؛ فأدرك سعيد أنه فشل في إقناع العميد المكلوم. ومسكه الضابط ولطمه بقوة، وتحمل سعيد وقع اللطمة بصبر نافد. وقال الضابط:

- دا القانون؛ أنت من النهاردة بتاعي.. خلاص أنت مسئول مني.

وأودعه السجن، وظل لأسبوع يمارس عليه كل أشكال التعذيب.. تم تكبيله من ذراعيه وتعليقه، وجاء بالجنود الذين ظلوا يتناوبون عليه بالركلات.. وجرده من ملابسه، وظل أسبوعًا كاملاً عاريًا في حجرة مترين في متر.. يتبرز في مكانه، ويتبول في مكانه.. لشدة ما كان يشعر بالعذاب من إهانته بهذه الطريقة؛ إنه يستطيع أن يتحمل الركلات والصعق، ولكن لا يتحمل أن يجلس في مكان قذر.. والآن ينام ويجلس فوق البراز. ولما شاهده الضابط وهو واضع يده على أنفه متقززًا، قال له:

- ها.. مين اللي كانت معاك في العربية؟

- مومس.

- مش بنت سيادة العميد يعني؟

- بقول لسيادتك مومس.

- تمام.

وتمت محاكمته عسكريًّا، ودخل على القاضي وهو يعاني ألمًا ومرضًا. وقال له القاضي:

- أنت سعيد محمد عبد المقصود؟

- نعم يا فندم.

- ستة أشهر، ثم يستأنف المدة.

وأمضى سعيد ستة أشهر في الحجز العسكري؛ ستة أشهر من المرارة تجرعها بالملعقة.. لأول مرة يكره لون بشرته وحمرة الوجنتين التي كانت تسعده.. لأول مرة يتمنى أن يتبدل لونه ويصبح على حد تعبيره «عبدًا»، هكذا قال: «اللون الأسود في هذه الزنزانة سيد، أما أنا...». وبأوامر من الضابط تم التحرش به.. أول مرة كانت بعد ليلة طويلة قاسية، احتفلوا به وضجوا حوله، وقالوا إن الله أمدهم بعد طول غياب بـ«سعيدة»، هكذا أطلقوا عليه هذا الاسم. ولما قاومهم نال علقة من نوع آخر؛ حيث غلب فيها التحرش على أسلوب المعارك المتعارف عليه.. امتدت الأيادي لصدره ومؤخرته، وأخذوا يفعصون فيه بقسوة. وعلى الرغم من كل ذلك لم يستسلم، وظل يقاوم بقوة. ولما جلس ملتصقًا بالحائط، شعر عند بزوغ الفجر بيد تجذب سرواله وتكشف مؤخرته.. انتفض، وقاوم بقوة، واستطاع أن يحافظ على نفسه.. وأمضى المدة في ذل ومعارك متواصلة. وأثناء إحدى المعارك، التقط سجين من فمه موسى وشق بها ظهره، حتى إن عظام الظهر ظهرت. ونُقل للمستشفى وتم علاجه، وعجز عن معرفة من فعلها. وظلت الأيام ثقيلة موحشة.. أحيانًا كان يبكي في نفسه ويناجي دعاء، وأحيانًا كان ينعتها بالشيطانة التي دمرت حياته

ومستقبله. ولما خرج من السجن وأمضى الثلاثة أشهر الباقية في الخدمة، شاهد أمه التي عجزت عن معرفته، وسألها دون مقدمات كأنه يسارع في الحصول على الوثيقة التي ستؤمنه:

- أين مستر جونز؟

- سافر. فسقط على الأرض، وظل يصرخ ويسب «جونز» ويهتف:

- الوظيفة.. آه.. كيف فعلها؟ كيف ينساني؟

***

واستسلم سعيد لهذه الوظيفة الحقيرة في «ديسكو فلاش».. عامل نظافة. يذهب في الصباح وينظف الديسكو؛ ينظف ما تُخلفه الليالي الطويلة المشحونة بكل أشكال الترف.. ودائمًا وأبدًا يشمل في كل صباح الديسكو بنظرة طويلة فيها شيء من الحزن، ويتفقد المقاعد والترابيزات، ويظل وجهه واجمًا. وأثناء عمله الذي يؤديه بملل، يظل يتثاءب ويُطلق تنهيدات مسموعة تدل على الأرق الذي يعانيه؛ إنه لا ينام إلا ثلاث ساعات فقط؛ لأنه بعد أن يظل يكدح في تنظيف الديسكو، ويستسلم لأوامر جميل؛ المدير الفظ الذي لا يكف عن إرسال التعليمات له ووصفه بـ»الفتى الكسول»، يبدأ يومًا جديدًا عند الساعات الأولى من كل مساء.. يذهب للبيت ويرتدي ملابس جديدة، ويعود للديسكو زبونًا، ويلتقي بأصدقائه الأجانب والمصريين، ويظل معهم حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي.. يظل يتجرع البيرة، ويدخن بشراهة، ويرقص مع الفتيات.. ولا يتوقف طوال السهرة عن مراقبة أفعال الزبائن التي تنرفزه بشدة؛ أحيانًا يتقيأون خلف المقاعد، أو يضعون أقدامهم المُنتعِلة أحذية كبيرة يحمل باطنها شيئًا من القذارة فوق الترابيزات، أو أسفل أفخاذهم.. يعلم أنه من

سينظف كل هذه القذارة.. فضلاً عن أفعال الأجانب خاصة من الأمريكان؛ أحيانًا يتبولون تحت الترابيزات ويضحكون.. ولما كان يتسلل ويذهب للمدير وينبئه بهذه الأفعال، كان يقول له: «نحن في ديسكو وهؤلاء سكارى» ولا يترك فرصة التهكم عليه. ويصرخ في نفسه: «آه يا ملاعين يا أولاد الكلاب». ويصرخ وهو جالس بينهم: «أين أنت يا مستر جووووونز؟».

كان الديسكو في الطابق الثاني، بجوار مطعم «بالما». ففي الطابق الثاني ردهة طويلة تُفضي في نهايتها إلى الديسكو. أما الممر، فمكتظ بالفتيات الأجنبيات والمصريات؛ يدخنَّ ويتعاطين الحبوب المخدرة.. الطبعة التسعينية على أشكالهن؛ القطع المعدنية العالقة في ألسنتهن.. ارتداؤهن الخواتم في الإصبع الكبيرة في كف اليد، علاوة على إصبع القدم.. غير شعرهن الهائش، ووجوهن الطويلة المنحوتة.. وارتداؤهن الملابس الفضفاضة؛ البنطلونات الجينز الواسعة الساقطة من الوسط، والبلوزات المشجرة، والتيشرتات الواسعة المتهدلة إلى الركبة أحيانًا.. ولا يختلف الشباب عنهن كثيرًا. وكان يتردد على الديسكو ابن السفير الإسرائيلي، ويدعى زين. يأتي بصحبة «يودا» رئيس الحرس الإسرائيلي. كان يأتي للرقص فقط مع أصدقائه وزملائه؛ حيث كان ملتحقًا بالمدرسة الأمريكية. وتعرَّف «يودا» على سعيد مصادفةً؛ حيث سمع شجارًا في الردهة المؤدية للديسكو. وكان سعيد واقفًا ونازعًا حزام بنطلونه، ومهددًا به عدة أشخاص أمامه بينهم أجانب.. كان ذلك عند منتصف الليل، في أحد أيام الخميس من شهر فبراير عام ١٩٩٤. ويوم الخميس عادةً ما يكون مشحونًا بالمفاجآت عند رواد الديسكو.. فهم يعرفون بعضهم البعض، وقرروا في هذه السهرة أن يذهبوا إلى بيت صديق لهم ليستأنفوا السهرة هناك؛ حيث يدخنون

الماريجوانا حتى الصباح. وكان من بينهم أصدقاء حميميون لسعيد، وقد اعتاد قضاء هذه السهرات معهم. ولكن في هذا اليوم كان بينهم عنصر مصري، تصدى له عندما شاهده يعزم على الذهاب معهم، وقال له بعنف:

- حدودك معانا تنتهي هنا عند باب الديسكو يا بابا.

***

تلبدت السماء بالغيوم، وكانت السحب ثقيلة تكاد تتفجر بالأمطار؛ فبدا القمر خلفها قاتمًا، وكان الرذاذ يتطاير مع الهواء، وكانت الليلة تُنذر بأمطار غزيرة. وفي هذا الوقت من كل عام، يتحول الحي لثكنة مخيفة؛ حيث ترن في الآذان طقطقة عظام الأشجار العتيقة، فيخشى السكان من وقوعها فوق سياراتهم، أو فوق الفيلات الصغيرة. لذلك في هذا الفصل بالذات، يحتاط بعض الأجانب من هذه الكوارث الطبيعية بجلب عمال الحدائق، الذين يتولون بجهد شاق تقليم الأشجار الضخمة. في هذا المساء بدت الشوارع غريبة عليها، وبدت الفيلات في هياكلها المتشابهة غائصة في غابة كثيفة الأشجار، وكانت الشوارع تستمد إضاءتها من كشافات النور الخاصة بحدائق الفيلات والمداخل، وكانت الأعمدة القديمة ثابتة فوق الطوار كأشجار النخيل تتدلى منها ثلاثة عناقيد تتخذها الطيور أعشاشًا بعد أن تعطلت. وصلت لفيلا رقم ٩ في شارع ١٣، كانت هذه الفيلا بالذات مضاءة بإضاءة قوية.. لمبات كبيرة تتدلى من أفرع الأشجار، والسور مزين بأفرع النور، وبدا المدخل الضخم ذو الرخام الأبيض لامعًا من أثر الإضاءة القوية. اجتازت البوابة الكبيرة؛ فاستقبلتها حديقة شاسعة ممتلئة بالمقاعد والترابيزات، يجلس

عليها أُناس كثيرون يتحدثون ويضحكون، وحولهم تبدو حركة العمال الأفارقة نشطة. وقفت صامتة تترقب الحديقة. كانت في هذه الليلة ترتدي بالطو أسود من الكاشمير، وقد أغلقت جميع أزراره، ودست ساقيها الملفوفتين في جورب أسود شفاف، وانتعلت حذاء كلاسيكيًّا أسود، فضلاً عن استعدادها بقص شعرها بنفس الطريقة وباحترافية أكثر. شملت الحديقة بنظرة عميقة، وتفحصت الوجوه التي بدت لها مألوفة (إن مديحة سمعت وبقوة عن «رابطة المغتربين الأجانب»، لكنها كانت ترفض السهر فيها.. إن المكان قائم على التبرعات والحديث عن الفقر والجوع؛ لذا كانت تنفر منه.. أما الآن، فشعرت أنه لا يختلف كثيرًا عن «النادي الأمريكي»). وسرعان ما استقبلها سمير في سعادة وهو يتفحصها بعناية، وكانت نظرته لها تقول إنه لم يخطئ حين اتخذها صديقة.. بيد أنه شعر بالضيق من أنها خادمة عند أحد معارفه.. لكنه استدعى إستراتيجية ظل يمارسها طوال حياته؛ وهي التركيز على الهدف، لا شيء يعيق طريقه نحوه.. وعند بلوغه وتحقُّق رغبته، يستعرض كل الشوائب التي كانت تحاول إعاقته، ويبدأ في مهاجمتها بقسوة شديدة، ثم يتخلص منها.. وجلسا على ترابيزة بعيدة عن «بار الشرفة».

– بكتشفك لتاني مرة. هكذا بادرها.

احمر وجهها وهزت رأسها، ثم تساءل:

– أول مرة شاهدتك فيها كنتِ ترتدين الحجاب، ولكن لم أُرِد أن أسأل عن هذا التغيير إلا بعد أن تعرفيني جيدًا.

– الحقيقة أنا مش مقتنعة به.. ولما أقتنع به سأرتديه. هكذا قالت في لامبالاة.

– هل أحد أجبرك على ارتدائه؟

نظرت إليه بحدة، واستغربت أسئلته الملحة عن الحجاب؛ فقالت بنبرة حادة:

– دي حاجة تخصني وحدي.. في أسئلة تانية؟

– أبدًا.. إنتِ زعلتي ليه؟

– مفيش.

– حبيت أقولك بصراحة إنك كده أجمل ألف مرة.

ابتسمت في ثقة وهزت رأسها.

فأشار للنادل وكان إفريقيًّا، فجاء بسرعة.

– كأس فوديكا ممزوج بالفلفل الأحمر.

نظرت له وقالت مندهشة:

– إحنا مش بنموت من البرد!

– دا شرابي المفضل.. تشربي إيه؟

نظرت للنادل وقالت:

– بيرة كارلسبيرغ.

– قرأتِ اللائحة؟ هكذا بادرها مرة أخرى.

– أي لائحة؟

– الخاصة بالرابطة.

– لأ.

- أنتِ الآن تساهمين في مساعدة ودعم الفقراء بشرب هذه الزجاجة.. وكلما تجرعتِ مزيدًا من الشراب، زادت مساعدتك للفقراء.

- هذا رائع. هكذا قالت في عدم اكتراث.

- هذه الرابطة تصرف ببزخ على دعم الفقراء.. وفي المساء ستشاهدين أُناسًا محترمين من أعضاء الرابطة، من بينهم مستر إبراهيم مسعود.. هذا الرجل دافع عنا كثيرًا ضد اضطهاد المسلمين لنا.

- أي اضطهاد؟

- اضطهاد المسلمين المتشددين لنا.. لا تنسي أن والدي ترك البلاد لما ضاق منهم.. البلد تمارس العنصرية ضدنا. هكذا قال في زهو، وهو يتقمص أمامها دور الضحية، وكم كان يحلو له أن يمارس هذا الدور أمام الناس.

- أنا لا أفهم في السياسة، ولا يعنيني ما تقوله؛ أنا أتصرف بطبيعتي مع من حولي.. مع العلم أني أعمل مع مسيحيين كاثوليك، ولا أشعر بأي عنصرية؛ سواء مني أو منهم.

- أنتِ متعلمة، وأنا أقصد الجهلة.

وسألها في سذاجة مصطنعة:

- مستر إبراهيم مسعود مسيحي؟

- لا أعرفه.. ولكن لا أعتقد أن من يدافع عن المسيحيين لا بدَّ أن يكون مسيحيًّا.. ألم تقل إنني متعلمة لذلك لستُ متعصبة؟ ربما يكون مسلمًا.. لا أعرف. أنا علاقتي بالسياسة مثل علاقتي بالحيوانات؛ لا أحبها وأخاف منها.. هل تفهم؟ وأصرت أن تذكره بنفسها؛ فواصلت:

- لذلك أرفض العمل في المنازل التي تسكنها الحيوانات.
- نعم. نعم. نعم. هكذا قال بسرعة بعد أن أشاح بوجهه عنها في شيء من الضيق، وقال في إصرار:
- بس لا بدَّ أن تفهمي.. نحن نعاني يا مديحة.. حقوقنا مسلوبة.. يعاملوننا على أننا أغراب.. نحن أصحاب البلاد الأصليين.. هذه حقيقة يجب أن تعلميها. ولما لاحظ أنها ضاقت من الحديث في هذه الأمور، توقف وقال:
- أف.. الحديث في السياسة يعصبني. ها، ما رأيك في تناول كأس ويسكي ممزوج بالشيكولاتة؟

فأوقدت سيجارة ونفثت دخانها، وقالت وهي ترفع حاجبيها مندهشة:

- يقدمونه هنا؟

***

عندما تستقر في عمل أمضيت فيه عمرًا، خاصة مع مدير تعاون معك كثيرًا، وموظفين تعاملوا معك وعرفوا قدراتك وكفاءتك، ستشعر بشيء من الاستقرار، وستمضي في عملك مطمئنًا للإيقاع اليومي الذي يدور حولك؛ فليس هناك من يترقبك ويقيِّم قدراتك، فأنت في مكانك هذا قد تجاوزت كل هذه المراحل، وأصبحت بفضل كفاءتك مصدرًا للكفاءة.. وبعد كل ذلك وفجأة، تترك هذا العمل بمديره وموظفيه، وتنتقل لمكان آخر، وتعمل تحت إشراف مدير آخر، وتتعاون مع موظفين آخرين، وكل هؤلاء لا يعرفون شيئًا عنك وعن خبرتك في العمل؛ فيتعاملون معك بمبدأ الأقدمية، مع العلم بأن قدراتك العملية والعقلية تؤهلك لأن ترأسهم جميعًا؛ فتجد نفسك

تلقائيًّا فاقدًا القدرة على العمل معهم، فتستسلم لإدارتهم التي ربما تكون فاشلة، وتوفر اقتراحاتك وملاحظاتك تجنبًا للإحراج والتهكم.. هذا بالضبط ما حدث مع السيدة سميرة.

أتمت سميرة في هذا اليوم شهرًا على العمل المتواصل منذ أن تركت العمل عند مستر «وليام مور»، موظف قسم الإعلام في السفارة الإنجليزية. تزاحمت فوق وجهها المدور التجاعيد بقفزة عشرة أعوام مرة واحدة. وبدت حركتها بطيئة، تظل طوال اليوم واقفة في صدر المطبخ الكبير تراقب العمال وهم يعملون في نشاط. حتى مدام «ديوانا» تجاوزت الخامسة والستين عامًا، وبدت غير مكترثة بشيء. تحتفظ فقط بسطوتها المزيفة على العمال؛ تلقي نظرة على حركة العمل، وتمضي للحديقة الخلفية ترتشف القهوة وتدخن وتسترجع الذكريات. وحاولت السيدة سميرة فعل شيء، لكنهم كانوا يأمرونها بالوقوف؛ حتى صاحت في عنف:

- الأحرى بكم أن تبتاعوا تمثالاً وتضعوه هنا بدلاً مني.. أنا لست هنا لكي أراقبكم.. أين العمل؟

ونظر لها «لارس هيو» من وراء عويناته الطبية، وقال لها وقد جاء على صوتها العالي:

- ماذا حدث؟

- لا أعمل.

كانت رائحة المطبخ أشبه برائحة الإبط، وكان هؤلاء الأفارقة قذرين، وقالت في نفسها: «أي مكان قذر في العالم أفضل بكثير من الجلوس في البيت». وظلت لوقت لا بأس به تراقب أفعالهم التي كانت تحلو لها وتدهشها؛ فتجد بعضهم عكف على صنع

كأس من البول ممزوج بشيء من الكحول، وهو يقول لصديقه:

- سأقدمه له وأنا أقول: «تناول كأسك الخاص يا سيدي.. هه هه هه».

فضلاً عن أفعال أخرى كانت تتم بين بعض الرواد والعاملين في المطبخ؛ فكان القوّاد «سيمون» يقدم شقيقته لممارسة الشذوذ مع الألمان والفرنسيين؛ حيث يفضلون الفتيات الملونات. ولما جلست في ركن بعيد بالقرب من نافذة تطل على الحديقة الخلفية، لم يعترض أحد منهم. وبدا لها هذا المقعد شيئًا مسليًا ترصد منه الإيقاع الغريب الذي يدور كل يوم بين العمال والرواد. ودخلت عليها مدام «ديوانا»، وقالت لها:

- هذا الحي يقطنه أكثر من ألف رجل وامرأة من البيض؛ نحن نخدمهم.. تصوري، نحن نخدم هذا العدد، إنهم يتناوبون علينا كل ليلة، كل واحد منهم يريد شيئًا، ونحن يجب أن نكون جاهزين.

وكانت هذه إشارة لها بأن لا وقت للجلوس. وحاولت فيما بعد أن تقترب من «ديوانا»، لكن «ديوانا» بخبرة أدركت ذلك؛ فقالت لها:

- لو أنكِ أصغر مني بعشرين عامًا، لاتخذتك صديقة، وكنت سأقول لنفسي إنني محظوظة.

وقال لها أحد العمال، وكان يعمل في الطابق العلوي في صالة البلياردو:

- إنها مخبولة.. لا تهتمي بصداقتها.

ورصدت صراعات كثيرة بين العاملين من الأفارقة والرواد، وصراعات داخلية بين عمال صالة البلياردو وعمال المطبخ الرئيسي،

وعمال بار الشرفة وعمال بار الصالة الرئيسية. لكل قاعة رواد، ولكل قاعة لوحة إعلانات من الخشب ملصق فوقها عشرات الإعلانات. في صالة البلياردو الملصقات عن كل ما يخص البلياردو والمراهنات، وفي بار الشرفة عن كل ما يخص مواعيد الحفلات، وفي البار الرئيسي عن الدعم وكيفية المساعدات.. فضلاً عن لوحة على الباب الرئيسي فوقها عشرات الإعلانات التي تخص الحي من شقق للإيجار ومزادات. كانت الصراعات أشبه بصراعات الأحزاب الكبيرة؛ الجميع يريد أن يثبت ولاءه، الجميع يلقي بالتهم على الآخر؛ لشدة ما كانوا يكرهون بعضهم البعض. وبدا لها النادي كما كانوا يطلقون عليه؛ عالمًا مختلفًا عن العالم الذي عاشت وتربت فيه، ماخور كبير الكل فيه يظهر على حقيقته. إنها كانت تراهم في الصباح حيث النشاط والاستعداد للعمل، أما سهرات يومي الخميس والجمعة فأثبتت لها أمورًا كثيرة. وجاء «وليام مور» ومعه فتاته المصرية، وسمعت صوته فميزته، واسترقت النظر للحديقة، وكان جالسًا مسترخيًا والفتاة تجلس جواره، وسألت أحد النُّدُل عنه، فقال لها: «نعم، إنه مور.. يحب الفتيات المصريات.. هل لديك فتاة تريدين أن تقدميها له؟» فتراجعت خطوة، ثم بصقت في وجهه وهتفت: «قذر».

وتدخل «خرستوف» كبير النُّدُل، وقال له: «اذهب، وإلا كتبت فيك تقريرًا.. أنا سمعت كل شيء». والتفت لها وقال:

– لماذا تسألين عنه؟

– أبدًا، كنت أتأكد من الاسم؛ لأنني عملت في منزله بضعة أعوام.

***

يجلس في الشرفة العريضة في شقته بالطابق الخامس في عمارة الشرق، فيكشف منطقة الفيلات المسماة بمنطقة السرايات، تبدو أمامه الفيلات الرائعة بحدائقها الشاسعة كلوحة بديعة.. تذكَّر عندما قالت له أمه المرأة البسيطة ذات الأصول الإيطالية مدام «مزوز»، والتي عاشت في القاهرة وكانت تعمل في الخياطة: «يودا، ستذهب لتعمل في القاهرة، وفي القاهرة يوجد الحي الإنجليزي، هناك سكرت أنفي رائحة الطين، والقمح، والهواء الرطب الآتي من النيل يحمل بين طياته رائحة الحياة.. هناك تنفس جسدي، وتشبعت مسامه برائحة الأشجار.. ستستطيع أن تتنفس، وتركض، وتكتشف للوجود سرًّا، سرًّا قديمًا؛ لعل الله نظر هناك، ثمة سحب تظلله، لا أعرف بالضبط، ولكن هناك شيء لا يمكن الحديث عنه، بل الشعور به، مثل الحب، والكره، والعطاء، شيء يتجلى في كل ركن».

يستطيع أن يرسم لك الحي الإنجليزي على يده بدقة متناهية؛ المداخل والمخارج، العمارات والفيلات، حتى عدد الأشجار.. فضلاً عن معرفته الجيدة بسائقي التاكسي المتمركزين على بعض النواصي الكبيرة والمهمة. يضع خطة لكل الاحتمالات؛ فهو كبير الحرس، والجالية الإسرائيلية كلها مسئولة منه، ولا تتحرك إلا بإذنه ومشورته. يسهر في بار الفندق، يمل من أحاديث الأجانب، يفضل الحديث باللغة العربية لتقويتها. ويجلس في «ديسكو فلاش» منزعجًا، ولكن من وقت لآخر يلقي نظرة على إيقاع الديسكو؛ حيث يرتاده ابن السفير الإسرائيلي. والأصل من نفوره من الديسكو ليس الانزعاج فحسب، ولكن السر يكمن في ملكيته للسيدة «ويلما جرول» الألمانية. بيد أنها لطيفة معه جدًّا وتتودد له ولابن السفير؛ حيث تعامله معاملة تليق بمكانته، لكن مهما فعلت فإن عليها أن تتحمل وزر الأجداد. لا

ينام أكثر من ست ساعات، ووقته كله يقضيه في الشوارع والأماكن العامة، وأحيانًا لا يستقل سيارته؛ يمشي على قدميه بهيكله القوي، ويراقب إيقاع الشارع بنفسه وعن قرب. ولما لاحظ معركة سعيد مع الشاب المصري الذي تهكم عليه، وقف في صف سعيد تلقائيًّا، على الرغم من أنهما مصريان، لكنه تعاطف مع سعيد بدافع طبقي؛ أمه كانت تعمل خياطة، ووالده كان تاجر سمك بسيط؛ فهو ينتمي لأسرة فقيرة مثله. وقال له بعد أن جذبه بعيدًا بحرفية رجل حراسات كبير:

- اهدأ يا صاحبي. وهي كلمة بدت دارجة على لسانه من طول ما اعتاد التلفظ بها؛ متعمدًا في بعض الأحيان.. فضلاً عن كلمة «باشا» التي لا يتوقف عن إلقائها على من يعرفهم من المصريين. علاوة على تحيته المفضلة للبسطاء عندما يمر بهم كل صباح حيث يقول»صباح الفول والطعمية«

فقد دفع سعيد الفتى المصري دفعة قوية في صدره، جعلته يسقط فوق الأرض وسط ذهول أصدقائه الأجانب. وجاءت مدام «ويلما» تسبقها عاصفة من الصيحات، ووقفت أمامه وقالت محتجة:

- أنت همجي، لا تصلح أن تعمل عندي.

وشوح سعيد بيده، وقال في عنف:

- أنا الآن لست في العمل؛ أنا من الرواد.

- ولو.. أنت تفسد جميع الأشياء.. اخرج من هنا ولا تأتي مرة أخرى.

وتدخل «يودا» على مضض، وقال لها:

- أنا شاهدت الواقعة.. صديقي ليس له ذنب في شيء.

– صديقك! هكذا قالت في توتر، ثم ابتسمت في وجهه واستأنفت بنبرة هادئة:

– أنت تعلم أنني من الممكن أن أضحي بأي شيءٍ غالٍ، مثل موظفي الجميل سعيد، من أجل راحة الرواد.

– لم يحدث شيء.

وهزت رأسها في حركة لاإرادية، ثم ذهبت.

– أنا «يودا» رئيس الحرس الإسرائيلي. هكذا قدم نفسه بسهولة لسعيد، ثم مد يده ليسلم عليه؛ فمد سعيد يده وصافحه. ثم قال له «يودا»:

– بهذه المناسبة أحب أن تتناول العشاء معي.

– شكرًا.

– لا بدَّ؛ نحن أصدقاء.. ستتناول بيتزا لن تستطعم مثلها في حياتك.

واستسلم سعيد لرغبته فقط لينسى ما حدث.. إن هذا الشاب طعنه في كرامته، منذ أن جاء الديسكو وهو لا يتوقف عن السخرية وإلقاء العبارات العنصرية؛ ليستفزه. كان الشاب يدعى رائد، وها هو الآن يفصح عن رأيه بصراحة ودون خوف.. يا له من لعين! لم يمر بهذا الموقف من قبل، متى جاء هذا المصري القذر الطبقي؟ ومتى استسلم لصداقته التي دائمًا ما كانت تشوبها ملاحظات يعجز عن مواجهته بها؛ من باب الكبرياء؟ وكلما تذكر موقفه يشعر بغصة في حلقه، ويهتف في نفسه: «لماذا لم أضربه حتى الموت؟». وذهبا لمطعم «لاكازيتا».. على الرغم من معرفته بالمطعم، فإنه لم يدخله من قبل. المطعم يقدم البيتزا الإيطالي وغيرها من المأكولات، لكن أسعاره

غاليـة. الجـو العـام في المطعـم يأخـذك لعـالم قديـم؛ الديكـور الهـادئ، المقاعـد الخشـب المتلاحمـة ببعضهـا ذات الظهـر العـالي، الترابيـزات الكبـيرة مـن خشـب الأبنـوس.. عـلاوة عـلى الإضـاءة المريحـة للعـين، والإيقـاع الأُبـرالي الرائـع الـذي يصـدح في جنبـات المطعـم. كان كل الجالسـين حولهم مـن الأجانـب الكبـار في السـن. التهـم قطعـة مـن البيتـزا، بينـما كان «يـودا» يـأكل بنهـم مسـتمتعًا بالطعـام. ثـم أعقبـا ذلـك بكـوزَي بـيرة دون كحول.

– – ألمانية. هكذا بادره «يودا» في خبث.

– من؟

– تلك المرأة الشمطاء.

– هل تعرفها؟

– لا. هكذا أجاب «يودا»، ثم واصل بسرعة:

– لماذا؟

– لأنـك تتهكـم عليهـا وتسـخر منهـا.. رغـم أنهـا أذعنـت لـك، ولم تطـردني مـن وظيفتـي احترامًـا لـك.

فارتبك وشعر بالحرج؛ فقال بمكر:

– كانـت تحدثـك بغلظـة، وهـذا مـا اسـتفزني.. أنـا أكـره مـن يسـتغل النـاس.

– هي امرأة شاذة بنت ستين كلب.

فضحـك «يـودا» مـن قلبـه ضحكـة جذبـت أنظـار رواد المطعـم، وكـذا العاملـين.. وهـز رأسـه موافقًـا عـلى قولـه، وقـال:

- نعم. نعم.. إنها شاذة حقيرة.. ابنة هتلر السفاح. وعاد يضحك بصوت عالٍ.

***

وبعد ذلك، تمتع سعيد برعاية كبيرة من مدام «ويلما جرول» أثناء عمله في الديسكو.. اهتمت بشئونه، وسألته على استحياء:

- هل حقًّا مستر «يودا» صديقك؟

- نعم، صديقي المقرب.. نتقابل كل يوم، ونتناول العشاء في «لاكازيتا».

لكنه ظل يترقب قدوم هذا المصري الذي طعنه في كرامته، وتحرى الدقة بعد ذلك؛ فأي صداقة تجمعه بأي أجنبي أوربي، على الفور يسأله: «هل لديك صديق مصري؟» ولو أجاب بالنفي، على الفور يتخذه صديقًا. أما إذا كان له صديق مصري، فعلى الفور يقطع صلته به. وكان يقول في نفسه: «إن العنصر المصري قادر على إفساد أي علاقة بطبقيته الأزلية». وظلت في نفسه الشحنة العدائية تتضخم لهذا الكائن الذي أهانه، واندفع في عدوانية شرسة.. فذات ليلة اقتحم هو وأصدقاؤه منزلاً لعائلة إفريقية تقيم احتفالاً، وظلوا يقاتلونهم بوحشية، حتى الأطفال لم يسلموا من همجيتهم. وأبلى سعيد بلاء حسنًا؛ أفرغ الشحنة في هؤلاء، فضلاً عن كرهه الأزلي لهم. وصدحت الصرخات في العمارة، وتحولت الشقة لحطام، وهرع الأطفال يختبئون، وجاء الرجال بالسكاكين من المطبخ يدافعون عن أنفسهم وأولادهم. ولكن منظر الأجانب وصيحاتهم والأسلحة البيضاء الحديثة التي يتحصنون بها، أرهبتهم.. وظلت النساء تصرخ.. ولما سمعوا بقدوم الشرطة هرعوا في سعادة غامرة؛ إنها مغامرة كبيرة أسعدتهم وملأت

وقتهم. مثل هذه الهجمات كانت تتكرر كل أسبوعين على الأكثر. وفي النهاية لجأ الأفارقة لـ «جماعة الرابطة»، وقالوا لهم كل شيء، ودفعوا لهم كثيرًا حتى يتصدوا لهؤلاء الأجانب. وخططت «جماعة الرابطة» لهذه الهجمة الخطيرة التي لو كُشف أمرهم فيها، لتم طردهم من الرابطة وسحقهم. ولكن بدافع عرقي في المقام الثاني بعد النقود، تولوا القيام بهذه الغارة. وانتظروهم على ناصية شارع ٨٤، وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل. ولما خرجوا من «ديسكو فلاش» يترنحون من أثر الكحول والرقص المتواصل، هجموا عليهم، وظلوا يركلونهم بقوة وشراسة.. وظل الأجانب يهرعون في الشوارع الجانبية وهم يصرخون، ولم ترحمهم «جماعة الرابطة».. استطاعوا أن ينالوا منهم.

تغيب الأجانب بعد هذه الحادثة التي تحدث عنها كل الناس في الحي، وجاء رئيس المباحث وحقق بنفسه، وفي النهاية قالوا إنه خلاف بين الشباب وبعضهم أدى لهذه المعركة، وقال شاب للضابط: «كانت أقدامهم طويلة جدًّا؛ كانوا يركلوننا في وجوهنا بأقدامهم». وقال له الضابط: «أصدقك، ولكن جميع الأفارقة يتمتعون بأقدام طويلة.. سنجمع كل المقيمين في الحي ونعرضهم عليكم». فقال آخر في تهكم: «إنهم هجموا علينا في الليل؛ فكيف نتعرف عليهم وهم والليل كانوا قطعة واحدة؟!».

وافتقد سعيد أصدقاءه، وظل يسهر وحده ويقول لمن يحضرون: «كم كنت أتمنى أن أكون متواجدًا في تلك المعركة». وجاء رائد وقال له:

— سعيد، أعتذر لك عما صدر مني.

ثم عزمه على زجاجة بيرة، وبدأ يدعوه للجلوس والخروج معهم. والحقيقة أن سعيد لم يشك في نواياه، وظن أنه ردعه بتلك الضربة،

وأنـه بـدأ يعمـل لـه حسـابًا.. وظـل رائـد طـوال شـهر يخطـط لـه، حتـى قـال لـه ذات يـوم:

– تريد أن تسهر معنا الليلة؟

– أين؟

– في بيـت «كارولـين».. كل شيء معـد؛ الماريجوانـا، وأجـود أنـواع الخمـور، وأصدقـاء «كارولـين».. هـا، مـا رأيـك؟

تفكَّر سعيد قليلاً، وقال له:

– لـن تسـمح لي المدام بمغـادرة العمـل.. أعطنـي العنـوان وأنـا سـألحق بكـم.

– لا، أنا سأنتظرك حتى تنهي عملك.

اندهـش سـعيد مـن إصراره، والحقيقـة سـاوره الشـك، وتسـاءل في نفسـه: «مـاذا يضمـر لي في نفسـه هـذا اللعـين؟» ولكنـه عـاد وقـال: «ولتكن مغامـرة» هكـذا عـزم عـلى الذهـاب معـه رغـم شـكوكه. فقـد اسـتمد قوتـه مـن صديقـه رئيـس الأمـن الإسرائيـلي؛ فهـو يعلـم أن لا أحـد يجـرؤ عـلى التعـرض لـه. وأضـاف: «أقـصى مـا هنالـك معركـة، وهـؤلاء أسـتطيع أن أسـحقهم وحـدي».

أنهـى العمـل واسـتبدل ملابسـه، وخـرج مـن غرفـة العاملـين وهـو مشـحون برغبـة جامحـة لمعرفـة مـا يضمـره لـه هـذا الرائـد. نـزل عـبر السـلالم، وكان جـو الفنـدق بعـد الواحـدة صباحًـا يبـدو هادئًـا.. رجـال الأمـن الخـاص يتمركـزون أمـام البوابـة بقمصانهـم الزرقـاء، وموظفـو الريسبشـن يقبعـون في هـدوء خلـف مكاتبهـم. حيَّـاه رجـال الأمـن بعبـارات فكاهيـة؛ فهـم يحبونـه لأنـه دائـمًا مـا يعقـد معهـم الصفقـات..

فأغلب رواد الديسكو يأتون ومعهم زجاجات الويسكي الفاخرة، ويطلبون فقط الخدمة؛ فيأخذ الزجاجات ويستبدل بها أخرى رديئة، ويهربها بواسطة الأمن، ويبيعها لعزيز موسى، ثم يتقاسمون النقود.

كانت السيارة الجيب الكبيرة السوداء تستقر على ناصية شارع ٨٤، وبها يجلس رائد وأصدقاؤه الأجانب. لمحه يأتي من خلال المرآة، فبصق على الأرض بلغمًا من كثرة التدخين، وصاح:

- صاحبي، اتأخرت كتير.

كان الجو شتائيًّا، وكان يرتدي جاكيت من الصوف له ياقة كبيرة، وبنطلون جينز، وحذاء رياضيًّا.

- بس قولي، ازاي بتذهب للبيت في هذه الساعة المتأخرة وأنت تقطن في «عزبة البوليس»؛ أليس كذلك؟

- ليست بعيدة «عزبة البوليس». هكذا قال، وقد أيقن أن هناك ملعوبًا.

- هيا بنا.

جلس في الكنبة الخلفية بجوار النافذة، وكانت يجلس بها اثنان آخران؛ رائد وفتى أجنبي ظل يضحك بهستيرية. جلس رائد في النصف، بينما كان يقود السيارة شاب آخر يبدو مصريًّا؛ كان صامتًا ويدخن في شراهة. وكان يجلس بجواره فتى أجنبي وسيم للغاية؛ له عينان زرقاوان، وشفتان شديدتا الاحمرار، وشعر كثيف يسترسل حتى كتفه في لون ذهبي مثير. من لا يعرفه، على الفور سيظن أنه فتاة.

صاح رائد بصوت عالٍ:

- هيا.

وانطلقت السيارة في سرعة كبيرة، وظلت تجوب شوارع السرايات. بينما سعيد يراقب كل حركة حوله، وقد شعر بشيء ما سيحدث. مد رائد يده إلى الخلف والتقط زجاجة بيرة. ظل يرجها، ثم طرقع الغطاء بخاتم غليظ في إصبعه الكبيرة؛ فتفجر السائل وتناثر عليهم. ثم أعطاها لسعيد، الذي التقطها وهو صامت في ذهول. وظل رائد يلتقط الزجاجات ويطرقع فيها.. وقد أحدث ذلك بِركة داخل السيارة. ثم مد يده مرة أخيرة وأخرج مسدسًا، وصوَّب الماسورة إلى رأس سعيد وصاح:

- سأقتلك يا ابن المومس.

انكمش سعيد في رعب، وظل رائد يصيح بعبارات بذيئة وقد احمر وجهه، ولمع رأسه الأصلع.. وكانت عينه حمراء إثر تجرُّع البيرة والماريجوانا:

- هقتلك زي الكلب.

ثم بصق في وجهه، ولكمه لكمة سريعة. وانحدرت السيارة من شارع ١٣، واتخذت وجهتها ناحية شارع بور سعيد.. وفي منتصف الشارع عند فيلا السفير الإسرائيلي، اخترقت السيارة في جنون الحاجز الأمني الخلفي للفيلا؛ مما أثار رجال الأمن المتمركزين حولها. وأثناء ذلك، أطلق رائد عدة طلقات صوَّبها نحو بيت السفير، وظل يصرخ هو ومن حوله.. بينما سعيد تنتابه حالة من الذهول. وانطلقت خلفهم سيارات الشرطة، وظلت تطاردهم في أنحاء السرايات.. وكانت مطاردة شرسة، أيقظت سكان السرايات في ساعة متأخرة. وعند شارع القناة، فتح رائد الباب من ناحية سعيد، وظل يركله بقوة والسيارة تجري بسرعة.. ظل يهدده؛ إما أن يقتله أو أن يقفز.. وظل يركله بقوة

وقد استجمع قوته كلها. وعند ناصية شارع ٨٦ هدأت السرعة قليلاً، بينما ظل رائد يركل فيه بقوة وسعيد متشبث بالباب. ثم خارت قواه فقفز فوق حديقة، وهنا توقفت سيارات الشرطة وقبضوا عليه.

***

استمرت العلاقة بينهما طيلة شهر تنتهي وتبدأ في الرابطة، التي ملت جوها الكئيب، خاصة مديرها الدانماركي الذي لم يتوقف عن النظر إليها، ومحاولة التقرب منها بأكثر من طريقة؛ الأمر الذي جعلها تخطط جيدًا لمعرفة موقف سمير منها. فاعتذرت عن الذهاب مرة واثنتين، بل تهربت منه متعمدة، ولجأت لحيل كانت تقرؤها في الكتب؛ فإن الرجل لا يطيق أن يرى حبيبته أو صديقته سعيدة مرحة.. تغني.. ترقص.. من دونه؛ إن مدلول ذلك عنده أنها على علاقة بآخر، علاقة تسعدها، كأنها لا بدَّ أن تكون من دونه تعيسة مهمومة.. «هذا هو الرجل في كل مكان؛ أناني قذر» هكذا قالت في نفسها. ولما كانت تلمحه جالسًا في الكافيتريا، كانت تمر جوارها وفي أُذنيها سماعات الووكمان، وتصطنع الغناء.. بيد أن الووكمان يكون مغلقًا، فهي تغلقه لشيئين؛ أولهما لتتظاهر بالسعادة إلى حد الغناء في الشارع، على الرغم من عدم رؤيتها إياه عدة أيام، والشيء الثاني لتتجاهله إذا ناداها، وتبرهن بأنها لم تسمعه لأن السماعات كانت تسد أذنيها. وفي هذا اليوم انتظرها في الشارع، واستوقفها في حدة وقال لها:

– مديحة، ماذا حدث؟

خلعت السماعات من أذنيها، وقالت له في غير اهتمام:

– نعم؟

– ماذا حدث؟

- لـن أذهـب لهـذه الرابطـة مـرة أخـرى.. أنـت فاهـم؟ هكـذا تحدثـت بهـدوء.
- لماذا؟
- دون سبب.. شيء ما شعرت به.

صعـدا للمطعـم وجلسـا فيـه.. تأملهـا في شـوق، واقـترب مـن وجههـا فزكمـت أنفـه رائحتهـا؛ فأسـكرته.. وقـال بلسـان مستسـلم:

- هل أغضبتك في شيء؟

أشـاحت بوجههـا عنـه، وكان وجههـا عابسًـا. وأدرك أن هنـاك شـيئًا قـد حـدث؛ فقـال لهـا مدفوعًـا برغبـة مـا:

- تكلمي.. ماذا حدث؟

عادت بوجهها له وقالت:

- ماذا تريد مني؟
- أنا أحبك.
- هه.. وماذا بعد؟
- ماذا تريدين؟

قامت ووقفت أمامه وقد امتقع وجهها، وقالت له بحدة:

- أنـا لم أطـاردك في كل مـكان، ولم أدعُـك إلى العشـاء.. وأخـيرًا أنـا ابنـة نـاس محترمـين، ولا أقبـل علاقـة غـير طبيعيـة.. أظنـك فهمـت.
- مديحة، انتظري.

نزلـت عـبر السـلالم الرخاميـة للشـارع العمومـي، وسـلكت شـارع «وهيـب دوس». فلحـق بهـا، وجذبهـا مـن ذراعهـا، وقـال لهـا:

- لا بدَّ أن نتحدث.

وقفا في الميدان أسفل الكوبري، وجلسا على مقعد يتوسط الميدان. استسلمت له وهو يمسكها من يدها ويجذبها نحو المقعد، كأنها طفلة صغيرة تتبع أباها في استسلام.

كان جو فبراير رائعًا؛ رذاذ من المطر يتطاير في الهواء، وكانت السماء غائمة وتملأ الجو نسمات باردة، لكنها لذيذة منعشة. وضعت يدها في جيب الجاكيت الجينز، ولفت ساقًا فوق الأخرى، وظل فمها يطرد بخارًا كثيفًا. وبينما كانت تتنهد بسرعة وتسري في جسدها رعشة ناتجة عن قربه منها ومسكه ليدها، نظر إليها، وكانت عينه لها بريق غريب ليس مريحًا، فضلاً عن ملامح وجهه التي بدا عليها شيء من المكر. عقد حاجبيه، وظل يتنفس من أنفه فقط بعد أن أطبق شفتيه بطريقة من فطن لشيء فوفر حديثه.. ولما استمر صمتها قال:

- نتجوز. هكذا قال بسرعة، كأنه يتجاوز لحظة حرجة بقفزة واحدة.. وعاد لوضعه في انتظار الإجابة النموذجية.

ظلت صامتة تنظر في اللاشيء، بينما تقفز السعادة داخلها.. وابتلعت ريقها بصعوبة وظلت صامتة؛ فاستأنف هو:

- نبدأ بعقد عرفي، إيه رأيك؟ هكذا بدأ أولى مناوراته بجرأة.

التفتت له وقد امتقع وجهها وسقط قلبها، كأنها هوت من ناطحة سحاب فتحطمت تمامًا، وقالت:

- على فكرة في كتير من البنات المومس لهن أجساد تماثل جسدي.. تستطيع أن تستأجر منهن ما تريد.. مع السلامة.

- أنا لا أفهم كيف أرضيكِ.

- إنت مش محترم.
- احترمي نفسك، ولا تتجاوزي في حقي.
- أنـت تجـاوزت.. من الأول أظنـك تريد جسـدي، ولكن كذَّبـتُ ظنوني.
- هـذا كل مـا عنـدي.. ستعيشـين معـي، وسـتنعمين بجميـع امتيـازاتي كمواطـن أمريكـي.
- أنـت تصر عـلى إهانتـي.. أنـا لسـت مومسًـا مثل أمـك. هكـذا اندفعت بسرعـة في سـبابه، كـرد فعـل سريـع لتحطـم أحلامهـا.. إنـه دمرهـا، وأفسـد عليهـا الدنيـا كلهـا؛ لذلـك لم تسـتطع أن تتحامـل عـلى نفسـها.

لطمهـا عـلى وجههـا؛ فمالـت عـلى المقعـد، واسـتندت بسـاقيها قبـل أن تسـقط عـلى الأرض.. فتحسسـت وجههـا في ذهـول، وشـعرت أنـه تجمـد مـن اللطمـة، وبـدأت الدمـاء تنـزف مـن أنفهـا. وكان هـو واقفًـا أمامهـا ووجهـه أحمـر شـديد الغضـب، مسـتعدًّا بـكل قـوة أن يسـحقها لـو فكـرت أن تهينـه مـرة أخـرى.

بصقـت في وجهـه. ولمـا حاول أن يسـدد لهـا لطمة أخـرى، تنحَّـت جانبًا وضربتـه بحقيبـة يدهـا، فارتطمـت التسـديدة في مؤخـرة رأسـه، وصـاح:

- يا بنت المومس.. أنا هوريكي هأقدر أعمل إيه.

وفي لمـح البـصر تجمـع النـاس حولهـما، فدفعتهـم وهـي تجفـف أنفهـا، وهرعـت ناحيـة شـارع مصطفـى كامـل.

***

عندمـا يمـر الإنسـان بموقـف مخـزٍ، أول شيء يفعلـه هـو أن يسـخر مـن نفسـه ومـن أفـكاره، ويتـمادى في رمـي نفسـه بألفـاظ بذيئـة؛ يكـون دورهـا أن تُهـدئ مـن انفعالـه الشـديد على نفسـه. وعندمـا يهـدأ، يـشرع في التفكير

بهدوء.. يستعيد كل لحظة مرت في هذه التجربة، ويبدأ في شد خطوط تحت السقطات التي يظنها هي التي أوقعته في هذا الموقف المخزي. ثم يشعر بعد ذلك بالراحة؛ لأنه لم يكن مخطئًا.. هو تصرف بتلقائية بريئة، ولكن أُسيء فهمه.

جففت دمعتين انزلقتا على خديها، وقالت بصوت سمعته هي فقط وكان له دوي هائل في نفسها:

- غبية.

كانت تظنه الزوج الذي جاء لها وهي تقف في منتصف العشرينيات، شاب تحلم به أي بنت مثلها. واستطاعت أن تعامله بحرص، كانت تأمل أن يتزوجها وتعيش معه حياة طبيعية مثل أي فتاة. لن تستطيع العمل كجليسة أطفال طوال العمر. ورسمت لنفسها حياة رائعة.. الأطفال الذين ستحسن تربيتهم.. البيت الذي ستعتني به.. كل شيء رتبت له جيدًا. ولكن جاءت اللطمة؛ فاستفاقت على الواقع المرير:

- نتجوز عرفي.

وهمست في نفسها بحسرة: «أكيد خلع الحجاب له أثر في ذلك.. لقد أغضبت الله، وهذا هو جزائي.. آه، الحمد لله على هذا الجزاء في الدنيا. ومش بعيد يكون افتكر إني فرطت في ديني بسهولة وتخلصت من الحجاب بضربة واحدة، فيمكن أن أتخلص من شرفي وأقبل العيش معه كنصف عاهرة».

ظلت الأفكار تعصف بها في كل اتجاه.. شعرت بالمرارة، وفقدت الشهية لكل شيء. انتهت من العمل، وذهبت إلى أمها.. تمنت أن تبكي بمرارة، وأن تقول كل شيء.. لكن في النهاية هي المسئولة.

قطعت المسافة من ميدان مصطفى كامل إلى شارع ١٣ في ربع ساعة تقريبًا، والمسافة بينهما لا تتعدى ثلاث دقائق سيرًا على الأقدام.. لكنها كانت تسير دون وعي بالطريق؛ حيث كانت تقف بين لحظة وأخرى وتستغرق فيما مرت به، ثم تعاود السير.

***

احتجزوه في مكتب أمن الدولة وجاء الضابط والقى نظرة طويلة عليه، وكان جالسًا معصوب العينين، وقال الضابط بنبرة تنم عن معرفة سابقة:

- «سعيد محمد عبد المقصود»
- أريد التحدث في التليفون ..هكذا قال يستغيث وهو جالس على مقعد بلاستيك
- لماذا؟ هكذا قال الضابط وهو يتأمله في هدوء حذر
- أريد السيد «يودا» رئيس الحرس الإسرائيلي ..
- طبعًا، ولكن هل سيأتي؟
- أكيد ..هو صديقي . هكذا قال في ثقة
- السياسة ليست فيها صداقة، تريد أن تورطنا مع إسرائيل، لماذا اطلقت النار على منزل سيادة السفير؟ ومن كان معك؟ هكذا قال في نبرة رسمية حادة
- أنت تعرفهم جميعًا ..
- بينهم أجانب؟
- نعم .

- أنت تعتقد بعد هذه الجريمة ستظل صديق مستر» يودا»
- طبعا هو يثق فيّ
- على العموم هو على وصول ..سنرى.. ماذا سيفعل.

عندما دخل قسم الشرطة، انقلب وضج؛ «فقد جاء رئيس الأمن الإسرائيلي ليحقق بنفسه في الواقعة» هكذا ظن الضباط بعد أن دخل غرفة الضابط. كان مرتديًا صديري كاكي، ويبدو من أسفله خرطوم جهاز اللاسلكي.. فضلاً عن البنطلون متعدد الجيوب، والحذاء الضخم.. صافح سعيد بحرارة وصاح:

- ماذا حدث؟
- أنت بتتكلم عربي؟ هكذا بادره الضابط بسذاجة.
- نعم.

وظل الضابط يتابعهما في تأمل، كأنهما حبيبان والتقيا بعد فراق فقال «سعيد» غاضبا:

- يتهمونني بضرب النار على بيت السفير الإسرائيلي.
- هه.. مش صحيح يا باشا؛ ده صاحبي، أنا بعرفه كويس. ثم أنا حققت وعلمت أنها ليست واقعة مقصودة.. ثم الطلقة فشنك. هكذا تحدث «يودا» في سخرية شديدة.. والتفت إلى سعيد وقال:
- صديقي، هل أنت بخير؟

***

الجزء الرابع

يقول البعض إن «لارس هيو» ليس في حاجة لأن يعمل؛ فقد وُلد وفي فمه ملعقة ذهب، فهو ثري حتى النخاع؛ لذلك استجاب للعمل التطوعي، ورأس إدارة الرابطة.

وعلى الرغم من أن «لارس هيو» ثري جدًّا، فإن مظهره بسيط، إلا من الأشياء الدقيقة.. يرتدي البنطلون الجينز الملطخ ببقع كبيرة، أو قميصًا له ياقة كالحة، بينما في يده ساعة «رولكس» مرصعة بالذهب الخالص.. أو ستجده يدس في قدمه حذاء ماركة «أكسفورد» الكلاسيكي، علاوة على أفخر أنواع العطور التي يقتنيها بحرص، وأيضًا الخواتم الذهبية التي تزين أصابع يده؛ حيث يرتدي خاتمين، واحدًا بحجر من الياقوت الأزرق، وآخر كلاسيكيًّا بسيطًا. وأيضًا السيد «لارس هيو» بسيط في تعامله مع الأشخاص، ويجيد اللغة العربية، يعيش بمفرده في شقة صغيرة في ميدان دجلة، شقة تطغى عليها روح البساطة؛ حيث الأثاث قليل، ولكن دائمًا ثلاجته عامرة بأفخر أنواع البيرة وقليل من زجاجات الويسكي.. تجاوز الستين عامًا ببضع سنين، طويل وجسده ضامر، رأسه كبير مليء بالأفكار الإنسانية، وأيضًا بالشذوذ.. له شخصيتان منفصلتان تمامًا؛ فهو شاذ يميل للشيء الناقص، يفتنه الشاب الوسيم، يتأمله بعين جائعة، وبأي طريقة يقترب منه ويتخذه صديقًا، ويتبع معه أساليب دائمًا ما تثير دهشة الحاضرين، فله طريقة غريبة في السلام بالأيدي؛ حيث يقبل أصابع يده الخمسة أثناء السلام، فضلاً عن طريقته في أداء الحركة الممزوجة بلغة ناعمة، وتقلصات مثيرة لملامح وجهه المجعدة.. وبعد أن يقترب منه ويصبحا صديقين، يبدأ في الفقرة الثانية؛ حيث يغازله بطريقة ليست مباشرة، فينعته بقوله: «أنت تشبه امرأة جميلة».. وغالبًا بعض الشباب الذين عرفهم كانوا يتقبلون منه هذه المغازلات كنوع

مـن المـزاح (السـخيف بعـض الـشيء)، ولكـن بقـدرة كبـيرة يقـترب شـيئًا فشـيئًا، إلى أن يصـل بـأن يلطمـه عـلى المؤخـرة، فـإذا اسـتجاب الشـاب يدعـوه إلى شـقته ليتجرعـا معًـا أكـواز البـيرة الفاخـرة، ويضاجعـه.. أكثـر ضحايـاه مـن الأجانـب، ولكنـه يحـرص عـلى سريـة هـذه العلاقـات جـدًّا وكأنهـا سر عسـكري رهيـب؛ فهـو لا يسـتطيع أن يخسر كل شيء.. وأيضـا يميـل للفتـاة القويـة؛ ليسـت قـوة الشـخصية، ولكـن القـوة العضليـة.. الصـوت المحـشرج.. اليـد الناشـفة.. لذلـك كان يميـل للفتيـات الإفريقيـات؛ لأنهـن كـن يمارسـن أعـمالاً شـاقة.. بعـد أن يسـتدرج الفتـاة، أول شيء يفعلـه هـو أن يهديهـا عطـرًا رجاليًّـا؛ فمنهـن مـن كانـت تفطـن لمدلـول ذلـك، ومنهـن مـن كانـت تظنـه خطـأ غـير مقصـود.. يتدفـق الـدم إلى وجهـه عندمـا تسـكره الرائحـة، وعـلى الفـور يطلـب منهـا أن تتحـدث عـن نفسـها بصيغـة المذكـر، وأثنـاء الجـماع لا يشـغله إلا صوتهـا والكلـمات التـي ترددهـا بصيغـة المذكـر، فيقـضي معهـا لحظـات، يسـترجعها كثـيرًا فتنعـش مزاجـه، وتجعلـه راضيًـا عـن كل شيء.

السـيد «لارس هيـو» مؤمـن جـدًّا بـأن كل شـخص لـه دور؛ دور واحـد فقـط، إمـا أن يؤديـه ببراعـة، أو أن يخفـق فيـه فيحـل البديـل. أما الشـخصية الثانيـة فتتمثـل في إيمانـه الشـديد بقيمـة العمـل الإنسـاني؛ فعندمـا أعلنـت الرابطـة عـن حاجتهـا لعـمال أفارقـة يخدمـون الـرواد، توافـد الكثـيرون مـن الأفارقـة، خاصـةً الفتيـات، وفـور علمهـن – أي الفتيـات بالتحديـد – أن «لارس هيـو» هـو المديـر والمسـئول في الرابطـة، شـعرن بسـعادة بالغـة، لكنهـن وجـدن شـخصية أخـرى.. ظـل «خرسـتوف» يدخلهـن واحـدة تلـو الأخـرى وهـو قابـع خلـف مكتبـه في الرابطـة، وفـوق عينيـه عويناتـه الرقيقـة ذات الإطـار الذهبـي، وكل فتـاة تخـرج، زميلاتهـا يجـدن وجههـا محتقنًـا، وتظـل تـردد عبـارات بذيئـة؛ فالفتيـات خضعـن لبروتوكـول

وظيفي قاسٍ.. يظل يوجه الأسئلة ووجهه في الأوراق، وبطريقة رسمية عندما يجد الأوراق ناقصة، يزفر بتنهيدة طويلة تنم عن استنكاره الشديد، ثم يقول: «ليس مطلوبًا مني أن أكرر الكلام كل مرة، أنتِ تتقدمين للعمل في نادٍ يقدم المأكولات والمشروبات، طبيعي أن تقدمي شهادات موثقة تثبت سلامة صحتك من الأمراض، وأوراقًا تثبت إقامتك في القاهرة بطريقة شرعية، إجادة اللغة الإنجليزية أولاً ثم الفرنسية كما حددنا في الإعلان، شهادة موثقة تثبت إجادتك الخدمة، وأخيرًا، وهذا هو الأهم «النظافة الشخصية».. ماذا أفعل بشهادة قذرة من أسرة كنتِ تقبعين في خدمتها.. هل أنا أطلب المستحيل؟».

وانتهت تلك المقابلات التي استمرت أسبوعًا بعمل فتاتين «ليريس» و»دونا»، «وسيمون» وهو شقيق «ليريس»، وكان يعمل في متجر «عزيز موسى»، وفتاة ثالثة تم طردها في أول أسبوع عندما وجدها في الممر المؤدي للحديقة الخلفية، وكان هناك شخص فوقها وقد طرحها على بطنها وأولجه فيها، وكانت العملية تنم عن اتفاق بينهما.. صرخ في عنف وقد انتفض بقفزة تلقائية ولطمها بقسوة، وركل الرجل في مؤخرته العارية، وصرخ في وجهه: «لن أرحمك يا ابن العاهرة»، والتفت لها وكانت قد ارتعدت وراحت تبكي في مرارة: «سأبلغ البوليس والسفارة وأطردك من مصر كلها.. أنتِ لا تصلحين للعمل في مكان محترم».. طردها بفضيحة كبيرة لتكون عبرة، وتم شطب عضوية تلك الزائرة.

هذه هي شخصية «لارس هيو» الثانية، وأثبت للأعضاء جميعًا أحقيته في شغل هذا المنصب باقتدار.. كان الطرد أو الحرمان من دخول الرابطة هو المصير المحتوم لكل من يحطم القواعد.

***

اعتادت مديحة أن تأتي كل صباح لتجلس مع أمها في الرابطة، أغلب العاملين لا يأتون في الصباح؛ لذا اعتمدت الرابطة على رواد المساء ويومي الخميس والجمعة. في الصباح ثمَّة رواد يأتون لتصفح الجرائد واحتساء القهوة، وأغلبهم من النساء اللاتي يحرصن على جلسات النميمة، وبعض الرجال الذين انتهت عقودهم فقرروا المكوث قليلاً قبل العودة إلى بلادهم.

كل صباح تأتي السيدة سميرة، فضلاً عن «ديوانا» و«خرستوف» و«دونا»، وشابين قويين يقومان باستلام الخضار الطازج من شركة «سيكم».. أما باقي العمال فيأتون في الثالثة عصرًا للإعداد.

كانت مديحة منزعجة جدًّا في هذا الصباح، دخلت من باب العاملين، وقصدت الحديقة حيث تجلس أمها.. حدجتها سميرة بنظرة فاحصة، وتساءلت في لؤم:

– ماذا حدث؟

– لا أريد الاستمرار مع السيد «دينس».

– لماذا؟

– أف.. ماما، ليست لي طاقة بالأطفال.. رائحة البراز تسكن أنفي.. أووف.

– أنتِ وشأنك.

– بالتأكيد.

وتابعت باهتمام العمال وهم يقومون بإعداد القهوة لبعض الرواد، واستلام الخضار، وكان هذا الجو ينعشها، عالم منفصل تمامًا، وجود الموظفين الأفارقة صبغها بشيء ما؛ شيء لا يمكن تفسيره، ولكن ثمَّة

شعور يداهمها وهي تراقب حركة العمال والأجانب الذين يجلسون تحت أشجار الكافور يحتسون القهوة؛ بأن هذه الرابطة ليست في القاهرة، وإنما في مكان ما.. ربما في مقاطعة صغيرة في إنجلترا، أو في ريف فرنسا.. ولكن حتمًا ليست في القاهرة.. قالت سميرة:

- عملي يبدأ في التاسعة.. وها هو الوقت قد أزف بسرعة.. لم يبقَ على الشقاء إلا بضع دقائق.
- ماما، لن أُضيع وقتك.. أريد العمل هنا.

وأثناء ذلك دخل «لارس هيو»، ولما شاهدها تجلس في الحديقة مع أمها لم يصدق نفسه، وقال في نفسه: «إنه القدر».. نعم إن «لارس هيو» لا يأتي إلى الرابطة إلا في المساء؛ حيث يبدأ مباشرة عمله.. ولما شاهدته سميرة وقفت ورحبت به مندهشة من قدومه باكرًا، تعلم صرامته في العمل، لكنه ابتسم وتقدم نحوهما، بينما كانت مديحة تستعد لمغادرة المكان بسرعة، استوقفها وقال:

- أهلاً.

فتدخلت سميرة وقالت:

- إنها ابنتي.. جاءت تسألني عن شيء. هكذا بادرته بسرعة.
- أي شيء؟ هل يمكن لي أن أعرف هذا الشيء؟

تبادلتا النظرات، وقالت سميرة في سعادة:

- إنها تبحث عن وظيفة.. هل يمكن لها أن تعمل هنا؟

اتخذت ملامحه شكلاً جديًّا، وقال في نبرة رسمية:

- هل عندك خبرة في خدمة الرواد؟

- نعم.. كنت أعمل عند السيد «دينس» منذ عام، خلاف عدة أسر. هكذا قالت في ثقة.

بدا الانزعاج عليه، وزفر بتنهيدة عميقة وقال:

- الآن تأكدت من كم المعاناة التي يحياها الأساتذة في المدارس؛ كثرة الشرح مرهقة، هل تعلمين أنني لصقت ورقة حقيرة هنا أقول فيها للمتقدمات للعمل هنا إن ثمَّة اختلافًا بين العمل في منزل لدى أسرة حقيرة، وبين العمل في نادٍ كبير؟

احمر وجهها وقالت:

- هذه حقيقة يا سيدي.

- خدمة أسرة تختلف عن الخدمة في النادي.. لا بد أن تفهمي ذلك.

- أعلم ذلك.. ولكن لديَّ الخبرة.. علاوة على إيجاد اللغتين الإنجليزية والفرنسية.

- رائع.. سأتحدث في ذلك مع الأعضاء.

وأثناء حديثه معها اقترب منها، وبطريقة لا إرادية مسك يدها، وظل يعبث في أصابعها، والحرارة تتدفق في وجهه وأذنه حتى احمرتا.. يعرفها جيدًا، طالما راقبها وهي جالسة مع سميرة، هي من النوع الذي يحبه، في عينيها تكمن القوة التي يسعى لها؛ نظرة قاسية، فعندما تقطب حاجبيها يشعر بأنه واجبٌ عليه أن يفترسها، ويدخل معها في معركة عنيفة، يستخلص منها عطر الحياة الذي ينعشه.

***

إذا وقف شخص أمام عاهرة متمرسة، وقال لها: «أنتِ عاهرة»، على الفور ستنشب بينهما معركة دامية ستكون فيها هي الأقوى، ستحاول

سحقه بكل ما أوتيت من قوة؛ لأنه ببساطة أهانها، ليس معنى أنها تتاجر بجسدها أنها ستتركك تصفها بهذه الكلمات وتعقب عليها بالضحك، وتقول لك عندك حق أنا عاهرة.. مؤكد أنت لا تعرف المرأة.

ومديحة ليست عاهرة، ولكن عندما وقف أمامها وطلب منها أن تتزوجه عرفيًّا شعرت بأنها رخيصة جدًّا، وظل هذا الجُرح النافذ ينزف ألمًا شديدًا، ولكن استطاعت أن تتناسى كل ما حدث واعتبرت ذلك درسًا كبيرًا استفادت منه الكثير والكثير، وبعد أن هدأت النار شيئًا فشيئًا، تبيَّن لها كم كان طبقيًّا حقيرًا؛ كان يشعر بالخجل من الجلوس مع مستر «دينس»، لاحظت أنه كان يصدِّر لمستر «دينس» ملاحظاته عليها من حيث نُدرة لونها البرونزي، وقَصَّة شعرها، وقوامها وثقافتها.. دائمًا كان يبرز هذه الأشياء؛ ليؤكد له أنه لا يقبل بعلاقة مع خادمة إلا إذا كانت من صنف مديحة.

والآن وبعد أن عملت في رابطة المغتربين وسط جماهير من الأجانب، انتعش مزاجها وجيبها، وأثبتت من أول أسبوع جدارتها وتفوقها في العمل على كثير من الإفريقيات.. كان «اليونيفورم» يبدو عليها جذابًا نظيفًا مكويًّا بعناية، تعقد الفيونكة حول عنقها الطويل فتبدو في صورة رائعة.. طريقة تحدثها مع الرواد بكلمات لبقة قليلة، حركتها السلسة في حمل الكؤوس، ابتسامتها الواثقة التي يطغى عليها المهنية أكثر من المجاملة، إنصاتها لكلمات الرواد، إجابتها المختصرة بهزة رأسها.. كل ذلك جعل مديحة في مكانة كبيرة عند الأعضاء، وشعرت بالراحة في العمل، وجاء سمير ليسهر كالعادة سهرة الخميس؛ حيث تضج ليلة الخميس برواد كثيرين أكثرهم من موظفي النفط.. ظل جالسًا يتفحص العاملات، حتى ظهرت، فأشار لها فجاءت، هزت رأسها في أدب، وأصغت له في اهتمام بالغ..

تفحصها في ملابسها التي استنكرها عليها بشدة، وقال وهو منزعج:

- منذ متى وأنتِ تعملين هنا؟

- هل ترغب في تناول شيء الآن؟ هكذا قالت متجاهلة سؤاله.

امتقع وجهه وقال:

- أنتِ هتفضلي كده تخدمي.. مش تعيشي معايا أحسن؟

زفرت بتنهيدة عميقة تنم عن غيظها، واحتقن وجهها؛ إنه بلا رحمة، الجرح ما زال ينزف وما زال يضغط عليه بقوة. فقالت بحدة مقرونة بضبط نفس:

- ماذا تريد مني؟

- الحب.

- ليس عندي.

- كذابة.

- هل تريد أن تتناول شيئًا الآن؟ هكذا قالت بصبر نافد وقد ضغطت على مخارج الألفاظ.

- بيرة.

إنه يكرهها، ويريد أن يؤذيها.. هكذا ترجمت نظرة عينيه الزرقاوين؛ ولذلك فكرت بسرعة وقررت أن تبادر بالتصدي له قبل أن يتسبب في فصلها من العمل، والحقيقة أيضًا أنها وجدتها فرصة للانتقام منه.. ستسدد له ضربة قوية تعيد له عقله. فذهبت إلى «لارس هيو» في مكتبه؛ حيث كان جالسًا وبجواره الأستاذ زاهر الذي رمقها بنظرة طويلة.. ولما وقفت أمامه، تساءل في لهجة جادة:

- ماذا حدث؟

- هناك زائر يصر على مضايقتي.

- من؟

- السيد سمير دانيال.

فقام مفزوعًا وقد احمر وجهه، وقال لها:

- تعالي معي. هكذا قال في هدوء بعد أن أومأ برأسه للأستاذ زاهر مستأذنًا.

وقف أمامه بقامته الطويلة، وانحنى وقال بلطف:

- ماذا طلبت أن تشرب؟

نظر لهما مستغربًا، ثم قال بثقة:

- بيرة.

- أريدك أن تتناولها معي في مكتبي للتحدث في أمر مهم.. تفضل.

ظل يتبادل النظر معهما، ثم تحرك معه في ثقة بدت في خطواته البطيئة، وكانت تمشي خلفهما، وكانت له رائحة تذكرها بخيبتها، وقالت في نفسها وهي ترمقه من الخلف: «الكلب كان يريد أن يستأجرني». ولما استقرا في مكتبه وكان زاهر جالسًا، قال له:

- أُعرِّفك.. هذا السيد زاهر؛ أحد أعضاء في الرابطة ومالك الفيلا، كما ترى رجل محترم يحب خدمة الناس.. تفضل بالجلوس.

جلس «لارس هيو» إلى مكتبه بعد أن تناول ملفًّا ظل يفحصه بعناية بعد أن وضع فوق عينيه عويناته، ثم قال له:

- أنت لست عضوًا.. أليس كذلك؟

– نعم.

– وليس لك أي نشاطات في الرابطة؟

– نعم.

– لماذا تضايق العاملة مديحة؟

– أنا.....

قاطعه «لارس هيو» في حدة، وخلع عويناته ووضعها جانبًا، ثم قال:

– بدون كلمات كثيرة.. إذا رغبت في الجلوس، يكون ذلك باحترام.

– أنا محترم. هكذا قال منفعلاً.

– أكيد.. ولكن نريد مزيدًا من الاحترام. ثم ابتسم في برود، وقام يصافحه:

– تفضل مع السلامة. هكذا طرده من الرابطة.

***

ستبذل مجهودًا في التعرف عليها؛ لا لأنها تحولت لامرأة خليجية ثرية في كل شيء.. العباءات المشغولة بالخرز الكريستال، والمرصعة بالفصوص البراقة، علاوة على صبغ وجهها بالمساحيق، خاصةً الكحل الطبيعي الذي يأتيها من الخليج مخصوصًا «الإثمد» هذا هو النوع الأصيل للكحل؛ حيث كان يُستخدم أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي جعل عينيها كبيرتين.. ولكن من انتقائها كلمات خليجية اكتسبتها من زوجها تلقائيًّا من المعاشرة، كلمات ممزوجة بذكر الله دائمًا؛ لا تتلفظ قولاً إلا وتعقب عليه بذكر الله، مثلاً «إن شاء الله» «بإذن الله» تقولها بصيغة تدل على إتقانها اللغة العربية.. فتستدعيها أثناء التسوق، وتشعر بالراحة من أنهم يظنونها امرأة خليجية؛ يعني

مثلاً لا تقول: «أنا عايزة كيلو طماطم» لكنها تقولها هكذا: «أريد من هذا» وتشير بإصبعها على الشيء، هكذا تمزج الألفاظ بالحركات في أداء ممتاز سرعان ما يحولها لامرأة خليجية ثرية بلا أدنى شك، لكنها ما زالت تحتفظ باللكنة الفلاحي؛ لأن عبد الكريم يحبها، وخاصةً أثناء الجماع، فاستطاعت أن تمزج بين اللكنتين ببراعة.. هكذا بدت شيماء أو «الشيماء» مؤخرًا، كما يحب أن يناديها عبد الكريم.

في هذا اليوم قررت أن تنزل لتبتاع لوازم شهر رمضان من السوبر ماركت، ارتدت العباءة وزينت وجهها، وانتعلت صندلاً رقيقًا من الجلد، واصطحبت معها خادمتها.. ابتاعت بضاعتها، ثم عادت إلى العمارة في تاكسي بيجو.. ظلت العاملة لمدة ربع ساعة تعمل على نقل البضاعة من السيارة لمدخل العمارة وهي منتظرة في المدخل بجوار المصعد، حتى جاء «نوَّاف الرشيدي»، وفور مشاهدتها تسمَّر مكانه، وظل يتفحصها، ثم قال لها:

- مِن سكان العمارة؟

هزت رأسها بنعم، ثم ابتسمت في رقة.

- كل عام وأنتِ بخير.

- وأنت بخير.

- أنا «نوَّاف الرشيدي».. من الخليج.

- أنا «الشيماء» زوجة الشيخ عبد الكريم.

وأدرك تلقائيًّا سر عداوة عبد الكريم له؛ إنه يخشى على زوجته منه، ليست لديه ثقة بها، والحقيقة أن المرأة كانت جميلة، عيناها جريئتان لم تكف عن النظر له، واستحوذت عليه رغبة في الانتقام منه فيها،

وبخبرة طويلة أدرك أنها سهلة، ستخضع بسهولة، هذا النوع ليس لديه ما يقاتل من أجله سوى المال، وعندما يتوافر لهن المال سيقبلن بأي شيء.. ولما استقروا في المصعد اقترب منها شيئًا فزكمت أنفه رائحة عطرها، فذكرته بزوجته، وظلت الرائحة في أنفه حتى استقر في الشقة، طرح نفسه على الأريكة التي تتوسط الصالون وراح يفكر في زوجته وأهله، آخر مرة وجهت له أسئلة محددة حول الإنجاب، وعانى حالة انقباض رهيب عند طرح الفكرة، هي لا تفهم أنه يكرهها، ويكره نساء بلدته، بل يكره جميع النساء؛ لذلك ينتقم منهن، وشعر برغبة جامحة في استدعاء الماضي البعيد، ثمَّة ذكريات يسترجعها فتريح ضميره.. محاولات اغتصابه وهو صغير التي فشلت ليقظة والده، الشيخ الذي كان يعمد في كل مرة أن يربت على مؤخرته.. الآن يتأمل هذه اللحظات في عمق ويسأل نفسه: «ماذا كان يثيره فيها؟» ويزفر بتنهيدة وحشية: «القلب مكسور، والنفس مريضة، والشهوة متأججة، والعالم يضج بالقاذورات، وقد صدق «عبدون النو» - خذوا الحكمة من أفواه القوادين - «المرأة لا يعنيها إلا المال».. وأنا سأخلص العالم من النساء، سأريح كل رجل في قبره مات من أجلهن، أو عاش وتجرع سمومهن، سأريه أنه نجا من الموت، بنقودي ستخضع وتستسلم، هلموا إلى فراشي لتشاهدوهن يصرخن ويتألمن.. كفاكم مشاهدة الأفلام وقراءة القصص، إنه لوهم عظيم، ليست هناك نهايات سعيدة، الجميع يتاجر بالضعفاء والحالمين، النهاية السعيدة فقط عند الموت؛ العالم المحجوب، والصراط، والوقوف هناك بعيدًا بين يدي الرحمن، والسؤال والجواب.. هناك فقط سنكتشف الحقائق».

وظلت الرائحة في أنفه تجلب له الذكريات المؤلمة.. قالت له زوجته آخر مرة في مرارة قبل المجيء إلى القاهرة: «نوَّاف، متى

ستتزوجني؟!» عام وهي عذراء، وجاء السؤال كطعنة نافذة إلى قلبه، وصرخ في وجهها متألمًا: «أنتِ زوجتي».

عام وهو بعيد، لا يستجيب لتوسلاتها في التليفون، لم تعد فيها أي رغبة حقيقية، وعاش في مرارة، عندما كان يجامعها، كانت تئن في لذة، وتغمض عينيها، وتقوم وتمكث في الحمام قليلاً، هكذا كانت تبدو معه كأنها تأخذ جرعة من دواء ثم تهدأ، إنها مريضة كما قالت له.. وتأملها كثيرًا أثناء إعداد نفسها قبل الجماع، كان يراها تقدم عرضًا غريبًا؛ تعطر مؤخرتها بماء الورد، وتصر على تحضير الزيوت التي تسهل المرور، إنه نظام ظلت تنفذه رغم أن الزيوت لم يعد لها دور، ولكن تعلم أن هذه الطقوس تسعده، إنها ارتضت المرض.. والآن وبعد عام من الفراق يتساءل في نفسه مفسرًا صراخها في التليفون: «هل تم الشفاء؟ أم استعانت بغيره؟ أم استعانت بقوائم السرير؟!».

***

وضع أمامه الديك الرومي الذي تفوح منه رائحة أثارت ليس فقط شهيته وإنما أعصابه أيضًا؛ تارة ينظر للساعة المثبتة أمامه على الحائط، وأخرى إلى الديك الرومي.. مد يده وظل يكدس أمامه على المائدة الحمام المحشي، والدجاج المحمر، والأرز المفلفل، وأنواع المخللات المختلفة والطحينة والسلطة.. قام وبدأ يتنفس باضطراب، ثم قال بصوت عالٍ: «الله أكبر.. الله أكبر.. متى يرفع المؤذن الأذان؟».. خرجت زوجته شيماء تتبعها توفيقة، وجلست جواره تحملق فيه بقلق، تعرف أنه في هذه الساعة يفقد أعصابه؛ لذا تكتفي بمراقبته، أو الانشغال عنه؛ لذا انكبت على مزج العصير بالسكر، ثم دق جرس الشقة، هرول لفتحه فوجد

خادمـة الدكتـور عبـد الجـواد تحمـل صينيـة كنافـة بالقشـدة قائلـة:

- الدكتـور عبـد الجـواد بيقولـك كل سـنة وأنـت طيـب يـا مولانـا.
أخـذ منهـا الصينيـة، وصفـق البـاب في وجههـا، وكشـف الغطـاء وإذَّا برائحـة الكنافـة السـاخنة تثير أعصابـه أكثـر.

لم يسـتطع أن يلتهـم سـوى نصـف الديـك الرومـي بجانـب طبـق مـن الطحينـة والسـلطة وبضـع ملاعـق مـن الأرز، ثـم اسـترخى عـلى المقعـد ومـد قدميـه، وسرعـان مـا عـلا شـخيره الـذي بـدا كزمجرة وحـش مخيـف، حاولـت أن توقظـه لأداء الصـلاة لكنهـا خشـيت.. ثـم بـرزت شـفتاه الغليظتـان متحجرتـين، فنهـض وتنـاول زجاجـة الميـاه وأفـرغ في جوفـه جرعـة كبـيرة، ثـم نظـر لزوجتـة الجالسـة بالقـرب مـن البلكونـة البحريـة حيـث الهـواء يتدفـق؛ فبـدا شـعرها الناعـم ثائـرًا، وهـي سـاكنة مستسـلمة، فذهـب نحوهـا وجلـس جوارهـا، أفسـحت لـه مكانًـا، لكنـه سرعـان مـا ضمهـا لصـدره بقـوة.. حاولـت التخلـص منـه، لكنـه حملهـا بعنـف ودخـل بهـا غرفـة النـوم، قالـت لـه وكأنهـا تسـتنجد:

- الصلاة يا مولانا.

تجاهـل قولهـا وخلـع جلبابـه وألقـاه جانبًـا، تراجعـت هـي بضـع خطـوات، ثـم جذبهـا وطرحهـا فـوق السريـر، تحـب وحشـيته جـدًّا، لكنـه سرعـان مـا يتوقـف، ويزفـر بتنهيـدة قويـة هـي مزيـج مـا بـين الآه والحشرجـة، وينتفـض مـن فوقهـا وجسـده الضخـم يرتـج، ويـدس قضيبـه في سروالـه، ويذهـب ليغتسـل، وهـذا هـو الـشيء الـذي تكرهـه فيـه؛ إنـه يضعهـا عـلى الطريـق ثـم يتركهـا ويذهـب، رحلـة تسـتأنفها بعـد ذلـك بمفردهـا، لم تعلـم شـيئًا عـن الجنـس سـوى التحـام الأعضـاء، لكنهـا تشـعر أن بحـره واسـع، مؤكـد أننـا نختلـف عـن الحيوانـات، لم يُقبِّلْهـا، ولم

يداعبها.. ممارسة الجنس لا تستغرق أكثر من عشر دقائق.. تظل هي بعدها مستغرقة في لذة تستكملها بنفسها، تدخل الحمام وتعكف فيه أكثر من ساعة. لكن اليوم تذكرت هذا المساء القريب الذي شاهدت فيه «نوَّاف»، إنه يشبه المغنين، ليس مثل هذا البغل زوجها، تخيلته معها في الحمام، وظلت تمارس العادة السرية، وشيئًا فشيئًا شعرت بالرعشة، ثم استرخت في البانيو، وطفت رغاوي الصابون أمام وجهها المورد، ولمعت عيناها، وهمست في نفسها: «ليس من حقنا أن نأخذ أكثر من المكتوب». وشعرت وهي عائمة في الماء الساخن بانتعاش لذيذ، فاستأنفت تأملها ومزاجها رائق.. وشكلت من رغاوي الصابون التي طفت بكثافة أمامها كلمتي «الحب» و«المال»، وظلت تتأمل الكلمتين، فإذا بكلمة الحب شيئًا فشيئًا تذوب في الماء، أما كلمة المال فإنها ظلت قائمة لوقت طويل، فقالت: «هو المال».. ولما خرجت وجدته جالسًا في الصالة فلثمت يده، ثم جلست جواره والتصقت به كأنها تشعر بأنها خانتة.. ثم قالت له:

- ما أخبار المائدة؟
- بخير.. ولكن المصريين همج، أتعبوني؛ ولذلك قررت الراحة اليوم.
- ماذا حدث؟
- لا يعنيهم سوى الطعام.. فور الانتهاء من إعداد الطعام، يتراصون متلهفين على الطعام دون شيء آخر، ولما اختبرتهم اطمئن قلبي لِمَا فعلته معهم.
- وماذا فعلت؟
- أوصيت الشباب أن يتصدوا لهم بالعصي.. وعندما رُفع الأذان أجبروهم على الصلاة.. وقد صليت بهم في أول ركعة بسورة

«الواقعة»، والثانية بسورة «يس».. ولما انتهيت من الصلاة هرعوا نحو المائدة في همجية وتوحش، فتصدى لهم الشباب بالعصي حتى أجبروهم على التوقف.. ثم خطبت فيهم خطبة طويلة، كادوا أن يقتلوني، ثم انصرف البعض، والباقي انتظر حتى التهم وجبته.. علاوة على سرقة الأواني.. المائدة أظهرت معدن المسلمين الحقيقي.

***

تبتاع مدام «أندرا» الخضار واللحوم من مجمع الأهرام الاستهلاكي القريب من منزلها في شارع ١٥، في هذا اليوم كان طقس أكتوبر عنيفًا؛ حيث حمل الأتربة فوق تيارات الهواء البارد، فبدا شعرها هائشًا، وبدت في حركتها كالعادة نشيطة.. وفجأة سمعت فرملة قوية لسيارة تقف خلفها؛ فارتعدت وقفزت تلقائيًّا فوق الطوار وصرخت: «مجنون».

استقرت السيارة، ونزل منها «نوَّاف» وعلى وجهه ابتسامة كبيرة، تقدم نحوها وصافحها، ثم قال معتذرًا:

– مدام «أندرا»، آسف على إزعاجك.

تجمد الدم في وجهها، وبرقت عيناها بنظرة مخيفة، ثم لعقت شفتيها وهي تزدرد ريقها الجاف، ثم هتفت في عنف:

– ماذا تريد مني بالضبط؟

– مدام، عندي كلام كتير فيه فائدة عظيمة لكِ.

– مستر «نوَّاف»، أرجوك ابعد عني.. أنت لا تأتي من ورائك أي فائدة.. أنت تأتي من ورائك المشكلات فقط. هكذا قالت وقد أشاحت بوجهها عنه.

– عشر دقائق من وقتك مش كتير.

تفكـرت قليـلاً ومـا زال وجههـا عابثًـا، ثـم زفـرت بتنهيـدة طويلـة وقالـت:

– تفضل.

وجلسا في قهوة الثكنات، وللقهوة بهو كبير يتصل بالشارع وتظلله أشجار الجازوريـن.. وبعد أن جلسا في الشارع وجاء النادل بالشاي، قال:

– مش هطول عليكِ.. هو اتفاق.

– أي اتفاق؟

– أريد زوجتي.

– أوووه.. سبق وقلت لك إنني لا أعرف عنها شيئًا.. لماذا لا تصدقنـي؟

– إحساسي يقول إنكِ تعرفين كل شيء.

ظلت صامتة، فقال في مكر:

– خمسمائة دولار دفعة واحدة.

نفضت ذبابة استقرت على أنفها، وعصف الهواء بشعرها فبدا هائشًا أكثر، وقالت في تردد:

– ماذا ستفعل معها؟

مع إحساسه بالراحة لهذا الانتصار الجديد، اعتدل فوق المقعد الخشبي، وأوقد سيجارة، وأخذ نفسًا عميقا ونفخ الدخان في لذة وارتياح، وأعقبه برشفة من كوب الشاي، وبدت السعادة على وجهه مشرقة؛ سعادة ناتجة عن شعوره بالنصر، فضلاً عن سعادته بذكائه، فقال:

- داليـا زوجتـي يـا مـدام.. كيـف أُؤذي زوجتـي.. ولا بـد أن يكـون لـكِ دور.. فهميهـا أن الصلـح خير.

عـلى الرغـم مـن شـعورها بأنـه حانـث في وعـده، فـإن الخمسـمائة دولار كان لهـم أثـر كبـير عليهـا، وقالـت في نفسـها: «فلتذهـب داليـا إلى قدرهـا» وظلـت تـردد: «داليـا لا يُخـاف عليهـا.. ليسـت ثمَّـة خطـر.. ربـما معركـة أخـرى». ولمـا وصلـت الشـقة أعـدت لنفسـها فنجـان قهـوة، وراجعـت الخطـة التـي أعدتهـا معـه جيـدًا:

- ستأتي في بداية الأسبوع القادم.
- تمام.. وماذا بعد؟
- في اليوم التالي تأتي في الساعة العاشرة.
- تمام.. وماذا بعد؟
- لا أعتقد أنني سأقيدها وأضعها في سيارتك.
- نعم.. أفهم.. سنكون في الشقة.
- لا.. لـن تكـون مدرسـتي مسرحًـا لكـما.. سـتكون في مدخـل العـمارة.. ولكـن عِـدني ألا تؤذيهـا.
- أعدك.

وذهـب «نـوَّاف» إلى شـقته، تأمـل الجنـود الذيـن أحاطـوا بالعـمارة، وشـعر بأنـه في ثكنـة عسـكرية.. دخـل وسـط ترحيـب مـن رجـال الحراسـة (فهـو يقـوم بجلـب وجبـة الإفطـار لهـم مـن أفخـم المطاعـم)، وفي المدخـل ثمَّـة أصـوات صـادرة عـن الأجهـزة اللاسـلكية.. نـداءات، صيحـات، تعليـمات.. لكنهـا توحـي بيقظـة كبـيرة.. وقـال في نفسـه وهـو يتأمـل كل هـذا: «كـم مـن مجـرم يتمنـى أن يكـون بـدلاً منـي ليقتـل هـذا القنصـل.. لو

أنني مؤمن بقضيتهم لصعدت للطابق الخامس وقتلته، ولكن الإيمان لا بدَّ أن يكون على عقيدة، وأنا مؤمن جدًّا أن الله لن ينصر المؤمن إلا بعمله، وهؤلاء مؤمنون لذا كانت لهم الهيمنة، فلينعموا برضا الله عليهم.. أما نحن فنستقبل العالم بقضباننا ومؤخراتنا.. هذه هي جنتنا».

***

خلال ثلاثة شهور بعد عودتها من الإسكندرية، وهي تخطط للهجرة إلى فرنسا، هاجرت صديقتها الروسية «إريتا»، وهاتفتها من هناك وقالت لها: «لا بد أن تأتي إلى باريس.. الجنة هي باريس.. الأضواء، والمسارح، والمقاهي.. كل شيء له أصل في باريس؛ سواء الثقافة أو الدعارة.. تعرفت على قوادة قالت لي في أول لقاء: أنتِ وسادة جميلة.. لم أفهم شيئًا، فعلمت أنهم هنا يطلقون على أمثالي وسادات.. إذا أردتِ أن تتاجري بجسدك فتعالي إلى باريس، وإذا أردتِ أن تعملي في الرقص فتعالي أيضًا إلى باريس، لا ينبغي أن تستمري مع أندرا أكثر من ذلك». وبدأت تستعد لهذا الأمر، وعاشت أسوأ فترة مع «أندرا»؛ تحملت بصعوبة مزاجها المتقلب، وعانت من عصبيتها، وفي كل مرة كانت تقاوم شعورًا بالغضب تجاهها، واستطاعت بمجهودها أن تجذب روادًا جددًا للمدرسة، طبعت إعلانات ولصقتها أمام المدرسة الأمريكية، ووزعتها في الرابطة بمعاونة مديحة، وبدأت المدرسة تنتعش شيئًا فشيئًا، فضلاً عن ذهابها لسيدات كبار في السن تقوم بتدليكهن، ومساعدتهن على ممارسة الرياضة.. ولاحظت أن «أندرا» بدت مملة أيضًا، لم تعد نشيطة، تنتظر النقود بفارغ الصبر، وتذهب إلى الرابطة لتتجرع الخمور حتى تثمل، وتعود وبصحبتها فتى إفريقي يظل يضاجعها في صالة الرقص، فتنظر لها متقززة من وراء البارفان الفاصل بين الردهة والصالة، وتعود لغرفتها، وكانت تتساءل: «ماذا حدث للمدام؟!».

وفي ذات مساء من أيام أكتوبر، وفيما هي صاعدة للطابق الثاني حيث المدرسة، بعد أن ابتاعت الطعام، زكمت أنفها رائحته؛ «عطر سلطان».. ضغطت على الجرس طويلاً حتى أحدث رنينًا متواصلاً، ولكن لم تستجب لها المدام، فأدركت أنه كمين نُصب لها.. ألقت بالطعام على باب الشقة ونزلت بسرعة، فإذا بها تشاهده واقفًا في صدر المدخل ثابتًا، ولما استقرت أمامه أخرج من سترته الجلد مسدس صوت ابتاعه منذ عامين من متجر كبير في وسط البلد، وقال لها:

- رصاصة لا تساوي جنيهًا مصريًّا أصرعك بها في الحال.

وتسمرت أمامه في ذهول، وأدركت أنه لا فرار منه إلا بالمواجهة، وظلت تتنفس بصوت عالٍ؛ فأدرك أنها خائفة، فشعر بالقوة المقرونة بالنصر المبين، وجعل يتأملها في حنين بدا في لمعة عينيه الواسعتين، فسكرته رائحتها الطفولية، وأراد، بل تمنى لو تتركه يطوقها ولو للحظة واحدة.. ثلاثة أشهر وهو يبحث عنها، ويترقب بيت مدام «أندرا».. ثلاثة أشهر فقد فيها اللذة مع أشهى الفتيات.. استفزه هؤلاء اللاتي لا يعبئن إلا بالمال، بحث عن واحدة فيهن تشبهها، واحدة تقول له لا.. بل تصده.. تقتله.. تبصق في وجهه.. لم يجد.. وقال في نفسه ذات ليلة قمرية وهو جالس في الشرفة الكبيرة: «لستُ أنا الذي تقتله امرأة».. بدافع الكبرياء ظل ينتظرها.

- كان ممكن أموت. هكذا بادرها بنبرة حادة.

- ماذا تريد بالضبط؟ هكذا قالت بعد فترة صمت استطاعت فيها أن ترتب أفكارها، وبدا جسدها بعد أن اقتربت من الثامنة والعشرين ضامرًا، ووجهها بدا أكثر نحافة، إن التفكير والتخطيط والخوف أثروا عليها حتى فقدت قدرًا كبيرًا من وزنها، فبرزت

عظـام الوجـه والرئـة.. وظلـت بعـد أن تحدثـت تنظـر لـه طويـلاً، وهـي تتنفـس مـن أنفهـا فقـط.

– حقي.

– أي حق؟

– حق الزوج على زوجته.

– كان اتفاقًـا، وأنـت أخللـت بـه. هكـذا قالـت في عصبيـة حتـى نفـرت عـروق عنقهـا الطويـل.

– مامـا.. دا مـش كلام.. أنـتِ بكـده تبقـي نصابـة، و«نـوَّاف» ما عاشـت الـلي تنصـب عليـه.. اعقلي.

تقلصـت عضـلات وجههـا، ولمعـت جبهتهـا رغـم بـرودة الجـو، وظلـت تفكـر لبضـع ثـوانٍ، ثـم قالـت:

– مُتعتك مش عندي.

– لأ عندك.

زفرت بتنهيدة عميقة تدل على غيظها وقالت:

– تعالَ نتحدث بعيدًا.

– فين؟ هكذا قال في سعادة عميقة.

– أبدًا جوعانة.. نتعشى في مطعم «لاكازيتا».

هـز رأسـه في طاعـة، وأغمـد مسدسـه في سـترته، وخرجـا مـن المدخـل، ولمـا اجتـازت البـاب شـعرت بالحريـة، الشـوارع الواسـعة بـدت لهـا سـاحات خـضراء مغريـة بالركـض فوقهـا.. ودار حـول سـيارته بتريـث، واسـتقر عـلى عجلـة القيـادة، ونظـر لهـا نظـرة طويلـة، وأدرك بسرعـة مـا

تنويـه، وفيـما هـو ينـزل مـن السـيارة كانـت قـد انطلقـت بسرعـة كبـيرة.. ركـض خلفهـا، وأطلـق رصاصـة في الهـواء، كان لها صـدى قـوي في الحـي، ولمـا دوت في أذنيهـا تعثـرت أكثـر مـن مـرة مـن فـرط الخـوف، لكنهـا تحاملـت بقـوة غزالـة تهـرع مـن وحـش مخيـف.. قفـزت بحـركات بهلوانيـة مـن فـوق أسـوار الحدائـق، واخترقـت الطرقـات بحرفيـة.. فعجـز عـن اللحـاق بهـا، واستسـلم لصراخـه وسـبابه، فعـاد إلى «أنـدرا» وظـل يطـرق بابهـا في عصبيـة شـديدة، ثـم صـاح بصـوت خـارق:

- مش هسيبك يا «أندرا».. وحياة أبي هغلق هذا الماخور.

ومكـث في بيتـه يفكـر فيهـا، بـل بكـى بـكاء طفـل صغـير لم يحصـل عـلى لعبـة، وتسـاءل في نفسـه: «هـل تكرهنـي؛ لـذا ترفـض معـاشرتي بهـذه الطريقـة؟ أم هـي ترفـض العلاقـة مـن الأسـاس؟ مـا هـذا الإصرار؟ مـاذا تعـرف عـن هـذه العلاقـة؟ هـل تحـدث معهـا أحـد عـن نتائجهـا الكريهـة؟ هـل حـدث وأن ضاجعهـا شـخص مـا فتألمـت؛ لـذا تمانـع؟» وارتـاح لهـذا التحليـل الأخـير: «إنهـا سـافرت مـرارًا وتكـرارًا في رحـلات الـزواج، مؤكـد ضاجعهـا رجـل قـوي في مؤخرتهـا.. مـن هـذا الرجـل الـذي استسـلمت لـه؟ وهـل كان شـابًّا أم عجـوزًا؟ آآآه يـا بنـت الحـرام».

***

وأقامـت داليـا بعـد ذلـك في شـقة صغـيرة، في بيـت مـن ثلاثـة طوابـق، يقـع بالقـرب مـن المطعـم اللبنـاني؛ تعلـم جيـدًا أنـه يراقـب منزلهـا ومنـزل «أنـدرا».. واسـتطاعت بعـد عنـاء وانتظـار طويـل أن تعمـل في الرابطـة، شـهر ظلـت فيـه قابعـة كغزالـة جريحـة؛ كل حركـة بحسـاب، تبتـاع طعامها بالتليفـون، تخـرج في الصبـاح فقـط؛ لأنهـا تعلـم أنـه ينـام حتـى المسـاء، وأيضًـا لإنجـاز أوراقهـا نحـو الهجـرة، وسـألت مديحـة أن تقرضهـا، لكنهـا

اعتذرت كالعادة؛ لذلك عرضت عليها العمل في الرابطة، وقالت لها: «العمل في هذا النادي سيوفر لكِ كل شيء؛ المال والحماية، ربما لن تحتاجي للهجرة». وفي أول يوم أثبتت جدارتها، ركزت فقط في العمل؛ فنعتها بعض الرواد بالفتاة التي تشبه الأفعى في صمتها وترقبها، وانتعش مزاجها شيئًا فشيئًا، وكان يضايقها فقط في هذا المكان ليلتا الخميس والجمعة؛ حيث تضج الرابطة بموظفي النفط والمدرسين، وكان أكثرهم شواذ، تلاحظ ذلك بعد ذهاب مستر «لارس»؛ حيث يبرع «سيمون» في تسويق الفتيات، ومرة قال لها أحد الرواد: «داليا، أين تكمن مؤخرة الأفعى؟» فقالت له: «اسأل زوجتك».

كان فصل الخريف هذا العام رائعًا، كانت تتفقد هذا الجو في استمتاع، يذكرها الخريف بالطفولة؛ بأيام الركض وراء الفراشات البيضاء.. أشجار الصفصاف تجردت من أوراقها، وبدت في عينيها كامرأة جميلة عارية، والشمس ترسل خطوطها الصفراء المتلألئة عبر الأشجار من اتجاه الشرق، وحفيف الأوراق بدا في أذنيها كسيمفونية رائعة، وقالت في نفسها: «الطبيعة رائعة، لم تُدنس، كل شيء ينعم بالصفاء والاعتدال، إلا هذا الكائن المخيف؛ الإنسان.. أما دنيا الرابطة فهي دنيا قذرة، يقول الكلب لي: داليا، الطلب عليكِ فاق كل تصور.. يا الله، متى تُريحني من هذه القذارة التي تتعقبني؟» هكذا قال لها «سيمون» وكانت حينئذٍ في الحديقة تستمتع بتناول كوز بيرة مثلج، حينها قذفت السائل في وجهه وركلته في مؤخرته بعنف. كانت للرابطة رائحة غير مريحة، وكانت تشعر في جوها بالكآبة، وكانت تقول في نفسها: «هؤلاء الرواد أكيد يختلفون عن رواد الثمانينيات».. تفقدت الصور، وسألت «خرستوف» الذي اقتصر وجوده على الإشراف فقط؛ فحكى لها عن مدام «سِريا»، وعن الأعضاء، والمكتبات، والنشاط الإنساني الذي

كانت تقوده، وقال لها: «لم يبقَ إلا المكتبات يباشرها السيد إبراهيم مسعود.. لكن الأجانب لم يعد لهم دور إلا دفع التبرعات فقط».

واعتادت في هذه الأيام النوم مبكرًا، والاستيقاظ مبكرًا؛ تدرك تمامًا أن العمل في خدمة الرواد مرهون بالصحة.

***

صداقته بـ»يودا» كان لها أثر إيجابي على حياته كلها، شعر بذلك بعد أن أنقذه من الهلاك بسهولة، إنه أخرجه من الجحيم كأنه ملاك موفد من رب العالمين لتخليصه.. في الخارج استقبل الهواء بصدر واسع يستطيع استيعاب هواء الدنيا كلها، استرق النظر لضباط المباحث الذين قذفوه بنظرة مسمومة، إنهم لا حول لهم ولا قوة.. هل يستطيع واحد منهم اعتراضه؟ كم بدوا ضعفاء أمامه.. ما هذه القوة التي صبغه بها السيد «يودا»؟! ولما وصلا حيث سيارته في شارع ١٣ أوقف سعيد بحركة من يده، وراح يفحصها بعناية، ولما اطمأن استقلها، وجلس سعيد جواره صامتًا متأملاً كل شيء في ذهول.. إلى أن قطع عليه الصمت قائلاً:

- هل تعرَّض أحد لك بالأذى؟

- لا.

- حسنًا.. هل لديك شيء الآن؟

- لا.

- إذن نتناول الإفطار معًا.

وفي مطعم «لاكازيتا» جلسا في هدوء.. لأول مرة يشعر بهذا الإحساس الرائع، جلس كثيرًا مع «يودا» في «لاكازيتا» وغيره، لكن

في هذه اللحظة بالذات شعر بشيء عجز عن تفسيره؛ هي تقريبًا حالة أقرب إلى حالة مصارع ظفر بانتصار كبير فجلس يحتفل مع أصدقائه، شاهد كل الذين يجلسون حوله أقزامًا.. تناول القهوة الفرنسية على معدة فارغة، لكنه شعر بأنه أكل بقرة؛ حالته النفسية كانت في أعلى معدلاتها.

واستأذنه للذهاب للبيت، وقام يوصله إلى عزبة البوليس القريبة، لم يستغرق الوقت بالسيارة أكثر من دقيقتين.. وأكد عليه قبل أن ينزل من السيارة: «هاتفني لو تعرض لك أي شخص مهما كانت مكانته».. فهز رأسه في سعادة وذهب.

ولما استقر في الشقة، أخذ دُشًّا باردًا فشعر برغبة في النوم، فهاتف جميل مدير الديسكو واستأذنه في ثلاث ساعات تأخير، وقال له جميل: «يا باشا لو تحب تاخد اليوم كله إجازة مفيش مانع»، ثم استأنف بنبرة منخفضة كأنه يوشوشه: «أصل المدام راضية عنك جدًّا». واستغرق في النوم حتى السابعة مساءً، ثم ارتدى ملابسه وذهب للديسكو، وهناك استقبله جميل بود، وكذلك المدام، لأول مرة يكتشف أن لها ابتسامة، حتى عندما كان يضاجعها كان وجهها يظل حادًّا قبيحًا، تمنى كثيرًا أن يجرها من شعرها إلى أقرب مرآة ويقول لها: «أنتِ قبيحة.. لا بد أن تفهمي ذلك.. المرآة لا تكذب». واستأنف السهرة في سعادة كبيرة، رقص وتجرع أفخر الخمور؛ الاسكوتش الذي يخبئه المدير، والبيرة.. وفي نهاية السهرة شاهد «يودا» يلقي نظرة سريعة على إيقاع الديسكو، فهرع نحوه في سعادة وصافحه بحرارة، وشعر برغبة في البقاء معه، قال له «يودا»: «اذهب لأصدقائك، واستأنف سهرتك». لكنه رفض وقال له: «أنت صديقي». ابتسم «يودا» في سعادة ووقفا في البلكونة الكبيرة المطلة على الشارع، وتحدثا قليلاً حتى ظهرت «ويلما جرول»، ابتسمت لسعيد، وصافحت «يودا» بحرارة، ثم تركتهما..

بـدا وجـه «يـودا» شـاحبًا، وزفـر بتنهيـدة عميقـة، ثـم بصـق وراءهـا، وقـرر أن ينـزل، فتبعـه وجلـس في سـيارته، وجلـس جـواره، فقـال لـه:

- لا أستطيع أن أشاهدها.

- إلى هذا الحد تكرهها؟

- مثلما تكره أنت الأفارقة. ونظر له واستأنف:

- ما زلت تقاتلهم؟

- أنا أكرههم جدًّا.

- وأنا أكره هذه السيدة جدًّا.

- لماذا؟

فرد مقعده وقال في ألم:

- إنها قصة طويلة.

- أي قصة؟

- قصـة شـعب يومًـا مـا كان سـيُباد لـولا إرادة الله.. ولكـن حدِّثـني لمـاذا تكـره الأفارقة؟

- إنها قصة طويلة.

فضحك «يودا» وقال له:

- يتسـللون إلى إسرائيـل الصغـيرة مـن كل مـكان.. أعلـم أن إسرائيـل دولـة يحلـم بالهجـرة إليهـا كل إنسـان، لكـن هـؤلاء يلوثونهـا.

وهز سعيد رأسه في سعادة، وقال له:

- أنا أكرههم جدًّا.

- لكنكم أفارقة، أبناء قارة واحدة، فضلاً عن نهر النيل الذي يجمعكم.
- نحن فراعنة، ولسنا أفارقة.. أما النيل فمنذ الأزل مصري.
- هه. هكذا ضحك «يودا» بسخرية لم يدركها «سعيد»، وقال له في سعادة:
- سعيد، بيننا شيء مشترك، وهو كرهنا لهؤلاء الكسالى.

وابتسم سعيد وقال له:

- أريد الهجرة إلى إسرائيل الصغيرة.. وهذا لمصلحتكم أنتم.

التفت له «يودا» بعد أن كان شاردًا في عالم آخر، وكانت ثمة موسيقى غربية تنبعث من المسجل:

- أي مصلحة يا سعيد؟
- مقاتلة الأفارقة في شوارع تل أبيب. هكذا قال في سذاجة، أعقبها بضحكة صبغتها بنوع من السخرية المقصودة.

وقال «يودا» ضاحكًا وهو يتحرك بالسيارة:

- يكفي أن تقاتلهم في شوارع القاهرة.. نحن لنا ملاحظات، لكننا نحبهم.

***

سبب نرفزة مدام «ويلما جرول» المرأة الألمانية صاحبة مطعم «بالما» و«ديسكو فلاش» ليس عدم انضباط العمال فحسب، ولكن عدم الاستمتاع جنسيًّا؛ تقريبًا كل العاملين في المطعم مارسوا معها الجنس، حتى عمال مطعم «لاكازيتا».. عند ممارسة الجنس معها يحمر وجهها العجوز المترهل، وتظل تعتصر الرجل حتى النخاع؛ كانت

تمارس الجنس بشراهة. والحقيقة أنها كانت لا تطاق؛ فهي تجاوزت الستين عامًا، ورغم رشاقتها الناتجة عن الرياضة المستمرة؛ حيث لا تتوقف عن ركوب الدراجة الهوائية، فإنها خالية تمامًا من الأنوثة.. لديها خبرة كبيرة في ممارسة الجنس، تتقن فعل أكثر من عشرين وضعًا؛ حيث تفعل ذلك بسهولة وليونة، لكنها تملك نبرة صوت كفيلة بهجرة الكائنات الحية من حولها فور تحدثها؛ حيث لا تستطيع أن تميز إن كان هذا الصوت لذكر أم أنثى، علاوة على حشرجة مميزة أشبه بزمجرة حيوان. مكث عندها سعيد ليلة كاملة، جلس في الحديقة الصغيرة وتناولا كوزين بيرة وحدثته بلؤم:

- مستر «يودا» شخص مهم.
- أعلم ذلك.
- هو يحبك.
- بالطبع.. وأنا أيضًا أحبه. هكذا قال في غرور.

حدجته بنظرة نافذة من وراء نظارتها الطبية الكبيرة ذات الإطار البلاستيك الأسود، وقالت:

- سعيد، أنا أحبك.. ومسألة الحب بيننا ليست إلا لاندماج الروح.. أنت تعلم أنني أثق بك، وأترك لك جسدي لأني أريد فقط أن نكون نسيجًا واحدًا.. سعيد، لا بد أن تفهم ذلك.

وفيما هو جالس مسترخٍ أنعشه نسيم الليل البارد، وجعل يفكر في حديثها، تمنى كثيرًا أن يجرها من شعرها لأقرب مرآة ويقول لها: «أنتِ قبيحة.. وجهك قبيح.. انظري، المرآة لا تكذب مثل البني آدمين».. لكنه تراجع عن تأديبها في الحال.. لا بد من مراجعة مستر «يودا» أولاً.

وفي غرفة النوم ثمَّة طقوس جديدة أضافتها.. الشموع، زجاجة الويسكي الفاخرة، شرائح من التفاح الأحمر، معزوفة هادئة كانت تنعش الغرفة بإيقاعها الساحر.. خلع ملابسه وأخذ دُشًّا باردًا أنعشه، وخرج لها فوجدها أمام السبورة تستعد لإلقاء المحاضرة؛ كانت المدام قبل الجماع تشرح بدقة أهم تفاصيل الجماع، من خلال سبورة صغيرة على حامل.. تبدأ في رسم الأوضاع بدقة، وترسم القضيب وطريقة الدخول، فضلاً عن حركات كانت تؤديها وكأنها هي الرجل.. وبعد أن تفرغ من الشرح المفصل، تطلق تنهيدة تنم عن ضيقها، ثم تنفض يدها من الطباشير بطريقة عصبية، وتدخل الحمام تغير ملابسها، وتأتي وقد بدت كعرائس الباربي، ثم تقفز فوق السرير في انتظار النتيجة التي دائمًا لا تُشبع رغبتها، وتمد عنقها الضئيل وتقول بصوت محشرج يغلفه التهكم الصريح: «فراعنة.. هه».. كانت شرسة في كل شيء، حتى عندما تعطي تعليمات؛ تضع يدها عند عنقها وتشير بقطع العنق، ودائمًا ما تستعين بنبرة صوتها عندما تحاسب أو تعاقب أحد العاملين.. على الرغم من أن غالبية العاملين مارسوا معها الجنس، فإنه لا يجرؤ أحد على أن يبتزها، أو ينسى أنه موظف عندها، كأن العاملين يؤدون هذا الشيء وكأنه من ضمن مهام العمل.

في هذا المساء نهرها عن هذه المحاضرة الثقيلة، وقال لها:

- ويلما، دعيني أضاجعك على فطرتي.. ويلما، لا ينبغي أن نتعلم الحب، هو ليس نظرية حسابية، ليس ١+١؛ الحب إحساس، وأنا أريد أن أقول لكِ إحساسي بالطريقة التي تريحني.
- ماذا ستفعل؟
- سأحبك بطريقتي.

في هــذا المســاء ظلــت تــصرخ مــن فــرط الاســتمتاع.. كان يظــن أنــه يعاقبهــا عندمــا اختــار لهــا أوضاعًــا تؤلمهــا، وظلــت فقــط تزمجــر وكأنهــا تحتــضر، احمــر وجههــا وتفصــد العــرق منهــا بغــزارة حامــلاً رائحــة ذكيــة ســكرت أنفــه، وقالــت لــه:

- سعيد، لأول مرة تفهم الدرس.. هذا ما كنت أريده.

نظــر لهــا في دهشــة؛ فهــل اســتمتعت فعــلاً، أم إنهــا تألمــت ولكنهــا تنافقــه مــن أجــل «يــودا»؟ وظــل ينظــر لهــا في حقــد وهمــس في نفســه: «إنهــا خنزيــرة قــادرة عــلى إرهــاق كتيبــة كاملــة».

وتركهــا واســترخى حتــى أيقظتــه زقزقــة العصافــير، كانــت نائمــة بجــواره وقــد تقــوس جســدها فبــدا ضئيــلاً، نظــر لهــا في قــرف، وارتــدى ملابســه وخــرج.. في الخــارج كان الصبــح قــد تنفــس ونثــر النــدى في فضائــه الواســع؛ فبــدت الأشــجار لامعــة بأوراقهــا الخــضراء.. استنشــق النســيم في ســعادة، وســلك مــن شــارع ١٢ شــارع الثكنــات، وظــل يمــشي بمحــاذاة «ديــر الراهبــات الألمانيــات» حتــى اســتقر في ميــدان دجلــة، فلاحــظ ســيارة «يــودا»، فذهــب نحــوه.

***

ليلــة طويلة جدًّا عاشــها ســمير.. يتذكــر موقفه أمــام الدانماركــي «لارس هيــو».. كيــف أهانــه، وكيــف طــرده، إنــه لــن يســمح لأحــد أن يطــرده مــن أي مــكان، حــدث قبــل ذلــك مــع والــده، ولــن يقبلهــا عــلى نفســه حتــى لــو كان الطــرد مــن «ماخــور».. أمــا المومــس القــذرة التــي تحــرم جســدها عــلى المصريــين وترضــاه للأجانــب فويلهــا منــي.. لــن أرحمهــا، سأســحقها كذبابــة.. هكــذا عــاش هــذه الليلــة.

وفي مساء اليوم التالي ذهب إلى الرابطة، وطلب من «سامبا» مقابلة السيد «لارس هيو».. ولما دخل المكتب كان جالسًا في جو هادئ؛ حيث الموسيقى الكلاسيك الرائعة تصدح في سماء مكتبه، علاوة على الإضاءة الهادئة.. أشار له بالجلوس، فتقدم سمير وجلس أمامه.. ظل «لارس هيو» يتفحصه بنظرة نافذة توحي بشيء ما، ولكن شيء ليس سعيدًا.. بدا عليه التوتر، ثم قال له بلكنة رسمية:

- ماذا تريد؟
- أريد التبرع.
- هذا شيء عظيم. ثم رفع عينيه وحملق فيه، وواصل بنفس النبرة:
- فقط؟
- نعم.
- لماذا تريد أن تتبرع؟
- هه.. أنت تحقق معي.. أنت لا تصدقني.. ماذا قالت لك عني هذه المومس القذرة ليجعلك تقف مني هذا الموقف الغريب؟

انتصب «لارس» واقفًا، وحرك يده بعصبية، وقال له في حدة:

- لن أسمح لك بإهانة أي عامل هنا، أنت تجاوزت كل الحدود.. من فضلك اخرج بره.

وقف سمير وشعر بالعجز.. فقد للحظة القدرة على الحديث؛ لذا أغمض عينيه في محاولة للتركيز.. وسرعان ما قال معتذرًا:

- رجاء اقبل اعتذاري.
- من فضلك. هكذا أصر «لارس» على مقاطعته.. لكنه تمكن أخيرًا من أن يهدئه، ثم جلسا مكانهما مرة أخرى، فبادره:

- كل ما هنالك أريد فقط معرفة موقفك الغريب نحوي.
- ليست هناك مواقف غريبة.. أنت تضايق العاملين هنا.. وهذا الموقف طبيعي في أي مكان محترم له قوانين من أهمها احترام العاملين.. لن أقبل من أي زائر إهانة العاملين هنا.. مهما كانت مكانته.. حتى لو رئيس أو ملك.. هل تفهم؟
- أعتذر مرة أخرى يا سيدي.
- لا بد أن تفهم القوانين يا مستر سمير قبل أن تتبرع بدولار واحد.
- أي قوانين؟
- نحن هنا نخدم الجميع.
- وأنا أريد خدمة عائلتي.
- أي عائلة؟
- المسيحيون الفقراء.
- إذا أردت أن تتبرع للمسيحيين فقط، فاذهب للكنيسة وتبرع هناك.. هنا التبرع عام؛ يشمل المصريين وغيرهم أيضًا.

توتر سمير واحمر وجهه، ثم قال:

- إذن أريد العضوية؟
- ليست هناك عضوية للعرب.
- أنا أمريكي.
- أنت مصري.
- مصر ليست لها فضل عليَّ لأحمل جنسيتها.. أنا أمريكي فقط، وأحمل الباسبور الأمريكي، وولائي لأمريكا.

- سأناقش ذلك مع الأعضاء.
- أين الدكتور إبراهيم مسعود؟
- ليس هنا.. توقف نشاطه في الرابطة.
- هو يعلم بقضيتي جيدًا، ويحارب من أجلها.. تحدث معه وهو سيقول لك كل الحقيقة.
- هنا القضية التي تشغلنا.. أنت لا تهتم بها ولا تعنيك.
- أظنك دانماركيًّا وتعي قضيتي وتراها واضحة.
- وأظنك أمريكيًّا وولاؤك الكامل لأمريكا كما قلت.. لماذا كل هذا الاهتمام؟
- قلت إنها عائلتي.
- ليس هنا عائلات.

هكذا بدا «لارس هيو» حادًّا لدرجة استفزته؛ فقام سمير وانصرف بسرعة، ثم عاد وقال:

- هل لي أن أجلس أتناول شيئًا؟
- دون مضايقة أحد.

خرج سمير واتجه نحو الحديقة وجلس، وكان يبدو عليه التوتر، ظل يبحث عن مديحة، حتى وجدها وأشار لها في غطرسة، فجاءت:

- ما زالت دماغك ناشفة؟
- اسمع يا بابا.. أنت هنا عميل لك حدود معايا.. وأنا بحب أحافظ على شغلي ولي حدود معاك.
- أريد أن نتحدث.

– ماذا تريد؟

ابتسم في سعادة وقال لها:

– اجلسي.

– ماذا تريد أن تشرب؟

– زفت. هكذا قال في عنف، فاستدارت وذهبت وأرسلت له من قام على خدمته. وقال في نفسه وهو يقذفها بنظرة سامة: «من أين لها بهذه الثقة والقوة؟ سنرى يا بنت الحرام.. ما زلتُ بداخل الحلبة لم أُهزم بعد».

***

يجلس «لارس هيو» في مكتبه، ويستغرق وقتًا كبيرًا في مراجعة التقارير التي تأتيه كل أسبوع من المكتبات، يدوِّن ملاحظاته بقلمه الباركر الذهبي في مذكرة يحتفظ بها دائمًا، يراجع ما يدونه كل ليلة، فيضيف شيئًا، أو يطمس شيئًا، لكنه تأكد أن ثمة جيلاً قادمًا سيستطيع أن يفكر، سيرفض كل الحلول التقليدية، سيرفض الأجوبة النموذجية.. وهكذا يمكث في مكتبه طيلة اليوم يدخن ويرتشف من كوز البيرة الخاص به، وهو عبارة عن كوب كريستال كبير له مقبض فضي؛ تتقلص عضلات وجهه من فرط التركيز، وينتعش أكثر عندما يتذكر أن الرابطة كل يوم تتقدم، ويتوافد عليها الرواد. ولكن بعد عمل مديحة في الرابطة، ظل يسترق لها النظر، فيزم شفتيه، ويهرب للبار الرئيسي حيث ينشغل بمحادثة بعض الأعضاء، لكنه شيئًا فشيئًا بدأ يدعوها لمكتبه ليتحدث معها في أمور كان يختلقها؛ مثلاً يسألها عن شخص ما يضايقها، عن راحتها في العمل، أسئلة بدت مملة وتقليدية، فيتعمد أن يبدو أمامها مشغولاً بالحفاظ على

نظام الرابطة، وهذا صحيح، لكنه كان يبالغ في اهتمامه فقط لتبقى معه أطول وقت، فقط ليقتنص منها شيئًا؛ فيقف خلفها ويضع يده على كتفها، أو يحتفظ بيدها بين راحتيه، وهكذا.. حتى دعاها ذات يوم، وقدَّم لها زجاجة عطر فاخرة.

انزعجت مديحة وقالت له:

- ما هذا؟

قال لها:

- هدية.

فقالت له بحدة:

- زجاجة عطر من مدير لعاملة.. هذا يعني أن رائحتي سيئة؛ أليس كذلك؟

انزعج من رد فعلها وقال برسمية:

- أووه.. مديحة، ماذا تقولين؟ إطلاقًا.. هي هدية.

فهدأت شيئًا، ثم قالت له:

- ماذا تريد بالضبط؟

- الصداقة.

- ليست هناك صداقة بين عاملة ومدير؛ أليس كذلك؟

- أنا رجل متواضع جدًّا، وأرغب حقيقةً في صداقتك.

أما في هذا المساء فبدا اليوم غريبًا.. تأخر «لارس» وكانت هي منزعجة، لم تبدأ العمل، ظلت تنتظره في مكتبه.. ولما دخل عليها تفحصها بنظرة طويلة، وانزعج شيئًا من عدم ارتدائها اليونيفورم..

وتساءل فيما يشبه الاحتجاج:

– لماذا أنتِ هنا؟ ولماذا بهذا الزي؟

– مستر «لارس»، أمس قدمت لي عطرًا، واتضح لي أنه رجالي.. ماذا تريد بالضبط؟

نفخ «لارس» في ضيق وأراد أن ينهي هذه القصة؛ فقال:

– لم أخطئ.

– أنت تهينني.. توقف، ولا تتحدث معي، ولا تقدم لي هدايا. هكذا احتجت.

– أنتِ تفهميني غلط.

– كيف؟

– مديحة، أريد الزواج منكِ.. ما رأيك؟

هدأت ثورتها، وشعرت بأن ثمة ضوءًا نفذ إلى الغرفة، ولاحت في عقلها صورة لسرب حمام منطلق في الآفاق البعيدة، وظل هو يتحدث ويشرح إعجابه بها منذ أن جاءت الرابطة.. ونظرت له نظرة طويلة، كأنها تريد أن تتأكد من شيء، وسرعان ما هزت رأسها كأنها تنفض عن عقلها صورة مخيفة، وبدأت تركز في حديثه، انكمش وبدا مستسلمًا في صورة لم تشهده عليها من قبل.. لمعت عيناه، واحمر وجهه، واقترب منها حيث التصق بها ومسك يدها، وراح يُقبل أصابع يدها إصبعًا إصبعًا، وبدت أنفاسه ساخنة، وتهدج صوته.. واستسلمت مديحة لرغبته، فتركت له يدها يقبلها في شغف، فضلاً عن لمسه لمؤخرتها صراحةً، كأنها تعرض شيئًا للبيع وتترك الشاري يعاين بضاعته، واستعرضت كل شيء في ثوانٍ، إن «لارس هيو» سيوفر لها كل شيء.

– ماذا ستقدم لي؟ هكذا بادرته.

فقال لها بعد أن تمعن في قولها بعض الوقت:

– كل شيء.

– وما المطلوب مني بالضبط؟

– أن تكوني زوجتي.

– تريد أطفالاً؟

احمر وجهه وقال مستغربًا:

– ماذا تقصدين بالضبط؟ أنا لا أفهم شيئًا.

– مستر «لارس»، أنا أكره الشواذ.

– وأنا لستُ شاذًّا.

– أنت قدمت لي عطرًا رجاليًّا، وهذا يعني شيئًا واحدًا.

تفكَّر قليلاً واستدار وعاد لمكتبه، وأوقد سيجارة ونفث دخانها في انزعاج وقال:

– أنتِ نوع مناسب لحالتي بالضبط.

– وما هي حالتك؟ ثم واصلت بعد أن رفعت ذقنها:

– لن أسمح لك بإهانتي.

– أنا لن أهينك أبدًا.

– ما هي حالتك بالضبط؟

– أنا مريض.

– نعم!

– وأريـد أن تُؤنبينـي.. تعاقبينـي.. تقـولي لي بصـوت خـارق: لارس توقـف.

ارتعـدت مديحـة مـن لهجتـه، وتبـادر إلى ذهنهـا أن يكـون شـاذًّا مـن النـوع الـذي يجامـع المـرأة مـن الخلـف؛ فقالـت لـه في حـدة وقـد أشـارت لـه بإصبعهـا:

– أنـا أنوثتـي عنـدي بالدنيـا كلهـا.. اسـمع، أنـا لسـتُ موافقـة.. ولا تتعـرض لي مـرة أخـرى، وإلا قدمـت فيـك شـكوى لمجلـس الأعضـاء.

– أنـا لسـتُ قـذرًا يـا مديحـة.. مـن فضلـك توقفـي عـن إهانتـي. هكـذا قـال في عصبيـة أراحتهـا بعـض الـشيء.

***

اسـتطاع عبـد الكريـم أن يتحمـل الصيـام بعـد مـرور عـشرة أيـام؛ حافـظ عـلى أن يتنـاول السـحور متأخـرًا، ثـم يعقـب عليـه بتنـاول الزبـادي بشراهـة.. غـير أنـه يقـضي النهـار كلـه مسـتغرقًا في النـوم، لا يسـتيقظ إلا قبـل الإفطـار بسـاعة واحـدة، يذهـب إلى مكتبـه في شـارع ١٠٥، ويظـل يـشرف عـلى المائـدة الضخمـة التـي تحتـل نصـف الشـارع، يقـوم الشـباب الذيـن يعملـون معـه بـالإشراف ومراقبـة الأهـالي الذيـن يأتـون للإفطـار، تشـتهر تلـك المائـدة بتقديـم الإفطـار الشـهي، ورغـم ذلـك بـدأ النـاس ينصرفـون عنهـا شـيئًا فشـيئًا.. حتـى ذات يـوم، صـاح أحـد الصائمـين بعد أن صـلى بهـم عبـد الكريـم صـلاة المغـرب في نصـف سـاعة كاملـة، بصوتـه الغليـظ الممـزوج بنغمـة شـاذة: «والله لـو أن قبـول الصـوم ودخـول الجنـة مـن خـلال هـذه المائـدة، فأنـا لا أريـد الصـوم ولا أريـد جنتكـم».. لـذا انزعـج الشـيخ «جابـر عبـد التـواب»، وهـو بمثابـة مندوبهـما عنـد الشـيوخ الكبـار؛ يماثـل عبـد الكريـم في الضخامـة، إلا أن بشرتـه مشربـة باحمـرار

فلاحي من أثر النعمة التي يغرق فيها. جلس الثلاثة في المكتب المخنوق برائحة البخور، وعلى المنضدة الأرابيسك صينية بسبوسة بالقشدة طازجة عكف عبد الكريم على الالتهام منها؛ فهو يحبها جدًّا.

– الناس بدأت تقل يا شيخ عبد الكريم.. التوافد على المائدة أصبح ضعيفًا. هكذا قال الشيخ جابر في رسمية صريحة.

ليجاوبه عبد الكريم بلسان متراخٍ وهو مسترخٍ على الأريكة شبه نائم:

– هؤلاء قوم منافقون كذابون يأتون لتناول الطعام فقط، لقد اختبرت إيمانهم بنفسي؛ لذلك أُغلظ عليهم.. وفضلاً عن ذلك لصوص؛ سرقوا الأواني والملاعق. هكذا كان عبد الكريم يتحدث براحة كبيرة؛ يعلم جيدًا قيمته عند الشيوخ، ويعلم جيدًا أنهم يثقون به.

– بس الشيوخ بره بيصرفوا على المائدة ببزخ؛ مش عشان الناس تنصرف عنها.. بالعكس.. ولا إيه يا شيخ حسان؟

– الملاينة يا مولانا. هكذا قال حسان النخيلي في ترقب.

– ليست هناك أي ملاينة.

– خلاص تبقى تقنعهم بموقفك لما أبلغهم أن الناس تنصرف عن المائدة.. اللهم بلغت اللهم فاشهد.

– يعني إيه؟ أنا لا أنافق أحدًا.. كما قلت، هؤلاء ليسوا مسلمين. ثم ضرب المنضدة بقبضة يده.

فقال حسان:

– يا مولانا، المائدة باب لخدمة الإسلام.. الناس عايزة التوعية، والتوعية عايزة مال، والمال لا نستطيع توفيره إلا من خلال المائدة.

- ماذا تعني؟

- الملاينة مع رواد المائدة.

ولما لاحظ أنهما انزعجا، قرر أن يتراجع شيئًا، يعرف جيدًا أنه عندما تثقل معدته يفقد صوابه؛ لذا قال وهو يضحك:

- خلاص أبقى أصلي بصورة الإخلاص.. أعتقد أنها ثلث القرآن.

ضجت الغرفة بضحك الشيوخ، ثم قال الشيخ جابر:

- نعم.. ونِعمَ اليسر في هذا الدين.

قاموا لأداء صلاة العشاء.. كانت خطواتهم ثقيلة، لكنها سرعان ما بدت نشطة بعد أن امتلأ المسجد بالمصلين، وإن كان عبد الكريم كان يشعر بشيء من الخمول؛ لأنه أسرف في تناول الإفطار. وبعد انتهاء صلاة العشاء، قام عبد الكريم يؤم المصلين.. بدا صوته الجهوري ونطقه للعربية مملاً وبطيئًا. ولما انتهى من الأربع ركعات الأولى جلس ليتحدث عن الرحمة في الإسلام، وسرعان ما شعر بأنه سيسقط على الأرض من فرط الخمول، فاعتذر للمصلين وانصرف والعيون تتابعه حتى خرج من المسجد، ولحق به رجاله، واستقل السيارة البيجو، وجلس بمفرده في الكنبة الخلفية، وصاحبه اثنان فقط، وبدت عيناه جاحظتين حمراوين.. وانطلقت السيارة إلى مسكنه. نزل من السيارة ببطء، وبدأ يمشي بصعوبة حتى دخل المصعد.. ولما فتح باب شقته تسمر في مكانه، وانتابه الذهول، وكادت عيناه أن تفرقع وهو ينظر نحو الصالة.

***

انتعش مزاج الدكتور عبد الجواد بوجود الحراسة، وبدأ ينام دون قلق، كم من الليالي التي قضاها في مراقبة الشوارع، والتحري عن كل شيء.. واستقطب عاملاً لنظافة المدخل والسلم، طبعًا بعد الموافقة الأمنية، لكن السكان أثقلوا عليه بإلحاحهم على استقطاب بواب، وفي اجتماع طارئ لمناقشة هذا الأمر، قال له أحد الجالسين:

- يا دكتور عبد الجواد، لازم يكون للعمارة بواب يخدمها.
- البواب هيعمل إيه أكتر من الحراسة.. والعمارة كلها في حماية وزارة الداخلية؟
- صحيح بس إحنا لنا طلبات، مش معقول نساؤنا تنزل تشتري الخضار.
- والله أنا شايف أن كل واحد يخدم نفسه، في المجتمعات الغربية دا بيحصل.. إمبراطور اليابان معندوش حد يخدمه.. أنت عايز حد يخدمك؟!

في كل اجتماع لاتحاد الملاك، يجلس الدكتور عبد الجواد على رأس المائدة في بدلة كاملة، ويضع أمامه الأوراق، ويستعرض بصوته العالي الواثق كل مليم أُنفق.. والآن شعر بالملل بعد أن اقتصرت هذه الاجتماعات على المراجعة فقط؛ لذا لم يستغرق أي اجتماع أكثر من ساعة واحدة، كأنهم يعاقبونه.. لكنه لم يعبأ بذلك، أصبح له صوت عالٍ عند المسئولين، تأكد من ذلك عندما دعاه أحد سكان الشارع ليشاهد صندوق كهرباء كبيرًا مفتوحًا.. صرخ وانتصبت قامته واتصل بالبوليس، ولما عاينوا الواقعة قال له الضابط: «مش شغلنا يا دكتور.. الأولى إن حضرتك كنت اتصلت بشركة الكهرباء» وانفعل الدكتور وقال بثقة منبعها الإيمان بحياة الإنسان: «سبحان الله.. هي دي مش

كارثـة، وجريمـة مكتملـة الأركان ينبغـي تحريـر محضر لهـا؟».. ودائـمًا وأبدًا كان يختـم حديثـة بينـه وبـين المسـئولين سـواء ضبـاط أو موظفـون في الحـي بقولـه: «جـاري هـو القنصـل الإسرائيـلي»؛ لـذا كانـت تحـل المشـكلة فـورًا.

وأصبـح الدكتـور عبـد الجـواد بفضـل جـاره لـه كلمـة مسـموعة، اسـتغل هـذه الجـيرة ببراعـة، وأصبحـت لـه مكانـة كبـيرة عنـد قاطنـي شـارع ٢١٠، فاتسـعت شـهرته في المحيـط؛ لـذا حـدد جـدولاً لتلقـي المشـكلات الخاصـة بالحـي، يذهـب بهـا كل أسـبوع للقـاء رئيـس الحـي الـذي يسـتقبله بحفـاوة، ويناقشـه في القضايـا، ويسـتعرض عليـه ثقافتـه ووعيـه السـياسي.. حتـى ذات يـوم ودون أن يطلـب جـاءت المعـدات لترصـف الشـارع مـن جديـد، ليس فقـط الرصـف، بـل اسـتبدلوا أعمـدة إضـاءة جديـدة بـدلاً مـن القديمـة.

***

ظـل السـيد عبـد الكريـم واقفًـا متسـمرًّا ينظـر نحـو زوجتـه الجالسـة في الصالـة، حتـى إنهـا اسـتغربت ذلـك.. اتسـعت عينـاه، وارتجـت شـحوم وجهـه، وجحظـت عينـاه أكثـر، ثـم أصـدر صوتًـا تلقائيًّـا أشـبه بالتجشـؤ، ثـم قـذف مـا بداخـل جوفـه دفعـة واحـدة؛ فتناثـر في الصالـة الطعـام الذي لم يسـتطع هضمـه.. هرولـت نحـوه زوجتـه وتوفيقـة، وحاولتـا أخـذه إلى الحـمام، لكنـه دفعهـما بقـوة حتـى إنهـما ترنحتـا، وظـل هـو ثابتًـا في موضعـه وقـد اتسـع فمـه الكبـير، وبـدأت المعـدة في إصرار قـوي عـلى طـرد كل هـذا الكـم الهائـل مـن المأكـولات.. بـدا عـلى الزوجـة الاشـمئزاز، وأيضًـا عـلى الخادمـة التـي تقلصـت عضـلات وجههـا. توقـف عبـد الكريـم، ثـم شـهق وجفـف فمـه بطـرف جلبابـه، وذهـب إلى الحـمام.. بـدت الصالـة وكأن المجـاري طفحـت بهـا، وضعـت الخادمـة يدهـا عـلى رأسـها وزمَّـت شـفتيها

وتحدثـت بلغتهـا، ويبـدو أنهـا كانـت تلعـن عبـد الكريـم.. بينـما جـاء صوتـه الجهـوري صائحًـا ينـادي زوجتـه، التـي هرولـت إليـه بملابـس جديـدة، وأخـذ دُشًّـا سـاخنًا، ثـم أنبأهـا أن تصنـع لـه كـوب نعنـاع.. خـرج وتنـاول النعنـاع وظـل يُسـبِّح ويحمـد الله، ثـم قـال:

- كنت سأموت.. الحمد لله.
- أنت اتحسدت. هكذا قالت زوجته وهي غاضبة.

هز رأسه غير فاهم، ثم قال لها:

- أشـعر بأننـي لم أتنـاول إفطـاري بعـد.. أريـد كـوب لبـن مخلوطًـا بالبلـح.
- عِـدني ألا تتنـاول الطعـام أمـام أحـد.. وإذا كنـت مضطـرًّا، فأخبرهـم بـأن الطعـام سـقط بداخلـه الذبـاب.
- لماذا كل هذا.. لم يحدث شيء؟
- الحسد موجود في القرآن يا مولانا.
- ونعم بالله.

قامـت بسرعـة، وبعـد أقـل مـن خمـس دقائـق جـاءت لـه بكـوب لبـن بالبلـح، تناولـه بتـأنٍ، ثـم نظـر لهـا وقـال:

- الدورة خلاص؟

قالت له بتردد:

- خلاص.
- إذن اقـتربي. زحفـت نحـوه في صمـت يُثـيره، فطوقهـا بيديـه القويتـين، ثـم تنـاول الغطـاء السـميك فوقهـا وأطفـأ النـور.

ظلت طوال شهر رمضان تراقب «نوَّاف الرشيدي» من خلال النافذة، عندما كان يأتي بالسيارة ويحيي رجال الأمن، كانت تسترق النظر له في غياب توفيقة، كان يبدو لها وسيمًا رشيقًا ضحوكًا، تمنت لو تحتضنه وتقبله، وآه لو أعطتها الدنيا فرصة الخروج معه، وحفظت برنامجه بدقة؛ تعرف متى يخرج، ومتى يعود.. في الثانية ظهرًا يخرج، يزكم أنفها عطره، وتسمع حديثه مع الفقراء الذين ينتظرونه على باب العمارة، وكان يقابلهم بابتسامة كبيرة، ويصافحهم بحرارة، ويُخرج محفظته ويعطيهم النقود، ولما يتكاثرون عليه يتخلص منهم ويدخل سيارته ويغلقها، ولما كان يتحرك كانوا يتبعونه صائحين مهرولين وراء السيارة: «لم نأخذ شيئًا يا نوَّاف بك»، فيلقي بالنقود من النافذة، فتتبعثر في الهواء، ويتصارعون عليها في وحشية، ويظل يدور بالسيارة حول ميدان فيكتوريا، والفقراء والمتسولون يندفعون وراء السيارة بسرعة، حتى تنقطع أنفاسهم، ويستسلمون ويجلسون على الطوار وهو يدور حولهم ضاحكًا، وهم يظلون يهتفون: «قطعت أنفاسنا يا نوَّاف بك.. نريد النقود».

لذلك أعدت خطة لتقابله مرة أخرى؛ فهو يأتي قبيل الإفطار بساعة واحدة، يأخذ دُشًّا ويبدل ملابسه ثم يخرج للإفطار في أحد المطاعم.. وذات يوم خرجت ومعها توفيقة الخادمة، وابتاعت الخضار من سوبر ماركت «شيكو» الفخم القريب من المنزل، ولما وصلت العمارة في نفس الميعاد الذي يحضر فيه، ظلت في المدخل تتفقد الأكياس وهي تدَّعي أنها نسيت شيئًا، حتى جاء.. وفور رؤيته شعرت بخفقان قلبها، ولما اقترب وتصافحا بالأيدي، شعرت برعشة تسري في جسدها كله.. كان يبدو عليه الإعياء؛ حيث كانت ملامحه

كئيبة، وملابسه متسخة، وصوته يوحي بالأرق.. قالت له وقد استخدمت في حديثها معه عدة كلمات خليجية:

- أستاذ نوَّاف، أرجوك بلاش تتساهل مع هؤلاء المتسولين.
- ماذا تقصدين؟
- الجماعة اللي بيستنوك في كل طالعة ونازلة.
- بالعكس دول لطاف جدًّا.. هل تعلمين أني أعرفهم واحدًا واحدًا، وأعرف قصصهم جيدًا؟ هكذا قال في حماس مؤقت.

هزت رأسها في قرف، وقالت له:

- حقيقي؟
- نعم. وعاد صامتًا وقد أشاح بوجهه عنها.

وعاد يقول لها محتجًّا، أو متصنعًا الاحتجاج:

- أرجوكِ لا تصفيهم بالمتسولين.. أنا أحترمهم، وزوجك يحترمهم وأقام لهم مائدة؛ أليس كذلك؟

شعرت بالغيظ، وجاهدت بصعوبة لتجتاز هذه الفقرة الثقيلة فقالت:

- أنا لا أقصد.. ولكن هؤلاء همج ولصوص.
- أرجوكِ. ثم واصل في نرفزة:
- أبلغي سلامي للشيخ عبد الكريم.
- بإذن الله. وأضافت:
- الله يسلمك.

وأشاح بوجهه عنها مرة أخرى؛ ليس قرفًا، ولكن لم تكن لديه الرغبة في الحديث معها أكثر من ذلك.. وشعرت شيماء بالمرارة؛ فصاحت في عنف تُؤنب توفيقة على تأخرها، وعجزت عن تفسير نفوره منها، وقد اشتدت عليها الحيرة.. فهل لأنها وصفت الفقراء بعبارات بذيئة؟ لكنها من زوجها تعلم أن هذه الأشياء لا تعنيهم لدرجة النفور من امرأة جميلة مثلها.. وزفرت في عنف، وسبَّته بألفاظ بذيئة في نفسها وقالت: «ماذا يظن نفسه؟ في الغد سيأتي لي».

في بداية الشهر الكريم، تبرع «نوَّاف الرشيدي» بخمسة آلاف جنيه للمائدة التي يقوم على خدمتها الشيخ عبد الكريم.. بعد أن شاهده في شارع ١٠٥ واقفًا بضخامته يتحدث إلى بعض الأشخاص، علم بتلك المائدة، والتقى به في مدخل العمارة، فصافحه بحرارة وقال له:

- كل سنة وأنت طيب يا مولانا.
- وأنت طيب.. هل هناك شيء؟ هكذا بدا الشيخ حادًّا.. ظل ينظر له وهو ينظف أسنانه بالسواك.
- أبدًا.. بدي أسأل عن كيفية التبرع للمائدة.
- أي مائدة؟
- المائدة الرمضانية. ثم استدرك:
- مولانا أنا مسلم.. أبغي مساعدة المسلمين وإطعامهم.
- أنا لم أمنعك.
- الحمد لله.. ادعيلي يا مولانا؛ أنا تعبان وفي حاجة لدعواتك. ثم فتح شنطته التي يلفها حول خصره، وأخرج منها رزمة كبيرة وقال له:

- خمسة آلاف جنيه تبرُّع مني للمائدة على روح والدي.

***

كان «يودا» يُجري محادثة في جهاز اللاسلكي.. نقر على الزجاج، فأنهى «يودا» المحادثة، وفتح له الباب بسرعة، وحيَّاه كالمعتاد قائلاً: «مرحبًا يا صديقي». جلس سعيد منهكًا، ثم طلب منه سيجارة، فالتقط «يودا» علبة السجائر «البارلمنت» وناوله سيجارة، وبادره:

- أين كنت؟

- في بيتها.

وانشغل عنه في محادثة طويلة، كان يتحدث بالعبرية، وكان يوحي صوته بالجدية الممزوجة بالعصبية.. أنهى المحادثة، والتقط سيجارة ونفث دخانها في عصبية وقال:

- هل سمعت بما حدث لسيادة الرئيس؟

- نعم.. كانت محاولة دنيئة. وواصل سعيد بنبرة حزينة:

- أنا إحساسي لم يكذبني أبدًا.. هه.. يريد أن يساعد إفريقيا.. إنهم جبناء.. قتلى.. مجرمون.. حاولوا اغتياله.

- الحمد لله يا سعيد، الرئيس عاد بالسلامة.

- لكن والله لأنتقم منهم وأقتلهم في كل مكان.

- سعيد، لا تتهور.

- أرادوا قتل الرئيس وتقولي لا تتهور.

- ماذا ستفعل؟

- لا أعرف.. ولكن حتمًا لو رأيت واحدًا منهم سأقتله.

- اهدأ.

ونظر له «يودا» في إعجاب وقال له:

- أنا حزين مثلك.

منذ أن شاهده يقرأ خبرًا في جريدة «ها آرتس» أثناء جلوسهما في السيارة، وشاهد صورة الرئيس وسأله عنها، يوم أن قرر اتباع هذه السياسة؛ قاله له حينذاك: «أنا أحبه».

- هل معك شيء؟ (يقصد سعيد زجاجات الكحول؛ العينات الصغيرة التي لا تتعدى في جرعتها كأسًا واحدة).

ابتسم «يودا» وقال له:

- تعالَ معي.

وانطلق إلى شقته، وكانت في محيط ميدان دجلة، وانشغل «يودا» طوال الطريق بالحديث في الجهاز اللاسلكي بالعبرية، كان ينفعل حينًا ويهدأ حينًا، ويبدو أنه كان يعطي الأوامر لجنوده. وصل العمارة، وكانت هادئة تحدها الأشجار، وعلى المدخل الرئيسي رجل أمن في ملابس مدنية؛ حيث كان يرتدي بدلة أنيقة.. حيَّاه بحرارة وصافحه، وقال له «يودا»: «هذا سعيد صديقي».. تصافح سعيد ورجل الأمن، ومضى الاثنان إلى الشقة.. وفي شقته، جلس سعيد ينتظر خروجه من المطبخ. تفقد الشقة، وكانت أنيقة تعطرها رائحة يألفها دائمًا، هي نفس رائحة مطعم «بالما» وديسكو «فلاش» ورائحة شقة مدام «ويلما جرول»؛ كأن لجلودهم رائحة مميزة عن رائحة المصريين والعرب.. صور لـ«بن جوريون» أول رئيس وزراء لإسرائيل، وصورة لـ«أينشتاين»، وصور لعائلته، وكانت زوجته جميلة جدًّا، وصور أخرى تضم أفرادًا كثيرين ويبدو أنهم أفراد عائلته أو أصدقاؤه.. قطع الأثاث كانت

قليلة، بينما في زاوية يضع فوق أرفف صغيرة قطعًا من الأنتيكات؛ مثل كلوب عتيق، جرامافون، كتب قديمة يرجع تاريخ طبعها لمئة عام مضت.. وقعت يده على كتاب فرنسي عنوانه «**ÉCONOMIE DOMESTIQUE**»؛ أي الاقتصاد المنزلي، وكان الكتاب يبدو قديمًا عتيقًا.. ولما فتحه، وكان تاريخ إصداره «باريس ١٩١٤»، وجد فيه قطعة قماش صوف، وورقة منقوشًا عليها ثلاثة أسطر بخط منمق، وعود نبات صغيرًا، وأوراق وردة أوشكت أن تكون ترابًا.. خرج «يودا» يحمل صينية فضية فوقها تفاحتان ناضجتان وسكين وزجاجة «سكوتش ويسكي»، ولما وقعت عيناه عليه صاح منفعلاً:

- أووه.. سعيد، ماذا تفعل بحق السماء والأرض وجميع الكائنات؟!

وأشاح بوجهه وقد تقلصت عضلات وجهه، لأول مرة يشاهد «يودا» منفعلاً هكذا، وقال سعيد في حرج وقد وضع الكتاب بعناية في مكانه:

- آسف مستر «يودا»، أنت تعلم حبي وتقديري للأنتيكات، وهذا ما شدني للكتاب. بينما التقط «يودا» الكتاب، وراح يتفحصه بعناية.. ولما اطمأن، جلس وقال بصوت مستريح:

- هذا الكتاب أغلى عندي من الكتاب المقدس، أوصاني صديق يعمل في مجال الأنتيكات بأن أضعه هنا ليتعرض للهواء والضوء؛ ليحتفظ بقوته، كان بإمكاني أن أضعه في مكان بعيد.. المهم، أنا آسف.

واستحوذ الفضول على سعيد الذي بادره قائلاً:

- ما سر هذا الكتاب؟

ونظر له «يودا» نظرة لها معانٍ كثيرة، وقال له:

- أنا أحب أن يسألني الناس عن كل شيء؛ الأسئلة تريح الطرفين عندما يكون الطرفان صادقين. واستطرد:

- هـذا الكتـاب أهداه جـدي لجـدتي في عـام ١٩١٦، الكتـاب يُعلِّـم كيفية التدبـير المنـزلي؛ كيـف تصنـع كل شيء بنفسـك.. يـشرح بعنايـة كيفيـة صنـع الملابـس، وبعـض الأثـاث المنـزلي الخفيـف. وصمـت «يـودا» لدقائـق ولمعـت عينـاه البنيتـان وأوشـك عـلى البـكاء، ثـم اسـتأنف:

- في هـذه الورقـة كتـب جدي يقول: سـأذهب إلى الحرب، مـن أجل أبنائي وأحفـادي، مـن أجـل حريـة العـالم. ومـات جـدي في الحـرب.. قتلـوه.

- من؟ هكذا جاء السؤال ساذجًا إلى حد ما.

فقال «يودا» بعنف:

- أوف يا سعيد.. الألمان.. هل هناك مجرمون غيرهم؟

وحـاول «يـودا» أن يبـدو طبيعيًّـا، والتقـط سـيجارة «بارلمنـت» وأوقدهـا، وقـدَّم واحـدة لسـعيد وقـال لـه:

- سـأصنع لـك كأسًـا مـن الويسـكي الممـزوج بالتفـاح، لـن تتـذوق مثله في حياتـك.. هـذه الزجاجـة تـم تعتيقهـا في اسـكتلندا عـشر سـنوات.. ولكـن حدثنـي، يبـدو أنهـا أرهقتـك. هكـذا قـال في خبـث.

فقال له سعيد:

- من؟

- الألمانية.

هز رأسه وقال في ملل:

- هه.

فقال له بنبرة لا تخلو من الحقد:

- المهم أرهقتها.. جعلتها تصرخ.. تألمت أم لا؟

- إنها لا تتألم أبدًا.. هي مثل المطاط؛ كلما قذفتها في الحائط تُرد إليك بنفس القوة.. هل تفهم؟
- نعم.. يعني أنت الذي تألمت؟
- هذا صحيح.

والتقط «يودا» سكينًا له نصل رفيع، وبدأ يجوِّف التفاحتين بحرفية، حتى تجوفتا من الداخل، ثم أفرغ في كل منهما جرعة صغيرة من الويسكي، ثم ابتسم رغم شحوب وجهه وقال لسعيد:

- تستطيع أن تتناول كأسك بعد خمس دقائق من الآن، دون أن تأكل من التفاحة.

وقام «يودا» وجاء بشريط فيديو وألقمه جهاز الفيديو، وظهرت على الشاشة تفاصيل نادرة عن محرقة اليهود؛ كان الألمان يضعون اليهود فوق أشياء ثم يودعونها الأفران، وبعد وقت يفتحون الأفران فتبدو العظام ناشفة مجردة من أي لحم.. وصور أخرى لجثث متراكمة فوق بعضها البعض.. وشعر سعيد بشيء مثل الكابوس، وصاح قائلاً:

- ماذا تريد مني؟ هل تريد أن أقتلها؟ وقام وأغلق التلفزيون.
- اهدأ يا سعيد.. أنا لا أقصد شيئًا.. أنا فقط كنت أحب أن تشاركني حزني.. آسف.

وشعر سعيد بالحرج، وقال له:

- أنا لا أقصد.. ولكن تلك المناظر تؤلمني.
- تستطيع الآن أن تتناول كأسك وتأكل من التفاحة.

***

كعادة كل صباح جاءت مدام «كلير» لتحتسي قهوتها الفرنسية في حديقة الرابطة مع الأستاذ زاهر.. تفقدت الحديقة فلم تجده، وسألت «ديوانا» فقالت لها: «لم يأتِ».. فتحت شنطتها الصغيرة بحركة عصبية، والتقطت منها علبة سجائر «مور»، وأوقدت سيجارة.. ظلت تدخن سيجارة تلو الأخرى في توتر، بينما لم تهتم بالصغار من حولها، الذين ضجوا في الحديقة وأزعجوا العمال كالعادة.. وقررت أن تذهب له حيث شقته في شارع ١٥، لم تستغرق سوى خمس دقائق سيرًا على الأقدام.. استقبلها البواب مُرحبًا بحرارة؛ حيث كان يعرفها جيدًا، وكان سودانيًّا، وسألته بعربية ركيكة: «مسيو زاهر فوق؟» فأجابها: «نعم».

صعدت للطابق الثاني، وضغطت على الجرس كثيرًا حتى سمعت صياحه من الداخل؛ فتوترت أكثر، وصعدت الدماء إلى وجهها، وزمت شفتيها.. ولما فتح الباب، وجدها واقفة أمامه تستعد لخوض معركة حامية؛ كانت لمعة عينيها لا تطمئن، يعرف جيدًا أنها مجنونة.. وسألته بحدة بعد أن اجتازت عتبة الباب:

- لماذا لم تحضر هذا الصباح؟

وجلس على الفوتيه وجعل يفكر، ثم التقط سيجارة وراح ينفث دخانها في هدوء وأجابها:

- كلير، أنا لا أحب أن أرتبط بأناس لا يثقون بي.. وأنتِ ليست عندك ثقة بي.

- كيف؟

- طلبت منكِ أن تستغني عن خدمات الخنزير «موريس إبراهيم» لأنه ليس أمينًا، فانزعجتِ.. أليس كذلك؟ على الرغم من أنني أعرفه أكثر منكِ.

وضعت يدها على رأسها وزفرت بتنهيدة عميقة، وقالت مندهشة:

- هذا هو السبب؟

- نعم.

- زاهر، أنا أثق بك جدًّا.. وأعدك بأنني سأتخلى عن خدماته.

شعر بالسعادة، لكنه لم يُظهرها أمامها، واستغل هذه الفرصة للحديث عن ملاحظاته عن المصريين، والرابطة، والمستقبل.. فقررت أن تستجيب له، وألا تعلق عليها، بل تمدح أفكاره التي بدت لها على نحو ما غريبة.. لكنها سعدت جدًّا بحماسه، واستطاعت أن تستوعب عقليته أكثر، إنه مكلوم في حياته وأمواله؛ لذا يستمتع بنقد كل شيء حوله. نزعت قفازها الطويل المصنوع من الجلد الفاخر، وقالت له بنبرة رقيقة: «أنا أفهمك»، ثم منحته قبلة طويلة.

تحبه «كلير»، تريد أن تمنحه كل شيء، لم تستطعم طعم الحب إلا معه، قالت له ذات مرة: «أنا أحبك، ولا أشعر أنني خائنة.. عندما جامعتني لم أهتم برعشتي، أهتم فقط بنظرة عينيك.. عندما أختبئ بين ذراعيك أشعر بأني ملكة متوجة على العالم.. العالم يضيق وأنت بعيد، ويتسع وأنت قريب.. وتتلبد السماء بالغيوم وأنت بعيد، وتتزين بملايين النجوم وأنت قريب.. أنت لا تعرف ماذا تريد المرأة؟ المرأة تريد الرحمة، الأمان.. وأنا وجدتهما معك».

وعندما قال لها: «كلير، أنا أرى العالم في عينيكِ» شعرت بأنها عادت طفلة صغيرة؛ طفلة قادرة على طي الكرة الأرضية راكضةً، إن العالم كله لا يستوعب سعادة امرأة عاشت حياتها مع زوج ممل.. تتأمله فترى فيه آيات الجمال، متى جاء زاهر ليحتل قلبها؟ جاء بعد أن عبر السبعين عامًا، وهي في الخامسة والأربعين، جاءت من مدينة

النـور لتجـده في مدينـة الصحـراء، وهـل يمكـن أن يبـدأ الإنسـان مـن عنـد نقطـة النهايـة؟ إنـه الحـب.

هكـذا كانـت «كلـير» تفكـر طـوال الوقـت.. تحبـه ولا تـرى في حبـه أي جريمـة.. الجريمـة الوحيـدة التـي تشـعر بهـا هـي أن تعيـش مـع رجـل ممل.

في هـذا الصبـاح تنـاولا الإفطـار في بيتـه، وبعـد ذلـك قـررا الخـروج إلى ميـدان السـوارس.. إنـه الميـدان الـذي شـهد أول لقـاء بينهـما.

***

مـن محطـة الثكنـات إلى شـارع ١٣ ومنـذ خمسـة عـشر عامًـا وهـي لا تتخلـف يومًـا واحـدًا، لكـن المسـافة التـي كانـت تقطعهـا في دقائـق معـدودات في السـنوات الأولى، اليـوم ومنـذ أربـع سـنوات وبالتحديـد مـن يـوم أن رحلـت مـدام «سِريـا» وهـي تقطعهـا في نصـف سـاعة كاملـة؛ بسـبب تقدمهـا في السـن، فضـلاً عـن رغبتهـا في الجلـوس مـع حـارسي العقـارات وأيضًـا عـمال مجمـع الأهـرام الاسـتهلاكي. فـور وصولهـا في السـابعة صباحًـا يلتقـط الفاكهـاني مقعـدًا ويضعـه أمـام المجمـع، فتجلـس عليـه تلقائيًّـا، وتتأمـل المـكان بعينـين يغشـاهما الكـبر والأرق، وتحكـي كل شيء عـن الرابطـة، ليـس لشـخص جالـس أمامهـا، ولكـن لـكل رواد المجمـع والعاملـين فيـه.. عـلى الرغـم مـن تقدمهـا في السـن، والأمـراض التـي تعانيهـا، فـإن صوتهـا عـالٍ جـدًّا، كأنهـا في شـجار مـع شـخص، وتضحـك «ديوانـا» مـن قلبهـا، وتقـول: «يقـولي الدانماركـي الحقـير لارس هيـو: ديوانـا، البقـرة السـوداء تـدر حليبًـا أبيـض.. مـاذا يظننـي ابـن المومـس الشـاذ؟ بقـرة.. هـه» وتوقـد السـيجارة، وتنفـث دخانهـا مسـتمتعة، ثـم تحـاول النهـوض في صعوبـة فيلحـق بهـا أحـد العـمال ويسـاعدها عـلى النهـوض، وتلتقـط الـترولي وتمـضي إلى الرابطـة.

ماتت «ديوانا».. وجدوها في الحديقة الخلفية للرابطة على مقعدها المفضل، وأمامها المنضدة وعليها فنجان القهوة ومنفضة السجائر وبها سيجارة مشتعلة، وقد تهدلت الشفاه، وغطت خصلات من شعرها الأبيض المجعد جبهتها العريضة، وكان رأسها مائلاً على كتفها. دخل «خرستوف»، ولما شاهدها اندفع نحوها.. ثم صرخ. كانت «ديوانا» من الأعضاء القُدامى الذين أنشأوا الرابطة مع مدام «سِريا» عام ١٩٨٠، وبرحيلها تكون الرابطة ليس فيها أي عضو من الأعضاء القدامى. ومنذ وقوفها مع «موريس إبراهيم» ضد «جماعة الرابطة» وهي عُرضة لبطشهم؛ ذهبوا لها في بيتها في شارع ١٠ القديم، وقالوا لها: «نستطيع أن نقتلك إذا أصررتِ على أداء دور الواصية علينا.. نحن نحترمك، لكن ليس على حساب مصالحنا». وكانت «جماعة الرابطة» قد تفشت جرائمهم في الحي، وكانوا معروفين في أنحائه، وكان عددهم ثمانية أشخاص، يستقلون دراجات «بي إم إكس» الأمريكية ويطوقون بها الحي، وكان أربعة أشخاص منهم يعملون في الرابطة، وأربعة أشخاص في النادي الأمريكي، وكانوا يقومون بأعمال عدوانية من معارك دامية، واستيلاءات، وسرقات، وهجمات على المنازل مقابل مبالغ كبيرة. وبعد أن حدثوها، ارتجفت «ديوانا» وقالت لهم: «أنتم أولادي». واقترب منها شخص كان يبدو أنه قائدهم، وكان يدعى «جاكوب» وقال لها في تهكم: «نحن لسنا أولادك.. أولادك طيبون، أما نحن فأشرار، مصالحنا تأتي على جثث آبائنا.. هل تفهمين؟».

وتخلت عن الوقوف مع «موريس إبراهيم»، وعلى الرغم من سيطرة مدام «فاليري» على المطبخ، فإنها كانت تتجنبهم، واستطاعوا أن يفرضوا على «موريس» ضريبة، وأذعن لهم ودفع لهم مقابل كل خنزير عشرة دولارات. ولما وصل

خبر وفاة «ديوانا» إلى «موريس»، بكى بمرارة على رحيلها.

عُقد اجتماع طارئ في الرابطة، حضره جميع الأعضاء بمن فيهم الأستاذ زاهر، وكان على رأس الأعضاء «توماس مارين» أكبر الأعضاء سنًّا، بالإضافة إلى «آرون رود».. بسط «لارس» يده على الترابيزة، وقال:

- ما رأيكم في أن نهدم هذا السور، ونقيم سورًا من الخرسان حول البناء؟

- لماذا؟ هكذا بادره «آرون رود» الذي اتسعت صلعته وشملت رأسه كله.

- هناك أفارقة يتسللون إلى الحديقة من خلال السور، وعجزنا عن التصدي لهم.. «سامبا» يقف على الباب الرئيسي بمفرده.. إما أن نجلب موظفي أمن نطوق بهم البناء، أو نبني السور.. ما رأيكم؟

ووافقوا بالإجماع على بناء سور من الخرسان يتعدى ارتفاعه المترين، وجاء عمال الزراعة وأزالوا السور المكون من النباتات، واقتلعوا القضبان الحديد التي صدئت بفعل السنوات الطوال، فضلاً عن السلك الذي كان مشدودًا عليها، وكان قد صدئ أيضًا، واستغرقوا يومًا كاملاً في إزالة السور، وظهرت الفيلا ضخمة كسفينة عملاقة، وأعلنت الرابطة إغلاق بار الشرفة حتى الانتهاء من بناء السور، وتمت إزالة الأشجار العتيقة من الحديقة؛ أشجار الفاكهة الكبيرة، وأشجار الكافور والصفصاف.. وبدت الحديقة بعد أسبوع من العمل الشاق جرداء واسعة، وظهرت المباني الحديثة التي شُيدت في الشارع وكانت تحجبها الأشجار الضخمة. وعند الانتهاء من بناء السور طرأ شيء غريب على الحديقة التي كانت تتنفس بحرية؛ شيء مثل الحصار؛ فشعر بعض الرواد القدامى في البداية بشيء ما يبعث

على الضيق. ومع مرور الوقت، ألفوا السور الخرساني الضخم. وبعد إزالة النجيلة الباقية وأيضًا النباتات النادرة، سُطحت الأرضية بالبلاط الأسمنتي المضلع الكبير، كان لونه ترابيًّا، وفُرشت الحديقة بترابيزات من الرخام، ومقاعد من البلاستيك الرديء. وفي هذه الفترة عمل في الرابطة عدد كبير من الأفارقة؛ فتيات وأيضًا شباب، وانضم رواد جدد لها. وظل الجميع يحترم القوانين، فالمصير معروف؛ الطرد.. وظهرت «جاكلين» وتحدثت مع «لارس» بثقة كبيرة:

– أنا هنا للتبرع وخدمة الفقراء.. وأنت تعرف جيدًا أنني أستطيع جلب المساعدات.

وقف «لارس» وحدجها بنظرة نافذة وقال بحدة:

– جلب المساعدات أم جلب العاهرات.. جاكلين، أقسم بالرب إذا لوثتِ هذا النادي لأطردك من مصر كلها.. هل تفهمين؟

زمت شفتيها وتركته وذهبت.. جلست على بار الشرفة، وجاءها «جاكوب» وقال لها:

– تحدثتِ معه؟

– نعم.

– وماذا حدث؟

– هددني بالطرد من مصر.

– لا يستطيع.

وكانت «جاكلين» معروفة جدًّا عند الأجانب؛ فهي قوادة كبيرة، تملك شقة فاخرة في «نيركو» وسيارة جيب شروكي سوداء، تجلب الفتيات الملونات وتلقيهن تحت أقدام الرجال البيض، تقول عن

نفسـها: «أنـا خدامـة لـكل الشـواذ»؛ لـذا ترسـم عـلى ظهرهـا قضيبًـا كبـيرًا يتصـل بمؤخرتهـا، ترتـدي ملابـس سـاخنة تـبرز مفاتنهـا؛ المؤخـرة الكبـيرة، وثديهـا الكبـير.. ملامـح وجههـا تقـترب مـن المصريـين عـلى نحـو مـا، إلا أن شـعرها مجعـد طويـل تجمعـه في دفائـر كثـيرة. اسـتدعاها «جاكـوب» للحضـور إلى مقـر الرابطـة؛ لـتروج مـن خلالهـا لنشـاطها، لكنهـا اصتدمـت بـ»لارس هيـو».

جلسـت مـدام «كلـير» في الحديقـة كعـادة كل صبـاح، وجلـس أمامهـا الأسـتاذ زاهـر، وجـاء «خرسـتوف» لهـما بالقهـوة.. ظـل الأولاد كالعـادة يُحدثـون ضجـة في الحديقـة، إلى أن جـاء «موريـس إبراهيـم» ليداعبهـم، وسرعـان مـا تقـدم نحـو المـدام وسـلم عليهـا، إلا أنهـا اسـتقبلت تحيتـه بـبرود، وكانـت تنبعـث منـه رائحـة حيـوان بـري، فبادرتـه بسرعـة:

- موريس، شكرًا.

ونظـر لهـا مسـتفهمًا.. وفيـما هـو يفكـر في هـذا الجفـاء الـذي حـل عـلى طريقـة المـدام معـه، أدرك أنهـا تريـد أن تسـتغني عـن خدماتـه، بل اسـتغنت عـن خدماتـه بالفعـل؛ فنظـر للأسـتاذ زاهـر الـذي جلـس مسـترخيًا يتابـع المشـهد في تلـذذ.. ولمـا أراد أن يسـتفهم منهـا، قاطعتـه بالفرنسـية وصاحت:

- أوف.. موريس.. قلت شكرًا.

لأول مـرة منـذ أعـوام تحـدث هـذه الضجـة الكبـيرة في الرابطـة؛ صرخ «موريـس إبراهيـم» في عنـف:

- ماذا تريد مني بالضبط.. أريد أن أفهم؟

- هـه.. قطعًـا هـذا شـخص مختـل. هكـذا قـال الأسـتاذ زاهـر وهـو يسـتدير للخـروج مـن المطبـخ، وعـاد يحدثـه بسـخرية شـديدة:

- تظنني صديقك؟ قطعًا خدمتك للحيوانات أثرت على عقلك.

عندئـذٍ التقـط «موريـس» سـكينًا وغمـده في لحـم خنزيـر كان أمامـه، واحمـرت عينـاه، وصرخ مـرة أخـرى:

- يريد أن يقطع رزقي.

فشـل في التقـرب منـه أثنـاء تواجـده، لم يسـتطع تحمـل عنصريتـه؛ لـذا أصبحـا عدويـن. قوانـين الرابطـة كانـت تدعـم موقـف «موريـس»، وفشـل زاهـر مـرارًا وتكـرارًا في فصلـه منهـا؛ كانـت تسـيطر عليـه رغبـة في معاقبتـه، إنـه تعـدى عليـه وطـرده ذات مسـاء مـن المطبـخ، أي نعـم لطمـه زاهـر عـلى وجهـه، إلا أن ذلـك لم يُرِحـه، وأيضًـا لم يرتـدع «موريـس»؛ ظـل يعاملـه بنديـة، كان مطمئنًـا لقوانـين الرابطـة، وهـو ليـس إلا عاطـلاً.. هكـذا كان يـراه.

وفي مسـاء اليـوم ذهـب «موريـس» إلى بيتـه حزينًـا، لم يتنـاول العشـاء مـع أبنائـه، وجلـس في الصالـة وسـط الظلمـة؛ أراد أن يفكـر بمفـرده، وفي هـدوء، فطـن أن الأعضـاء المؤسسـين رحلـوا.. اليـوم والغـد سـتحميه القوانـين، ولكـن حتـمًا في أحـد الأيـام سـيأتي مديـر آخـر يماثـل زاهـر في عنصريتـه وغـروره، فيذعـن لـه ويرفـده.. وأخـيرًا وصـل لقـرار نهائـي، وهـو تـرك الرابطـة.

قـراره أسـعد البعـض، وأغضـب البعـض الآخـر، قالـت لـه السـيدة سـميرة: «فكـر جيـدًا» فقـال لهـا: «لـن يتركنـي.. أغلـب الـرواد هنـا زبائنـي.. سـيؤثر عليهـم.. هـذا العجـوز العنـصري خطـير».

واشـترى سـيارة «نيفـا» بيضـاء، وكتـب عـلى الزجـاج الخلفـي «موريس إبراهيم للإسـعافات الأوليـة للحيوانـات»؛ هكذا قـرر أن يسـتغل خبرته في الطـب البيطـري التـي اكتسـبها مـن عملـه عنـد الدكتـور «روبـرت تيرنـر»

أستاذ الطب البيطري.. وزودها بسرينة إسعاف، وكانت السيارة لا تخرج من الحي الإنجليزي.. خبرته في هذا المجال كبيرة؛ فجهز السيارة بأدوية للتسمم، وخافض للحرارة، وأنبوب أكسيجين، وماكينة حلاقة للكشف عن الوريد إذا ما استدعى الأمر إعطاء حقن، ومقصات، وبتادين اسكراب للتطهير، وبتادين عادي للجروح، ومحاليل دنجر ولاكتلوز للحرارة والنزيف. وتعاقد مع أكبر ثلاث عيادات في الحي، وعند أول حالة ذهب إلى بيت مدام «كلير»؛ كان أحد أبنائها قد لعق الأزهار، وكانت مرشوشة بمبيد سام؛ فمات.. قالت له: «موريس، صغيري مات» لم يعلق، وضع الكلب في صندوق صغير، وتم دفنه في قطعة أرض فضاء بالقرب من طُرة.

***

زُينت الحوائط بوجوه إفريقية مصنوعة من الفخار، كل وجه يحوي لمبة تضيء في كل مساء، وبدت الإضاءة قوية نافذة إلى كل بقعة في الحديقة. وفي يوم شم النسيم من عام ١٩٩٤ أعد الصحفي «آرون رود» - وقد بدا عليه تقدم السن - يومًا رائعًا.. وقف أمام الكاميرا التي ثبتها في إحدى الزوايا، وتحدث إليها قائلاً:

«أنا آرون رود الصحفي.. جئت إلى مصر منذ خمسة عشر عامًا أو يزيد» قالها بالعربية، مضيفًا بالإنجليزية: «جئت من صحراء أريزونا في أمريكا إلى صحراء القاهرة.. أصدقائي ينعتوني بالمجنون الكبير» هكذا يقول وهو غارق في الضحك. ثم ينتقل بالكاميرا ويسأل الرواد.. قالت سيدة عجوز كانت تحتسي البيرة ووجهها يشع بابتسامة كبيرة: «أتمنى لكل الفقراء أن يجدوا الطعام». وظل «آرون رود» ينتقل بالكاميرا بين الرواد، يتحدث معهم ويسألهم عن كل شيء، منهم من قال: «قضيت

عشرة أعوام في القاهرة، والآن أشعر بأني وُلدت فيها.. ولا أريد تركها».

وبعد بناء السور، انتعشت الحديقة بالرواد، وبدا صعبًا على الأفارقة اختراق السور، لأسباب كثيرة؛ أولها كاميرات المراقبة، ثانيًا الكشافات الكبيرة المسلطة على السور. ولما جلس «آرون رود» في بيته في شارع ٧ يراجع الفيديوهات التي حرص أن يسجلها كل عام، بدأ بأول فيديو، وكان عام ١٩٨٠ لعمال مصريين يعملون في الحديقة، ولاحظ «محمد عبد العال» المهندس الذي خطط بناء الحديقة وبار الشرفة، وبجواره مدام «سِريا» وكانا يوجهان العمال، وأيضًا شاهد «خرستوف» وهو يحمل الشاي للعمال.. ومرت على وجه «آرون رود» وهو يتابع الفيديو سحابة حزن عميقة.. أوقد سيجارة وتابع الفيديو للنهاية، ولمعت عيناه بطبقة من الدمع حين وقفت «سِريا» في نهاية الفيديو تقول: «من هنا سندعم كل إنسان».

قبل أن ينتهي عام ١٩٩٤ كان «آرون رود» يحزم حقائبه ويستعد للرحيل، جاء وودع الأعضاء بحرارة، وعانق «خرستوف» طويلاً، وبكى الأخير وقال له: «سأفتقدك كثيرًا». وطاف الحي والتقى بأصدقائه المصريين وجلس معهم، وفي النهاية ودعهم، وذهب إلى مقهى «كليوباترا» وودع أصدقاءه هناك، ومر على مستودع «بيرة ستيلا» وودع العاملين.. هكذا كانت الجولة شاملة، عاش في الحي ما يقارب العشرين عامًا؛ عشرين عامًا قضاها مصريًّا حتى النخاع، تجرع مشكلاتهم، وشاركهم فيها، عشرين عامًا عرف فيها طبائع المصريين؛ لذا حثه الكثيرون على تأليف كتب عن هذه الرحلة الطويلة، لكنه قال لهم: «عشرون عامًا تعلمت فيها جميع الحقائق، الحقيقة الوحيدة هي أن أستريح».. أصدقاء جاءوا وآخرون رحلوا، وعصفت به الذكريات فتألم كثيرًا، ولكن سبعون عامًا مضت من عمره وهو

في السياســة غــارق، حــان لــه أن يعــود لأريزونــا ويجلــس مســتريحًا.

***

اصطفَّـت ثلاثـة بوتجـازات ماركـة «جيمـس» ليصبـح عـدد البوتجـازات في المطبـخ سـبعة، جـاءوا بواسـطة شركـة «**seaven**» للخدمـات، إضافـةً إلى المطبـخ المـصري الـذي برعـت في تقديمـه السـيدة سـميرة والـذي أحـدث ضجـة كبـيرة؛ ليس لـدى الـرواد فحسـب، ولكـن في محيـط الرابطـة؛ حيث انتـشرت روائـح الشـواء المُسـكرة، فضـلاً عـن صليـل الأواني الـذي وصـل إلى الحديقـة، عـالم متكامـل مـن العـمال والطهـاة والنُّـدل، شـكَّل المطبـخ لهـم سـاحة كبـيرة للابتـكار. ولـما تدفـق المـال أكثـر عليهـم إثـر هـذه القفـزة الكبـيرة، تراجـع أعضـاء «جماعـة الرابطـة» عـن خـوض المعـارك وقتـال الآخريـن نظـير المـال، وانفعـل عليهـم «جاكـوب» الـذي كان يسـتخدم سُـلطته في فـرض آرائـه عليهـم، وفي النهايـة أذعـن للعمـل نـادلاً، ولكـن سرعـان مـا رفضـه الـرواد وقدمـوا فيـه شـكوى لــ«لارس هيـو»، الـذي تفحصهـا بعنايـة وهـو واضـع عـلى عينيـه عويناتـه الذهبيـة، ثـم قدمهـا للأعضـاء وأخـذوا قـرارًا برفـده، ولـولا أن رجالـه تخلـوا عنـه لـكان «جاكـوب» عاقبهـم جميعًـا، وفي النهاية اسـتطاع العمل في «ديسـكو فلاش».

فقـد أسـند لهـا «خرسـتوف» الـذي تـرأس إدارة المطبـخ بعـد رحيـل «ديوانـا» مهـام الطهـي؛ لـذا حزنـوا للعـام الـذي مـضى دون الاسـتعانة بهـا، وقالـوا: «إن القـدر دائـمًا مـا يلعـب دورًا إيجابيًّـا في حيـاة البـشر؛ لـولا مـوت ديوانـا مـا كُنـا اكتشـفنا سـميرة». وكان «خرسـتوف» قـد اقـترب منهـا منـذ أن تهكـم عليهـا النـادل حـين سـألت عـن «وليـام مـور»، ونشـأت بينهـما صداقـة عميقـة؛ في نهايـة اليـوم يجلسـان خلـف المطبـخ ويتنـاولان القهـوة ويدخنـان ويسـتغرقان في أحاديـث كثـيرة، فضـلاً عـن

«موريس» الذي أحبها لتعاونها معه، أخذ من خبرتها، وظل يتعلم منها صنع الخلطات شيئًا فشيئًا، وكان يقول لها في كل مرة: «مدام سميرة، أنتِ نوع آخر من المسلمين، أنتِ أمي».. كذلك أحبها جميع العاملين بمن فيهم «جاكوب».

***

بعد بلوغها الخامسة والستين عامًا، بدا على السيدة سميرة الضعف، نصحها الطبيب بأن تتوقف عن التدخين، وأن تقل من تناول القهوة، وقال لها: «آن لكِ أن ترتاحي» وابتسمت وقالت له: «ليس الآن».

الروماتيزم والضغط أنهكاها، تغيرت تمامًا إلا عن انضباطها في العمل؛ ما زالت تواظب على المواعيد، والأداء المفرط في تلبية الطلبات التي انهالت عليها، وفشلت الفتيات الإفريقيات اللاتي يعملن تحتها في تعلم شيء منها، إلا فتاة واحدة تدعى «ماريا» وكانت منذ البداية وعيناها عليها في كل شيء؛ أدركت الفتاة بذكاء أن المستقبل في المطبخ، وليس في خدمة الرواد المرهون بالصحة والنشاط وتحمُّل سخافات البعض منهم، فضلاً عن اقتناع مديحة بخلافة أمها في المطبخ، واقتسمت الفتاتان العمل خلف السيدة سميرة، حملتا أعباء المطبخ الكبير.

في هذا الصباح الباكر من نوفمبر عام ١٩٩٤، سلكت شارع الثكنات كعادة كل صباح، إلا أن هذا الصباح المنعش كان غامضًا؛ ثمة شيء جثم على صدرها وأفقدها ابتسامة الصباح، قليلون من طال بهم الأمد في حراسة العمارات أو زرع الحدائق ينظرون لها ويتعجبون من الزمن، وآية ذلك ما طرأ عليها؛ البالطو الفاخر المصنوع من الكشمير ترتديه فوق جلباب فضفاض مطبوع برسمات نُقشت بالتريكو، الحذاء الرياضي الضخم الذي حرصت منذ ثلاثة أعوام أن

تنتعله ليحد من آلام كعبيها، حركتها البطيئة، لولا كبرياؤها لكانت اتكأت على عكاز.. إن هذه الهيئة إن دلت فإنما تدل على إهمال ناتج عن حالة يأس مفرطة.. ولما كان يشتد عليها الألم كانت تجلس على أحد المقاعد الخاصة بالبوابين لتلتقط أنفاسها، ولما كان يشاهدها بواب كان يسارع بإحضار الشاي والحديث معها، ثم تستأنف سيرها حتى مقر الرابطة. بعد أن تنتهي من عملها في الرابطة، تجلس وتتناول فنجان القهوة المضبوط، وتضع فوق عينيها تلك العوينات الدقيقة وتتصفح الجرائد، ثم تجلس معها مديحة لبعض الوقت، ثم تسأل عن داليا، ودائمًا لا تنتظر ردًّا، هي عبارات روتينية، لا تعبأ بها مديحة ولا داليا.

وتنظر لها مديحة مستعطفة وترحل، وتعود سميرة للبيت في المساء.. تستقل المترو، وتظل تتفقد الناس بنظرة تعيسة، ثم تذهب حيث شقتها، تصعد إلى الطابق الثاني في معاناة، ثم تعكف على تحضير الطعام الذي لا يتناوله أحد سواها.

ماتت سميرة بعد رحلة طويلة مملوءة باليأس والحرمان، لم تكن الصدمة قوية، لكنها كانت تحمل قوة المفاجأة أكثر من صدمة فقدان الأم.. ماتت.. وهذا متوقع.. ألم يتقدم بها العمر؟ ألم تُصَب بالأمراض؟ إن الموت شيء طبيعي لمثلها.. هل ستكون هذه العبارات هي التي سيشيعون بها أمهم؟ وقف سعيد على باب الغرفة وأخذ يحملق في جسدها النحيل، وشعرها المبعثر على الوسادة وقد بدا أبيض بعد أن انطوت الصبغة من عليه، وقف بجوار الجسد الساكن، وتأملها كما لو أنه لم يشاهدها من قبل.. تفقَّد وجهها بدقة، عنقها الضئيل، راحتيها المجعدتين بطبقة ميتة من الجلد إثر العمل الشاق، كعبي قدميها اللذين انتشرت فيهما الشقوق مؤخرًا، أظافر قدميها الصلبة الطويلة.. وتساءل فيما يشبه الذهول: «متى أهملت سميرة في نفسها؟»

إنـه يـرى أمامـه جسـدًا غريبًـا ضعيفًـا، كان يومًـا مـا يتزيـن ويتباهـى بجماله وثقافتـه، كان جسـدًا قويًّـا.. وبـرزت إلى ذهنـه المعركـة الشرسـة التـي خاضتهـا بمفردهـا أمـام عامـلي النـادي اللذيـن حجـزاه وضربـاه، كـم كانـت قويـة؛ انتفضـت وقاتلـت بـضراوة بعـد أن التقطـت عصـا البيسـبول وطاحـت فيهـما بقـوة وشراسـة.. «مامـا» هكـذا هتـف سـعيد مـن الأعـماق، بيـد أنـه لا يتذكـر أنـه ناداهـا هكـذا منـذ سـنوات، منـذ أن هبـط هـذا الحـي وعشـق شـوارعه وسـكانه وأماكنـه، كان فقـط يشـاهدها تجـر نفسـها ناحيـة الثكنـات، وكان يتجاهلهـا عندمـا يكون بمفـرده، أمـا إذا كان بصحبـة «يـودا» فإنـه يسـترق النظـر إليهـا، ولمـا كان يشـاهدها وهـي تجـر حقيبتهـا في إعيـاء، كان يشـعر بالقـرف مـن نفسـه «تلـك مسـافات طويلـة تـصر عـلى أن تقطعهـا بمفردهـا» هكـذا كان يقـول في نفسـه ليدفـع عنهـا ذلـك الشـعور.. وتفـرس الوجـه الناطـق بالعـدم، وحـدَّث نفسـه بصـوت عـالٍ كأنـه يتمنـى أن تسـمعه: «لمـاذا الآن؟ لم أشـبع منـكِ» وتسـاءل في يـأس: «هـل كنـتِ مُربيـة فاضلـة؟ أم أمًّـا بائسـة؟» وشـعر بأنـه يتهـاوى في بئـر مظلمـة جافـة ليـس لهـا مـن قـرار.. وأحـضر القصافـة الخاصـة بهـا مـن أحـد الأدراج، وقـام بتقليـم أظافرهـا بعنايـة.. كانـت يـده ترتعـش وتتسـاقط قطـرات العـرق مـن جبينـه، ولا تـدري أهـي قطـرات عـرق، أم دمـوع أبـت أن تسـكن عينـه أمامهـا.. لأول مـرة يقـترب منهـا بهـذا الشـكل، كانـت صلبـة، تقـف عـلى خطـوة واحـدة منـه ومـن أشـقائه، صيحـات.. تعليـمات.. نظـام غذائـي.. دراسـة مكثفـة.. هـذه هي سـميرة.. وعـاد يتسـاءل وقـد تهـدج صوتـه: «كانـت حـادة.. أم كانـت تقصـد أن تنـزع منهـم شـيئًا مـا؛ شـيئًا تجـلى في هـذه الأيـام السـوداء، يُلخـص في كلمـة «المصلحـة»؟ الآن النـاس تهـرع لمصلحتهـا الشـخصية عـلى حسـاب كل شيء».. وعـاد يتفـرس في وجههـا بتمعـن.. التجاعيـد بـدت مترهلـة،

والهالات السوداء تحول لونها لزرقة مخيفة، وأسنانها بدت ضعيفة صغيرة لكنها كاملة؛ لشدة ما كانت تحافظ عليها، وكانت تدفعهم لتنظيفها كل صباح ومساء قائلة: «ليس للميكروب طريق إلا من خلال بقايا الطعام التي تندس بين الأسنان».. وتنهد من الأعماق، وعانى في كبح صرخة تريد أن تخترق الجدران.. ولما انتهى من تقليم أظافرها، قام بتسريح شعرها بحرص، ثم زيَّن وجهها ببراعة، وراح يقبلها في شغف، وانفجر بصرخة من الأعماق: «سميرررررة».

الآن وبعد فوات الأوان أدرك سعيد غيابها عنه وعن أشقائه، إنها لم تكن جامدة؛ إنها كانت تصارع من أجل تربية أبنائها وتعليمهم.. وزحفت الذكريات كجيش من النمل يسلك طريقه دون أن يلوي على شيء، وراح يحرث في عقله ويفتش عن الذكريات، وتنهد: «آآآآه.. رباه رباه.. الرحمة».

شاع الخبر عند الرواد، وبلغ زاهر الذي لم يتأثر، بل نعتها ساخرًا بـ»المرأة المثقفة». وحزنت الرابطة لفقدان هذه السيدة التي لم تُغضب أحدًا، التي وافقت في بداية عهدها في الرابطة - برغم خبرتها - على أن تعمل تحت إشراف إحدى الفتيات الإفريقيات. وبكى عليها «موريس إبراهيم»، رغم أنه كان ينكرها في البداية، لكن بعد اختلاطه بها، قال لها: «أنتِ نوع آخر من المسلمين يا ست سميرة».. على الرغم من ذلك فلم تحزن كل من داليا ومديحة، لم تتذكرا لها أي شيء، اقتصر الحزن على فقدان امرأة يومًا ما كانت تقيم معهما في بيت واحد.. لم تهتم داليا كثيرًا فور علمها بالوفاة، عقدت حاجبيها الدقيقين وهمست: «سميرة ماتت.. متى؟».

كانت سميرة امرأة لها كبرياء وعزة نفس نادرة، رغم مرضها وشقائها ظلت تعمل، ولم تستدِن من أحد، ولم تعتمد سوى على نفسها. في هذه الأيام الأخيرة كانت تذهب إلى بيت زاهر، تقوم بطهي الطعام وأعمال النظافة، بعد أن أصابت «خرستوف» وعكة ألزمته الفراش بضعة أيام، وأقدمت على ذلك إرضاءً لـ«خرستوف»؛ فهي لا تعمل عند المصريين كما هو معروف عنها، وكانت كالعادة تجد ٢٥ جنيهًا فوق ترابيزة السفرة أسفل منفضة السجائر، تلتقطهم وترحل، حاول أن يتحدث معها، لكنها كانت تصمت، حتى إنه حاول أن يستفزها ويوقظ اليسارية الكامنة بداخلها، لكنها كانت لا تعلق، لعلها شعرت بالسخرية منه.. بعد فترة أدركت صنفه القذر، حدثها عنه «موريس»، فضلاً عن زياراته المتكررة للمطبخ ومحاولاته الفاشلة لفرض آرائه على أي شيء، وكان يقول لهم دائمًا: «أنتم تفهمون أكثر مني» ويختتم: «هه» كررها أكثر من مرة. وقالت لـ«خرستوف»: «كيف تتحمله؟» فقال لها: «أعرف حدودي معه جيدًا، هذا الصنف يشبه الفرنسيين في غرورهم وغطرستهم.. له صديقة فرنسية تحبه؛ لأنها وجدت فيه ما يريح ضميرها». عندما كان يشاهدها في الحديقة الخلفية بعد انتهاء ورديتها جالسة تتناول القهوة وتتفحص الجرائد بعناية، كان يشعر بالقهر ويضيق صدره، ويتساءل في نفسه بنبرة ساخرة: «خادمة تتفحص الجرائد! الأولى أن تغتنمها لتضع فوقها الطعام.. تقرأ.. كيف تقرأ؟! نحن في أي زمن يا الله؟!» هكذا كان ينفعل زاهر؛ الأمر الذي جعله ينفرد بها كثيرًا، ويستيقظ باكرًا مخصوصًا للحديث معها، في محاولات فاشلة استعدت للتصدي لها مبكرًا، إنه يريد أن يسمعها تتحدث عن القوانين، وفساد النظام، وأن يعرف رأيها في السياسة الداخلية والخارجية.. ثقافتها جعلته حتى لا يُثني على

طهيها الـذي أحـدث ضجـة في الرابطـة، هـو تعلَّـم وتربـى عـلى أن ينتقـد فقـط، لكـن ثقافـة الثنـاء عـلى أفعـال البسـطاء لم يتمـرس عليهـا، ولم يقتنـع بهـا يومًـا مـا، يريـد أن يسـخر ويضحـك ليسـتريح قلبـه، ورغـم علمـه بشـهادتها فإنـه ظـل يراهـا جاهلـة.. إنهـا خادمـة.. مهـما فعلـت خادمـة.

***

لم تعـد مـدام «كلـير» تـأتي إلى الرابطـة لاحتسـاء قهوتهـا، بعـد أن فقـدت أحـد أبنائهـا، تملَّـك الحـزن منهـا، وظلـت طـوال عـشرة أيـام في عزلـة، فذهـب لهـا زاهـر ليطمئـن عليهـا.. عـشرة أيـام وهـي لا تـرد عـلى الهاتـف، عـشرة أيـام وهـو يذهـب لهـا كل صبـاح وكل مسـاء، فيشـاهد الفيـلا مضـاءة، وثمَّـة موسـيقى هادئـة تنبعـث مـن داخلهـا؛ قطعًـا هـي تجلـس وتعـزف عـلى البيانـو، وتسـاءل في نفسـه بمـرارة: «هـل بمفردهـا أم هنـاك شـخص آخـر؟».. وظـل ليـالي يعـاني الهواجـس الشـيطانية، اكتشـف أنـه يحبهـا بحـق، واكتشـف شـيئًا آخـر في الحـب، وهـذا الشيء لم يشـعر بـه إلا في وجـود «كلـير» فقـط.. الحـب ليـس معـاشرة جنسـية، ولكـن تكمـن روعـة الحـب في الأمـان والانـدماج الروحـي.. ارتـاح لهـا كثـيرًا، وكشـف لهـا عن أدق أسراره، معهـا كان يشـعر بوجـوده، كانـت تمـلأ حياتـه.. يتذكـر لكنتهـا الفرنسـية الممزوجـة بنغمـة طفوليـة فيشـعر بالحـزن، ويتسـاءل في نفسـه: «أيـن هـي؟ كانـت أجمـل امـرأة في العـالم» وكثـيرًا مـا كان يجلـس في البـار الرئيـسي في الرابطـة بـين النسـاء فيشـعر بأنـه شـاب في مقتبـل العمـر يـبرز صـدره العريـض كالديـك، استـمد مـن قربهـا منـه ثقـة كبـيرة، الجميـع يعـرف «كلـير»، ويعـرف حبهـا لـه؛ لـذا كانـت لا تمـلأ عينـه أيـة امـرأة أخـرى.

وأخـيرًا اسـتجابت وفتحـت لـه البـاب، فانـدفـع مـن الداخـل الهـواء الممـزوج برائحـة جلدهـا الرقيـق؛ فشـعر بأنـه عـاد للحيـاة مـرة أخـرى،

واندفع يحتضنها، لكنها صدته بيد قوية وتراجعت عدة خطوات، وظلت تنظر له بعينين حمراوين.. وتقدم نحوها مستفهمًا:

- كلير، ماذا حدث؟
- ابتعد عني.
- كلير!
- قلت ابتعد وإلا طلبت البوليس.
- أنا زاهر.. أنا لا أفهم شيئًا.
- أنت من قتلت صغيري.. أنت العجوز العنصري.. فلتذهب إلى الخراء.. أنت من حرضتني.. الشيء الوحيد الذي يؤلمني هو أنني أحببتك؛ أحببت خنزيرًا عجوزًا.

وتغاضى زاهر عن كل هذه الإهانات وهتف:

- قتلت..
- اخرج من بيتي لا أريد رؤيتك.
- كلير.

واندفعت تضربه في صدره بقسوة، وأجهشت في البكاء، وسقطت على الأرض، فرفعها وأجلسها على المقعد وجاء لها بجرعة ماء، لكنها التقطت الكأس وأطاحت بها وصرخت:

- اخرج.. أنت من قتلت صغيري.

ومكث في البيت أيامًا يفكر في هذا اللغز، وعلم من الرابطة بالحادثة، واستطاع أن يفسر قولها بأنه من قتل صغيرها؛ هي تقصد أنه السبب في طرد «موريس إبراهيم» الذي كان يعقم الأبناء

ويعطيهم الأدوية المضادة لتلك المبيدات. ولم يمضِ شهر حتى جاءه الخبر كطعنة نافذة؛ سافرت المدام إلى باريس. ومكث في بيته شهرين استسلم فيهما للحزن.. وكان يأتيه «خرستوف» ليخدمه، وظل على صمته مع الجميع حتى مع «لارس هيو»، واسترجع ذكرياته معها، عاقبه الله بأن يحب في هذه السن المتأخرة، إنه لا يستطيع تحمُّل تبعات الحب الذي يفشل؛ لا يستطيع السهر، والتفكير، وتحمُّل مرارة العيش، وخفقان القلب، والذكريات.. آه من الذكريات، انقضت عليه تطعنه بكل قسوة.. وفرد أمامه على السرير صورها وهما في حديقة ميدان السوارس، وتفقَّد أيضًا صور الأبناء وتساءل في نفسه: «أي كلب منهم مات وتسبب في ضياع هذا الحب؟».. وشاهد صورته وهو مع الملك فؤاد؛ فخفق قلبه.. هذه الذكريات البعيدة كم كانت تنعشه، يومًا ما كانت هذه الصورة حديث الصحف؛ حيث جاء الملك فؤاد لزيارة الحي، فاستطاعت أمه «روز روجر» الإنجليزية أن تلتقط له صورة مع الملك الذي كان يتودد لأي إنجليزي، فقبل أن يضع يده الكريمة على كتف الطفل ويبتسم للعدسة. وعاش زاهر يقاوم الذكريات في ضعف.. إلى أن جاء لزيارته السيد إبراهيم مسعود، وقال له: «اذهب لترى مكتبة طُرة البلد.. لا بد أن يكون لك دور». وذهب بدافع الانشغال فقط عن التفكير في «كلير»، وكانت المكتبة تحتل الطابق الأرضي في بناء كبير، وكانت مقسمة على شكل مربع كبير؛ جزء به مكتبة كبيرة وقد امتلأت بمئات الكتب في شتى المجالات، وجزء به مائدة كبيرة ومقاعد أطفال ملونة، وجزء به ألعاب، وجزء به لوحات وخرائط.. وظل يتفقد المكتبة في ذهول كأنه لا يصدق، كأنه لم يكن مقتنعًا ببرنامج الرابطة، وأن ما يقولونه غير حقيقي. وكان يعمل في المكتبة شابان مثقفان، وجلس يتابع وفود

الأطفال الذين جاءوا في حماس وسعادة، تفقدهم بعناية، يعرف جدًّا هذه السحنة الفقيرة؛ الملابس نظيفة لكنها مجعدة ببقع ثابتة، رائحة الصابون المحلي الرديء تنبعث منهم. جلسوا تباعًا في نظام بدا أنهم تدربوا عليه كثيرًا، وظلوا صامتين في هدوء غريب، ليسوا صامتين فقط بل مترقبين في اهتمام حركة الأمين الذي انشغل في إعداد الحصة وهو يضع أمامهم الأدوات.. وأخيرًا استمعوا للأمين الذي حدثهم عن الإفادة من إقامة الحوار مع الآخرين.

واندهش الأستاذ زاهر وغالب شعورًا بالنفور من هذا المشهد، وسرعان ما ذهب. وأثناء عودته مستقلاً سيارته المرسيدس القديمة، ظل يراجع هذا المشهد عشرات المرات.. إعداد كامل للأطفال، لكنهم جاءوا ليتعلموا، واندهش أكثر ما اندهش من الأهالي الذين دفعوا بأبنائهم في هذا الطريق، أهالي فقراء لكنهم مؤمنون بشيء، ومطمئنون.. وظل يقاوم شعورًا يسكنه منذ زمن بعيد؛ ليس من حق هؤلاء أن يتعلموا.. نعم يؤمن بذلك إيمانًا كاملاً، فلو تعلموا سيتحولون لأُناس مزعجين؛ لأنهم ليس لديهم المال. وشعر بالكآبة من المكتبات التي تعمل على نشرها الرابطة، إن العالم يتغير في عينيه.. طالما ظنها أكذوبة، لكنها واقع لمسه بيده؛ أجيال ستأتي وتغير كل شيء، لن يسمحوا بأن يسحق أحد حقوقهم، سيتعلمون الحقيقة، سيقولون لا.

***

– خلاص يا صديقي دي آخر مرة نسهر سوا. هكذا قال «يودا» وهو يقدم له كأسه.

– معقول؟

– أنا بخدم منذ خمسة أعوام يا سعيد؛ من عام ١٩٩٠ حتى عام ١٩٩٥.

- وأنـا؟ وراح فيـما يشـبه السـبات، وشـعر برغبـة في الـصراخ، وجعـل يحـدق في أركان الشـقة، كأنــه يجاهــد في كبــح شيء لا يحمــد عقبــاه، وداهمـه شـعور بالوحـدة، شـعور بأنـه عـارٍ تمامًـا؛ عـارٍ أمـام كل هؤلاء الـكلاب.. الشرطـة.. «ويلـما جـرول».. هـذا المـصري العنـصري الذي يُدعـى رائـد.. كل هـؤلاء الـكلاب كانـوا يعملـون لـه حسـابًا، والآن أصبـح عُرضـة لبطشـهم وجبروتهـم.. علـق آمالـه عليـه، في وجـوده أذعنـت لـه «ويلـما جـرول»، في وجـوده وقـف أمـام العنـصري وبصـق عليــه وعــلى عائلتــه، في وجــوده كان لا يســتطيع ضابــط محادثتــه.. والآن عـاد كشـاب مـصري عـادي عُرضـة لـكل شيء قـذر.. وقـال في استسـلام واضـح:
- خذني معك.

وقال «يودا» في صوت هادئ:

- سعيد، ليس في يدي شيء.
- كيف؟
- صعـب.. إلا إذا وضعتـك في شـنطة سـفر.. هـا هـا. هكـذا أراد «يـودا» أن يلطـف الجـو، واسـتأنف بجديـة:
- أنــت نمــوذج رائــع للشــاب المــصري.. ســعادة الســفير بيرســل لــك بالــغ تحياتــه. وأدرك «يــودا» لمــاذا فُجــع ســعيد إلى هــذا الحــد، لكنــه عجــز عــن مســاعدته.
- أنا أستطيع فعل شيء.. خذني معك، لا تتركني هنا.
- سعيد، أنت تعلم بموقفي.
- أنت تتخلى عني.. هل تعلم بالعواقب.. سأنتهي للأبد.

- سعيد، لا بد أن تفهم.
- أنا أفهم شيئًا واحدًا فقط؛ حق الصداقة بيننا.. ساعدني.

وانشغل عنه شيئًا، وجعل يحدق في اللاشيء؛ فقط ليهرب من مواجهة عينيه الباكيتين في ألم، وقال سعيد بصوت ميت:

- الخوف جريمة.. والحقيقة حرب.. والحقائق أعرفها كلها، ولكني لا أستطيع خوض أي حرب.

واختفى «يودا» من حياته، وفقد القوة التي كان يتمتع بها وهو قائم في الحي.. وكشفت العجوز الشاذة «ويلما جرول» عن وجهها القبيح، وقالت له بحدة:

- سافر الخنزير اليهودي؟
- نعم.

وقال في نفسه: «آه يا ملعونة.. كنتِ تخافين منه وتتوددين له.. كان عنده حق؛ أنتِ سفاحة ملعونة، أنتِ شيء خبيث ينبغي استئصاله من المجتمع». وظهر «جاكوب» كنادل في صالة الديسكو، وقدمه جميل قائلاً: «جاكوب سيعمل معنا.. المدام راضية عنه، كان يعمل في رابطة المغتربين الأجانب، والآن سيعمل معنا، وعنده خبرة واسعة، المدام تأكدت من ذلك بنفسها» ولم يتحمل سعيد وجوده معه، فنشبت بينهما معركة عنيفة شرسة شهدها الفندق كله، كانت في الردهة المؤدية إلى البار، أوقفه سعيد وسدد له لكمة مفاجأة، وبادله «جاكوب» اللكمة بقوة، فظلا ثابتين يتلقيان اللكمات من بعضهما في عنف حتى تكسرت أنفهما وسالت منهما الدماء بغزارة، ولم يتراجع أحدهما؛ ظلا ثابتين، وفشلت محاولات الفض بينهما.. وبعد أن استنزفا هذا الكم الهائل من اللكمات، تصارعا وسقطا فوق بعضهما.. ولما شعر سعيد بقوته

وثباته، عضَّه في عنقه؛ فتألم «جاكوب» بشدة.. وانتقلت المعركة بينهما حتى مطعم «بالما»، وهرع الرواد خائفين، وصعد الأمن، لكنهما ظلا متشابكين في عنف، وجاءت المدام من بيتها، وانقضت على سعيد ولطمته بعنف، ثم بصقت في وجهه وقالت له بوقاحة:

- لا بد من دخولك السجن.. أنت مجرم قذر. واحمر وجهها، وظل «جاكوب» يحدجه بنظرة سامة.

وتم رفد سعيد بعد أن أجمعت إدارة الفندق على ذلك، وتدخل الأستاذ رأفت الفيومي للحد من العقوبة والاستكفاء بالرفد بدلاً من دخوله السجن؛ إكرامًا للسيدة سميرة.

***

عندما جاءت لتقدم له العزاء في والدته، لم يرفع عينيه في وجهها باهتمام، ولم يحاول أن يتفحصها، منذ أربعة أعوام لم يشاهدها، الحقيقة أن والدها وقف بجانبه في وفاة السيدة سميرة، وتساءل في نفسه عندما شاهدها في بهو البيت قادمة من الخارج: «هل هي حقًّا؟! ما هذا الجمال والأناقة؟! إيمان عابد.. معقول؟!» أربعة أعوام وهو غارق بين الخدمة في الجيش والعمل في الحي الإنجليزي لم يسمع عنها شيئًا، ولم يسعَ لذلك، آخر مقابلة حقيقية كانت قبل دخوله الجيش، وكانت حادة معه، والآن بدت له شخصية أخرى، تتمخطر في البدلة الرمادية، وقد صبغت وجهها المدور فازداد بريقًا، وبدت لها رائحة الموظفين؛ رائحة الأوراق والأحبار والقهوة. ولما وقف أمامها في مدخل البيت كانت تنظر له مندهشة، لم تتعرف عليه؛ ازداد نحافة، وكان السعال قد لازمه طيلة الأيام الماضية، وكان سعيد قد أدمن الكحول، لدرجة أنه كان يغمز العيش في الويسكي، وأصبح من زوار

عزيـز موسـى الدائمـين، فضـلاً عـن أن مديحـة كانـت تهـرب زجاجـات الخمـر الفاخـرة وتبيعهـا لـه، ولكـن بعـد علاقتهـا بــ»لارس هيـو» توقفـت وقالـت لـه: «عنـدك متجـر عزيـز موسـى، لا تسـبب لي المشـكلات».

– ازيـك يـا سـعيد. هكـذا قالـت بنـبرة خُيـل إليـه أنهـا نفـس النـبرة التـي تنـادي بهـا السـعاة والفراشـين في الشركة.

فقال لها متعمدًا:

– أخبار عم خلف إيه؟

– والدي الحمد لله بخير.. هيطلع الحج السنة دي.. عقبالك.

– متى سـتتزوجين.. أخشـى أن مهامك الثقيلة في الشركة تُنسـيكِ نفسك؟

– قريبًا بإذن الله.

– مبروك.

– الله يبارك فيك.

ولما استعد للمغادرة، استوقفته بنبرة لا تخلو من الزهو:

– عندنا وظائف في الشركة لو تحب تشتغل.

– ما هي الوظائف؟

– في البوفيه والنظافة.. شهادتك ثانوية، لا تنسَ ذلك.

– أعرف أصدقاء يعملون بهذه الشهادة، لكن بواسطة.

– سعيد، الواسطة في كل شيء في بلادنا. هكذا قالت في نبرة رسمية.

– أكيد.. أصل الإدارة في بلادنا فاشلة بنت وسخة.

– سـعيد، شـغلك مـع الخواجـات جننـك.. الحقائـق مـش عندنـا كـما علمـوك.

- لماذا؟ هو شغل عم خلف مع الخواجات جننه؟
- احترم نفسك.. أنا غلطانة إني اتكلمت مع شخص زيك.
- الخواجات لهم فضل عليكِ وعلى أبوكِ. هكذا قال بعد أن تحركت من أمامه نحو باب الشقة.

عضت على شفتيها في غيظ وقالت في حدة:

- تربية وسخة.
- وأنتِ بنت وسخة.
- يا حيوان.
- منافقة وكذابة ووصولية.

اشتد عليها الغيظ، وظل هو واقفًا مستعدًّا لسحقها بكل قوة، لكنها صاحت:

- أنت إنسان ميت.. قذر.. شغلتك بس خدمة الخواجات زي أمك. ألقت الجملة الأخيرة وهرعت بسرعة نحو السلم.. بصق خلفها، وخرج.

كان فصل الخريف قد حضر، وجرد الأشجار من أوراقها، كل شيء بدا أمامه عاريًا حتى الأشجار، والشمس كانت تغسل الفضاء بالدفء اللذيذ.. سلك شارع الجميز، المتراصة على جانبيه أشجار الجميز العتيقة، وتناول زجاجة براندي جودة عالية من عند عزيز موسى، وجلس بجوار متجره بمحاذاة شريط المترو، وراجع كل كلمة سيقولها لهذه السيدة العجوز «ويلما جرول».. إنها في البيت شيء آخر، تكون أكثر هدوءًا، وجالت في رأسه أكثر من خطة، ولكنه قرر أن يعود للعمل في الديسكو أو في مطعم «بالما»، لأول مرة يشعر

بهـذا الفـراغ القاتـل الموحـش الـذي أظلـم عليـه الدنيـا، وإيـمان عابـد الفتـاة الجميلـة التـي كان يـرى الدنيـا في عينيهـا رائعـةً يسـيرةً، الآن بـدت بغيضـة موجعـة.. مـاذا يحـدث بالضبـط؟ لمـاذا تتكاثـر الأحـداث الموجعـة هكـذا دون رحمـة ولا سـابق إنـذار؟ لمـاذا في هـذا اليـوم بالـذات يقابـل إيـمان عابـد ويتشـاحنان بهـذه الطريقـة الصريحـة؟ طالمـا ادخـر لهـا في قلبـه مشـاعر رقيقـة طيبـة يسـتدعيها حـين تأتيـه الأوجـاع متغاضيًـا عـن الجانـب السـلبي الحديـث في حياتهـا، وكان يـبرر ذلـك بأنهـا معـذورة ولكنهـا فتـاة نظيفـة، والآن تتحـول لسرطـان مـؤلم، يـا للقـذارة! كيـف تقـف أمامـه وتتحـدث هكـذا؟ وصرخ في نفسـه بدافـع التعزيـة وقـال متألمًـا: «دعـاء الفتـاة النقيـة ماتـت.. ماتـت.. ماتـت مـن أجـلي».. وتسـاءل فيـما يشـبه الاندهـاش: «هـل يوجـد إنسـان واحـد يذعـن للمـوت بهـذه الطريقـة؟! أمرتهـا فاسـتجابت.. لعلهـا كانـت تـصرخ لفراقـي فقـط».. وبكـى لأول مـرة، وجـرت الدمـوع بغـزارة فـوق وجنتيـه الحمراويـن، وشـعر في قلبـه بـشيء أشـبه بالراحـة والطمأنينـة بعـد أن بكـى، واستسـلم لهـذا الشـعور الطيـب وقـال: «لعلهـا بدايـة جديـدة.. سـأذهب لهـا وأستسـمحها».

وكانـت السـيدة تقطـن شـقة صغـيرة تقيـم فيهـا بمفردهـا، كانـت في شـارع ١٢ في بيـت قديـم مـن ثلاثـة طوابـق، للشـقة مدخـلان؛ واحـد مـن الحديقـة، وهـذا خـاص بعـمال المطعـم الذيـن يتناوبـون عليهـا، والآخـر من مدخـل العـمارة، وهـذا خـاص بأصدقائهـا. ولمـا دخـل الشـارع، وكانـت للشـارع رائحـة يعرفهـا جيـدًا، تشـبه رائحـة جسـدها، لمـح «جاكـوب» داخـلاً؛ فاهتـزت قدمـاه، وتوتـر، وعجـز عـن التفكـير للحظـات. ولمـا دخـل «جاكـوب» مـن الحديقـة، أدرك أنـه جـاء ليضاجعهـا، وتذكـر قـول جميـل المديـر القـوَّاد: «المـدام تأكـدت بنفسـها مـن قدراتـه!». ودخـل الحديقـة، واختبـأ في بيـت مصنـوع للـكلاب، لكنـه خـالٍ مـن أي حيوانـات

(وهـو نظـام هنـدسي متبـع في الحدائـق). ولمـا غسـل الليـل الحـي بسـواده، وبـدأ هـواء الخريـف يعصـف بالأشـجار خـرج، وكانـت الحديقـة مظلمـة تمامًـا، وظـل يفكـر مـاذا يفعـل؟ هـل يسـتغل وجـود هـذا القـرد ليتصالحا؟ أم ينتظـر خروجـه ويدخـل لهـا؟ وشـعر برغبـة ملحـة في اسـتغلال وجـوده ليتصالحـا، واندفـع بسرعـة قبـل أن يتراجـع، وضغـط عـلى الجـرس، وظلت متغيبـة لمـدة خمـس دقائـق، وعنـد الجـرس الثالـث جـاء صوتهـا محشرجًـا، فارتعـد؛ لعلمـه أنهـا كانـت تمـارس الجنس، وأن هـذا الصـوت ينـم عـن أنهـا انزعجـت، ولمـا فتحـت البـاب، وكان وجهها يشـع ببريق مخيـف، ازداد قبحًـا بعد أن شـاهدته، تسـاءلت في خوف: «أتيـت لتقتلنـي.. أليس كذلك؟ أنـت تخبـئ في سـترتك سـكينًا» وهرعـت للداخـل مذعـورة، ودخـل خلفها يتوسـل إليهـا ويحـاول إسـكاتها، فخـرج «جاكـوب»، فاحتمـت بـه وقالـت لـه: «دافـع عنـي أرجـوك.. إنـه جـاء ليقتلنـي.. صديـق اليهـودي اللعـين».

وعقـد «جاكـوب» حـزام بنطلونـه، وأدار في إصبعـه خاتمًـا كبـيرًا مخيفًـا، فتقـدم نحـوه سـعيد وهـو يمـد يـده ليصافحـه.. تجاهلـه «جاكـوب» وقـال لـه بوقاحـة:

– ماذا تريد بالضبط؟

– العـودة للعمـل.. أرجـوك سـاعدني.. نحـن أفارقـة، لا بـد أن نتصالـح ونتعـاون مـع بعضنـا البعـض. هكـذا قـال مسـتعينًا بكلـمات «يـودا».

تقدمت المرأة وقالت في عنف:

– أنت همجي.. لن تعمل عندي.. اخرج بره.

ونظر لـ»جاكوب» مستعينًا به، فقال له:

– أنت أطرش؟ ألم تسمع قولها؟ اخرج حالاً وإلا قتلتك.

واعتركت الأفكار في رأسه، فشعر باليأس، ليس ثمة أمل في وجهها القبيح.. وحاول أن يتكلم، لكنها صرخت فيه بقوة وقد تقلصت عضلات وجهها:

– اخرج بره وإلا استدعيت البوليس. ثم رطنت بالألمانية، وبصقت عليه.

ثبَّت نظره عليها للحظات، كأنه يتفرس شيئًا مقرفًا، وبصق عليها وقال:

– طالما نعتِّني بالقذر والوقح والهمجي.. فالآن يجب أن أنعتك بصراحة: أنتِ عجوز شاذة قذرة.. العنصرية في دمائك وفي عقلك.

فانقضت عليه المرأة في وحشية وهي تصرخ:

– همجي قذر.. أنت قدري.. لماذا جئت إلى البيت؟ ماذا تريد مني بالضبط؟ تريد أن تقتلني وتسرقني؟

– أنتِ تستحقين أن يضاجعك قرد مثلك.

وانقض عليه «جاكوب» في عنف، فلكمه سعيد لكمة سريعة استقر مسارها في أنفه الكبير المبطط، وصرخت المدام، وانتفضت بعيدًا عن ساحة المعركة، واندفع «جاكوب» نحوه ولكمه في وجهه؛ فترنح سعيد وسقط على الأرض، وهرعت المدام نحو التليفون مهددة بالاتصال بالشرطة، وسمعت من الردهة المؤدية لغرف النوم صوت حشرجة قوية، فخرجت بخطى ثقيلة تترقب الهدوء المخيف الذي أعقب الحشرجة، فوقعت عيناها على تناثر دماء داكنة على الأرض والمقاعد؛ فصرخت وارتعدت وبدا وجهها شاحبًا أزرق مخيفًا، وميزت الحذاء الذي تبادر لها قبل أن تكتشف القتيل، فوضعت يدها على

فمها تكتم صرخة مدوية، ووجدت «جاكوب» واقفًا في ذهول.. خيم الصمت عليهما، وأشار بيده مستفهمًا، وجلست المرأة وقد حملقت في الجثة وكأنها تريد أن تتأكد من شيء.. وأخيرًا بعد وقت مضى ثقيلاً مخيفًا، يتخلله الهواء العنيف الذي ظل يعصف بالأشجار في الخارج، وبالستائر في الداخل، انتفضت بقفزة سريعة بعد أن تدفقت الدماء وشكلت ممرات كثيرة، وقد حجزتها بقدميها حتى امتصتها أهداب الروب الثقيل.. وظلت المطواة في يد «جاكوب» مغسولة بدمائه، كانت مطواة مقبضها مرصع بالعلم الأمريكي، وكان نصلها مشرشرًا، غمدها في صدره حين انقض عليه.. وأخيرًا تحدثت بصوت ميت:

– جاء ليقتلني.. أليس كذلك «جاكوب»؟

وهز رأسه، وظل واقفًا ثابتًا بجوار الجثة يتأملها حينًا، وينظر للمرأة حينًا، وقال لها:

– ماذا سنفعل؟

مسحت وجهها براحتيها وقالت في توتر:

– لا أعرف بالضبط.

وتساءل «جاكوب»:

– كم الساعة؟

– لا أعرف.. أظنها التاسعة.

جلس وأوقد سيجارة وقال:

– عند منتصف الليل سأحمله وأضعه في أي صندوق قمامة.. لا تكترثي لشيء.

– أنت مجنون.

- هل لديك حل؟
- نطلب البوليس.

انتصب وتقدم نحوها وقال لها في عنف:

- وماذا ستقولين للبوليس؟
- جاء ليقتلني.
- إذن أذهب الآن، وأنتِ تحدثي للبوليس وتحملي الكارثة وحدك، ولا تنطقي اسمي.
- لا.. انتظر.. ولا تأخذ على كلامي.. أنا مشتتة الآن.

وقاما بلف الجثة في لحاف قديم، ومسحا الصالة وكانت خالية من الأثاث، إلا من مقعدين ومنضدة صغيرة تحمل صورًا لعائلتها.. وظلا يوقدان في السجائر والوقت يمضي ثقيلاً، وفي الغطاء السميك القريب من الباب الجثة ملفوفة بعناية بعد أن أحكموها ببكرة لاصق كاملة، وقال لها:

- عند منتصف الليل سأحمله وأتخلص منه.

هزت رأسها في توتر.. وظلت الدقائق تمر ثقيلة، تارة يراقبون الشارع الهادئ المخيف، وتارة يراقبون عقارب الساعة الثقيلة، ولما انتصف الليل ارتدى «جاكوب» ملابسه كاملة، وحمله فوق كتفه بسهولة، وقال لها:

- راقبي الشارع جيدًا.

وخرجت إلى الشارع واختبأ هو في الحديقة، وأشارت له فخرج مسرعًا، وأخذ يخطو بسرعة، حتى استقر في شارع الثكنات، وارتقى الطوار، وبدأ يمشي خلف الأشجار، وكانت حركة السيارت ضعيفة

جـدًّا، ولما اجتـاز مدرسـة «الليسـية الفرنسـية» أخـذ يعـبر التقاطـع بسرعة، حتـى وصـل عنـد ديـر الراهبـات الألمانيـات القديـم، وبمحـاذاة السـور الضخـم للديـر ألقـى بالجثـة، وأخـذ يركـض بسرعـة في الشـوارع الجانبيـة، ولما وصـل «الديسـكو» هاتفهـا في التليفـون وطمأنهـا.

***

تسـتعد داليـا للعمـل عنـد السادسـة مسـاءً، تعـد لليـوم مـع باقـي العـمال في نشـاط، لكـن يومـي الخميـس والجمعـة تـأتي سـاعة مبكـرًا؛ فهـذان اليومـان يـزداد العمـل فيهـما عـن باقـي أيـام الأسـبوع. خرجـت تنظـف الترابيـزات الرخاميـة، فـإذا بهـا تشـعر بيـد قويـة تقبـض عـلى زنديهـا، التفـت بسرعـة وإذا بهـا تشـاهد «نـوَّاف الرشـيدي» واقفًـا ثابتًـا كاشـفًا عـن ابتسـامة سـاخرة.. نفضـت يدهـا مـن قبضتـه بحركـة عصبيـة، وهتفـت بحـدة:

- اخرج بره.
- نتكلم.
- اخـرج بـره. هكـذا هتفـت بصـوت عـالٍ لتجـذب اهتـمام العـمال لهـا، لكـن «سـيمون» جـاء مرحبًـا بـه؛ ففطنـت لهـذا الكمـين، جميعهـم كلاب، هـذا السـيمون ابـن حـرام.. وأيضًـا هـذا الخليجـي.
- هذا المكان ليس للعرب.. اطلع بره.
- معقول.. بس مش مع «نوَّاف».
- اتفوخص على دولاراتك يا شاذ.
- احترمي نفسك.
- اطلع بره، وإلا استدعيت الأمن.

احتقن وجهه وزمَّ شفتيه، ثم قال:

- لـن أحاسبك عـلى هـذا الـكلام، تذكـري دائـمًا أننـي أسـتطيع أن أصل لكِ بـكل سـهولة.
- طبعًا طول ما في قوادين.. وطول ما في أبناء حرام مثلك.
- تجاوزتِ كل حدودك معايا.
- اطلع بره.
- هعطيـكِ فرصـة أخـيرة.. بنتظـرك في ميـدان مصطفـى كامـل لنتحـدث ونصـل لحـل.. هظـل صبـورًا كعـادتي معـكِ. وابتسـم لهـا في خبـث، وتركهـا وتجـول في الحديقـة بعـض الوقـت، وشـاهدته يضحـك مـع «لارس هيـو»، ونظـر لهـا في ثقـة وظـل يبتسـم في خبـث، بينـما هـي ظلـت تتابعـه حتـى خـرج مـن البـاب الرئيـسي، كانـت رائحتـه تُشـعرها بأنهـا في قلـب صحـراء شاسـعة، رمالهـا تحـترق تحـت الشـمس، عـلى الرغـم مـن جـو الخريـف المنعـش إلا أن رائحتـه ووجـوده جعلاهـا تشـعر بهـذه الكآبـة، إنـه كابـوس يلاحقهـا في كل مـكان، كأنهـا مقيـدة بداخـل تابـوت مغلـق بعنايـة، وفـوق جسـدها تتزاحـم الأبـراص، فـوق وجههـا بالـذات، وهـي عاجـزة حتـى عـن الـصراخ، ثمـة شـعور بالعجـز عـن التفكـير يداهمهـا أمامـه، لا تقـوى إلا عـلى سـبه فقـط.. وبـدت لهـا الرابطـة مكانًـا قـذرًا، بوجـوده ازداد قـذارة، سيسـتطيع بأموالـه الوفـيرة حجـز مقعـد هنـا، لـن يقاومـه أحـد، سـيجلب أصدقـاءه، وسـيفعل كل شيء، كل شيء.. وقالـت في نفسـها: «لا بـد أن أجـد معـه حـلاًّ.. لا بـد مـن نهايـة.. إمـا بالحيـاة أو بالمـوت». وبعـد وقـت ليـس بالقصـير قـررت أن تذهـب لـه يـوم الأحـد؛ حيـث تهـدأ الرابطـة مـن وطـأة الـرواد، وجلسـت إلى مديحـة

في الحديقة الخلفية أثناء الراحة التي قالت لها:

- لا بد من الحديث معه.. نحن تربينا جيدًا ونعلم كيف نحل مشكلاتنا. واستأنفت:
- أمس سمعت أن الشرطة عثرت على جثة في شارع الثكنات بجوار دير الراهبات الألمانيات، وقد تعفنت.. الحي الإنجليزي بدا مرعبًا؛ أليس كذلك؟
- كل شيء حولنا مريب. هكذا قالت داليا وهي شاردة في التفكير العميق.
- اذهبي وتحدثي معه.. الحوار أفضل نتيجة لحل الأزمات.
- تتحدثين مثل ولاد القحبة السياسيين.
- أسمعهم كل ليلة يتحدثون وهم ثملون.. يا للعار! يحلون القضايا تحت تأثير الكحول، ويقولون: العرب حيوانات ناطقة.. ويقولون أيضًا: ثمة فوارق بيننا وبينهم لا ينبغي أن تتقلص.
- ألم أقل لكِ إنهم ولاد قحبة.
- نعم أفهم.. لذلك سأتزوج واحدًا منهم.
- من؟! هكذا قالت مندهشة.
- لارس هيو.
- معقول؟
- نعم.. حدثني في ذلك، وكان جادًّا.
- نعم، وحدثتني عنه «ليريس» شقيقة «سيمون» القواد وقالت لي إنه شاذ.

- اعترف لي.. وقال لي: ساعديني.

وجـاء يـوم الأحـد، وعزمـت عـلى الذهـاب إلى الميـدان بعـد تفكـير عميـق طيلـة يومـين.

***

وذهبـت إلى ميـدان مصطفـى كامـل؛ حيـث تلفـه أشـجار النخيـل وأشـجار الصفصـاف والكافـور، وبـدت لهـا الشـوارع هادئـة ورائعـة، الأجانـب يمارسـون رياضـة الركـض عنـد الغـروب؛ فيصبغـون الشـارع بالطابـع الغـربي.. وهـا هـو متجـر شرائـط الفيديـو يتبـادر لهـا مـن عـلى أول الطريـق، كـم مـن مـرة ذهبـت واسـتأجرت الشرائـط لمشـاهدة الأفـلام الأمريكيـة.. وبـدا لهـا الميـدان كسـاحة معركـة كبـيرة مثـل سـاحات الثـيران، ومـا أشـجار الكافـور والصفصـاف إلا رؤوس امتـدت مـن الآفاق لتشـاهد المعركـة، وزكمـت أنفهـا رائحتـه، واضطربـت شـيئًا واندفعـت فـوق الممـرات الخرسـانية تبحـث عنـه.. كان جالسًـا في أحدهـا.. سـمع وقـع أقدامهـا؛ فـأدرك مجيئهـا بقلبـه.. وقفـت أمامـه وبادرتـه في نرفـزة:

- اسـمع.. مُتعتـك مـش عنـدي.. ومسـتحيل هتلمسـني.. المعادلـة عنـدي مـوت وحيـاة، لا شيء آخـر.. وأنـا عـلى اسـتعداد لأي شيء.

وكان «نـوَّاف» قـد أعـد خطـة منـذ أن عثـر عليهـا؛ لـذا قـرر أن يكـون رومانسـيًّا، بـما يعنـي أنـه سيسـتدعي ألفاظًـا مهذبـة، ويغلـب عـلى حديثـة الشـق التوسـلي، سيسـتخدم معهـا كل مـا تعلمـه في مـصر أم الدنيـا ليقنعهـا بالذهـاب معـه، سيقسـم لهـا بـالله، وسـيركع أمامها حتـى تحتضنهـا جدرانه، سـيفعل كل شيء، هـذه الطريقـة لم يجربهـا معهـا، ربـما تكـون فيهـا الفائـدة كلهـا، ويحطـم أنفهـا، ويتبول فـوق رأسـها. وقاوم «نـوَّاف» العيش في الحي الإنجليـزي في مـرارة، لـولا أن اللعـب عـلى هـذه الأرض مـا كان انتظـر

يومًا واحدًا فيه، سئم من العيش في هذا الهدوء المخيف، ومن التردد على البارات المصبوغة بالطابع الأمريكي، يقبع فيها ويتجرع البيرة، ويراقب الأجانب والأفارقة، وصور الكاوبوي والممثلات الأمريكيات والممثلين، وتزعجه جدًّا الأغاني الأمريكية القديمة التي تنبعث من المسجل في إيقاع هادئ كلاسيكي، إنه لم يرغب في العيش في هذا الجو الأوربي، من داخل البارات في شارع ٩ أو في شارع وهيب دوس يراقب الناس في معاطفهم ذاهبين وواقفين، ثمة شعور بالغربة يداهمه، عالم غريب عنه، يختلف عن حي المهندسين الذي يضج بالأغاني الشعبية، وبالعاهرات المصريات.. إنه ينتظر أن ينجز المهمة، وسيرحل فورًا.

قام وحاول أن يمسكها من يدها ويجلسها جواره، لكنها نفضت يدها من يده بحركة سريعة توحي بغضبها، وجلست على بُعد نصف متر منه، بينما ظل هو يتفحصها كأنه لأول مرة يشاهدها. سكرت أنفه رائحتها الذكية، فقال متوسلاً:

- أقسم بالله تغيرت.

- لنفسك. هكذا قالت وهي تتنهد بسرعة.

- ولكِ.

- إحنا مختلفين.. لازم تفهم.. وعلى فكرة مُتعتك هتلاقيها أكيد عند واحدة مريضة، أنا مش مريضة والحمد لله.. متضيعش وقتك. وهدأت ثورتها شيئًا فشيئًا.

- لن أؤذيكِ أبدًا.. ستظلين نقية جميلة.. سنتزوج شرعيًّا على يد مأذون.. ولن أهين أنوثتك أبدًا.. صدقيني.

- أعطني الورقة؟

تلفت حوله كأنه يستكشف المكان من حوله، ولما اطمأن لخلو الميدان، استعان بنبرة أخرى تُغلفها العاطفة، بل استطاع بقدرة ممثل قدير أن تتقلص عضلات وجهه وتذرف عيناه دمعتين:

- الله تحدث مع إبليس وأعطاه فرصة.. وأنتِ تأبين أن تعطيني فرصة.. هذا ليس عدلاً.. ارحميني أنا أحبك.

والحقيقة أنها شعرت بالراحة والقوة معًا، عندما انسالت أمامها الدمعتان، شعرت بضعفه؛ فاطمأنت لقوتها، وقالت في حدة:

- دعني أفكر.. وإذا اقتنعت تكون العصمة في يدي.

***

أعلن «لارس هيو» في الرابطة عن زواجه من مديحة.. قابلت الفتيات الإفريقيات ذلك الخبر بالضجر، وتساءلن: «كيف؟!».

كانت الليلة طويلة، امتزج كل شيء فيها بالسخرية والتهكم، في هذه الليلة أطاحت مديحة بشعرها بالكامل، وانتعلت كعبًا عاليًا، واستكفت فقط بشد خطين من الكحل على عينيها، فضلاً عن حمومها بالعطر الرجالي الذي يحبه. وشعر «لارس» وهو جوارها بسعادة كبيرة؛ إنها تفهمه، ولديها الرغبة في إمتاعه. وكانت مديحة قد فطنت لدائه، ولما قارنت بين أن تكون فتاة في كل شيء، وبين أن تكون نصف فتاة، قررت بعقلها أن تكون نصف فتاة؛ ستذعن لرغبته، وستمنحه شعورًا بأنه يضاجع رجلاً في لباس أنثى، لن تدعه يضاجعها في مؤخرتها، لقد حسمت الأمر معه، وقال لها: «ماذا تظنيني.. عربي من البادية؟». كان قد التقى بها في شقته في شارع ٢١٠ في عمارة من أربعة طوابق، كان اللقاء في صباح يوم الجمعة، تناولا الإفطار معًا، وجلسا في البلكونة الكبيرة التي تطل على ميدان المدرسة الأمريكية، وقال لها:

أنـا رجـل تعيـس جـدًّا، ولـديَّ الرغبـة في إطلاعـك عـلى كل شيء مـضى.. كيـف كنـت، وممـن تزوجـت، ومـا شـكل العلاقـات التـي مـررت بهـا.. ربـما كنـت في لحظـة مخبـولاً، أو مظلومًـا.. لا أعـرف بالتحديـد.. ولكـن أسـتطيع أن أقـول إننـي رجـل تعيـس جـدًّا.. تزوجـت كثـيرًا يـا مديحـة.. سـيدات كثـيرات.. إفريقيـات وأوربيـات.. كلهـن أثبتـن أن المـرأة هـي المـرأة في كل المجتمعـات.. في البدايـة تزوجـت مـن امـرأة دانماركيـة مـن بلـدتي، وكانـت جميلـة، لكنهـا كانـت مريضـة بـداء التبـول اللاإرادي، كانـت تتبـول في سرواِلهـا، ولما ذهبنـا للطبيـب قـال لي: «المثانـة ضيقـة؛ لذلـك تتبـول في الليـل بطريقـة لا إراديـة». «ومـاذا بعـد؟ أعتقـد أنني أعـرف» هكـذا قلـت لـه منفعـلاً.. كان الأمـر فظيعًـا يـا مديحـة.. أن تجـدي شـخصًا عزيـزًا بجـوارك يتبـول، هـذا شيء فظيـع.. فظيـع.. ولما فشـل العـلاج، قالـت لي: «لارس، الآن أسـتطيع أن أصارحـك بالحقيقـة.. أنـت زوج مثـالي، وأنـا مريضـة.. لا بـد مـن الطـلاق» وقـد كان. وتزوجـت مـن فتـاة أسـترالية، كانـت جميلـة، أقمـت معهـا عامًـا.. حتـى جـاءت ذات ليلـة وقالـت لي: «لارس، طلقنـي» قلـت لهـا: «لماذا يـا حبيبتـي؟» قالـت لي: «لقـد عـاد حبيبـي وكان مهاجـرًا، وأنـا لا أسـتطيع أن أخونـك» قلـت لهـا: «حبيبتـي، أنـتِ صريحـة وهـذا مـا عهدتـه عليـكِ.. ولكـن قبـل أن تتسرعـي لا بـد أن نـدرس الأمـر جيـدًا.. هـل تقابلتـما؟». «لا». «هـل عنـدك معلومـة عنـه.. مثـلاً تـزوج أم لا؟». «لا، إنـه ليـس خائنًـا مثـلي». «نعـم أعلـم ذلـك تمامًـا.. إنـه ليس خائنًـا مثلـك.. ومـا المطلـوب منـي؟». «الطـلاق».. حقًّـا كان الأمـر صعبًـا جـدًّا أن يحتملـه أي رجـل، ولكـن الأصعـب أن يعيـش مـع امـرأة لا ترغـب فيـه.. كنـت مغتاظًـا جـدًّا وقلـت لهـا: «حسـنًا سـأطلقك.. ولكـن هـل ستعيشـين معـه بعـد الطـلاق؟» قالـت لي: «لا أعـرف.. ولكـن سـنتقابل.. أقابلـه وأنـا مطلقـة أفضـل مـن أن أقابلـه

وأنـا متزوجـة» قلـت لهـا: «صحيـح، أنـتِ عـلى حـق.. يعنـي أنـتِ تنتظرين الطـلاق لتبدئـي طريقًـا مجهـولاً؟» صاحـت في وجهـي: «أريـد أن تطلقنـي فـورًا.. لا تضغـط عـلى أعصـابي أرجـوك» وقـد كان.. وحدثتهـا بعـد ذلـك وعلمـت أنـه هاجـر. وتزوجـت مـن فتـاة إفريقيـة، استغلت أمـوالي في إدارة شـبكة دعـارة كبـيرة.. قلـت لهـا: «آدي، مـاذا تفعلـين بهـذه الأمـوال الكثـيرة؟» قالـت لي بصراحـة أدهشـتني: «أبـدًا حبيبـي، أنـا أديـر شـبكة دعـارة كبـيرة وأحتمـي فيـك.. هـا هـا هـا» هكـذا قالـت بـكل وقاحـة، قلـت لهـا: «حبيبتـي، وأيـن نصيبـي أو أرباحـي؟» قالـت لي: «يكفـي أنني أمتعـك، وأتـركك تتمتـع وتخوننـي مـع صديقـاتي.. أليـس هـذا ثمنًـا يـا حبيبـي؟».. بالطبـع كانـت كذابـة.. طلقتهـا وتخلصـت منهـا.

- مديحة، أنا تعيس جدًّا.. أليس كذلك؟

وقالـت مديحـة في نفسـها: «آه.. يـا ابـن الحـرام». وكانـت قـد أصغـت لـه تمامًـا، وقالـت لـه:

- أتمنى ألا أخيِّب ظنك.

وفي أول ليلـة زواج، كانـت السـاعة قـد دقـت الثالثـة بعـد منتصـف الليـل، وكانـا ثملـين، واسـتأنفا تجـرع البـيرة والويسـكي بشراهـة، ثـم قبَّلهـا قبلـة فمويـة طويلـة، كان «لارس» شـهوانيًّا كبـيرًا، ويسـتطيع ممارسـة الجنس في أي مـكان وبـكل سـهولة، وكان يتمتـع بالصـبر والعطـاء، كان يبـذل مجهـودًا عنيفًـا قاسـيًا حتـى يجعـل المـرأة تبلـغ الرعشـة، وبعـد ذلـك يبـدأ يسـتمتع بنفسـه، كأنـه يبـذل مجهـودًا في تأديـة واجبـه بالكامـل، ليسـتمتع بعـد ذلـك في تـأنٍ دون أن تزعجـه أي رغبـة منهـا.. جلسـت جـواره ورمقـت عينيـه طويـلاً بنظـرة سـاحرة، ثـم ضغطـت بيديهـا فـوق السريـر في محاولـة للنهـوض، فبادرهـا بابتسـامة، وأحسـت بحـرارة سـاخنة

تتدفق في عروقها، وما لبثت أن مالت عليه وطبعت قبلة أسفل عينه دون أن تدري، كانت رائحتها تسكره، طلب منها ألا تتحدث بصيغة المؤنث بل تتحدث بصيغة المذكر، شعرت بالإهانة وزمت شفتيها المكتنزتين، وبدأت تصرخ وتتحدث بصيغة المذكر وهي أسفله تعاني وطأة جسده الضخم وقضيبه الثخين القصير، ولما فض غشاء البكارة انزعج وصرخ وانتفض من فوقها، وهرع إلى الحمام، وظل يشتم ويصيح ويركل الباب من الداخل، وتركها ثلاثة أيام، وقال لها بعنف: «أنتِ لم تصارحيني بهذا الغشاء» وعجزت مديحة عن الرد عليه؛ إذ ماذا تقول في هذا الأمر، لكنها فطنت بعد ذلك أن رؤيته للدماء ذكرته بأنوثتها؛ لذلك انفعل بعد أن شعر بالمتعة في بادئ الأمر. ولقنها كلمات تقولها أثناء الجماع، ولما مارس معها الجنس أثبتت كفاءة كبيرة، استعملت معه الكلمات المناسبة وقالتها بصيغة المذكر، وظلت تصرخ بحشرجة ذكورية استخلصتها بصعوبة من حنجرتها، وشعرت بالقرف والإعياء، كان شهوانيًّا كبيرًا رغم سنه.. وفي نهاية كل جماع يسترخي على ظهره ويأمرها بأن تلعق قضيبه، وتظل راحتاه على رأسها الأجرد مغمض العينين في حالة من النشوة.

وشعرت مديحة بقمة الغثيان من معاشرته.. بعد كل جماع بينهما، تذهب وتبكي في الحمام، وتظل تتأمل نفسها في المرآة، كم جعل منها هذا الشاذ امرأة ممسوخة؛ أطاحت بشعرها بالكامل من أجله، وطاوعته لتبدو شيئًا فشيئًا بها شيء من الذكورة، لا يحدثها إلا بصيغة المذكر، على الأقل وقت الجماع.. «يا للقذارة.. أنا أعيش في بالوعة» هكذا قالت في نفسها.

وقابلت سمير في شارع ١٣ أثناء ذهابه إلى الرابطة؛ حيث كانت ذاهبة للبيت.. قال لها:

- مبروك.. تزوجتِ من هذا الشاذ.. اختيار رائع.
- من فضلك لا تتحدث معي.

وضحك فجأة، لدرجة أنه ظل يسعل من فرط الضحك.. شعرت بالغيظ وقالت له في حدة:

- أنت وقح.
- وأنتِ شاذة.. أنا لم أظنك هكذا من البداية؛ ربما لأنني تغيبت عن أرض الوطن لسنوات، ولكن الأموال تستطيع مسخ الإنسان.

وتنهد في ارتياح واستأنف:

- رائحة العطر الرجالي تجنن عليكِ.

وعجزت عن الرد، واحمر وجهها وشعرت بالإهانة، وحاولت أن تمشي، لكنه استوقفها وقال لها:

- الآن أستطيع أن أتأكد من أنني فاشل؛ فشلت في فهمك أيتها المومس الشاذة.. بتحبي الخواجات.. طيب ما أنا خواجة؟

واقترب منها وقرص حلمة ثديها بقوة؛ فصرخت وضربته بحقيبة يدها، وبصقت في وجهه، فبصق عليها وركلها، فسقطت على الأرض تتألم.. جذبها بعنف، ودفعها بقوة في سيارة متوقفة، فارتطم رأسها في النافذة فتحطمت وشُجت جبهتها العريضة.. ولما صرخت وانتفضت وبدأت الناس تنجذب لمصدر الصراخ، ركض بسرعة وتركها غارقة في دمائها.

***

- أيوة يا فندم.. الظاهر أن مكتب العقارات والمستأجر عندهما نفوذ في البلد.. كل دقيقة تليفون.. أيوة يا فندم اسمها «ناهد راشد».

- ....

- حاضر.

- اتفضلا عند سيادة المأمور.

كانت معركة عنيفة طرفاها الدكتور عبد الجواد وناهد راشد، كانت ساحتها شقة الدكتور، بعد أن تهور الدكتور عبد الجواد وخاض معركة عنيفة مع «نوَّاف الرشيدي»؛ حيث انقض عليه وخنقه من عنقه، وظل «نوَّاف» متماسكًا مرددًا جملة واحدة: «لا تجبرني على ضربك.. أنت رجل كبير في سن والدي». وظل الدكتور يصرخ في عنف: «يا أنا يا الوساخة في هذه البلد». وتخلص منه «نوَّاف» وهرع إلى شقته واتصل بناهد راشد، التي جاءت بسرعة وقد سبقتها عاصفة سباب كان لها رنين فظيع في العمارة، أطلقتها منذ أن نزلت من سيارتها المرسيدس، وطرقت الباب في عنف، ولأول مرة في تاريخ العمارة يفتح الدكتور الباب بسرعة.. اقترب منها في عنف، وظل يلوح بإصبعه، ونطق لسانه:

- احترمي سنك ودينك يا شيخة.. اتفوخص على دي أخلاق.

- أنت بتشتمني يا دكتور؟ هكذا قالت وقد تراجعت ثورتها شيئًا، وأدركت بخبرة أن الرجل فاض به؛ لذلك قررت أن تمتص غضبه، لكن الدكتور تمادى في تلفظه:

- دي قلة أدب.. وأنا من الآن فصاعدًا هقفلك وأشوف آخرتها إيه معاكِ.. والله لأمشيكي من العمارة وأسجنك.. العمارة فيها ناس محترمين.. هرفع قضية عليك وأخرب بيتك.. وهطرد الكلب دا من مصر كلها.. يا أنا يا الوساخة في العمارة.

وللأمانـة فـإن الدكتـور قـدم عرضًـا عظيـمًا، السـكان شـاهدوه وهـو يطيـح بناهـد راشـد بقـوة وقـد بـدت أمامـه ضعيفـة، وشـعر الدكتـور برغبـة شـديدة في الانتقـام.. لقـد تخلى عنـه الشـيخ عبـد الكريـم بعـد أن تـبرع «نـوَّاف» للمائـدة، وأيضًـا رحـل القنصـل الإسرائيـلي بعـد رحيـل رئيـس الحـرس «يـودا»، وجـاء آخـر يُدعـى «جادعـون» وضـع خطـة أخـرى، شـملت التغيـيرات التـي أجراهـا بيـت القنصـل، وطبعًـا ذهبـت الحراسـة، وأصبحـت العـمارة بـلا حراسـة ولا بـواب.

- الـزم حـدودك.. لحـد هنـا وكفايـة.. احترامًـا للسـكان أنـا سـكت.. لكـن والله أنـا مـا يقـدر عليـا إلا القـادر، والكعبـة الـلي وقفـت قدمهـا في يـوم مـن الأيـام لأدفعـك يـا عبـد الجـواد ثمـن الـكلام ده.

- دي قلـة أدب. هكـذا انتفـض الدكتـور فتدفـق الـدم يغـلي إلى وجهـه، وانتصبـت قامتـه، ونفـرت عروقـه، وخلـع عويناتـه يمسـحها في توتـر.. فاسـتغلت ناهـد راشـد ضعفـه وتوتـره، فاندفعـت تـصرخ بصـوت وحـشي:

- لـو تعرضـت مـرة أخـرى للأسـتاذ «نـوَّاف» أنـا بطـردك مـن العـمارة.. معنديـش كلام تـاني.. وحسـك عينـك تنظـر لـه. ونظـرت لـ»نـوَّاف» وقالـت لـه أمـام الجميـع:

- اعمل اللي أنت عايزه.. إن شالله في مدخل العمارة.

- كـده اللعـب عـلى المكشـوف.. سـامعين يـا سـكان يـا محترمـين المـدام بتقـول إيـه.. المعركـة دي مـش لحسـابي.. أنتـم معـي.. هطلـب الشـهادة منكـم في قسـم الشرطـة.. صحيـح قـوادة.

وصرخت المدام في وجهه:

- اخرس.. أنت اللي قذر.. لك تاريخ قذر أنت ومراتك في الخليج.. قولي اشتريت الشقة دي منين وأنت سافرت هناك ومكنش حلتك مليم؟ الخليج هو اللي عملك بني آدم، وسكّنك في عمارة محترمة.. الزم حدودك.. والله هحاسبك على الكلام ده وهمشيك.. وهتشوف مين ناهد راشد.

وانقض عليها الدكتور في قفزة سريعة، ولما شعر بأنه سيتورط تظاهر بأنه يحاول جذبها لقسم الشرطة.

- مدام ناهد شخصية محترمة يا دكتور عبد الجواد.. وأنتما الاثنان مثقفان ومحترمان.. مكنش له لزوم اللي حصل. هكذا قال المأمور وقد قدم لهما الليمون ولطَّف الجو بينهما.. على الرغم من أن حديثهما في حجرة المأمور اقتصر على كلمات قليلات من الطرفين وكأنهما استنزفا حديثهما في المعركة، فإنهما كانا يكظمان في نفسهما الغيظ والقهر.

***

تعمقت الصداقة بين «عبد الكريم» و»نوَّاف الرشيدي»، لدرجة أن عبد الكريم عزمه في البيت، وكشف عليه زوجته، والأكثر من ذلك أجلسها معهما، وبجواره، وتركها تتحدث معه. وفي الزيارة الأخيرة كان الحديث شيقًا؛ حيث دار عن المصريين وطمعهم، واستسلم «نوَّاف» لسخريته فقط لأجل شيماء، وكان «نوَّاف» جالسًا بجوارها، وقد حدَّثها كثيرًا حين كان ينفرد بها، ولاقى منها استجابة كبيرة، وفي هذه المرة وهي جالسة بجوراه، وعبد الكريم مستغرق في الحديث، مد يده في غفلة حتى استقرت تحت مؤخرتها، ساعدته هي في ذلك، وظل بأصابعه يُثيرها، كان وجهها يحمر ويتجمد ويتفصد

العـرق منـه، ولـما كانـت تشـعر بأنها سـتصرخ مـن فـرط اللـذة، كانـت تضغـط بمؤخرتهـا عـلى يـده، فيفهـم ويسـحبها بهـدوء. ظـلا عـلى هـذا الوضـع مـرات عديـدة، حتـى استلذته، وأيضًـا هـو شـعر بمتعـة كبـيرة؛ إن ممارسـة الجنـس بهـذا الشـكل فيهـا متعـة كبـيرة، كان «نـوَّاف» يسـتلذ بالمـرأة التـي تُحكـم الغطـاء عـلى نفسـها عـن المـرأة العاريـة؛ متعتـه تكمـن في هـذه الرحلـة التـي يخوضهـا في تجريدهـا مـن ملابسـها قطعة قطعـة. لكن حـدوده مـع شـيماء توقفت عنـد هـذه اللقـاءات، لم يسـتطع أن ينفـرد بها، أو لم يسـعَ لذلـك، كان يسـتطيع أن يجتمـع بهـا، لكنـه وجـد متعتـه في ممارسـة الجنـس معهـا بهـذه الطريقـة اللصوصيـة؛ فحـين يدير عبـد الكريـم رأسـه يخطـف قبلـة سريعـة، أو يقرصهـا مـن ثديهـا، أو يلطمهـا عـلى مؤخرتهـا، وهكـذا.. لذلـك متعتـه اقتـصرت عـلى هـذه الاحتـكاكات المثـيرة.

وانزعـج الدكتـور عبـد الجـواد مـن هـذه الصداقـة الحميمـة التـي جمعـت بينهـما، وقـال في نفسـه: «اتفوخـص عـلى القـرش الـلي يغـير المبادئ والقيـم.. ألا إن لعنـة الله عـلى الفاسـقين الجاهلـين.. ولاد الكلـب».

***

خرجـت مـن الرابطـة في طريقهـا للشـقة بعـد يـوم شـاق مـن العمـل، وكالعـادة فـور خروجهـا ينعشـها الجـو ويصفـي ذهنهـا. توقفـت داليـا منـذ عملهـا في الرابطـة عـن أداء التـمارين الرياضيـة، بـل اتجهـت لتنـاول الكحـول بشراهـة، فضـلاً عـن التدخـين. وصلـت الشـقة وأخـذت دُشًّـا سـاخنًا، وجلسـت عـلى السريـر أمـام أوراق كثـيرة فردتهـا أمامهـا، أوقـدت سـيجارة وراحـت تراجـع الأوراق في تركيـز، كل هـذه الأوراق كانـت حصـاد شـهر طويـل مـن الـتردد عـلى السـفارة الفرنسـية والمؤسسـات الحكوميـة.. ولـما انتهـت مـن المراجعـة التـي ليسـت لهـا قيمـة إلا شـعورًا

فقط تريد كل مرة أن تستخلصه لتنام في راحة، وتحلم أحلامًا سعيدة وهي خارج البلاد.. فجأة تذكرت ميعاد الغد، لكن بعد تذكرها لم تحلم أحلامًا سعيدة، وإنما رأت كوابيس. وفي صباح اليوم التالي لم تستطع أن تتناول الإفطار، كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة بنصف ساعة، تناولت فنجان قهوة فقط وظلت تدخن بشراهة، وسرعان ما شعرت بعدم اتزان، وحاولت في جهد أن تتوقف عن الترتيب لهذا اللقاء، كانت تريد أن يأتي كل شيء تلقائيًّا، تريد أن تقابله بسرعة وتخلص بسرعة.. إن هذا الكابوس لا بد أن تكون له نهاية.. وصلت العمارة، وبنظرة شاملة تفحصتها، كانت عمارة شاهقة، وهو يقطن في الطابق الخامس. نظرت نحو البلكونة وكانت تبدو منها ظهور المقاعد العالية، وقالت في نفسها: «ربما يشاهدني الآن». صعدت الطابق الخامس وبحثت في الردهة الطويلة عن شقة رقم ١٩، ولما وقفت أمامها ظلت تنظر للباب وتتساءل في نفسها: «ترى ما وراءه بالضبط؟»، وضغطت فوق الجرس بسرعة كأنها تريد أن تجتاز هذه اللحظة الفاصلة بضربة واحدة.

فتح لها «نوّاف» وبدا في الجلباب المغربي رشيقًا أكثر، حاول أن يتسم بالهدوء والعقل؛ حيث هز رأسه في نضج وقال لها في أدب:

- تفضلي يا داليا.

دخلت.. ولما أغلق الباب شعر براحة كبيرة، ونظر لها وهي تتقدم ناحية الصالون، وكانت عيناه تركزان على مؤخرتها، وشعر بفوران في عروقه، وبرغبة في احتوائها من الخلف في عنف. واستدارت وجلست.. تقدم نحوها، وعلى صفحة وجهه شيء مثل الثقة.. أو الهدوء.. ولكن ثمة أشياء غريبة بدت عليه في

هـذا اليـوم، كأنـه خضـع لتدريبـات كثيفـة ليبـدو عـلى هـذا النحـو.

– تشربي إيه. هكذا قال بلهجة من يرحب بغريب.

– شكرًا.

وتنهد من الأعماق وقال:

– الـلي تشـوفيه. ومـضى نحـو المطبـخ وجـاء بكـوب عصـير برتقـال، وجلـس أمامهـا وأوقـد سـيجارة وراح ينفـث دخانهـا في هـدوء.

– أنا تحت أمرك يا داليا. هكذا بادرها بنبرة واثقة هادئة.

– الورقة.

– حاضر يا داليا.

وقـام في هـدوء وهـو يصـدر أصواتًـا ليسـت مفهومـة، كأنـه رجـل كبـير يقـوم ويقعـد وهـو يتمتـم بذكـر الله. وقالـت في نفسـها وقـد ارتاحـت إلى حـد مـا: «مـاذا تخبـئ أيهـا الشـيطان الكبـير؟».

وجاء بعد دقيقة بالورقة، كأنه كان قد أعد كل شيء، وقال لها:

– تفضلي.

التقطـت الورقـة، وبسرعـة الـبرق مزقتهـا؛ حيـث بـدا أكـبر جـزء منهـا لا يتجـاوز عقلـة الإصبـع. وتنهـدت في ارتيـاح، وقالـت في سـعادة:

– كـدا خـلاص يـا أسـتاذ «نـوَّاف».. مفيـش بيننـا أي شيء.. الاتفـاق ليس لـه وجـود.. وأنـت بخير وأنـا الحمـد لله بخـير. وقامـت ومـدت يدهـا تصافحـه وعـلى وجههـا آيـات النـصر:

– مع السلامة.

وظـل «نـوَّاف» كعادتـه حـين يشـتد بـه الغضـب يتنفـس مـن أنفـه بعـد أن يـزم شـفتيه، وكانـت في عينيـه لمعـة أدركتهـا؛ لذلـك نحَّـت يدهـا وتراجعـت خطـوة.. ثـم أخـرى.. وركـز عينيـه عـلى شـنطتها؛ خشـية أن تكـون قـد تحصنـت بـشيء تخبئـه.. ثـم قـال لهـا بلسـان كلـه مـرارة:

– تمام.

وظلـت تتقهقـر نحـو البـاب في حـرص، وأوحـت لـه بأنهـا تتحصـن بـشيء، وظـل هـو مترقبًـا غفلـة واحـدة تصـدر منهـا لينقـض عليهـا، كانت تفصلـه عنهـا مسـافة متريـن.. ولمـا اقتربـت مـن البـاب شـعر بأنـه سـينهار، واحتقـن وجهـه.. وكلـما اقتربـت أكثـر زاد توتـره.. كيف سـيواجه نفسـه لو هربـت هـذه المومـس؟ وصرخ في وجههـا بصـوت أحـدث رنينًـا مزعجًـا؛ فتوتـرت، وسـقطت عـلى الأرض؛ فانقـض عليهـا، وأول شيء تخلـص منه كان حقيبتهـا؛ حيـث قذفهـا بعيـدًا وهـو يـصرخ، وقـام يجرهـا بعيـدًا عـن البـاب وهـو يقـول: «مزقـتِ الورقـة؟ أنـا بمزقـك أنـتِ أيتهـا المومـس» ودارت المعركـة بينهـما في عنـف.. لطمهـا عـلى وجههـا بقبضـة مقفولـة؛ فسـقطت عـلى الأرض تعـاني ألمًـا شـديدًا، وحاولـت ركلـه لكنـه بخـبرة ظـل يتفـادى الضربـات بسـهولة، واسـتحوذت عليـه رغبـة في ضربهـا حتـى المـوت، وظـل يـردد: «مـن تكونـين أنـتِ؟ تتظاهريـن بالعفـة.. أنـتِ مومـس.. أليس كذلـك؟ تكلمـي» وصـاح بعنـف وهـي غارقـة في دمائهـا؛ حيـث تدفقـت الدمـاء مـن فمهـا بغـزارة: «مـن ضاجعـك في مؤخرتـك.. تكلمـي؟» وظلـت هـي تنظـر لـه وفي عينيهـا شيء ظـل يحـيره.. ونـزع جلبابـه عنـه فبـدا جسـده عاريًـا إلا مـن لبـاس حجـب عورتـه، ورفعهـا مـن فـوق الأرض وكانـت مستسـلمة تمامًـا، وألقـى بهـا عـلى الكنبـة، وبـدأ يجردهـا مـن ملابسـها.. انتفضـت كمصـارع التقـط أنفاسـه بعـد أن طُـرح أرضًـا، لكنهـا كانـت ضعيفـة، حاولـت دفعـه، لكنـه لطمهـا بقبضـة مقفولة

فترنحت وسقطت مرة أخرى، وهنا صرخت بقوة وقد تدفقت الدماء أكثر فأكثر، حتى إنها غطت ملابسها بالكامل، وهتفت في عنف: «يا شاذ.. يا ابن الشرموطة.. ابعد عني» وعاد يحملها مرة أخرى ويقذف بها فوق الكنبة، ولما وقعت مستسلمة ظل ينظر لها بعينين خائفتين، وكانت تصدر شخيرًا متواصلاً وتبصق الدماء التي بدت داكنة متجلطة، بدا الأمر لها وكأنه نهاية العالم؛ ثمة ذكريات بعيدة حضرت بسرعة وقفزت أمام عينيها كصور حية، وتجمدت ملامح وجهها؛ لا هي خائفة، ولا متألمة، ولا شيء على الإطلاق، كأنها تشاهد شيئًا استحوذ على عقلها وقلبها. واستطاعت أن تصل إلى منضدة زجاجية تحمل على سطحها فازة كريستال، استجمعت ما تبقى من قوتها والتقطتها بسرعة وقذفت بها النافذة، فاخترقتها بعد أن حطمت زجاجها وسقطت في الشارع على سيارة مستقرة أمام العمارة، وقد تحطم زجاج السيارة أيضًا، كانت هذه هي آخر محاولة منها، ولما نجحت، تضاعفت ثورته عليها وصاح: «يعني إيه؟ يعني إيه؟» هكذا صرخ في عنف، ودفعها فسقطت على المنضدة الزجاجية فتحطمت تمامًا، وانفجرت الدماء منها بغزارة، كبالونة ممتلئة بالماء وثُقبت.. ورنا شيئًا للصدى الذي أعقب سقوط الفازة.. وكان المارة قد اجتمعوا حول السيارة، وتطلعوا للنافذة، ولم تمر دقائق حتى جاء صوت يعرفه تمامًا يصرخ ويطرق الباب في عنف:

- افتح يا حيوان.. ليلتك سودة.. افتح يا كلب. هكذا كان الدكتور عبد الجواد منفعلاً.

ونظر لها نظرة طويلة، وكانت مطروحة على السجادة ووجهها ملطخ بالدماء، وكان صدرها يعلو ويهبط بسرعة.. وتجاهل الدكتور تمامًا، واقترب منها وحملها فوق الكنبة وحدثها:

- لماذا؟

فبصقت في وجهه، وكانت البصقة ممزوجة بالدماء الداكنة التي لطخت وجهه، وانفعل عليها ولطمها، كان يقاوم شعورًا بداخله؛ لا يعرف ما هذا الشعور بالضبط الذي داهمه فجأة كالموت.. وقال لها كأنه يريد أن يعرف شيئًا؛ شيئًا متعلقًا بحياته نفسها:

- لماذا؟

وظنها تحتضر، وهدأت عاصفته تمامًا.. ولما عاد الطرق على الباب خرج مسرعًا وفتحه، فوجد جمعًا من الناس يتقدمهم الدكتور عبد الجواد، وتساءل في عنف:

- ماذا تريدون؟ ماذا تريدون؟ لا تطرقوا الباب.. ارحلوا من هنا يا أولاد الكلاب.. أنا ببلغ السفارة. وانفضوا بسرعة، إلا الدكتور الذي ظل يتفحص وجهه والدماء التي تلطخه، ودخل «نوَّاف» وصفق الباب بعنف. وعاد فوجدها على الكنبة كما تركها، كانت ملامح وجهها ليست واضحة بعد أن غطتها الدماء، لكنها كانت تنعم باستسلام تام.. مسك يدها فتركتها له دون أي مقاومة، مسح وجهها بجلبابه الملقى على الكنبة، أيضًا لم يجد منها أي مقاومة، واستحوذت عليه رغبة في محاولة أخيرة لمضاجعتها، وبدأ يجردها من ملابسها.. ولما بدا أمامه ثديها المدور الملطخ بالدماء، بدأ يرتعش كمراهق يمر بلحظة أولى ولا يهمه شيء إلا أن يبلغ شهوته، فقالت بنبرة لها إيقاع بطيء:

- ابعد عني.

أثارته هذه العبارة التي يحبها، فبدأ يمد يده نحو المؤخرة، فقالت بنفس الإيقاع:

- ابعد عني.. مش هيحصل.

ثـم هـزت رأسـها في عنـف كأنهـا تنفـض شـيئًا اسـتقر عليـه، وتقلصـت عضـلات وجههـا في ألم شـديد، كأن هنـاك شـيئًا يُنتـزع منهـا وهـي ليسـت قـادرة عـلى الـصراخ، وأغمضـت عينيهـا للحظـات، ثـم حملقـت فيـه لثـوانٍ، ثـم شـخرت شـخيرًا متواصـلاً، وأسـندت رأسـها عـلى حافـة الكنبـة، ورنـت إلى عـالم آخـر.

***

كانـت أشـجار عيـد الميـلاد الضخمـة مغطـاة بالأضـواء والمصابيـح والزينـة، وكان الحـي الإنجليـزي كعـادة كل عـام يسـتقبل هـذا العيـد بمئـات الأشـجار التـي تسـتقر في الميادين الكبـيرة، وكانـت الفيـلات تُطـوق أبوابهـا بالزهـور. كان «لارس هيـو» واقفًـا في ليلـة عيـد الميـلاد يسـتقبل الـرواد بنفسـه، كان يبـدو في البدلـة الاسـموكن رائعًـا، وكان يضـع دبوسًـا أرجوانيًّـا في رابطـة العنـق، وكان الأسـتاذ زاهـر يرتـدي بدلـة سـموكن أيضًـا، وكان يبـدو فيهـا أنيقًـا كالعـادة، ولكـن بـدا جسـده ضامـرًا؛ لقـد اشـتد عليـه المـرض في الأيـام الأخـيرة، في هـذا العـام ناهـز الخامسـة والسـبعين عامًـا.. واقـترب منـه «لارس» وتسـاءل:

- هل أنت بخير؟

- نعم.

وتنهد «لارس» في قلق وقال:

- أقلـق جـدًّا مـن زيـارة هـذا الرجـل.. أنـا لا أحـب السياسـة.. سـاعدني في استقباله.

- أنا بجوارك.

– أظـن أن رجالـه جـاءوا وأتمـوا عمليـة التأمـين.. هـؤلاء يخافـون مـن أنفســهم.

– لا تهتـم بـه.. سـيأتي ويتجـرع كأسًـا، ويلتقـي بالموظفـين الكسـالى، ويتحدثـون في السياسـة، ثـم يرحـل.

– نعم.. نعم .. ها هو جاء.

***

تمت